دكتور علي علي صبح

عبقرية ابن الرومي

شاعر العصر العباسي

١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م


مطبعة الأمانة
٣ شارع جزيرة بدران شبرا - مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، الذى خلق الانسان فى أحسن تقويم ، خلق الانسان علمه البيان ، والصلاة والسلام على أفصح الخلق أجمعين ، الذى أرسله ربه بلسان عربى مبين .

وبعــــد

فقد نوهت الدراسات النقدية فى الأدب العربى قديما وحديثا بشعر ابن الرومى ، والإبداع الفنى فيه ، فهو الشاعر العبقرى ، والمصور البارع ، والأديب المخلد ، الذى عاش بإبداعه الفنى ، لأن الأدب الخالد ، يدور مع الزمن ، وهو ينبض بالحيوية والقوة ، لتتجاوب فيه أصداء الحياة .

والتصوير الأدبى من أبرز الخصائص فى شعر ابن الرومى ، وبهذا استحق لقب الشاعر العبقرى ، والمصور البارع ، فالصورة الشعرية تهز العاطفة وتحرك المشاعر ، وتسمو بالأحاسيس ، لتحلق بالنفس فى سماء الفن ، وتخشع فى معابد الجمال ، وتتجول فى خمائل الطبيعة الساحرة ، وتداعب بأناملها أوتاراً من تحت الجلال ، وبهذا تقف النفس على أسرار الحيوية فى الصورة الأدبية ، ومكاتم الجمال فيها ، وهى فى ذاتها أسرار ومكاتم فى لغة الإنسان ، الذى مازه الله بها عن سائر خلقه ليفرغ فيها من جمال الكون ، ويصب خلالها من أسرار الحياة .

لذلك كان ابن الرومى من أعلام الشعر الخالدين ، ومن عباقرة الأدب الباقين ، فقد عاش فى ظل الحضارة العربية الإسلامية العباسية ، حيث نهل من نبعها الثرار الصافى ، وارتوى من روافدها الغزيرة المتدفقة ، التى تنوعت فى هذا العصر ، إلى سياسية ، واجتماعية ، وفكرية وعلمية ، وأدبية ، ودينية ، وحزبية ، ومذهبية ، وإلى عوامل مختلفة ترجع إلى ذات ابن الرومى ، منها الجنس والنشأة ، والإنطواء ، والطيرة ، والسخر ، وسواها ،

مما كان له الأثر الكبير فى عبقريته الشعرية التى لا ترجع إلى يومانيته كما ذهب العقاد والمازنى وسواهما ، وإنما ترجع إلى أسس فى إبداعه الفنى ، منها كرهه للحياة ، وهروبه إلى الطبيعة ، وإحساسه المرهف ، ودقته ، وحاسته الفنية ، وذوقه المستقيم .

ولكى تتضح معالم عبقريته الشعرية ، عرضت دراسة جديدة من نوعها فى موازنات أدبية ونقدية كثيرة ، بين شعر ابن الرومى وبين سواه لكثير من الشعراء القدامى والمحدثين ، لينفرد هو فى النهاية بالسبق والقوة والإبداع فى شعر بارع ، وتصوير دقيق ، فهو بحق شاعر العصر العباسى ، ورائد التصوير فى الأدب العربى .

علي علي صبح

الفصل الأول

أصداء العصر وحياة الشاعر
فى الصورة الأدبية

عاش ابن الرومى فى القرن الثالث الهجرى (٢٢١ — ٢٨٣ ﻫ) حين ازدهر الحكم العباسى ، وبلغ أقصى درجات التقدم والنهضة ، فى شتى ألوان النشاط الإنسانى ، من تقدم فكرى وثقافى وسياسى ، وصراع دينى ، ونهضة فى مختلف ألوان الحضارة ، وما يتبع ذلك من فوارق بين الطبقات ، وإقطاع وفتن واضطرابات ، وغير ذلك من الظواهر التى تظهر عادة بعد الاكتمال والنضوج فى أية أمة من الأمم ، وبها يتمكن الفراغ منها ، الذى يكون مدعاة لعدة أمور أهمها :

(١) يكون الفراغ مدعاة للتقدم الفكرى ، وتوسيع مدارك العقل ، وتعميق الذهن .

(٢) ويسمح الفراغ بتدبير الفتن ، وبعث القلاقل ، التى تمزق أعصاب الأمة ، ويشيع فيها الإضطراب والفوضى .

(٣) ويعين الفراغ الأحزاب المختلفة على سرعة التغيير فى أجهزة الحكم والإدارة ، ليظهر كل حزب فى الأمة بقدرته التى يستحق بها الحكم والسيطرة .

(٤) وغالبا ما يكون الفراغ مدعاة للإبتكار والخلق ، وظهور شخصية الأمة ، بعد أن تفاعلت فيها ألوان النشاط الإنسانى من أمم مختلفة ، وامتزجت بعقلها وفكرها ، وسرت فى عواطفها ومشاعرها ، وهذا ما يتصل بموضوعنا هنا .

عاش الشاعر فى ظلال هذه الدولة التى تموج بالخير والشر ، ويتصارع فيها الرقى والتخلف ، ويتعاقب عليها المد والجزر والقوة والضعف ، وهى تستمد فى ذلك روحها وحياتها ، من روافد متفاوتة ومختلفة ، فى شتى ألوان الحضارات العربية والفارسية واليونانية والرومية .

وابن الرومى نبت فى هذه الدولة ، وهى بيئة تكوينه وتهذيبه ولو عن طريق غير مباشر . وفوق هذا فهو يتعامل مع أهلها ويستخدم اللغة السائرة فيهم ، وينبع فكره من ذلك التيار القومى المتدفق فى الأمة ، وليس هو غريبا عن مجتمعه ، وإن كانت له شخصيته المستقلة ، وخصائصه الفردية ، كما أن مجتمعه ليس فى معزل عنه ، بل هو محيطه الذى يتقلب فى أعماقه ، لتكون أعماله الفنية مزيجا يختلف فى الحجم والدرجة والقوة من شخصيته المتميزة وصبغة المجتمع ، ويصير العمل الفنى عنده بعامة ، والصورة الأدبية بخاصة مجالا للتأثير والتأثر المتبادل بين ابن الرومى ، وبين عصره وبيئته والمجتمع من حوله .

ولست أقول بأن عاطفة الشاعر وعقله هما معاً مرآة تعكس بصدق ودقة الواقع الاجتماعى

كله ، وإلا لدارت الأمة حول نفسها وظلت كما هى جامدة حتى تموت تحت قدميها ، وفى ذلك إهمال لتأثير البشر ، الذين هم عصب الحياة يدفعونها بقوة ، ولما كان للعبقريات البشرية وزن فى الحياة ، وهذا ما لا يتصوره العقل السليم .

ولا أقول أيضاً إن العمل الفنى تبدعه العبقرية والشخصية المفردة وحدهما ، من غير أن يكون للمجتمع تأثير فيها ، وإلا لأهمل أثر النشاط الإنسانى فى التقدم والحضارة . والطفل لا يولد عبقريا ، ولكن الحياة والنشاط الإنسانى من يوم أن خلق الله الأرض ومن عليها ، هى التى فجرت عبقريته قال تعالى :

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون[1] ﴾ .

وابن الرومى فى ذلك حينما يتأثر بالمجتمع بفكر فى الواقع الذى يعيش فيه ويمتزج بفكره وعاطفته ليستخلص من ذلك فكراً واتجاها خاصا ، يهدم به المجتمع أو يبنيه ، أو يستنبط قيما إنسانية يسمو بها الواقع ، وأحيانا تنصهر هذه القيم — التى وصل إليها واستخلصها — فى نفسه مرة ومرة فيندفع المجتمع بها قدما ، نحو الغاية المنشودة وقد اتخذت لها شكلا مبتكرا فى قوة وحيوية ، وهكذا لتبلغ الحياة ما بلغت من رقى وحضارة .

وكذلك ابن الرومى فى صورته الأدبية وأعماله الفنية التى تفاعلت مع مجتمعه الزاخر بألوان الحياة والنشاط الإنسانى .

وهذا يدعونا إلى معرفة العوامل ، التى أثرت فيها ، والبواعث التى جعلت من ابن الرومى الشاعر المصور الذى يهمنا منها قبل أن نذكرها هو أثرها الذى يظهر فى الصورة الشعرية عنده لأن طبيعة دراستى هذه تقلل العناية بالنواحى التاريخية فى الأدب إلا بقدر ما يوضح العمل الفنى ، وهى بعد مهمة شاقة تجعل العمل الذى نصل إليه بعد لأى ، ذا قيمة أدبية ، وهذه البواعث كثيرة أهمها :

(١)

الصراع السياسى :

شهد ابن الرومى فى القرن الثالث الهجرى الكثير من الخلفاء العباسيين ، ولم يطمئن أحدهم كثيراً على كرسى الحكم بل مضوا جميعاً فى تتابع إلى نهايتهم وهم كما ذكرهم التاريخ — إذا اعتبرنا المعاصرة تكون فى الإدراك والرؤيا — تسعة وهم : المعتصم ، والواثق ، والمتوكل ،

---

(١) سورة النحل آية ٧٨ .

والمنتصر، والمستعين ، والمعتز، والمهتدى ، والمعتمد، والمعتضد . وما من خليفة إلا قدأثيرت حوله فتنة أوعزلأوخلع — كما حدث للمستعين والمعتز والمهتدى ،أو قتل على كرسى الحكم كالمتوكل .

وتتابع القتل والعزل ، وتعاقب الفتنة بعد الفتنة ، والكيد تلو الكيد للخلفاء والأمراء والوزراء ، يدل على عدم استقرار الدولة ، وسريان الاضطراب ، وتفشى الفوضى والظلم . ويرجع هذا الإضطراب فى الدولة إلى اتساع رقعتها ، وتعدد أجناسها، وضعف الخلفاء فيها ، وانصرافهم إلى اللهو والبذخ والنعيم .

ويرجع هذا الاضطراب أيضا ، إلى تمكن الأعاجم من أمور الدولة ، والتفاوت الطبقى فى الأرزاق ، واحتكار المناصب الكبرى ، مع ثرائهم الفاحش ، والمغالاة فى كل ذلك ودالة الفرس على الخلفاء ، لأنهم كانوا يشعرون فى كل وقت ، أنهم هم الذين انتصروا للعباسيين وأيدوهم ومكنوهم من الحكم وقضوا على دولة بنى أمية .

يقول ابن خلدون : « كان بنو أمية يستظهرون فى حروبهم وولاية أعمالهم برجال العرب ، مثل عمر بن سعد وعبد الله بن زياد ، والحجاج بن يوسف ، والمهلب بن أبى صفرة وخالد القسرى ، وابن هبيرة ، وبلال بن أبى بردة ، ونصر بن سيار وأمثالهم ، وكذلك صدر من دولة بنى العباس كان الإستظهار فيها أيضا برجالات العرب . فلما سارت الدولة للإنفراد بالمجد وكبح جماح العرب عند التطاول للولايات صارت الوزارة للعجم والصنائع من البرامكة وبنى سهل وبنى طاهر وسواهم[1] .

وفى هذا العصر المشحون بالقلاقل والفتن وضعف السياسة، وشيوع الإرهاب والخديعة ، عاش ابن الرومى وسط هذا الصراع السياسى ، وقد تلقحت خواطره بأحواله وتقلباته من تمزق وفتن ، وجور وعدل وجهالة وسوء ظن ، وخداع واقتياد هوى، وانسياق لرغبة حسب الرغائب والأطماع . وامتلأت نفس الشاعر بالحب لبعضهم ، والكره للبعض الآخر ،وأخذ يصور حبه لمن أحب ، وينفث سمومه لمن بغض وكره ، وذلك فى تصوير أدبى رائع فحينما يصور حبه يقول فى مدح عبيد الله بن عبد الله بن طاهر حاكم بغداد من قبل الخليفة العباسى المقيم فى عاصمة الحكم الجديدة « سامرا » .

ولو شئت ساجلت البحور غزارة   وبادهت قرض الشعر جنة عبقرا[2]

(١) مقدمة ابن خلدون ١٨٣ مطبعة بيروت
(٢) الديوان المخطوط ورقة ٣٤١ ج ٢

ويعترف بفضله عليه فيقول :

تعبدنى بالعرف حتى استذلنى   على أن فى نفسى على غيره طغوى[١]

ويقول :

رب نعمى له على ونعمى   رأياد له لدى جسام[٢]

وحينما يكره يتوجه إلى الخليفة المعتز المخلوع ، وفى نفس الوقت يمدح الأتراك الذين خلعوا المعتز وعينوا المهتدى مكانه يصور ذلك فى قصيدة يتزاحم فيها التصوير البارع منها :

دع الخلافة يا معتز عن كثب   فليس يكسوك منها الله ما سلبا
أترتجى لبسها من بعد خلعكها   هيهات هيهات فإن الضرع ماحلبا
تا لله ما كان يرضاك المليك لها   قبل احتقابك ما أصبحت محتقبا
حتى أزالك عنها ثم أبدلها   كفؤاً رضيا لذات الله منتخبا
فكيف يرضاك بعد الموبقات لها   لا كيف لا كيف إلا المين والكذبا
هذى خراسان قد جاشت خلائبها   ترجى لنصر أخيها عارضا لجبا
كالبحر ألقى عليه الليل كلكله   وزعزعت جانبيه الريح فاضطربا
خيــل عليهن آساد مدربة   تاخموا الأسل الخطى لا القصبا
مستلئمون حصينات مقاتلهم   مكمون حبيك البيض واليلبا
والمصعبيون قوم من شمائلهم   قتل الملوك إذا ما قتلهم وجبا
هؤلاء الألى ينصرون نصرته   ولا يبالون فيه عتب من عتبا
الأوفياء إذا ما معشر نكثوا   والجاعلون الرضا لله والغضبا
قد جرب الناس قبل اليوم أنهم   معودون إذا ما حاربوا الغلبا[٣]

وبعد أن أغرق الشاعر الخليفة المهتدى بالمدح وجيش الأتراك بالثناء ، وهم الذين عزلوا المعتز . عاد ابن الرومى ليهجوه مرة ثانية وكأن عدوى العصر فى الحكم وسوء الظن فى السياسة ، سرت فى تصوير الشاعر ، فنلمح فى القصيدة الكره والحب معاً ، الكره للمعتز المخلوع ، والحب للمهتدى المرفوع ، فكأنه يضع بيده هنا ، بينما يرفع بالأخرى هناك ، هو كذلك ابن الرومى يمثل طبيعة الحكم فى السياسة فيما يقول :

(١) الديوان المخطوط ورقة ٤٠١ جـ ٤
(٢) الديوان المخطوط ٣٢٩ جـ ٤
(٣) الديوان المخطوط ورقة ١١٨ جـ ١

يا من جنى لأبيه القتل ثم غدا ‏ حربا لثائره صدقت من ثلبا
يا أولياء عهود الشر هولكم ‏ من غالب الله فى سلطانه غلبا
لقد جزيتم أباكم حين كرمكم ‏ بالعهد أسوأ ما يجزى البنون أبا
أضحى إمام الهدى أولى به صلة ‏ منكم وإن كنتم أولى به نسبا
هو الذى سل سيف الثأر دونكم ‏ لا يأتلى للذى ضيعتم طلبا
أقام فى الناس عصراً لا يخيل لها ‏ ولا يرشح من أسبابها سببا
وكان لله غيب فيه يحجبه ‏ عنا وعنه مع الغيب الذى حجبا
حراسة من عدو أن يكيد له ‏ كيداً يحرق فى ناره الحطبا
بل عصمة من ولى الصالحات له ‏ ورأس من جمحات الملك ماصعبا
تبلجت غرة غراء واضحة ‏ مثل الشهاب إذا ما ضوءه ثقبا

وعاطفة ابن الرومى فى صلته بالممدوحين كالزئبق يتأثر بأدنى درجة للحرارة والبرودة فاذا مدح صور فضائل الممدوح وأثنى عليه، وألح فى العطاء لأنه يغريه النوال كما يغرى الأتراك حب الخلع والتولية ، فإذا لم ينل ما يريد انقلب فى سرعة هاجيا ساخرا كسرعة الاتراك فى عزل الخليفة ، وتولية غيره فى لمح البصر ، هكذا كان العمل الفنى عند الشاعر سريع التقلب كثير التلون جمع فى الصورة الأدبية الواحدة كل عناصر الصورة من لون وحركة وصوت وطعم ورائحة وشكل وحجم ، حشد وافر كما يفيض عصره بكل شىء ثم تلون وتقلب كما يتقلب على الحكم أشكال وألوان .

هكذا وقف ابن الرومى مع ابن بلبل وزير المعتمد ، الذى تقلد الأمر واضطلع بمهمة صعبة استقرت فيها الخلافة واطمأن الحكم .

يقول :

ليهنأ الملك إن أصلحت فاسده ‏ وإن حرست من الإفساد ماصلحا
رددته جعفرى الرأى بعد هوى ‏ فى الواثقية أو لم تثنه جمحا
رب رأى صواب قد فتحت لهم ‏ لولاك يافاتح الأبواب ماانفتحا(١)

ويقول :

ملأت يدى جدوى وقلبى مودة ‏ تدفقتا فى الجندين وفى الصدر
أنلت نوالا لو سواك أناله ‏ لآيسنى من عودة آخر الدهر

(١) الديوان المخطوط ورقة ١٤٣ جـ ١

لأنك إن أعطيت الجزيل وإنما يرجى المرجى عودة النائل النزر(١)

ثم انقلب عليه كانقلاب الثوار على الخليفة العباسى قائلا :

لى لسان ما زال يطريك فى النثر وفى النظم غير ما مستريح
وارتكاب الديون إياى فى خلك يهجوك باللسان الفصيح(٢)

ويقول :

كأنى به فى محبس وثيابه من العمر والنعماء والعز أسمال
غلائله الأمساح يأكلن جلده وحليته أقياد سخط وأغلال

إلى قوله :

أضاع وخان الفىء واستضعف الورى وأصبح يغتال الملوك ويحتال(٣)

ويصور الشاعر فتنة الزنج بالبصرة تلك الفتنة المروعة ، حينما انزاحوا على هذا البلد الآمن كالسيل المدمر ، فى قسوة وبربرية ووحشية(٤) يقول :

ذاد عن مقلتى لذيذ المنام شغلها عنه بالدموع السجام
أى نوم من بعد ما حل بالبصرة ما حل من هنات عظام
أى نوم من بعد ما انتهك الزنـج جهارا محارم الإسلام
بينما أهلها بأحسن حال إذ رماهم عبيدهم باصطلام
دخلوها كأنهم قطع الليل إذا راح مدلهم الظلام
كم ضنين بنفسه رام منجى فتلقوا جبينه بالحسام
كم أخ قد رأى أخاه صريعا ترب الخد بين صرعى كرام
كم أب قد رأى عزيز بنيه وهو يعلى بصارم صمصام
كم رضيع هناك قد فطموه بشبا السيف قبل حين الفطام
كم فتاة بخاتم الله بكر فضحوها جهرا بغير اكتتام
كم فتاة مصونة قد سبوها بارزاً وجهها بغير لثام
صبحوهم فكابد القوم منهم طول الليل كأنه ألف عام

---

(١) المخطوط الجزء الثانى (٢) المخطوط ١٥١ ج ١

(٣) المخطوطة ج ٤

(٤) مقدمة ابن خلدون ج ٤ ص ١٨ بيروت . الفخرى ٢٢٧ . الطبرى فى أخبار سنة ٢٥٥ و ٢٦٧ .

عرجا صاحبي بالبصرة الزهراء تعريج مدنف ذى سقام
فاسألاها ولا جواب لديها لسؤال ومن لها بالكلام
أين ضوضاء ذلك الخلق فيها أين أسواقها ذات الزحام
أين فلك فيها وفلك إليها منشئات فى البحر كالأعلام
أين تلك القصور والدور فيها أين ذاك البنيان ذو الإحكام
بدلت تلك القصور تلالا من رماد ومن تراب ركام(٣)

« انتهك الزنج محارم الإسلام » فتنة اندلعت فكانت الحركة والهرج فى (رماهم ودخلوها وما بعد الاستفهام المكرور من أفعال تدل على الحركة) ، وتموج بالألوان الدامية الصاخبة فى (قطع من الليل وظلام وترب الخد وفتاة بكر والزهراء ورماد وركام) مع الأنين الحزين وصوت المستغيث فى (اصطلام وصارم صمصام وضوضاء وأسواق وزحام) ، وحجم المدينة قد امتلأ بالقتل والسفك والاجرام والدماء والظلم ، وسادها فتور وصمت ، وسكون ورهبة ، وقتام وخوف .

وليس ما ذكر إلا للإستشهاد على قدرة الصورة الشعرية شكلا ومضمونا على نقل الواقع ، كما هو فى الحياة . ومدينة البصرة ، التى حل بها ظلام الفتنة ، والصراع الدامى حول كراسى الحكم فى قرن اكتظ بالسعود والنحوس ، والارتفاع والانخفاض اشتملت الصورة الشعرية عند ابن الرومى على هذا ، لتكون كالتاريخ فى بيان أحوال السياسة ، ولكن فى تصوير أدبى خالد ، مشحون بالعواطف المتدفقة ، والإبداع الفنى الرائع لبقى مع الزمن يحكى على الأسماع ألوان الصراع والفتن فى القرن الثالث الهجرى العباسى .

(٢)

التناقضات فى المجتمع :

ظل المجتمع الإسلامى فى حكم بنى أمية يملك زمامه العرب ، ولم تتمكن الاجناس غير العربية منه ، إلا فى خلال الخلافة العباسية ، لأن هذه الدولة ما قامت إلا على أكتاف الفرس ، واحتفظ بنو العباس لهم بالجميل ، فقربوهم إليهم ، وخصوهم بمهام الأمور ، مع الحذر منهم بين حين وآخر ، وأبعدوا العرب عن حكومتهم ، فقد دالت دولتهم فى حكم بنى أمية ، ولذا لم يأمنوهم على أمورهم .

---

(٣) الديوان المخطوط ٢٣٠ وما بعدها ج ٤

وعلى ذلك زاد الإقبال على مصاهرة الفرس ، واشتهر امتزاج العرب بالعناصر الأجنبية ، وتوسعوا فى اقتناء الحسان من الجوارى الأعجميات .

لهذا نشأت قومية عربية جديدة غير خالصة العروبة واللسان العربى ، وإن تعربت فعلا ، وشجع على انتشار هذه القومية الجديدة الخلفاء العباسيون أنفسهم ، حتى كان أكثر أبنائهم الذين ورثوا الحكم من بعدهم أبناء لأمهات غير عربيات مثل المنصور والرشيد والمأمون والمنتصر والمستعين والمعتز وغيرهم ، وقلد الخلفاء غيرهم من الطبقات الأخرى فى الدولة العباسية [١] .

وأصبحت طبقات المجتمع التى لها وزن وتأثير فى العصر العباسى ثلاث طبقات :

(١) العرب ومنهم الخلفاء والأمراء والعمال .

(٢) الفرس ومنهم الوزراء والكتاب والعلماء .

(٣) الأتراك والسلاجقة ومنهم الجيش والقواد والجنود .

واستبقت هذه الطبقات فى التفرد بالغنى والثراء ، وتنافست بالجاه والسلطان ، والحظوة بالمكانة المرموقة عند الخليفة وفى المجتمع .

فى هذا الصراع الاجتماعى العنيف نحو الثراء والسلطة ، أخذت كل طبقة ، تبدى ما لديها من مخزون ومتوارث عن آبائهم وأجدادهم ، فى مظاهر الترف والبذخ والطرب والغناء ، والكسروية والقيصرية ، وتفننوا فى جمع الأموال ، سواء عن طريق التجارة والزراعة ، أم عن طريق المصادرات والجبايات ، أم عن طريق الرشوة والسلب .

بلغ الخراج أيام المأمون أربعمائة مليون درهم[٢] ، وصادر[٣] المتوكل أموال وضياع الفضل بن مروان ثم رضى عنه[٤] .

لذلك كثر البذخ والإسراف والسخاء عند الخلفاء والأمراء للشعراء والعلماء وفى مجالس الطرب والغناء والحفلات ، فأعطى الواثق لمغنيه إسحاق مائة ألف درهم[٥] ، وأنفق خمسين ألف درهم على القواد يوم زفاف « بوران » إلى الخليفة المأمون[٦] . ويذكر ابن خلكان

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامى جورجى زيدان ج ٤ ص ١٤٣

(٢) مقدمة ابن خلدون ١٧٩ — ١٨١

(٣) المصادرة هو المال الذى يستولى عليه السلطان من الوزير أو يستولى عليه الوزير من العمال أو العامل من الرعية .

(٤) تاريخ اليعقوبى .

(٥) المستطرف ج ٢ ص ١٨٥

(٦) تاريخ الطبرى ج ٣

أن أم جعفر البرمكي ، كانت تمشي ويتبعها أربعمائة وصيفة ، وكان مجموع نفقات المعتضد فى السنة من بيت المال مليون دينار ونصف مليون ، على اعتبار سبعة آلاف دينار كل يوم[١] .

اهتمت الطبقات المختلفة السابقة نتيجة لتزاحم الأموال وكثرتها باقتناء الجوارى والغلمان ، فقد اقتنى المتوكل أربعة آلاف جارية[٢] ، وقد بلغ المجون ببعضهم أن استخدم الغلمان بدل الجوارى نشاع الغزل بالمذكر ، كما عند ابن الرومى حين يصور ذلك فيقول :

استغفر الله من تركى علانية ذنبا هممت به فى شادن خنث

ظبى دعتنى عينـــاه ومنطقه بنية صدقت عن ظاهر عبث[٣]

واهتموا أيضاً بمجالس الشرب والغناء وكان الواثق يشرب هو وندماؤه فى مجلس الغناء حتى يرقدوا جميعاً فى أماكن الشرب إلى الصباح[٤] .

وانغمسوا جميعاً فى الترف والنعيم ، ومجالس اللهو والغناء والشرب ، حتى أصبح لكل لون من هذا عشاقه وعلماؤه ، فقد طلب الخليفة المعتمد من نديم له أن يصف له الرقص ويبين أنواعه فقال النديم : « يا أمير المؤمنين أهل الأقاليم والبلدان مختلفون فى رقصهم من أهل خراسان وغيرهم ، فجملة الإيقاع فى الرقص ثمانية أجناس : الخفيف — والهزج — والرمل — وخفيف الرمل — وثقيل الثانى — وخفيفه — وخفيف الثقيل الأول — وثقيله — والرقاص يحتاج إلى أشياء فى طباعه ، وأشياء فى خلقته ، وأشياء فى عمله :

فأما ما يحتاج إليه فى طباعه ، فخفة الروح ، وحسن الطبع على الإيقاع ، وأن يكون طالبه مرحاً إلى التدبير فى رقصه ، والتصرف فيه . وأما ما يحتاج إليه فى خلقته ، فطول العنق والسوالف ، وحسن الدل والشمائل ، والتمايل فى الأعطاف ودقة الخصر ، وحسن أقسام الخلق ... وخارج النفس والإراحة ، والصبر على طول الغاية ، ولطافة الأقدام . ولين المفاصل ، وسرعة الإنفتال فى الدوران ، ولين الأعطاف . وأما ما يحتاج إليه فى عمله ، فكثرة التصرف فى ألوان الرقص ، وأحكام كل جزء من حدوده وحسن الاستدارة ، وثبات القدمين على مدارهما ، واستواء ما تعمل يمنى الرجل ويسراها . حتى يكون فى ذلك واحدا . ولوضع القدم ورفعها واجبان أحدهما أن يوافق بذلك الإيقاع والآخر أن يتثبط به ، فأكثر

---

(١) تاريخ التمدن الاسلامى جورج زيدان ج ٢ من ٦٥ — ٧٢

(٢) مروج الذهب: المسعودى ٧ : ٢٧٦ .

(٣) الديوان المخطوط ورقة ١٢٥ ج ١

(٤) المستطرف : الابشيهى ج ٢ ص ١٨٧

ما يكون هو فيه أمكن وأحسن ، فليكن مايوافق الإيقاع ، فهو من الحب والحسن سواء ، وأما ما يتثبط به فأ كثر ما يكون هوفيه أمكن وأحسن ، فليكن مايوافق الإيقاع مترافعاً ، وما يثبط به متقاولا[١] .

وبلغ بهم الإسراف فى الملبس حتى بلغت ملابس الموفق ستة آلاف ثوب من نوع واحد ، وبلغت عند المكتفى عشرات الآلاف[٢] كما بلغوا من الإسراف فى المآكل والمشارب حدا نتندر به فى أيامنا هذه .

وهذا كله يدل على أن هذه الفئات بلغت من الثراء ، مما جعلها تتفنن فى مظاهر الترف واللهو ، فلا يستقر لون منه ، حتى يحل مكانه جديد آخر وهكذا .

ويقدر ما بلغت هذه الطبقات من الإستغراق فى ملذات الحياة وعبثها ، بقدر ماحرم الشعب ، وهوى فى أعماق الضعف والهزال والتمزق ، كما سنرى عند ابن الرومى حتى لكأن الثراء والنعيم واللهو ، إنما هو مقصور على تلك الطبقات وما اتصل بها .

أما عامة الشعب فقد حرموا من هذا كله فطووا بطونهم على الجوع ، وعريت أجسادهم عن الكساء ، وقد ألح ابن الرومى على الكساء ، وكان الشأن فيه على عادة الشعراء فى كل زمان أن يكون مقربا من الطبقات العليا فقال :

جعلت فداك لم أسألك ذاك الثوب للكفن
سألتك لألبسه وروحى بعد فى البدن[٣]

ويزداد فى الإلحاح ليستميل قلب الوزير القاسم بن عبيد الله :

طلبت كساء منك إذ أنت عامل على قرية النعمان تعطى الرغائبا

ويقول مصورا فقره وبؤسه :

ثوبى الرث والثياب طراء وطعامى برغمى المجشوب
وفحلى عارية وجدارا ت بيوتى كلها منقوب
ومقيلى فى الصيف سخن بلا خيش فعظمى يكاد منه يذوب[٤]

وأنه لتناقض عجيب ، فى أمة أوقفت أموالها المكدسة ، وثراءها العريض على ملذات فئة مترفة فى ملاهيها ومجونها ، بينما السواد لا يبتغون غير لقمة يسدون بها رمقهم ، وحينا

---

(١) مروج الذهب : المسعودى .
(٢) الفخرى ٢٨٨ طبعة ١٣١٧ هـ .
(٣) الديوان المخطوط ورقة ٣٨٠ ج ٤ .
(٤) الديوان المخطوط ورقة ١٠٩ ج ١

لا يجدونهما ، وأن وجدوها أحيانا فبقدر . أما عند هؤلاء ، فبغير حساب ، ويكشف لنا ابن الرومى عن هذه الحياة فى نفسه فيقول : —

لى صديق إذا رأى لى طعاما ... لم يكد أن يجود لى بشراب
فإذا ما رآهما لى جميعا ... كفانى لديه لبس الثياب
فتى ما رأى الثلاثة عندى ... فهى حسبى لديه من آراب
لا يرانى أهلا لملك الظهارى ... ولا موضع العطايا الرغاب(١)

هكذا لا يكاد مثل ابن الرومى يجد لقمة ، ومن حول الخليفة من الجلساء والندامى يستخدمون كل الوسائل المغرية لفتح الشهية ، حتى يطيب لهم المجلس ، وتحـلو المنادمة ، ولا يخلو مجلس عندهم من مطايب الطعام وألوان الطرب ، والاستمتاع بصنوف الملذات والشهوات ، مع إتباع آداب الكسروية والقيصرية فى المنادمة والطعام والشراب واختيار الأوقات المناسبة للطرب والسكر .

قال يزيد بن محمد المهابى « فلما جالست المتوكل رأيت عليا بن يحى المنجم قد دخل على المتوكل فوقف بين يديه وقال يا مولاى ، أما ترى إقبال هذا اليوم وحسنه ، وأطباق الغيم على شمسه ، وخضرة هذا البستان ورونقه ، وهو يوم تعظمه الفرس وتشرب فيه ، ووافق ذلك يا سيدى أن القمر مع الزهرة ، فهو يوم شرب وسرور ، فهش إلى الطعام ، وأمر بإحضاره فالتفت على إلى صاحب الشراب فقال له : ينبغى أن يختار لأمير المؤمنين شراب ريحانى ، ويزداد فى مزاجه أن يدخل فى الشراب فيهنئه الله إياه إن شاء الله ، قال : فلما أكل المتوكل وأكلنا ، نهضنا فغسلنا أيدينا وعدنا إلى مجالسنا وغنى المغنون فجعل على يقول هذا الصوت لفلان وجعل يغنى معهم غناء حسنا إلى أن قرب الزوال ، فقال المتوكل أين نحن من وقت الصلاة فأخرج على اصطرلابا من فضة فى خفة فقاس الشمس وأخبر عن الإرتفاع وعن الطالع وعن الوقت ، فلم يزل يعظم فى عينى حتى كان كالجبل وصارت مقابح وجهه محاسن ، فقلت : لأمر ما قدمت فيك ألف خصلة ، طبيب ومضحك ، وأديب وجليس وحذق طباخ ، وتصرف مغن ، وفكر منجم ، وفطنة شاعر ... ما تركت شيئاً مما يحتاج الملوك إلا ملكته »(٢) .

وذكر ابن الرومى مصورا التناقض فى هذا المجتمع فى مطولة ، يبين فيها أن الأوضاع

(١) الديوان المخطوط ورقة ٩٢ ج ١

(٢) معجم الأدباء ياقوت الحموى — ج ١٥ ص ١٦٠ : ١٦٣ راجعته وزارة المعارف العمومية

فى هذا العصر قد انعكست ، وموازين العقل والمنطق قد فسدت ، وأصبح الجدير بالخير من لا يستحقه ، أما من يستحق الخير فقد صار يتضوع جوعا ، ويقع فريسة لقوم أذلاء قد أفاض عليهم الدهر ، بألوان النعيم والثراء ، والطرب والغناء ، وسنقتصر على مختارات منها تدل على المراد من التناقض الإجتماعى فى عصر ابن الرومى ، وقد مر ذكر بعض الابيات قبل ذلك ، يقول الشاعر :

طار قوم بخفة الوزن حتى لحقوا خفة بقاب العقاب
ورسا الراجحون من جلة النا س رسو الجبال ذات الهضاب
ولما ذاك للئام بفخر لا ، ولا ذاك للكرام بعاب
هكذا الصخر راجح الوزن راس وكذا الذر شائل الوزن هاب
فليطر معشر ويعلو فإنى لا أراهم إلا بأسفل قاب
جيف أنتنت فأضحت على اللجـــة والدر تحتها فى حجاب
وغثاء علا عبابا من اليم وغاص المرجان تحت العباب
ورجال تغلبوا بزمان أنا فيه وفيهم ذو اغتراب

ويقول .

أمن العدل أن تعد كثيراً لى ما تستقـل لـلأوقاب
أترانى دون الأولى بلغوا الآمال من شرطة ومن كتاب
وتجار مثل البهائم فازوا بالمنى فى النفوس والأحباب
فيهم لكنة النبط ولكن تحتها جاهلية الإعراب
أصبحوا يلعبون فى ظل دهر ظاهر السخف مثلهم تعاب
خير ما فيهم ولا خير فيهم أنهم غير آثمى المغتاب
ويظلون فى المناعم واللذات بين الكواعب الأتراب
لهم المسمعات ما يطرب السامع والطائفات بالأكواب
نعم ألبستهم نعم الله ظلال الغصون منها الرطاب

ويقول :

لو ترى القوم يبنهن لاجبر ت صرحا ولم تقل باكتساب
من أناس لا يرتضون عبيداً وهم فى مراتب الأرباب

حالهم حال من له دارت الأفلاك واستوسقت على الأقطاب
وكذا الدنيا الدنية قدرا تتصدى لآلام الخطاب
مكنوا من رجال ميس وطيئات وأضحى بنا على الأقتاب

إلى قوله :

كابن عمار الذى تركته حماقات الزمان كالمرتاب
من فتى لو رأيته لرأت عينك علما وحكمة فى ثياب
بزه الدهر ما كسا الناس إلا ما عليه من لحمة والإهاب
أو حلى ظرفه التى نحسته فلو استطاع باعها بجراب
سوء بسوءة اصحبته دنيا أسخطت مثله من الأصحاب
لهف نفس على مناكير للنكر غضاب ذو سيوف عضاب
تغسل الأرض بالدماء فتضحى ذات ظهر ترابها كالملاب
من كلاب أناى بها عن كل نأى عن وفاء الكلاب غدر الذئاب
واثبات على الظباء ضعاف عن وثاب الأسود يوم الوثاب
شرط خولوا عقائل بيضا لا بأحسابهم بل الأكساب
فإذا ما تعجب الناس قالوا هل يصيد الظباء غير الكلاب
أصبحوا ذاهلين عن شجن النا س وأن كان حبلهم ذو اضطراب
فى أمور وفى ضمور وفى سمو ر وفى قاقم وفى سنجاب
وتهاويل غير ذاك من الرقم ومن سندس ومن زرياب
فى حبير منمنم وعبير وصحان فسيحة ورحاب
فى ميادين تخترقن بساتين تمس الرؤوس بالأهداب
ليس ينفك طيرها فى اصطحاب تحت أظلال أيكها واصطخاب
من قرينين أصبحا فى غناء وفريدين أصبحا فى انتخاب
بين أفنانها فواكه تشفى من تداوى بها من الأوصاب
فى ظلال من الحرور واكنا ن من القر جسمه الحجاب
عندهم كل ما اشتهوه عن الآكال والأشربات والأشواب
والطروقات والمراكب والولدان مثل الشودان الأسراب

والبلنجوج فى المجامر والند ترى نشره كمثل الضباب
والغوانى وعنبرا لهن والمسك على الهام واللحى كالخضاب
ولديهم وذائل الفضض البيض تباهى سبائك الاذهاب
لم أكن دون مالكى هذه الأملاك لو أنصف الزمان المحابى
أنت طيب بذاك لكن تغابيت وحابيت كل كلب وناب
آنياما أتى الزمان من الظلم وهانيك منك سوط عذاب
قاتل الله دهرنا أو رماه باستواء فقد غدا ذا انقلاب
يعلف الناطقين من جوده الإجلال والناهقين محض اللباب
ثم تلقى الحكيم فى فيه يمالى كل وغد على ذوى الآداب
لا يعد الصواب أن تغمر الثروة إلا ذوى العقول الخراب
غير مستكثر كثيراً لذى الجهل وإن كان فى عديد التراب
وإذا ما رأى لحامل علم قوت يوم رآه ذا اخضاب
فتى اما رأى له قوت شهر عده الملك فى اقتبال الشباب(١)

هذا التصوير الأدبى الرائع الدقيق ينقلنا نحن إلى عصر الشاعر ويكشف بصدق عن التناقض الإجتماعى فيه ، بل هو أكثر دلالة مما كتبناه تاريخيا عن هذه الحياة التى أحس بها الشاعر نحو الحياة العباسية فى تصوير حى لخطر التناقض فى المجتمع وتمثل دقيق للصراع بين الخير والشر ، ومظاهر الحضارة ، وألوان الفساد والظلم ، وانتهاز الفرص واغتنام الملذات . وقد ظهر أثر ذلك واضحاً فى تصوير ابن الرومى وعمله الفنى .

ولقد ضاعف التناقض الإجتماعى على نحو ما ذكرنا من غضبه السريع واغتلى مزاجه الحاد ، وفاض طبعه بالتمرد ، فقد جنى عليه عصره الذى أقحمه فى الهجاء البذىء ، والفواحش التى لا يسمو الشعر بها وشرف هدفه ، فكان تصويره فى الهجاء ، من أنكى وأشد واقبح الهجاء فى الشعر العربى .

ورأى ابن الرومى أن إسماعيل بن بلبل لا يستحق المنصب الذى تربع عليه ، ولا تلك النعمة التى هو دونها ، لذا فالله حفظها منه وأطالها عنه ، فالنعم فوق صاحبها مرهونة بالزوال ، وإن تغمدت ابن بلبل فترة ، فلن ينتقص قدرها ، كما أن الزنديق إذا طاف بالكعبة أوحج إليها لا ينقص من شرفها شيئاً ، لذلك خر ملك الصقور « أبا الصقر » صريعا بعد أن حلق

(١) الديوان المخطوط ورقة ٨٩ وما بعدها ج ١

أعلى فأعلى ، ليكون وقوعه أنكى وأشد .

صبرا أبا الصقر فكم طائر خر صريعا بعد تحليق
زوجت نعمى لم تكن كفئها فصانها الله بتطليق
وكل نعمى غير مشكورة رهن زوال بعد تمحيق
لا قدست نعمى تسربلتها كم حجة فيها لزنديق(١)

وهذا التناقض أيضاً ، هو الذى دفع ابن الرومى إلى سخره فى الحياة ، ونقمته على الناس فأتحفنا بصوره الساخرة ، وأضحكنا بتمثيله العابث الضاحك ، وأهاجيه المرحة الفاكهة ؛ يقول فى البخيل : —

غدونا إلى ميمون نطلب حاجة فأوسعنا منعا جزيلا بلا مطل
وقال اعذرونى إن بخلى جبلة وأن يدى مخلوقة خالقة القفل(٢)

وقال أيضاً :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد(٣)

هذا التناقض الإجتماعى جعل بعض صوره الأدبية حينا جادة ، ولكنه جد فى ألم ، وتعقل فى مرارة ، ورزانة فى غضب ، يصور الشاعر ما وراء هذا التناقض ، وما نهاية المطاف فيه للمسعود والمنحوس ، إنها نهاية واحدة ، ومصير واحد ، مهما اختلف الناس فى كل شىء .

كيف العزاء وما فى العيش مغتبط ولا اغتباط لأقوام يموتونا
متى نعش فبلى الأحياء يدركنا وإن نمت فبلى الأموات يقفونا
لا بد من ميتة للمرء أو هرم يظل منه جليد القوم موهونا
والبيض والجون لا تهوى فراقهما ولا تزال نذم البيض والجونا
وكل لهو لهاه النفس مشغلة عن ذكر ماهم من الأحداث لاقونا(٤)

واستبداد الفئة الحاكمة بكل ألوان الترف واللهو والنعيم ، وإغراقهم فى بحبوحة

---

(١) الديوان المخطوط ١٠٦ ج ٣
(٢) المصدر السابق ١٨٨ ج ٤
(٣) المصدر السابق ورقة ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ج ١
(٤) المصدر السابق ورقة ٣٠٢ ج ٤

العيش دفع ابن الرومى إلى الوقوف مع الكادحين ، لأن الحكومة سادرة مخمورة فى العبث والمجون ، لا يعنيها شىء ، ولا يردها مبدأ إنسانى ، ومن هنا اصطبغت صورته الشعرية بالطابع الإجتماعى والغرض الإنسانى وذلك فى فتنة الزنج الذين خربوا البصرة ، وأزالوا معالم الحضارة الإسلامية فيها ، حيث وقف الشاعر يناجى الشعب لا السلطة ، ويطلب النجدة من الأمة لا من الحكومة ، لأنها قد تجردت من نخوة الدفاع عن التراث الإنسانى ، ألا وهم فى الفتنة سقطوا ، وإنما يستنجد بالكادحين والأمة التى تغير على الوطن والدين والحضارة ومقدساتها ، والشرف والفضيلة ورد المظالم .

وتفيض هذه القصيدة وتلك الصورة الأدبية الناطقة ، بالثورة الإجتماعية ، وتنزف دما ومرارة ، وتتفطر ألما وحسرة ، وسأقتصر على بعض منها ليدل على المراد يقول :

زاد عن مقلتى لذيذ المنام　　　شغلها عنه بالدموع السجام

إلى قوله :

يأبى تلكم العظام عظاما　　　وسقتها السماء صوب الغمام
وعليها من المليك صلاة　　　وسلام مؤكد بسلام
إنفروا أيها الكرام خفافا　　　وثقالا إلى العبيد الطغام
أبرموا أمرهم وأنتم نيام　　　سوءة بسوءة لنوم النيام
صدقوا ظن إخوة أملوكم　　　ورجوكم لنوبه الأيام
أدركوا ثأرهم فذاك لديهم　　　مثل رد الأرواح فى الأجسام
لم تقروا العيون منهم بنصر　　　فأقروا عيونهم بانتقام
أنقذوا سبيهم — وقل لهم ذاك — حفاظاً　　　ورعية للذمام
عارهم لازم لكم أيها الناس لأن الأديان كالأرحام
إن قعدتم عن اللعين فأنتم　　　شركاء اللعين فى الآثام
بادروه قبل الروية بالعزم　　　وقبل الإسراج بالإلجام
ولا تطيلوا المقام عن جنة الخلد فأنتم فى غير دار مقام
فاشتروا الباقيات بالعرض الأدنى　　　وبيعوا انقطاعه بالدوام[1]

أرأيت الشاعر تناسى الخليفة على غير عادة الشعراء قبله ، إذا ألمت كارثة بالأمة

---

(١) الديوان المخطوط ٣٢٩ : ٢٣١ ج ٤

الإسلامية فيخاطبون الحاكم والخليفة ، وهذا التناقض الإجتماعى أيضاً أسلمه للحيرة والوهم الذى يطيح بالنفس ، فيرى المشاهد فى الحياة من خلال هواجسه ، ويلبس الحقيقة رداء قاتما من مخاوفه وشؤمه . وترى صوره حينا سوداء مظلمة مسرفة فى الطيرة فتقلب الحسن نحساً، فالطفل يصرخ إذا أطل على الدنيا ، فيزعج من صروفها وأهوالها ، ويتقى بصراخه شرور الناس وظلمهم(١) .

وهذا التناقض هو الذى جعل الصورة الأدبية عند ابن الرومى ناقمة على الحظ والقدر ، فهو كيمياء تحرق وتؤكسد آماله ورغائبه ، وفى نفس الوقت تحيل الكلب إنسانا يقول :

إن للحظ كيمياء إذا مس كلبا أحاله إنسانا(٢)

وتبدو فى الصورة السابقة سعة معارف ابن الرومى ، فقد استطاع بصفاء ذوقه وجمال خياله ، أن يسلك هذا اللفظ العلمى ليتفاعل مع إحساسه فيعطى لنا أصباغا مختلفة منها ما يمحق ، ومنها ما يحيل ، ومنها ما يبتكر أنواعا جديدة .

وهذا التناقض الاجتماعى الذى كان يسير فى ظل الحضارة ، ورقى الحياة فى مظاهرها ، من ترف ونعيم ، ومجالس ولهو وغناء ، كل ذلك أشاع فى صور ابن الرومى الأدبية ، جمال الخيال ، وصفاء الذوق ، وعذوبة اللفظ ، ورقة الأسلوب والموسيقى العذبة يقول فى هذه اللوحة الفنية الرائعة :

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنيها حوان
مطفلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان
ملقمات أطفالهن ثديا ناهدات كأحسن الرمان
كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه وهو بادى الغنا عن الترجمان
غير أن ليس ينطق الدهر إلا بالتزام من أمه واحتضان
أوتى الحكم والبيان صبيا مثل عيسى بن مريم ذى الحنان

إلى قوله :

ذات صوت تهزه كيف شاءت مثل ما هزت الصبا غصن بان

(١) الديوان المخطوط ورقة ١٧٧ ، ١٧٨ جـ ١
(٢) المخطوط ورقة ٣٧٠ جـ ٤

يتثنى فينفض الطل منـــه في ثنيه مثل حب الجمـــان(٢)

(قيان — أمهات — عاطفات — حوان — مطفلات — جثينا — ناهدات — عود — مزهر — كران — بادى الغنا — الصبا — غصن — بان يتثنى — حب الجمال)

كل هذه الألفاظ تقطر بصفاء ذوقه ، وتذوب رقة ، في أشتات من مفردات اللغة ، نبعت من إحساسه في خيال جميل ، يحكى سحر النغم ، وعذوبة اللفظ ، ورقة الكلام وشفافية الصياغة ، والموسيقى الخفية ، لا تبوح بروعتها إلا لحس إزداد طربا من كتمانها وخفائها وأخرى خارجية تتجاوب معها النفس في نشوة وطرب ، ثم إن الصورة بعد ذلك بأشكالها وألوانها وأصواتها ومذاقها ، تزهو وتزخر بألوان الحضارة التي استبدت بالمجتمع ، وتمكنت منه ، مما يجعل هذا الباعث من أقوى الروافد التي غذيت به الصورة الأدبية عند شاعرنا ، وأخذ بها المكان الأول في التصوير الفني لدى الشعراء العرب .

(٣)

التقدم في الفكر والعلم والتعمق في الدين والثقافة :

في ظل الحضارة الإسلامية في القرن الثالث الهجرى ، أدركنا نمو الصراع الاجتماعى ، وكيف كان أثره في الشعر بصفة عامة ، وفي الصورة الأدبية عند شاعرنا بصفة خاصة .

وما زلنا نتفيأ ظلال الحضارة ، في التقدم الفكرى والعلمى والثقافى والصراع الدينى ، الذى سار جنبا إلى جنب الصراع الإجتماعى ، وكيف أثر في التصوير الأدبى عنـــد ابن الرومى .

يعد هذا القرن من أزهى عصور الفكر والعلم عامة ، فقد سبق ذلك العصر عصر الاحياء والخلق والإبتكار في العلوم العربية ، وعصر الترجمة في الفكر والعلم غير العربى .

وترجم المتعربون مصادر يونانية وفارسية وهندية فكراً وعلوما متنوعة في الفلسفة والمنطق والحكمة والعقائد ، والنجوم والرياضيات .

وكانت الكثرة من المشتغلين بهذه العلوم يرجعون إلى أصل فارسى ، أو يونانى ، أو رومى ، أو غير ذلك ، لأن العرب وإن أخضعوا تحت سلطانهم الفرس ، وحكموا الروم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يوقفوا الغزو الفكرى والعلمى ، الذى نهض بأعبائه العجم ، بل كان يتوغل في الفكر العربى كلما سنحت له الظروف .

(١) الديوان المخطوط ٣٨٦ وما بعدها ج ٤

يقول ابن خلدون « إن حملة العلم فى الملة الإسلامية أكثرهم من العجم ... وكان صاحب النحو سيبويه والفارسى والزجاج من بعدهما منهم وكل عجم فى أنسابهم وكذلك حملة الحديث ، وكان علماء أصول الفقه كلهم عجم كما يعرف ، وكذلك حملة علم الكلام ، وكذا أكثر المفسرين ، ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم ، وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم (لو تعلق العلم بأكتاف السماء لناله قوم من أهل فارس) ولم يزل ذلك فى الأمصار ما دامت الحضارة فى العجم ، وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر ، فلما خربت تلك الأمصار ، وذهبت منها الحضارة ذهب العلم من العجم »(١)

وليس غير العرب وحدهم هم الذين نهضوا بالفكر والعلم ، وبهذا العبء الشاق ، ولكن كثيراً من العلماء العرب — نتيجة لاحتكاكهم بالأعاجم عن طريق أهل الحيرة قبل الإسلام وبعد دخول الإسلام فى أعماق بلدانهم — نهضوا بالفكر والعلم وساروا مع الأعاجم جنبا إلى جنب ، فقد أشار القفطى إلى طبيب العرب الحارث بن كلدة الثقفى من أهل الطائف ، الذى درس الطب فى فارس ، وتلقى أصوله على أهل جند يسابور وغيرها »(٢)

وزخر العصر بكثرة من المفكرين والعلماء من العرب والعجم فاشتهر فى الطب أيضا الرازى وابن سهل وابن ماسويه واشتهر فى العلوم آل نوبخت وإسحاق ابن زيد ، وموسى ويوسف ابنى خالد ، وجبلة بن سالم ، وعمر بن فرخان والبلاذرى والطبرى وأبو زيد البلخى ، وابن البطريق ، واليعقوبى وابن الفقيه وابن رستة وأبو حنيفة الدينورى وغيرهم وفى الفلسفة الكندى والفارابى وابن سينا وابن مسكويه وغيرهم(٣) ، واستوى علم الحديث على أيدى رواده الستة البخارى ومسلم وأبى داود وابن ماجه والترمذى والنسائى ، وفى الفقه اكتملت المذاهب الأربعة على يد الإمام مالك وأبى حنيفة النعمان ، والشافعى وابن حنبل وكثر أتباعهم ، وعكفوا على دراسة مذاهبهم ، وتعمقوا فيها مما أدى إلى اختلاف الآراء وتباين وجهات النظر فى بعض الأحكام ، وأطلت الشعوبية على اتساع الدولة ، واعتز أهل الفرس بقوميتهم ، وعلى العرب كذلك أن يعتزوا مثلهم ، فقد نزل الوحى على رجل منهم ، وهم حماة الإسلام ودعاته .

(١) مقدمة ابن خلدون ٥٤٣ ، ٥٤٤
(٢) أخبار الحكماء القفطى ١١٣
(٣) الفهرست ابن النديم ٢٤٤

ولكن الفرس — ليثبتوا أقدامهم فى الدولة — أيدوا مذاهب دينية ، فيها إحياء لعقائدهم القديمة ، وبعث لشخصهم ، وسرت العقلية الفارسية ، وتعاليم الهند الروحية ، فى عقيدة بعض المسلمين ، فقال الجنيدى البغدادى بالوحدة : أى باتحاد النفس بالله « فالتوحيد معنى تضمحل فيه الرسوم ، وتتدرج العلوم ويكون فيه الله كما لم يزل(١) » ، وقال الحلاج المتوفى (٣٠٩ هـ) بالحلول أو بالتناسخ : أى أن الله يحل بالجسد وقد أفتى العلماء بحل قتله فقتل(٢) ، ومنهم من قال بالفناء وأن الوجود الحقيقى هو الله وأن ما عداه غير موجود وأن النفس العاقلة فى الإنسان هى نفس الله ، وهى التى تتعرف على الله بالإلهام ، لا بدليل مادى ولا يحصل الإلهام إلا عن طريق الإنعتاق من الدنيا(٣) .

وأضحى العصر العباسى عصر الملل والنحل ، وظلت بغداد ميدانا للدعوات والعصبيات والصراعات ، فقد كانت تموج آنذاك بالشيعة ، وأهل السنة ، والمعتزلة ، والفلاسفة ، والمتشددين فى الدين كالحنابلة .

لذا بعث ميسرة بن حسان السمرى إلى أحمد بن سليمان بن أبى شيخ رسالة يستفسر فيها عن حقيقة مذهبه ، لأن الشكوك داخلته فلا يعرف على أى دين هو لكثرة الفتن ، وتشاجر الملل والنحل . يقول :

دخلتنا الشكوك يا ابن أبى شيخ بأى الأديان أنت تدين

وإلى أيها تميل أبا جعفر كم ذا الهوى وذا التلوين

فرد عليه ابن الرومى يقول :

يا ابن حسان لا تشكن فى د ... ينى ولا تقتسمك فى الظنون

فهو توحيد ذى الجلال وتصد ... يق الذى بلغ الرسول الأمين(٤)

وابن الرومى حينما يذكر الخمر ، يشير إلى أنها الشراب الحلال ، لا الخمر الحرام ، التى نهى الدين عنها ، وهذا الإستدراك منه يدل على الإهتزاز الذى دب فى عقيدة المسلمين آنذاك . يقول :

---

(١) الرسالة المشهورية ١٣٦ (مصر ١٣٣٠ هـ)

(٢) الفهرست ابن النديم ١٩٠ ، ابن خلكان فى وفياته ١ — ٢٠٦

(٣) مقدمة ابن خلدون وفلسفة ابن رشد .

(٤) الديوان المخطوط ورقة ٣٩٥ جـ ٤

لا المدام الحرام لكن حلال　　نور نار يحثها طابخان
شارك الخمر اسمها ليس إلا　　إن أداموه مثلها فى الدنان
وحكاها فى اللون والريح والطعـــم　　ولطف الدبيب فى الجثمان
لا خمر فى الحقيقة لكن　　هو خمر فى الظن والحسبان (١)

واشتهر فى العلوم العربية الفراء وقطرب وابن الأعرابى وابن السكيت ونفطويه والجاحظ وأبو عثمان المازنى وثعلب والزجاج والمبرد وابن الانبارى وابن دريد والأخفش والسجستانى، والصولى وابن قتيبة وقدامة بن جعفر والرياش وغيرهم. (٢)

وتعددت مذاهب الكلام من مذهب السنة والمعتزلة والأشعرية والجبرية والقدرية وقوى النزاع بين معتنقيها جميعا، واشتد الصراع المذهبى والتعصب له، واستخدمت المعتزلة مثلا علم المنطق والفلسفة فى الكشف عن نظرتهم وتأييدها وإفحام منافسيهم، وقد اعتمد بعضهم كأهل السنة على المأثور من الحديث والقرآن الكريمين، تأييد فى مذهبهم وكثر الاختلاف حول قضايا فكرية وفلسفية عديدة كالصفات الإلهية لله عز وجل، والقضاء والقدر، وفعل العبد، وقدم العالم، وخلق القرآن وقدمه، ومن أعلام هذه الفرق واصل بن عطاء وابراهيم النظام (المتوفى ٢٣١ هـ) والعلاف (المتوفى ٢٣٥ هـ) والجاحظ وأبو الحسن الأشعرى وغيرهم، وقد نجد العالم يجمع بين هذه العلوم كلها كما سبق ذكر على ابن يحى المنجم. ذلك الطبيب الأديب المغنى المفكر المنجم الشاعر النديم (٣)

والأديب اللغوى العالم المفكر لا يكون بهذه الصفات، إلا إذا أخذ من كل فن وعلم بطرف وألم بشتى المعارف والعلوم الإنسانية فى الحياة، ويعد جاهلا من يكتفى بالقليل منها أو يقتصر على واحد فقط، أو يتخصص فى لون خاص، وقد اعترف بهذا أحد المتنصرين للعربية وعلومها، ورأى أن يقتصر عليها، بل يأخذ بطرف من كل علم وفن حتى لا يتهم بالجهل، وهو ابن قتيبة معاصر ابن الرومى، ويحدثنا عن ذلك ويكشف عن عصره، عصر العلوم والمعارف القديمة والحديثة فيقول:

«إنى رأيت أكثر أهل زماننا هذا، عن سبيل الأدب ناكبين، ومن اسمه متطرين ولأهله كارهين، أما الناشىء، فراغب عن التعلم، والشادى تارك للإزدياد، والمتأدب فى

(١) الديوان المخطوط ورقة — ج ٤
(٢) الفرق بين الفرق: البغدادى
(٣) معجم الأدباء ياقوت الحموى ج ١٥ ص ١٦٠ : ١٦٣

عنفوان الشباب ناس أو متناسى ، ليدخل فى جملة المجدودين ، ويخرج عن جملة المحدودين فالعلماء مغمورون وبكرة الجهل مقموعون ، حين خوى نجم الخير وكسدت سوق البر ، وبارت بضائع أهله ، وصار العلم عارا على صاحبه ، والفضل نقصا ، وأموال الملوك وقفا على شهوات النفوس ، فأبعدت غايات كاتبنا فى كتابته ، أن يكون حسن الخط ، قويم الحروف ، وأعلى منازل أديبنا ، أن يقول من الشعر أبياتا فى مدح قينه أو وصف كأس ، وأرفع درجات لطيفنا ، أن يطالع شيئا من من تقويم الكواكب ، وينظر فى شىء من القضاء ، ومن المنطق ، ثم يعترض على كتاب الله بالطعن وهو لايعرف معناه وعلى حديث رسول الله بالتكذيب وهو لايدرى من نقله وقد رضى عوضا من الله وبما عنده ، بأن يقال فلان لطيف ، وفلان دقيق النظر ، يذهب إلى أن لطف النظر قد أخرجه من جملة الناس ، وبلغ به علم ما جهلوه فهو يدعوهم الرعاع والغثاء والغثر ، وهو لعمر الله بهذه الصفات أولى ، وهى به أليق ، لأنه جهل ، وظن أنه قد علم ، فهاتان جهالتان ، ولأن هؤلاء جهلوا وعلموا ، أنهم يجهلون ، ولو أن هذا المعجب بنفسه الزارى على الإسلام برأيه ، نظر من جهة النظر ، لأحياه الله بنور الهدى ، وثلج اليقين ، ولكنه طال عليه أن ينظر فى علم الكتاب ، وفى أخبار الرسول وصحابته ، وفى علوم العرب ولغاتها وآدابها ، فنصب لذلك وعاداه ، وانحرف عنه إلى علم قد سلمه له ولأمثاله المسلمون ، وقل فيه المتناظرون له ترجمة تروق بلا معنى ، واسم يهول بلا جسم ، فإذا أسمع الغمر والحديث الغر قوله الكون والفساد ، وسمع الكيان والأسماء المفردة والكيفية والكمية والزمان والدليل والأخبار المؤلفة راعه ماسمع وظن أن تحت هذه الألقاب فائدة ، وكل لطيفة ، فإذا طالعها لم يحل منها بطائل ، وإنما هو الجوهر يقوم بنفسه ، ورأس الخط النقطة ، والنقطة لا تنقسم ، والكلام أربعة أمر وخبر واستخبار ورغبة ، ثلاثة لا يدخلها الصدق والكذب ، وهى الأمر والاستخبار والرغبة ، وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر ، والآن حد الزمانين مع هذيان كثير . . . ولو أن مؤلف المنطق بلغ زماننا هذا ، حتى يسمع دقائق الكلام فى الدين والفقه والفرائض والنحو ، لعد نفسه من البكم ، أو يسمع كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب . . فلما أن رأيت هذا الشأن كل يوم إلى نقصان وخشيت أن يذهب رسمه ويعفو أثره جعلت له حظا من عنايتى ، وجزءا من تأليفى ، فعملت لمغفل التأديب كتبا خفافا فى المعرفة وفى تقويم اللسان

واليد ، يشتمل كل كتاب منها على فن ، وأعفيته من التطويل والتثقيل . . . ولكنها لمن شدا شيئا من الإعراب، فعرف المصدر والحال والظرف وشيئا من التصاريف والأبنية وانقلاب الياء عن الواو والألف عن الياء وأشباه ذلك ، ولابد له مع كتبنا هذه من النظر في الأشكال لمساحة الأرضين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية ، والمثلث الحاد ومساقط الأحجار والمربعات المختلفات ، والقسي المدورات ، والعمودين ، ويمتحن معرفته بالعمل في الأرضين لا في الدفاتر ، فالمخبر ليس كالمعاين ، وكانت العجم تقول : من لم يكن عالما بأجراء المياه وحفر فرض المشارب وردم المهاوى ومجارى الأيام في الزيادة والنقص ودوران الشمس ومطالع النجوم ، وحال القمر في استهلاله وأفقاله ، ووزن الموازين وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا ونصب القناطر والجسور والدوالى . والنواعير على المياه ، وحال أدوات الصناع ودقائق الحساب كان ناقصا في حال كتابته ولابد له مع ذلك من دراسة أخبار الناس وتحفظ عيون الحديث ، ليدخلها في تضاعيف سطوره متمثلا إذا كتب ويصل بها كلامه إذا حاوز ومدار الأمر على القطب وهو العقل ، وجودة القريحة ، فإن القليل معها بإذن الله كاف والكثير مع غيرهما مقصر(١) .

وما يذكره ابن قتيبة يمثل العصر أقوى تمثيل وابن قتيبة الذى يتصدى لعلوم العربية فحسب ، يرى لزاما عليه أن يدرك ألوان الثقافة الأخرى في عصره ويشارك غيره في شتى المعارف والعلوم ، حتى لا يتهم بالجهل وقلة الإدراك والتخلف ، فكان الرجل يهذب نفسه بكل ما يجرى حوله من ثقافة ومعرفة وحضارة ، وأصبح المجرد منها مغمورا لا وزن له ولا كيان ، معرضا للهجاء والذم وكذلك المدعى لهذه العلوم ،كالرجل الذى تهكم به ابن الرومى وهجاه لأنه أدعى العلم والمعرفة والظرف والتهذيب يقول :

قولا لطوط أبى على　　بصريننا الشاعر المنجم
المنذر المضحك المغنى　　الكاتب الحاسب المعلم
الفيلسوف العظيم شأنا　　العائف القائف المعزم
الماهن الكاهن المعادى　　في نصر إبليس كل مسلم(٢)

ويكشف لنا ابن قتيبة عن مدى الصراع القائم بين أنصار القديم وبين أنصار العلوم

---

(١) أدب الكاتب : ابن قتيبة (٢٧٦ هـ) .
(٢) الديوان المخطوط ورقة ٢٨٧ جـ ٤ .

الحديثة ودرجته بينهما : فأنصار القديم ومنهم ابن قتيبة يهزأون بعلماء الهندسة والرياضة والفلك ويرمونهم بالجهل المركب والبكم والهذيان .

وأنصار العلوم الحديثة يسخرون من القدماء وأنصارهم ويتندرون بجمودهم وتشددهم ويضربون لذلك أمثلة وصوراً تقطر سخرية ودعابة واستهزاء . ذكر أبو حيان عن ابن ثوابه حينما طلب من صديق أن يقص عليه ، ما وقع بينه وبين أستاذه الذى تتلمذ عليه فى الهندسة ، فرد عليه بعد أن ذكر مقدمة طويلة قال الأستاذ لصديق ابن ثوابه بعد أن نكت نقطة : « أيها الرجل إن هذه النقطة شيء لا جزء له فقلت أضللتنى ورب الكعبة وما الشيء الذى لا جزء له ؟ فقال كالبسيط . . . فقلت أنا : وما الشيء البسيط ؟ فقال : كالله والنفس فقلت له : إنك من الملحدين أتضرب لله الأمثال والله يقول : « فلا تضربوا لله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون ؟ . فلما سمع مقالتى كره استعاذتى فاستخفه الغضب فأقبل على مستبسلا وقال: إنى أرى فصاحة لسانك سبباً لعجمة فهمك وتدرعك بقولك آفة من آفات عقلك فلولا من حضر — والله — المجلس واصغاؤهم إليه متصوبين أباطيله ومستحسنين أكاذيبه وما رأيت من استهوائه إياهم بخدعة ، وما تبينت من توازرهم لأمرت بسل لسان الكلح الألكن وأمرت بإخراجه إلى حر نار الله وسعيره[1] » .

وكان هذا المعلم نصرانيا فتتلمذ على آخر مسلم فسأل المعلم المسلم صديق ابن ثوابه قائلا له : وهل بلغت أنت أن تعرف النقطة ؟ فقلت استجهلنى ورب الكعبة وأخذ يخط وقلبى مروع يجب وجيبا وقال لى غير متعظم : أن هذا الخط طول بلا عرض فتذكرت صراط ربى المستقيم وقلت قاتلك الله أتدرى ما تقول ؟ تعالى صراط ربى عن تخطيطك وتضليلك أنه لصراط مستقيم وأنه لأحد من السيف الباتر ، والحسام القاطع وأدق من الشعرة وأطول مما تمسحون وأبعد مما تذرعون أتطمع أن تزحزحنى عن صراط ربى وحسبتنى غراً غبياً لا أعلم ما فى باطن ألفاظك ومكنون معانيك ؟ والله ما خططت الخط ، وأخبرت أنه طول بلا عرض ، إلا ضله بالصراط المستقيم لتزل قدمى عنه ، وأنت تردينى فى جهنم أعوذ بالله وأبرأ إليه من الهندسة ومما تعلنون وتسرون » .

هذا وذاك من السخرية والتندر يدل على الصراع بين القديم والحديث كالشأن فى كل زمان ، وعلى الرغم من المبالغة فى السخرية فإنه يدل على مكانة العلوم الحديثة وقدرها .

---

(١) الوزيرين — أبو حيان — ومعجم الادباء لياقوت الحموى .

وشدة تعلق المعاصرين بها ، حتى احتاج إليها الكبير المسن ، ورأى أن مهابته لا تتم إلا بها أو على الأقل الوقوف على أطراف منها فقد تعلمها ابن قتيبة مع أنه أنكرها على معاصريه الذين بالغوا فيها حتى جهلوا العربية .

وكذلك أحمد بن ثوابه خف إليها ليتعلمها(٢) ورأى أن مروءته لا تكمل إلا بها ، وأنها بلغت من درجة الشيوع والذيوع حتى كثر روادها ، وزاد خطرها ولذلك قال أبو العلاء المعرى / يصف ابن الرومى «كان علمه أكثر من عقله » ويقول المسعودى « كان الشعر أقل آلاته » .

وشاعر مثل ابن الرومى العبقرى المصور ، العميق فى مشاعره ، الدقيق فى إحساسه يعيش أكثر إيجابية فى عصره الذى يموج بهذه التيارات الفكرية والعلمية والثقافية ، والخلقية ، وكل مظاهر الحضارة وأسبابها وكان ابن الرومى أصدق من يمثل عصره ، وأبرز من يصور زمانه وأقدرهم لمواهبه على التصوير ، فحينما يصور تترقرق فى الصور سمات العصر وينعقد إليها ما تجمع من خيوط الحضارة العباسية ، لتكون الصورة هى العصر نفسه فتزداد معانيها كثرة وعمقاً ، ويرتقى نسجها بالإحكام والتنسيق والتحديد ، وتبرأ من الخلط والخطأ ، بسوء الترتيب وتتدفق منها روافد ثقافية أخاذة نافعة ، وذلك كله لأن الصورة نبعت من نفس قد هذبت وصقلت . وشعور دقيق وحس رقيق وإنسان ارتقى بأدبه إلى مستوى راق حتى جعله إنسانياً ، ولا أدل على ذلك من تصوير ابن الرومى لنكبة البصرة يوم أن اجتاحها الزنج فى وحشية وبربرية سنة ٢٥٧ هـ

فهذه الصورة الأدبية الإنسانية الرائعة الذى عبأ لها الشعب والدنيا كلها لا الخليفة كعادة الشعراء السابقين ليثأروا من الظلم والطغيان والشناعة والقسوة لبنى الإنسان ، فهى صورة إنسانية تحرك المشاعر بالسخط على الظالمين وتهز النفوس بالثورة على الطاغين المدمرين ، فهى مصدر الحرارة والحرية والثورة والإنتقام للأمة العربية ولغيرها من الأمم فى أى مكان وفى كل زمان ، وذكر البصرة والزنج لا يقلل من قيمتها الإنسانية لأننى أرى أن البصرة إنما هى رمز لكل مدينة عامرة بالحضارة والعمران والعلم والعرفان ، والزنج إنما هى رمز للمدمرين والمخربين فى كل عصر ، والشاعر ينقل إلينا فى هذه الصورة واقع مأساة للبصرة من خلال مشاعره وخواطره بدقة وصدق ومطلعها :

---

(١) ابن الرومى العقاد ١٤٣ .

ذاد عن مقلتى لذيذ المنام   شغلها عنه بالدموع السجام

وليس المقام هنا أن نذكر الميمية كاملة لنراها لوحة فنية رائعة ، ولكن الذى يهمنا هو ما يتصل بأثر هذا العامل فى الصورة الأدبية .

وتفيض المعانى الإنسانية من الصورة حيث تقطر دما ، عندما فجع بمـــا حل بالبصرة فغرقت مقلته فى الدموع بدل أن تغرق فى النوم .

ثم أخذ يستقصى ويتتبع كل معنى ومشهد فى غزارة ودقة ، وعمق وإحكام ترتيب وصياغة، فاضطرمت نفسه لهفة وحسرة على الدمار الذى حل بها ، وهى معدن الخيرات وقبة الإسلام وجنة البلدان ، ومجمع العمران ، ومهبط العزة :

لهف نفسى عليك أيتها البصرة   لهفا كمثل لهب الضرام

ثم يستنجد الشاعر بصاحبيه لا بالخليفة :

عرجا صاحبى بالبصرة الزهراء   تعريج مدنف ذى سقام
فاسألاها ولا جواب لديها   لسؤال ومن لها بالكلام
أين ضوضاء ذلك الخلق فيها   أين أسواقها ذوات الزحام
أين ... أين .... أين ... أين .... وكم الخ

بل يستغيث بالأمة والعالم كله فالله سيحاسب المتخلفين عن نجدتهم فهو حاكم الحكام :ـ

أى خطب وأى رزء جليل   نالنا فى أولئك الأعمام
كم خذلنا من ناسك ذى اجتهاد   وفقيه فى دينه علام
واندامى على التخلف عنهم   وقليل عنهم غناء ندامى
واحيائى منهم إذا ما التقينا   وهم عند حاكم الحكام
يا عبادى أما غضبتم لوجهى   ذى الجلال العظيم والإكرام
أخذلتم إخوانكم وقعدتم   عنهم ويحكم قعود اللئام

إلى آخر القصيدة :

وهنا يناجى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رائد الإنسانية كلها ويستغيث به ، ليؤكد لهم شرعية الإنتقام من الظلم وأهله .

أمتى أين كنتم إذ دعتنى   حرة من كرائم الأقوام
صرخت : « يا محمداه » فهلا   قام فيها رعاة حقى مقامى
لم أجبها إذ كنت ميتا فلولا   كان حى أجابها عن عظامى

وهنا تندفع الثورة للإنتقام .

انفروا أيها الكرام خفافا وثقالا إلى العبيد الطغام

أدركوا ثأرهم فذاك لديهم مثل رد الأرواح فى الأجسام

فاشتروا الباقيات بالعرض الادنى وبيعوا انقطاعه بالدوام(١)

وصور ابن الرومى حافلة بألوان ، من ثقافة عصره ، فحينما يهنىء عبيد الله ابن عبد الله بن طاهر بالنيروز يقول :

فاسعد بنيروزك المسعود طالعه يا ابن الأكارم فى خفض ونعماء

واعط نفسك فيه قسط راحتها إن العلا ذات أثقال وأعباء(٢)

إنها ألوان الثقافة التى شاعت فى عصره ، وعبيد الله هذا ليس ملكاً وقائداً فحسب ولكنه العالم الذكى ، الذى يصور عصره وقطعة حية منه يصوره ابن الرومى قائلا :

لو شئت ساجلت البحور غزارة وبادهت قرض الشعر جنة عبقر(٣)

وليس عبيد الله هو وحده بل أصبح الملوك وقد هذبهم الشعراء بالأدب ، فصاروا أدباء ونقاداً ، وكذا لم يعدوا الشعر عملا يتكسبون به ، وتلك بلية ابن الرومى :

قد بلينا فى دهرنا بملوك أدباء — علمتهم — شعراء(٤)

وتفاعلت العناصر كلها فى صور ابن الرومى فتفاعل الحظ مع أبى الصقر لتنتج هذه المعادلة يقول : —

عجب الناس من أبى الصقر إذ ولى — بعد الإجارة — الديوانا

أن للجد كيمياء إذا ما مس كلباً أحاله أنسانا(٥)

وابن الرومى لا يغفل ذكر الرياضيين والفلاسفة وهو يصور عصره ، يقول فى هجاء وزير الموفق صاعد بن مخلد وابنه الذى تقلد منصبا كبيراً فى وزارة أبيه :

ولى بابنه السفيه المعنى بأساطير رسطاطاليس

والذى لم يصغ بأذنيه إلا نحو ذو ثوريوس أو واليس(٦)

---

(١) الديوان المخطوط ورقة ٣٢٩ : ٣٣١ ج ٤

(٢) الديوان المخطوط ورقة ١٠ ج ١

(٣) الديوان المخطوط ورقة ٣٤١ ج ٢

(٤) الديوان المخطوط ورقة ١٠ ج ١

(٥) المخطوط ٣٧٠ ج ٤

(٦) المخطوط ورقة ج ٢

ويتأثر كذلك بعلم الفلك ، فيذكر الزهرة وهرمس ويصور شجاعة ابن بلبل وحكمته بقوله :

في عطارد والمريخ مولده فاعطياه من الحظين ما اقترحا[٢]

لأن عطارد عند الفرس كان رب الكتابة والحكمة ، والمريخ رب الشجاعة والحرب .

يقول العقاد عن ابن الرومي « ويذكر أكثر الكواكب بأسمائها الفارسية ويذكرها في غير هذه (أى البيت السابق) الأبيات بأسمائها المعروفة عند العرب ، وخصائصها التي كانت معروفة عند الكلدانيين والفرس والأقدمين ونقلها منهم اليونان ، ولا تزال مشهورة إلى اليوم في آداب الغربيين »[٩] .

وشاعرنا حينما يصور فضل الصبر وأثره ، ومنزلة الصابرين ، لا يغيب عن الصورة أثر الفلسفة فيها ، من كثرة المعاني واستقصائها ، والدقة والتحديد والتحقيق بالأدلة والبرهان فهو يخشى أن يتسرب إليها سوء الترتيب والتنسيق يقول :

أرى الصبر محموداً وعنه مذاهب فكيف إذا لم يكن عنه مذهب
هناك يحق الصبر والصبر واجب وما كان منه كالضرورة أوجب
فشد امرؤ بالصبر كفاً فأنه له عصمة أسبابها لا تقضب
هو المهرب المنجي لمن أحدقت به مكاره دهر ليس منهن مهرب
أعد خلالا فيه ليس لعاقل من الناس - إن أنصفن - عنهن مرغب
لبوس جمال جنة من شماتة شفاء أسى يثنى به ويثوب
فيا عجبا للشيء هذا خلاله وتارك ما فيه من الحظ أعجب

فالصبر المحمود مع أن له مذاهب ليس للعاقل مذهب عنه ، فهو حقيقة وواجب بل ضرورة لا يحيد عنها ، ومن تعلق بحبائل الصبر القوية المتينة سلمت له العصمة ، وتفرد بها ، فهو المنجي لمن أثخنته مكاره الدهر وزواياه ، فالصابر يلبس أجل حلة وأبهاها ، يتقى بها من شماتة الأعداء ، ويشفى بالصبر صدره الثقيل المكلوم ، فيستحق الثناء من الناس والجزاء من الله ويكون بعزيمته القوية الصامدة مثاراً للعجب ، كما يكون المرزوء بالجزع أعجب لأنه ترك الحقيقة والواجب والضرورة .

---

(١) الديوان المخطوط ورقة ١٤٥ جـ ١ .
(٢) ابن الرومي العقاد ١٠٢

إنها الفلسفة ، فلسفة ابن الرومى التى تفيض بها صوره الأدبية ويظل يستقصى ويسترسل ويدفع الشك بالدليل والبرهان :

وقد يتظنى الناس أن أساهم ... وصبرهم فيهم طباع مركب
وأنهما ليسا كشىء مصرف ... يصرفه ذو نكبة حين ينكب
فإن شاءالله أن يأسى أطاع له الأسى ... وان شاء صبرا جاءه الصبر يجلب
ولكن ضروريان كالشىء يبتلى ... به المرء مغلوباً وكالشىء يذهب
وليسا كما ظنوهما بل كلاهما ... لكل لبيب مستطاع مسيب
يصرفه منا فتارة ... يراد فيأتى أو يراد فيه فيذهب
إذا احتج محتج على النفس لم تكد ... على قدر يمنى لها تتعتب
وساعدها الصبر الجميل فأقبلت ... إليها له طوعا جنائب تجنب
وإن هو مناها الأباطيل لم تزل ... تقاتل بالعتب القضاء وتغلب
فتضحى جزوعا إن أصابت مصيبة ... وتمسى هلوعا إن تعذر مطلب
فلا يعذرون التارك الصبر نفسه ... بأن قيل إن الصبر لا ينكسب[٢]

وابن الرومى فى هذا يرد على الذين يقولون : بأن الإنسان مفطور بطبعه على الجزع أو على الصبر ، فهناك الجازع والصابر ، ولا يلبس أحدهما لباس الآخر ، فالصبر والجزع أمران ضروريان لا ينفك أحدهما عن نفس صاحبه ولا يتحول ، وهذه قضية باطلة عنده ، لا تخفى على كل لبيب ، فوجود أحدهما فى النفس يرجع إلى أسباب وعوامل ، فالإنسان قد يختار الصبر لنفسه تاره ويذوده عنها ، ويحل الأسى مكانه تارة أخرى ، فالمرء إن استجمع فى نفسه عوامل الصبر وأسبابه ، أقبل الصبر إليه طوعا وإن مناها بالأباطيل والعتاب ، اغتاله الأسى وصرعه الجزع ، والنتيجة ألا عذر لتارك الصبر بعد هذا وهو يطلق هذه المغالطة « إن الصبر لا يتكسب » وهذا التصوير القوى الرائع يكشف عن أخلاقه ومذهبه واعتزاله .

يصرفه المختار منا فتارة ... يراد فيأتى أو يذاد فيذهب[٦]

ويصور اختيار العبد وبه يكون باراً أو فاجراً :

أين اختيار مخير حسناته ... إن كنت لست تقول بالاخبار

(١) الديوان المخطوط ورقة ٦٦ جـ١

(٥) المخطوط ٦٦ جـ ١

شهد اتفاق الناس طرا فى الهوى ... وتفاوت الأبرار والفجار(١)

ويصور حرية الإرادة فى الإنسان :

الخير مصنوع بصانع نفسه ... فمتى صنعت الخير أعقبكا
والشر مفعول بفاعله ... فمتى فعلت الشر أعقبكا(٢)

ويقول :

لولا صروف الإختيار لأعنقوا ... لهوى كما اتسقت جمال قطار(٣)

وابن الرومى لا يخفى اعتزاله ، ولا يكتمه ، بل كان يشهره ويعتز باعلانه ، ويهجو ابن حريث لأنه يدعى الاعتزال ويبطن الكفر ، لأن الإعتزال هو دليل صحة الإيمان وصدقه ، لذا فابن الرومى ضنين به لأن عقيدة ابن حريث غير مذهب الشاعر فهو كافر يقول :

معتزلى مسر كفر ... يبدى ظهوراً لها بطون
أأرفض الإعتزال رأياً ... كلا لأنى به ضنين
لو صح عندى له اعتقاد ... ما دنت ربى بما يدين(٤)

وعندما يلجأ إلى ساحة ربه وتغشاه التقوى ، ويتغمده الخشوع والخضوع فى محراب العبادة تفيض صوره عن نفس راضية مهذبة ، ورقة فى الشعور وسمو بالروح فيقول :

تتجافى جنوبهم ... عن وطى المضاجع
كلهم بين خائف ... مستجير وطامع
تركوا لذة الكرى ... للعيون الهواجع
ورعوا أنجم الدجى ... طالعا بعد طالع
لو تراهم إذا هم ... خطروا بالأصابع
وإذا هموا تأوهوا ... عند مر القوارع
وإذا باشروا بالثرى ... بالخدود الضوارع
واستهلت عيونهم ... فائضات المدامع

---

(١) المخطوط ٣٣٥ جـ ٢
(٢) المخطوط ورقة ١٦٢ جـ٣
(٣) المخطوط ٧٣١ جـ ٢
(٤) المخطوط ٣٨٢ جـ ٤

ودعوا يا مليكنا يا جميـــل الصنائع
أعف عنـــا ذنوبنا للوجـــوه الخواشع
أعف عنا ذنوبنا للعيون الدوامـــع
أنت إن لم يكن لنا شافع خير شافع
فأجيبوا إجابــــة لم تقع فى المسامع
ليس ما تصنعونه أوليـــانى بضـــائع
أبذلوا لى نفوسكم أنها فى ودائع(٢)

(٤)

المنافسة فى الشعر :

صبغت الثقافات المترجمة الحياة الأدبية فى القرن الثالث الهجرى بصبغة جديدة ، وأحدثت أثراً عميقاً فى عقلية الأدباء والشعراء فى التفكير والخيال والمعانى ، وابتكار التقسيم والتهذيب وإن كان الأثر فى اللغة من حيث هى لغة لم يكن كبيراً ، اللهم إلا الألفاظ الأجنبية التى تعربت وأخذت الصبغة العربية ، فأصبح الأدب يتجمع فيه معانى الفرس واليونان وحكمتهم ، وبلاغة العرب ودقتهم ، وذلك يرجع فى إيجازه إلى امتزاج الثقافتين العربية والأعجمية ،وظهور الموالى وتفوقهم فى نظم الحكم والسياسة ، فتبوءوا أعلى المناصب فى الدولة بعد الخليفة فى العصر العباسى . وأطلت الشعوبية تفيض بالكبت التى أصاب الموالى فى العصر الأموى ، وأخذ الأعاجم يعلنون مآثرهم ويذكرون مفاخرهم ، ويثبتون قدراتهم ، ويسجلون ذلك فى مختلف ألوان الفكر والأدب والشعر كبشار وأبى نواس وغيرهم من الشعراء المولدين ، ووقف بجانبهم شاعرنا ابن الرومى ، وكذلك كان من دوافع الرقى فى الأدب أن عاش فى ظلال القصور ، ومواطن النفوذ والسلطة كحرفة ومطلب للعيش يعتمد عليه الأدباء والعلماء والشعراء ، فازدحموا على أبواب الخلفاء والولاة ، وسهروا الليالى فى تحبير القصائد وتجويدها ، حتى تشبع غرور الممدوح ، وتهتز أريحيته ، فيغدق عليهم العطايا ، لذا منح الرشيد شاعره مروان بن أبى حفصة لكل بيت ألف درهم ، وقد يغتاظ الممدوح لأن الشاعر لم يوفه حقه ، فيمنعه العطية ويطرده من المجلس ، كما حدث لمروان حينما قصر فى مدح الخليفة المهتدى فقال الخليفة له ألم تقل فى مدحك معن بن زائدة ؟

---

(١) الديوان المخطوط ورقة ٥١ ج ٣

وقلنا أين ترحل بعد معن   وقد ذهب النوال فلا نوالا

وأمر بسحبه من رجله ، فسحب حتى أخرج من مجلس الخليفة ، ومثل هذا يذكى القرائح ويشحذ الهمم ، ويبعث على التفوق والإجادة وبخاصة إذا تكاثر الشعراء على مائدة الشعر ، فان ذلك يقوى روح المنافسة ويكشف عن معادن الشعراء الأصيلة وثبات أقدامهم فى حلبة الادب والشعر .

عاش مع ابن الرومى كثير من الشعراء فى عصره ، تفاوتوا فى القدرة والجودة ما بين نابهين كأبى العتاهية (١٣٠ — ٢١١ ﻫ) وأبى تمام (١٩٢ — ٢٣١ ﻫ) ودعبل الخزاعى (١٤٨ — ٢٤٦ ﻫ) وعلى بن الجهم (٢٤٩ﻫ) والحسين بن الضحاك (١٦٢ — ٢٥٠ ﻫ) والبحترى (٢٨٤ ﻫ) وابن المعتز (٢٤٧ — ٢٩٦ ﻫ) وسواهم ممن لا نعرف عن أحوالهم ومنزلتهم فى الشعر إلا ذكرهم فى شعر ابن الرومى وما وقع بينه وبينهم من خصومات ومنافسة مثل ابن حريث ، والقحطبى والشوكى وابن بوران ، وأبى يوسف الدقاق ، وأبى حفص الوراق ، وابن أبى الجهم ، وابن خنساء ، وابن أبى قرة البصرى وأبى الحسين الخزاعى ، وأبى سويد بن أبى العتاهية ، وابى المستهل . ومن الشعراء من ورد ذكرهم عند الشاعر وعند غيره فى مواطن أخرى وهم : صاعد بن حمد ، وفضل الأعرج الكوفى ، وسوار بن أبى شراعة البصرى ، والبيهق ، وأحمد بن أبى طاهر .

وهناك شعراء آخرون عاصروه وهم أحمد بن سليمان (المتوفى ٢٥٨ ﻫ) وابن عمار صديق ابن الرومى، وأبو عثمان الناجم ، ويدعى ابن الرومى أن أبا عثمان كان تلميذا له (٢) ومحمد بن عبيد الله بن طاهر وأخوه عبيد الله بن عبدالله وقد وجه إليه ابن الرومى شعرا كثيرا وابراهيم بن المدبر وكان وزيرا للمعتضد سنة ٢٦٩ ﻫ

وحفل القرن الثالث بجمهور من الأدباء والنقاد والعلماء والفلاسفة والمفكرين ، وهؤلاء وهؤلاء يسعون لنيل الحظوة عند خليفة أو حاكم أو أمير أو وزير ، بل أصبح كل عالم متأدبا وشاعرا على الأقل فى بعض الأغراض والمقاصد التى يحبها كالغناء والعبث والغزل وكان الأمراء والوزراء يهتمون بالشعر ونقده ، ويحفظون ما يتطارحون به فى مجالسهم الأدبية للاقتدار والمنافسة .

---

(١) ذيل زهر الآداب: الحصرى

(٢) راجع وفيات الأعيان لابن خلكان وزهر الآداب الحصرى

وكان الأمراء والوزراء الأعاجم أكثر اهتماما بالمنافسة والمطارحة ، بل كان منهم شعراء لكى يتقربوا إلى بيت الخلافة ، ويندمجوا فى العرب الذين اختصوا بالبلاغة والفصاحة ولينفوا ما شاع عنهم من لكنة اللسان وتهمة العجمة ، واشتهر من الامراء الأعاجم فى عصر ابن الرومى ، على بن يحى المنجم الذى علا صيته عند الخلفاء العباسيين وكان نديمالهم ، من المتوكل حتى المعتمد ما عدا المهتدى، واشتهر بالعلم والشعر والتاريخ وشغف بشتى الفنون، وخاطبه ابن الرومى كثيرا فى مقطوعات قصيرة[١] ومحمد بن عبدالله بن طاهر الذى كان شاعر ذا ثقافة واسعة ، وبيته ملتقى العلماء والأدباء ، ومدحه ا ن الرومى ولكنه لم يلتفت له أما لبخله او لم يروقه شعره ، وقد عاتبه شاعونا على هذا بقوله :

أيا من ليس يرضيه مديح وعفوة الشتم عنه ليس كثير

ثم هجاه بقوله :

أتيتك شاعرا فهجوت شعرى وكانت هفوة منى وعلطة

لقد اذكرتنى مثلا قديما جزاء مقبل الوجعاء ضرطه[٢]

وأخوه عبيد الله بن عبد الله بن طاهر (— ٣٠٠هـ) رفيق ابن الرومى فى السن ، وكان شاعرا واسع الثقافة ذا موهبة اشتهر بها ، وقد خاطبه شاعرنا فى قصائد كثيرة ، وابن الرومى يمدح هؤلاء الأمراء الأدباء الشعراء ، فلا يلقى منهم جزاء ولا مثوبة ، مع أنه كان يجود القصيدة ويهذبها ، ويعلم أن الممدوح ذا ثقافه واسعة ، وعقلية متحضرة وموهبة فى الشعر ، فيدفعه ذلك إلى زيادة التجويد والتهذيب ، ويغوص وراء المعنى متتبعا ومستقصيا ، فكأن التهذيب والتجويد والنهضة بالشعر ، إنما تقع من اتجاهين : اتجاه الشاعر كابن الرومى مثلا ، لبذل أقصى طاقته الشعرية فيسمو شعره ويتفوق على منافسيه واتجاه الملتقى سواء أكان شاعرا أو عالما أو ناقدا أو مثقفا ، فيأخذه بالتفسير ، وتمييز الجيد من الردىء ، ويكد سعيا لإبطاله إن وجد ثغرة ، أو يرقع له فجوة ليكون هو الناقد أو الشاعر أو العالم ، فيأخذ عن شعر غيره العطية ، وصاحبه هو المحروم ، ولذلك شكا ابن الرومى زمانه ، ونعى حظه فى سماء دولة الصراع الأدبى ، والمنافسة الشعرية

---

(١) راجع ديوان ابن الرومى

(٣) الديوان المخطوط ورقة ٢٦ جـ ٣

قد بلينا فى دهرنا بملوك أدباء علمتهم شعراء
إن أجدنا فى مدحهم حسدونا فحرمنا منهم ثواب الثناء
أو أسأنا فى مدحهم أنبونا وهجوا شعرنا أشد هجاء
قد أقاموا نفوسهم لذوى المد ح مقام الانداد والنظراء(١)

وابن الرومى لا يقول ذلك لاحساسه بضعف شعره ، أو لعيب فى نظمه فهو يعلم جودة شعره ، وروعة تصويره ، ولكن الذى أخمل ذكره ، وأسقط شعره فى عصره إنما هو روح المنافسة وطغيانها ، واستيلاؤها على عقول الأنداد والنظراء ، وغالبا ما يغشيهم الطغيان فيها عن الحقيقة ، ويحجب الاستعلاء العقل والقلب عن الصواب :

أقاموا نفوسهم لذوى المد ح مقام الانداد والنظراء(٢)

وابن الرومى عند ما يثق فى ذوق ممدوحه ، ويطمئن إلى عمق إدراكه ، وصحة فهمه ، فانه يعطيه صورا رائعة من أعماق ذاته ، وفيض وجدانه ، وعمق إحساسه ، ولكنه لايفتأ أن يعود إلى الحقيقة ، فالممدوح وعصره صنوان والجميع لا يهتزون لعظمة نظمه وخلود تصويره ، فيتجه ابن الرومى إلى العتاب الرقيق الذى يشفق فيه على صاحبه أبى القاسم الشطرنجى والذى كان ينبغى أن يسجد لشعره حين يقول :

ربما هالنى وحير عقلى أخذك اللاعبين بالبأساء
ورضاهم هناك بالنصف والربع وأدنى رضاك فى الإرباء
واحتراس الدهاة منك وأعصا فـك بالأقوياء والضعفاء
عن تدابيرك اللطاف اللواتى هن أخفى من مستسر الهباء
بل من السر فى ضمير محب أدبته عقوبة الإفشاء
فأخال الذى تدير على القوم حروبا دوائر الأرجاء
وأظن اقتراسك القرن القر ن منايا وشبكة الأرداء
وأرى أن رقعة الادم الأحمر أرض علتها بدمـــاء
- غالط الناس لست تلعب بالشطرنـ ج لـكن بأنفس اللعباء

(١) الديوان المخطوط ورقة ١٠ جـ ١
(٢) الديوان المخطوط ورقة ٦ جـ ١

انت جديها وغيرك من يلـ ... ـعب إن الرجال غير النساء
لك مكر يدب فى القوم أخفى ... من دبيب الغذاء فى الأعضاء
أو دبيب الملال فى مستهامين ... إلى غاية من البغضاء
أو مسير القضاء فى ظلم الغيب ... إلى من يريده بالتواء
أو سرى الشيب تحت ليل شباب ... مستمر فى لمة سمحاء
دب فيها لها ومنها إليها ... فاكتست لون رثة شمطاء
تقتل الشاة حيث شئت من الرقعة طبا بالقتلة النكراء
غير ما ناظر بعينيك فى الدست ولا مقبل على الرسلاء
بل تراها وأنت مستدبر الظهر بقلب مصور من ذكاء
ما رأينا سواك قرنا يولى ... وهو يردى فوارس الهيجاء(١)

فالشطرنجى بلغ من الذكاء والحيطة والحذر والقدرة على المدارة ،والوصول إلى مايهدف ، من غير أن يشعر أحد بذلك مبلغا كالماء يندفع إلى مهواة ، ويعمق مجراه ، ويوسع مخدعه ، هكذا كان صاحب ابن الرومى يلعب بالنفوس ، بينما الناس تلعب بالشطرنج له مكر يدب فى القوم دبيب الغذاء فى الأعضاء ، أو دبيب الملال فى مستهامين إلى أحبة قد استحال بينهم التلاق ، أو هبوط على صاحبه من مأمن لا يحذره ، أو سريان الشيب فى لمة الشباب السوداء. كيف لا يندب ابن الرومى حظه ، حتى مع من وثق بهم كأبى القاسم الشطرنجى ، وقد نفض يده من منافسيه الملوك والشعراء .

صحيح أن عصر ابن الرومى كان عصر المنافسة فى الشعر ، والصراع فى جودته فقد شغل الناس به ، وقل أن يخلو مجلس من ذكر الشعر والشعراء فى زمن طغت فيه مظاهر الحضارة من اللهو والغناء والطرب ، والمجالسة والمنافسة ، وهذه لا تقوم إلا على الشعر والتندر به ، بل هو معدنها الأصيل .

قال محمد بن يحيى الصولى ، كنا يوماً نأكل بين يدى المكتفى فوضعت بين أيدينـــا قطائف رفعت من بين يديه فى نهاية النضارة ، ورقة الخبز وإحكام العمل ، فقال هل وصفت الشعراء هذا ؟ فقال له يحيى بن على نعم قال أحمد بن يحيى فيها :

قطائف قد حشيت باللوز ... والسكر الماذى حشو الموز
تسبح فى آذى دهن الجوز ... سررت لما وقعت فى حوزى

(١) الديوان المخطوط ورقة ٧ جـ ١

سرور عباس بقرب فوز[1]

قال : وانشدت لابن الرومى « وأتت قطائف بعد ذاك لطائف » فقال هـذا يقتضى ابتداء ، فانشدنى من أوله ، فأنشدته لابن الرومى :

وخبيصة صفراء دينارية ثمنا ولونا زفها لك جوذر

الخ الابيات التى ستأتى فيما بعد فأستحسن المكتفى الابيات وأومأ إلى أن أكتبها له فكتبتها[2] .

وقال : محمد بن يحيى كذلك فى موضع آخر ، وأكلنا يوما بين يديه بعد هـذا بشهر ، فجاءت لوزينجه فقال : هل وصف ابن الرومى اللوزينج ؟ فقلت نعم ، فقال : أنشدنيه فانشدته :

لا يخطئنى منك لوزينج إذا بدا أعجب أو عجبا
لم تغلق الشهوة أبوابها إلا إذا أبت زلفاه أن يحجبا

فحفظها المكتفى فكان ينشدها[3] :

هكذا كان لا يخلو مجلس إلا ويذكر من فيـه الشعر ، ويهتزون للرائع ويكتبونه ويحفظونه ، مما يدفع الشعراء إلى الاتيان بما هو أعجب ، وهذا مجلس آخر يقول فيه محمد بن يحيى : « كنت يوما عند عبيد الله بن عبد الله بن طاهر فذكرنا قصيدة ابن الرومى فى أبى الصقر التى أولها :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان

فقال عبيد الله : هى دار البطيخ فضحك الجماعة فقال : اقرؤا تشبيهاتها فانظروا هى كما قلت ؟ قال محمد : وقد ملح عبيد الله وظرف ، وهذه القصيدة أكثر من مائتى بيت ، مر له فيها احسان كثير ، ومن تشبيهها مما يدل على قول عبيد الله :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان فيهن نوعان تفاح ورمان
وفوق ذينك أعناب مهدلة سود لهن من الظلماء ألوان

الخ .

---

(١) والذى أراه أن هذه الصورة لابن الرومى لأنها تتفق مع روحه فى التصوير وله فى أمثالها كثير ثم نص البعض على انها له فى مواطن اخرى .

(٢) مروج الذهب المسعودى ج ٤ ص ٢٨٨

(٣) مروج الذهب المسعودى ج ٤ ص ٢٨٨

فلما سمع أبو الصقر قوله(١) :

هذا الذى حكمت قدما يسؤدده ... عدنان ثم أجازت ذاك قحطان

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم ... كلا لعمرى ولكن منه شيبان

قال هجانى والله : قيل له هذا من أحسن المديح اسمع ما بعده

وكم أب قد علا بابن ذرى شرف ... كما علا برسول الله عدنان

فقال أنا بشيبان ، وليست شيبان بى ، قيل له : فقد قال :

ولم أقصر بشيبان التى بلغت ... بها المبالغ أعراق وأغصان

لله شيبان قوم لا يشيبهم ... روع إذا الروع شابت منه ولدان

فقال : والله لا أثيبه على هذا الشعر وقد هجانى فيه(٢) .

وحينما طعن على بن سليمان الأخفشى فى شعر ابن الرومى نكاية به وتهييجا لنطيره ، وبخاصة بعد أن صالحه ومدحه ، وقبل عذره ، وجه إليه هجاء مرا شديدا يرميه فيه ، بأن شعره لا يترق إليه أمثاله ، فليس عليه أن يفهم الكلاب والقردة والطير والبهائم .

والأخفشى حينما اعتذر إليه ، وتشفع عنده بجماعة من أهل بغداد ، وكان الأخفش من أكثر الناس إخوانا فقبل عذره ، ومدحه بقصيدته التى يقول فيها :

ذكر الأخفش القديم فقلنا ... إن للأخفش الحديث لفضلا

الخ .

ثم عاد على بن سليمان إلى أذاه ، واتصل به أن رجلا عرض عليه قصيدة من شعره فطعن عليها ، فقال قصيدته التى يقول فيها :

ما بلغت بى الخطوب رتبة من ... تفهم عنه الكلاب والقردة

ولا أنا بالمفهم البهائم والطير ... سليمان قاهر المردة

الخ . . .(٣)

هـــذا اللون من الاحتكاك يولد الطاقة الشعرية ، ويفجر ينابيع العبقرية فى الشعر ، ويشحذ الإلهام والخيال ، ليكون ابن الرومى نفسه ملكة فى التصوير ، وبارعا فى التعبير والتنسيق .

---

(١) اسماعيل بن بلبل

(٢) الموشح : ابو عبد الله المرزبانى ٥٤٥ ، ٥٤٦

(٣) زهر الاداب : الحصرى ج ٢ ٤٩٧

وفى المجالس تعرض الأشعار ليميز الخبيث من الطيب ، ويعرض الشعر على صاحبه ، لينظر الشاعر فيه مرة ومرة ، ويعيد صقله وتهذيبه ، كما فى القصيدة المهرجانية ، التى هذبها ابن الرومى وأطالها ، واعتذر بعد ذلك لعبيد الله عما كان فيها قبل التهذيب يقول :

قصيدة كرها مثقفهـــا ... عليك أن ثقفت على مهل
أعجلها الوقت عن رياضتها ... فأقبلت ريضاً على عجل
لم أحتشم كرهاً عليك ولا ... سدى منها مواضع الخلل
لأنى عالم بأنك لا تعتب فيـ ... ـما أصلحت من عمـــل
وليس مثلى ينام من خلل ... فى مدح ممدوحه ولا زلل(١)

وأهل المجالس يعرضون الشعر الرائق والجيد لغير الشاعر ليدفعوه إلى السبق ، ويشعلوا فى قلبه نار المنافسة والاقتدار .

حكى ابن درستويه أن لائماً لامه فقال : له (أى لابن الرومى) لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال ألا تنشدنى شيئاً من قوله الذى استعجزتنى عن مثله ؟ فأنشده قوله فى الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال له : زدنى فأنشد قوله فى الآذريون الأصفر وهو زهر أصفر فى وسطه خمل أسود ، وليس بطيب الرائحة ، والفرس تعظمه بالنظر إليه وفرشه فى المنزل .

كأن آذريونهـــا ... والشمس فيه كاليه
مداهن من ذهب ... فيها بقايا غاليـــة

فصاح : واغوثاه تا لله لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذلك إنما يصف ما عون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شىء أصف ؟ ولكن أنظر إذا وصفت ما أعرف أين يقع قولى من الناس ؟ هل لأحد قط مثل قولى : فى قوس الغمام .

وساق صبيح للصبوح دعوته ... فقام وفى أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقـــار كأنجم ... على الجو دكنا والحواش على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر ... على أحمر فى أصفر إثر مبيض
كأذيال خوذ أقبلت فى غــلائل ... مصبغـــة والبعض أقصر من بعض

وبعضها ينسبها لسيف الدولة بن حمدان منهم صاحب اليتيمة .

---

(١) المخطوط ورقة ١٨٩ جـ ٣

وقوله فى صانع الرقاق :

إن أنس لا أنس خبازاً مررت به يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر

الخ :

وقوله فى قالى الزلابيـة :

ومستقر على كرسيــه تعب روحى الفداء له من منصب نصب

الخ . .(٢)

ولا يظن القارىء أن ما ذكر للدلالة على مدى تأثر ابن الرومى بابن المعتز أو العكس، لأن ابن المعتز لم يشتهر شعره ولم يجر على ألسنة الناس إلا حين جاوز ابن الرومى الستين من عمره وهو يتعاظم حينئذ عن التعلم والاقتباس .

ولـكن ما أقصده أن مثل هذا اللوم ، وذلك النقد ، دفع الشعراء ومنهم ابن الرومى إلى المنافسة والتجويد والتهذيب .

أما الشاعران اللذان أثارا كل منهما الآخر ، وأذكيت روح المنافسة الشعرية بينهما ، وحمى وطيس الصراع الادبى فهما أبو عبادة البحترى الذى نال الحظوة عند الخلفاء والأمراء وابن الرومى الذى ابتلى بعظمة البحترى وموسيقاه الشعرية التى ملأت آذان المجالس والسمار فى عصر الغناء والطرب ، حتى لقـد أغلق البحترى على صاحبه كل باب للرزق فى الدولة فانطوى ابن الرومى على نفسه ، ليهذب شعره وينقح فنـه ، وكلما أحس بخلوته وانطوائه زاد إصراراً على استقصائه ، وتحليقا فى تصويره وكلاهما سما بفنه فى دولة الشعر، لـكن هذا فى الغرب وذاك فى الشرق ، وهما معاً فى السماء .

وكان أبو عثمان الناجم هو حبل الواسطة بين الشاعرين فى المعرفة والتلاقى ، وكان اللقاء فى بيته وهو بيت صديق ابن الرومى الذى لازمه وروى عنه وتأثر به ، ورتب الناجم أمره لساعة اللقاء ؛يقول أبو عثمان سعيد بن الحسن الناجم . أن البحترى قال له : « أشتهى أن أرى ابن الرومى » قال . فوعدته ليوم بعينه وسألت ابن الرومى أن يصير إلى ، فأجابنى إلى ذلك ، فلما حصل ابن الرومى عندى وجهت إلى البحترى فصار إلى فقال له البحترى . قد أقرأنى أبو عيسى بن صاعدة قصيدة لك فى أبيـه ، وسألنى عن الثواب عنها ، فقلت :

---

(١) معاهد التنصيص : عبد الرحيم العباسى ج ١ ١٠٨ : ١١٠ ، العمدة لابن رشيق ج ٢ ص ٢٣٦ و٢٣٧ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، والانسب وشك اللمح بالصبر كما فى الديوان المخطوط ورقة ٣٦٠ ج ٢

أعطوه لكل بيت ديناراً ثم تحدثنا فقال البحترى : عزمت على أن أعمل قصيدة على وزن قصيدة ابن الرومى الطائية فى الهجاء ، فقال له ابن الرومى ، إياك والهجاء يا أبا عبادة فليس من عملك وهو من عملى فقال له : نتعاون . وعمل البحترى ثلاثة أبيات وعمل ابن الرومى ثمانية فلم يلحقه البحترى فى الهجاء ، وكان اجتماعهما عندى سبباً للمودة بينهما .(١) والبحترى هو الذى أراد أن يجارى ابن الرومى ، فى طائيته وينسج على منوالها وكأنه يشعر بتفوقها على شعره ، فحاول ذلك وأراد تهذيب شعره ، وأن يسمح له ابن الرومى بالمجاراة فى التصوير والمعارضة .

ومع هذا لم يشتهر ابن الرومى لشهرة البحترى فى عصره، لذيوع شعره فى الآفاق ، مع ثقته بشاعريته ، فانبرى له شاعرنا يهجوه ويقلل من منزلته فى الشعر واتهمه بالسرقة والنهب والإغارة على سلب السابقين أرباب الشعر والبلاغة :

قبحاً لأشياء يأتى البحترى بها ... من شعره الغث بعد الكد والتعب
عبد يغير على الموتى فيسلبهم ... حر الكلام بجيش غير ذى لجب
ما إن يزال تراه لابساً حللا ... أسلاب قوم مضوا فى سالف الحقب
يا بحترى لقد أقبلت منقلباً ... يوم اكتسبت هجائى سر منقلب
قد كنت تعرف منى فى الرضا رجلا ... حلو المذاقة فاعرفنى لدى الغضب
تعرف فتى فيه طوراً مجتنى سلع ... للمجتنين وطوراً مجتنى رطب(٢)

لكن أبا عبادة البحترى تلقى هجاءه بصدر رحب لأنه اطمأن إلى شعره ومنزلته من الدولة واستغراقه فى المنح والعطايا ، التى يتقلب فيها صباح مساء ، فرد على الهجاء بالاشفاق والعطف على ابن الرومى ، ليسيل لعابه ويرطب لسانه ، فلا يجف ولا يقصف بالهجاء مرة أخرى فأرسل إليه تخت متاع وكيس دراهم ، وهجا ابن الرومى البحترى ، وابن الرومى من علمت فاهدى إليه تخت متاع وكيس دراهم وكتب إليه ليريه أن الهدية ليست تقية منه ، ولكن رقة عليه ، وأنه لم يحمله على ما فعل إلا الفقر والحسد المفرط :

شاعر لا أهابه ... نبحتنى كلابه
إن من لا أعزه ... لعزيز جوابه(٣)

---

(١) الموشح : المرزبانى ص ٥٤٣

(٢) بالديوان المخطوط ورقة ٨٥ ج ١

(٣) العمدة ابن رشيق ١١٠ ج ١ تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد .

والبحترى زميل المنافسة ، ورفيق الصراع أما دعبل الخزاعى الشيعى العلوى الذى مات وتلميذه ابن الرومى فى الخامسة والعشرين من عمره ، فكان الاستاذ بحق لشاعرنا الذى اعتنق مذهبه الشيعى وأفصح عن مذهبه العلوى فى قصيدته الجيمية المشهورة ، فقد التقى الرجلان فى هوى ، وسما معا فى فن الشعر ، ولا أحب على التلميذ أن يقلد أستاذه ويعارض أعماله ، لا نكرانا لفضله ولكن إتماما لنهجه ، ونتاجا لثمرته وامتداداً لحياته الأدبية ومنافسة فى إظهار براعته الشعرية ، وقدرته الفنية ، فقد قرأ له الكثير وتأثر به وعارضه فى ثائيته التى قال دعبل فى مطلعها .

أتيت ابن عمرو فصادفته مريض الخلائق ملتاثها

وعارضه ابن الرومى فى قصيدة منها فى المطلع .

قواف أبى الوفد إبريزها فأخرجت للوغد أخباثها

وعارضه ابن الرومى فى قصيدة أخرى يقول فيها .

أسر المؤذن صالح وضيوفه أسر الكمى هفا خلال المقاط

وابن الرومى كعادته طويل النفس ، سخى البذل ، فأطال وأطال : منها

طبخوه ثم أتوابه قد أبرمت أوتاره لمناذف ومرابط[1]

والمعارضة بالغة ما بلغت هى عماد النهضة الشعرية ، وعصب البعث الأدبى ، فهى الطريق الصلب القوى الذى ينتهى إلى الإبتكار والتجديد ، فكل عصر يحتاجها ليبنى نهضته الحضارية على أسسها ، وتبسق فروعه الناضرة الناضجة من جذورها وجذوعها ، ولولا معارضات البارودى للنابهين من الشعراء ومجاراته لنوابغ الأدباء ، لما كان عصره عصر الاحياء والبعث ، ولظل الأدب يخبط فى ظلام العثمانيين ، وعجمة الأتراك وبعث البارودى كان هو الاساس لأنه انتج النهضة الأدبية الحديثة ، التى نتفيأ الآن ظلالها .

هكذا يكون فضل المعارضة فى كل عصر ، مع العباقرة كابن الرومى ، وأمثاله كثير فى الأدب العربى ؛ وشاعر آخر لا يقل شأنا عن دعبل أعجب به ابن الرومى ، وشد نظره وعكف على أدبه لظرفه ، وهو الحسن بن الضحاك :

يقول محمد بن الفضل الأهوازى : « سمعت على بن العباس الرومى يقول : حسين بن الضحاك أغزل الناس وأظرفهم فقلت حين يقول ماذا ؟ فقال : حين يقول .

---

(١) سيأتى الحديث عنهما بالتفصيل فى الفصل الخامس

يا مستعير سوالف الخشف　　إسمع لحلفة صادق الحلف
إن لم أصح ويلى وياحزنى　　من وجنتيك وفترة الطرف
فجحدت ربى فضل نعمته　　وعبدته أبدا على حرف(١)

وحين يتأثر ابن الرومى فى المعنى السابق يقول :

يا وجنتيه اللتين من وهج　　فى صدغيه اللذين من دعج

وإذا قال الحسن بن الضحاك :

لو وحبيك لا أصا　　فح بالدمـــع مدمعاً
من بكى شجوه استرا　　ح وإن كان موجعا

يقول ابن الرومى معجباً بأدبه متأثراً به فى شعره ، مع بروز شخصيته فى التتبع والإمعان والإستقصاء فى المعنى من غير أن يلقى بالا لما طبع عليه أستاذه من الصقل والأناقة والظرف .

عينى شحا ولا تسحا　　جل مصابى عن البكاء
تركـكما الداء مستكنا　　أصدق عن صحة الوفاء(٢)

كان الشاعر حين ينظم القصيدة ، يعلم أنها ستدور على الألسنة ، التى تلهج بالثناء عليها صدقا أو تملقا ، وستطرح فى المجالس والمحافل ، لتعمل فيها العقول ، وتستجلى ما فيها من ترابط بين معانيها ، وإتحاد بين اجزائها ، مع شرف المعنى وصحته ، ولطفه وندرته وتهتز لها الأذواق المستقيمة الصحيحة ، وتطرب لها النفوس الشاعرة ، ثم بعد ذلك يخشى على عمله من العدو والحاقد ، بان يهيل عليها التراب ويسبغ عليها العفار ، وهذا ما يحمل ابن الرومى خاصة ومن عاصره من الشعراء عامة ، يفترض فى عمله جميع العلل وشتى الإحتمالات ،فاذا أحس أن المعنى غير مكتمل وأن الفكرة ناقصة ، ألح عليها يصرفها على كل وجه ، وذهب معها فى كل وجهة ، أو شعر بأن صورته الشعرية غير مستوية شفعها بلفظ ، أوصورة ثانية ، أو بيت لاحق ، أو يحيلها فى وجدانه ، ويصبغها من أعماق نفسه ، فلا تند عنه شاردة ولا يترك وارادة ولا تخفى عليه همسة ، ولا تفوته لمسة ، وحق لابن رشيق حين وصفه بقوله : « وكان ابن الرومى ضنينا بالمعانى حريصاً عليها يأخذ المعنى الواحد ويولده فلا يزال يقلبه ظهرا لبطن ، ويصرفه فى كل وجـه وإلى كل ناحية حتى يميته ، ويعلم ألا مطمع

(١) الأغانى : الأصفهانى جـ ٦ ص ١٧٩
(٢) المرجع السابق جـ ٦ ص ١٧٩ ، ١٨٠

فيه لأحد[1] .

أفلا يستحق ابن الرومى بعد هذا الجهد أن يكرم لشعره ، ويرتفع بفنه ولفنه ، حين يعرض على الناس عمله ، فيرضى عن نفسه ، ولكن القليل بل الأقل منه ، هو الذى يحكم له ، ويشفع لشعره . ذكر الحصرى « قالوا : وكان الناس يتشوفون إلى أوطانهم ، ولا يفهمون العلة فى ذلك ، حتى أوضحها على بن العباس الرومى . فى قصيدة لسليمان بن عبد الله بن طاهر ، يستعديه على رجل من التجار ، يعرف بابن أبى كامل ، كان قد أجبره على بيع داره ، واغتصبه بعض جدرها بقوله :

ولى وطن آليت ألا أبيعه	وألا أرى غيرى له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب منعماً	بصحبة قوم أصبحوا فى ظلالكا
وحبب أوطان الرجال إليهم	مآرب قضاها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم	عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
فقد ألفته النفس حتى كأنه	لها جسد إن بان غودر هالكا

. . . . . إلخ

وقال على بن عبد الكريم النصيبى أتانى أبو الحسن الرومى بقصيدته هذه وقال : انصفنى وقل الحق . . . أيهما أحسن قولى فى الوطن أو قول الأعرابى :

أحب بلاد الله ما بين منعج	إلى وسلمى أن يصوب سحابها
بلاد بها نيطت على تمائمى	وأول أرض مس جلدى ترابها

فقلت : بل قولك لأنه ذكر الوطن ومحبته وأنت ذكرت العلة التى أوجبت ذلك[2] .

وقد سبق ذكر ما حدث فى مجالس المكتفى الأدبيه وكيف أعجب بشعر ابن الرومى ، وانبهر منه حتى شوقه إلى ما يهدف إليه ابن الرومى ، وتلك المحاورة الأدبية التى وقعت بين الشاعر والبحترى ، وخرج منها الأخير نافضاً كفه من فن الهجاء ، بعد أن سلم له الأمر وطلب منه المعونة ، ومع ذلك كان ابن الرومى هو فارس الإجادة والتفوق وغير ذلك من القليل الذى قهره شعر ابن الرومى ، ليمدح فى النهاية شعره ويمجد فنه .

أما الكثرة من أهل عصره ، فتتحكم عليه وتطعن فى شعره ، وتسفه قوله ، إما حقداً أو بغضاً أو جهلا ، أو قلة ، فقد عاب الناس شعره وضنوا عليه بما يكفل له العيش والحياة .

---

(١) العمدة ابن رشيق القيروانى ج ٢ ص ٢٣٨

(٢) زهر الآداب الحصرى ج ٣ ص ٦٩٤

عما دفعه — حفاظاً على حياته وحباً لغريزة البقاء — إلى الإستجداء والإلحاح فيه ، وطلب النوال والتمادى فيه ، حتى مله الناس وكرهوه ، وعابوا تبذله كما عابوا قريضة ، ولعل هذا البخل لمن اتصل بهم ابن الرومى ، وأطال فى مدحهم لا يرجع فى كل أسبابه إلى الممدوحين أنفسهم أكثر مما يرجع إلى طبيعة عصر الشاعر ، فقد توزع العطاء بين الشعراء والأدباء وأرباب العلوم الحديثة والفلاسفة والندماء ، فكثر طلاب المنح والعطايا ، وأمسك أهل الفضل والكرم بمقدار وقدر ، ووزعوا مايسمحون به على من حضر ، وهم كثير ، والشعراء أنفسهم قد تكاثروا وكان من بينهم بعض الخلفاء والأمراء والوزراء والشعراء والأدباء ، وهم فى أنفسهم مظنة البذل وموطن العطاء فى حلبة الشعر ومطارحة الأشعار ، وحسن تذوقهم للشعر ، وحفظهم له وفيضان قريحتهم به أحياناً ، واستقامة نقدهم له ، جعلهم لا يهتمون بمدح غيرهم لهم ، والثناء عليهم لأنهم أصبحوا شعراء لا يحتاجون إلى ثناء غيرهم ، وأصبحوا يجيدون الشعر ويحسنونه ووجهوا ما ينبغى أن يكون منحاً وعطايا إلى مجالس اللهو والطرب والغناء والشرب والمنادمة واقتناء الضياع والإفتنان فى العمران ووسائل اللذة والنعيم .

وانصرفوا عن العطايا والمنح لانشغالهم بأمور السياسة والحكم ، وبث النزاع فى صفوف الحكومة وإشاعة الفتنة فى قصر الخلافة ، ليتمكن هؤلاء وهؤلاء من كراسى الحكم ، وزمام السلطة ، فالأمير يقتل أباه ليكون خليفة ، وأعوانه يساعدونه على القتل ، ليستولوا على الوزارة والحكم ، وتقلد منصب الخلافة فى حياة الشاعر ثمانية خلفاء كان يكفى لهذه المدة لو استقام الأمر خليفتان أو ثلاثة ، واصطحب أيضاً كل خليفة معه وزارة جديدة تهدم ما سبق ، وتبنى لنفسها من جديد وفى الهدم والبناء ، الضياع والفناء .

فلا عجب أن يضيع أمثال ابن الرومى وسط هذه الفتن ، وذلك الجشع ، بل كان ذلك دافعاً قوياً لانطوائه على نفسه ويأسه من مجتمعه وكان لهذا الانطواء وذلك اليأس ، الشأن الأكبر فى جودة شعره والإرتقاء بفنه وصوره فبقى شعره عوضاً عن أمته ، فيما أصابها من فتن وصراع ، وجشع وطمع .

وهؤلاء الذين عابوا شعره ، قد عابهم ابن الرومى ورماهم بالغفلة والجهل ، وتابعهم فى ذلك حتى هجاهم فيقول :

قولا لمن عاب شعر مادحه   أما ترى كيف ركب الشجر
ركب فيه اللحاء والخشب اليا   بس والشوك بينه الثمر

وكان أولى بأن يهذب ما ... يخلق رب الأرباب لا البشر(١)

ويقول :

يا شاعرى أمسى يحوك مديحه ... فى شر جيل شر أهل زمان
ذهب الذين يهزهم مداحهم ... هز الكماة عوالى المران (٢)

ويقول :

ما خمدت نارى ولكننى ... ألقى قلوبا نارها خامدة
قد حدثت فى دهرنا أنفس ... تستبرد السخينة لا الباردة
كما تعاف الطيب المشتهى ... من الطعام المعدة الفاسدة(٣)

ويقول :

فانما أنا ليث ... عاد وأنت كليب
قد تحسن الروم شعرا ... ما أحسنته العريب(٤)

ويقول :

عابو قريضى وما عابوا بمعرفة ... ولن ترى الشمس أبصار الخفافيش
أبعدما اقتطعوا الأموال واتخذوا ... حدائقا وكروما بعد تعريش
يحسدونى وبيتى بيت مسكنة ... قد عشش الفقر فيه أى تعشيش(٥)

والشاعر الواثق بنفسه الماهر فى عمله ، العبقرى فى صناعته ، يمضى ولا يخشى أحدا لانه يرى أن الحياة تسير وتمضى ولا تتوقف بجمود العقل وفتور الذوق ، والعبقرى إنما ينبت فى عصر يطرده ويأباه ، وهو ثابت فيه كالصخر ليؤدى رسالته ويحاربه ويتصدى له ، مع إنه يفنى روحه ، ويذبل جسده ، ليغير من العصر وأهله ، وكأن حياته ضريبة يدفعها لعصره ، فيبنى نهضة الأمة من جسده الذى يذوى شيئا فشيئا ، وونبتها من راحته وسعادته التى تتلاشى قليلا قليلا ، فيموت العبقرى ويشقى ، لتسعد الأمة وتسمو ، كل فى مجاله العلمى والفنى والأدبى ، وهذا هو الشأن فى أصحاب الدعوات وأرباب الرقى والنهوض فى كل أمة وفى كل زمن .

---

(١) الديوان المخطوط ورقة ٣٢٦ جـ ٢
(٢) المخطوط ورقة ٣٤٦ جـ ٤
(٣) الديوان المخطوط ورقة ٢٠٨ ، ٢٠٩ جـ ٢ .
(٤) الديوان المخطوط ورقة ٥٥ جـ ١
(٥) المخطوط ورقة ٤١٣ جـ ٢

لذا كان ابن الرومى غريبا بين أهله ، ووحيدا فى فنه ، وفريدا فى تصويره ، وهو يعرف نفسه وفنه ، ويثق فيهما ، ويعجب لهما ، وإن جهله الناس ؛ فقوافيه سارت شرقا وغربا ؛ وضربت فى الأرض سائرات، وربما فى زمن غير زمانه الذى أنكره وجافاه يقول:

شعرى شعر إذا تأمله الإنسا ... ن ذو العقل والحجا عبده[1]

ويقول مفضلا شعره عن فعل السيوف فى الانتصار :

إن يخدم القلم السيف الذى خضعت ... له الرقاب ودانت خوفه الامم

فالموت والموت شىء لا يغالبه ... ما زال يتبع ما يجرى به القلم

كذا قضى الله للأقلام مذ بريت ... أن السيوف لها مذ أرهفت خدم[2]

(٥)

الاختلاف فى تكوين ابن الرومى :

هذا العامل إنما جئت به تتميما لمجموع العوامل التى أثرت فى شاعرية ابن الرومى وتصويره الأدبى ، وإن كنت سأقتصر فيه على ما كتب حوله حديثا ، إلا قليلا فى بعض التفسيرات والتعليلات والتحليلات ، لبعض الظواهر فى الاختلال عند الشاعر ، لأن الأمر يرجع إلى علماء الطب والتشريح الذين وصلوا إلى أن للجهاز العصبى وللجهاز الجنسى وللغدد الصماء أثرا فعالا فى اختلال العقل ، وضعف المخ ، وهزال الجسد وهوان البنية .

وليس المجال هنا عرض النظريات العلمية الحديثة فى هذا الشأن الذى وصل اليه علماء الطب والتشريح ، ولكن يكفى الإشارة السريعة مع الإكتفاء برجوع القارىء إلى المراجع[3] التى توضح ذلك[4] .

---

(١) المخطوط ورقه ٢٤٧ جـ ٢

(٢) المخطوط ورقه ٢٩٤ جـ ٤

(٣) آفة الناقد الأدبى : محمد النويهى ٨١ إلى ١٢٨

(٤) يرى المتخصصون أن صغر الرأس وضعفها ، وخفة الوزن فى المخ ، وقلة المادة السمراء فيه ، يؤدى هذا إلى اختلال العقل وهبوطه عن المستوى العادى ، أو حدته وزيادته فوق العادة حتى يصل صاحبه إلى مرتبة الجنون ، وقد مثلوا لذلك بالفيل فهو على ضخامته ، وكبر حجمه يمتاز بمخه الصغير الذى يقل كثيراً عن مخ الإنسان العادى وبدرجات متفاوته .

أما الجهاز العصبى الذى يتكون من المخ والعمود الفقرى وجميع الخلايا والشعيرات المنتشرة فى كل أجزاء الجسم . فالأعصاب هى الطريق الذى يوصل لجميع ما يطرأ على الجسم إلى المخ ، فان كانت جيدة التوصيل ، كان الإنسان شديد الحساسية وإن كانت رديئة التوصيل كان الإنسان متبلد الإحساس، ويكون عادى الإحساس لو كان بين هذا وذاك .

ومن المتعذر أن نطبق هذه النظريات الحديثة على شخصية ابن الرومى ، لأن البحث

←وعجز الجهاز العصبى عن الملاءمة بين صاحبه وبين ما يحيط به من مطالب الحياة والواقع ، يؤدى إلى الاختلالات العصبية فتدفع صاحبها إلى الهروب من الواقع كله وهذا ما يسمى بالجنون .

وأما الجهاز الجنسى فهو أساس التفريق فى نوعى الإنسان من ذكر وانثى ، ولكل نوع طابعه الخاص فى أدبه وشعره ، حين يدرس أدب كل منهما وشعره وانتهى إلى أن الحيوان الواحد يكون ذكراً وانثى فى نفس الأمر ، وليس هناك حيوان ذكر وحيوان أنثى فينتج الذكر حيواناً منوياً والانثى بويضه وبامتزاجهما ينشأ الجنين ثم يتغلب أحدهما على الآخر وبظهور الجنين فى الحياة والواقع ، يمر بمراحل تتصل بالجنس وتؤثر فى حياته تأثيراً كبيراً أولاها : مرحلة الحب الذاتى وفيها يحب الطفل نفسه ، وإن لم يجتز هذه المرحلة فانه يظل طول حياته غير عادى وهذامايسمونه «بالبنفسجية» فى الأدب، فان اجتازها إلى المرحلة الثانية : فالطفل فيها يحب طفلا آخر من نوعه فالذكر يحب الذكر ، والأنثى تحب الأنثى ، وإن لم يتخط هذه المرحلة يصاب فى حياته بالنواسية والهيام بالمذكر ، ثم تأتى المرحلة الأخيرة والثالثة : والشخص فيها يحب جنسا مضادا فالفتى يحب فتاة وكذلك الأمر بالعكس .

وفى هذه المراحل تتغلب النوعية من الذكورة أو الأنوثة فيكون الفرد ذكراً أو أنثى ويقوم بعملية المساعدة فى إظهار التخصص النوعى ما تفرزه الغدتان الجنسيتان ، وهما الخصيتان والمبيضان من الهرمونات فان كثرت الهرمونات الأنثوية ، ظهرت الأنوثة وإن تغلبت الهرمونات الذكرية وضحت الذكورة كما أن هذه الهرمونات لها تأثير على نمو الأعضاء الجنسية نفسها .

هذا من حيث التركيب الجسدى ، أما من حيث أثره فان اختل الجهاز الجنسى عن دوره العادى ، كان له آثاره فى اضطراب النفس والحالة الجنسية ، وقد يتأثر الجهاز الجنسى ، بمؤثرات خارجية كالمقاييس الدينية والأحوال الاقتصادية والإجتماعية فالخلق يمنع من جموح الشهوة فى غير ما أحل الله ، وسوء الحالة المادية والإجتماعية تفسد حياة الشخص وتعكر مزاجه كذلك فيؤدى هذا وذاك إلى معظم الإختلالات النفسية والجنسيه التى يعانيها الشباب فى هذه المراحل مما يكون له الاثر على حياته كلهاونشاطه المختلف فى هذه الحياة .

وأما الغدد الصماء فى الجسم وهى الغدة النخاميه والدرقيه • وما فوق الكليتين والجنسيتان فهى جميعا تقوم بافراز مواد كيماويه تعمل فى المحافظه على تنظيم وظائف الجسم ، وتنسيق نشاطه والتوازن فى نموه ، فلا تسرع فى الزيادة ولا تقلل من الافراز • وكلاهما له تأثير بالغ فى نفسيه الانسان ومزاجه من دوام الفرح أو الحزن والعبوس أو التشاؤم ، والكسل أو شدة النشاط والحركة ، والإنعزالية أو الإجتماعية ، والغطرسة أو الاعتزاز ، وشدة الذكاء أو الغباء .

فالزيادة فى إفراز الغدد أو التقليل منها يجعل الشخص غير عادى فى نشاطه وجسمه وتصرفاته فى الحياة وعقله ، بل إن ضعف غدة واحدة أو ضعف المخ أو الجهاز العصبى يؤثر على سائر الجسم والعقل ، فيشمل جميع عناصر الإنسان العصبية والجسميه والجنسية والعقليه والنفسيه .

وقد أجرى العلماء التجارب والبحوث على كل ما سبق ، مما أكد صحه نظرياتهم وسداد رأيهم فى اكتشافاتهم الحديثه . من المراجع ثقافه الناقد الادبى . د: محمد النويهى ص ٨١ : ١٢٨

الدقيق يفرض على الباحث أن يعرض ابن الرومى حيا لكون معرضا لتطبيق هذه النظريات عليها ، وحتى لو كان حيا فمن العسير بمكان أن نقوم باجراء التجارب عليه والتشريح فى أجزائه لما فى ذلك من الخطورة على الشاعر؛ وليست شخصية ابن الرومى مثل أية شخصية فى التكوين والتركيب هذا من ناحية ،

ومن ناحية أخرى فإن نظريات العلم ترتبط دائما بالعقل الإنسانى وتغيرات الطبيعة فى كل مظاهرها ، مما يجعل الانسان لا يطمئن كثيرا إلى هذه النظريات ، وإن كان يعتمد عليها لوقت ما وفى حدود ، لتفسير مظاهر الحياة — بحذر وحساب — كأساس واحد ضمن أسس عديدة فى تفسير الصور الشعرية ومزاج الشاعر .

ولم يبق لنا من الرجل إلا شعره وصوره مع بعض الأخبار القليلة التى تفسر صورا من هذا الشعر ، وكلاهما يكشف عن نفسية ابن الرومى وعقله وجسمه ، وما أصيب به من اضطراب فى حياته .

يقول العقاد : إن ابن الرومى يعوضنا بعض العوض من ذلك النقص الكبير بخاصة فريدة فيه ، ليست فى غيره من الشعراء ، هى مراقبته الشديدة لنفسه وتسجيله وقائع حياته فى شعره .. وما خامر طويته خلق محمود أو مذموم ، إلا شهد به على نفسه فى حرج من أمر كتمانه [1] :

أقر على نفسى بعيبى لأننى — أرى الصدق يمحو بينات المعايب
لؤمت لمر الله فيما أتيته — وإن كنت من قوم كرام المناصب
ولا بد من أن يلؤم المرء نازعا — إلى الحمأ المسنون ضربة لازب[2]

والمنهج النفسى وتطبيق نتائج البحوث العلمية الحديثة على شعر ابن الرومى للكشف عن نفسية الشاعر ، وفهم حياته ، كان هذا المنهج هو سبيل العقاد فى كتابه « ابن الرومى حياته من شعره » ، وكذلك المازنى ، وكانت دراستهما تتجه إلى حياة الشاعر وتحليل نفسه وعلاقته بالناس والحياة ، وليست دراسة فنية صرفة ، وإن كنا لا نغمط حق الرجلين فى هذا ، فقد تعرضا للمنهج الفنى نادرا وعن غير قصد ، فى دراستهما التاريخية النفسية العلمية ، وهذا هدفهما الأساسى ، وبخاصة المازنى حينما تأخذه روعة الصورة فيطمئن إليها قليلا مبهورا فى غير كشف للجوانب فيها ، وذلك فى مقالاته القليلة عن الشاعر .

---

(١) ابن الرومى: العقاد

(٢) الديوان المخطوط من بائيته فى أحمد بن ثوابه ورقه ٥٨ : ٦٤ ج ١

ولسنا هنا فى مجال عرض كل الصور التى تكشف عن حياة الشاعر ، والعوامل النفسية والجسدية التى أثرت فيه ، فذلك له مكان آخر فى البحث ، وهو (ابن الرومى من خلال الصورة الأدبية) وهذا لا يمنع من ذكر أكثر من شاهد ، ليكون تمهيدا فيما يخص هذا الفصل .

فالصورة التى تدل على ضعف جسمه ونحافته فى قوله :

أنا من خف واستدق فما يثـ قل أرضا ولا يسد فضاء (١)

وما يدل على شذوذه الجنسى فى قوله :

استغفر الله من تركى علانية ذنبا هممت به فى شادن خنث

ظبى دعتنى عيناه ومنطقه بنية صدقت عن ظاهر عبث (٢)

والصورة التى تدل على اضطراب أعصابه وشدة خوفه ، أنه يخشى الماء فى الكوز الذى به حياته ، فيتناوله فى رفق ، وحذر وتحايل ، حتى كأن الماء يجانبه ويسايره .

فأيسر إشفاقى من الماء أننى أمر به فى الكوز مر المجانب

وأخشى الردى عنه على كل شارب(٣)

وغيرها من الصور الكثيرة ...

وأما أثر اختلال الأعصاب واضطراب النفس والعقل ، فى التصوير الشعرى فهذا يعنينا هنا ، ويبدو هذا الأثر واضحا فى جوانب عديدة هى :

١ — انطوائه على نفسه : هروب الشاعر من المجتمع ، إلى جدران البيت تدفعه عوامل كثيرة ، إلى هذا الانطواء ، مما يتصل بظروف المجتمع والحياة التى يعيش فيها ، والتجارب التى تفاعل معها الشاعر ، والصراع الذى عاش فيه ، وتكوين ابن الرومى الجسمانى والعقلى والنفسى ، وهذا العامل هو الذى يهمنا هنا ، وإن توافرت كل هذه العوامل عنده فهو غنى بها وحدها .

— فاضطراب أعصابه ، وهجوم الوسوسة التى أفسدت عقله ، وصراع نفسه مع الأوهام واختلال أعضائه وضعف صحته وكثرة مخاوفه ، وشدة قلقه ، كل هذا أدى إلى الإنطواء الذى استبد به ، وأفسد عليه حياته وعقله ، ولكنه أفاد الشعر ، وحلق بالتصوير

(١) الديوان المخطوط ورقة ١٣ ج ١

(٢) الديوان المخطوط ورقة ١٢٥ ج١

(٣) الديوان المخطوط ٥٨ ، ٦٤ ج ١

الأدبي إلى سماء ، تخاذل عنها من قبله من الشعراء ، إلا فى مواقف جزئية عند بعضهم كذى الرمة وغيره .

وترتب على ذلك الإنطواء سمو الشاعر بالصورة الأدبية مما أدى إلى :

(أ) جموح خياله فى التصوير ، فى تناسق عجيب ، وتوليد غريب ، وتلاؤم العناصر مما يفيض على الصورة المتخيلة ألوانا وظلالا ، وإيحاء واتساعا ، وهو فى ذلك يستعين بروح المنطق والفلسفة التى تشربت بها شاعويته ، من غير مبالغة وغلو واستحالة ، وقد أشار إلى ذلك ابن رشيق قديما فى قوله : « أن أكثر الشعراء اختراعاً ابن الرومى[1] .

فبراعة الشطرنجى فى اللعب بنفوس لاعبى الشطرنج وذكائه فى دقة حيله وإصابة دهائه ، تأخذ بعقولهم ، وتسكر وعيهم فى ذهول وشدة ، بحيث لا يشعرون إلا والفوز يحلق فوق رأسه ، ثم يفيقون بالبحث عن أسباب الهزيمة فلا يجدون ذلك إلا فى خيال ابن الرومى ، الذى وضحه لهم ، ووضع أيديهم على سره ، ونبه إحساسهم إلى سبب هزيمتهم ، كل ذلك يتخيله ابن الرومى فى مكر الفائز ، وقد دب فيهم كدبيب الغذاء فى الأعضاء ، أو دبيب اليأس فى لقاء محبوبين وقد تمكنت البغضاء منهما ، أو سريان الشعر الأبيض فى ليل شباب يتفتق حيوية ونضارة . يقول :

لك مكر يدب فى القوم أخفى	من دبيب الغذاء فى الأعضاء
أو دبيب الملال فى مستهام	مين إلى غاية من البغضاء
أو سرى الشيب تحت ليل	شباب مستحر فى لمة سوداء[2]

وخياله فى صورة صانع الرقاق « الخباز » وغير ذلك كثير ، مما سنعرضه إن شاء الله .

(ب) سعة التصور والاستقصاء فى الصورة التى لا تبقى على عنصر من عناصر الصورة حتى تستوفيه ، ولا تترك أملا لمستزيد ، فحين يصور شاعرنا الربيع فى جزئية صغيرة تموج الصورة بالظلال الحية المبصرة ، فتهتز طربا للإيقاع الموسيقى الخافت الخاشع شكراً لله ، وتشع كل لفظة فيها بالظلال والألوان ، وما يتبع ذلك من إيحاءات تقطر روعة وسحرا مذابا ، فى ساحة الرياض الذى يثنى راكما لربه بزينته وجمال منظره ، وقد التف هذا الثناء فى ألوانه المختلفة بالعطر الذى يفوح من كل جانب . ألوان وحركة ودعاء فى حجم وشكل للتصوير الشعرى عنده فالعطر يفوح عذوبة وصفاء . كل هذا العمق والسبوح

---

(١) العمده : ابن رشيق ج ٢ ٢٤٤

(٢) الديوان المخطوط ورقة ٦ ج ١

والاستقصاء ، إنما جاء من رجل اختلى بنفسه وعكف عليها ليفهم أسرارها وأسرار الوجود ، عوضا عما فاته من المجتمع ، وعن حرمانه فى الحياة ، وشقائه . يقول :

أصبحت الدنيـــا تروق من نظـر
بمنظـر فيـــه جـلاء للبصر
ثنت على الله بآلاء المطـــر
فالأرض فى روض كأفواف الحـبر
نيرة النـــوار زهـــراء الزهـر
تبرجت بعـــد حياء وخفـــر
تبرج الأنثى تصدت للذكـر(١)

وهذا الاستقصاء فى كل عناصر الصورة ، أداه بالطبع إلى فهم أسرار الحياة ، والوقوف على ماخفى منها ، وهو يصرح بهذا الإلحاح فى التصوير فيقول معللا هذا :

غيرى فإنى لا أطيل مدائحى   إلا لأوفى من مدحت ثناءه

فالشوق هو الذى يحرك المحب إلى حبيبه ، لكن حب الأغصان أقوى وأشد وأوسع انتشاراً ، لحبها فى ريح الصبا التى تهب فى البكرة ، ليناجى الغصن صاحبه فى ضراعة المحبين ، وتتنادى الطيور فى لهفة العاشقين ، كل هذا فى بيت واحد ، وجزء من صورة مكتملة لها مكانها من دراستنا وحسبنا هنا مايؤيد الفكرة : يقول :

هبت سحيراً فناجى الغصن صاحبه   موسوساً وتنادى الطير إعلاناً

٢ — التشاؤم الذى انتاب ابن الرومى ، كان نتيجة حتمية لهذا الاختلال ورد فعل لقسوة الحياة ، وباعتلال جسمه ، وضعف بنيانه يتردى فى مهاوى الوساوس والأوهام ومزالق القلق والخوف ، فاصطبغت صوره بكل ذلك ، فكل عبارة فى الصورة ، وكل جزئية فيها ، تعرفنا بطيرة الشاعر وتشاؤمه ، وهذا أدى بدوره إلى الحذر من كل شىء الذى جعله يستوفى صوره لأقصى مدى ، فالشاعر يتشاءم فى موضع التفاؤل ، وقد عرفنا من تجارب الناس فى الدنيا أن الأسفار غالباً هى منبع الخير والثراء . والعلم والتعرف على طبائع الناس ، أما صورة ابن الرومى هذه تجعل الإنسان يموت حيث ولد فى مسقط رأسه يقول :

اذاقتنى الأسفار ماكره الغنى   إلى وأغرانى برفض المطالب

---

(١) الديوان المخطوط ورقة ٣٠٩ جـ ٣

فأصبحت فى الإثراء أزهد زاهد | وإن كنت فى الإثراء أرغب راغب
حريصاً جبانا أشتهى ثم أنتهى | بلحظى جناب الرزق لحظ المراقب
ومن راح ذا حرص وجبن فإنه | فقير أتاه الفقر من كل جانب
تنازعنى رغب ورهب كلاهما | قوى وأعيانى اطلاع المغايب
فقدمت رجلا رغبة فى رغيبة | وأخرت رجلا رهبة للمعاطب
أخاف على نفسى وأرجو مفازها | واستار غيب الله دون العواقب
ألا من يرينى غايتى قبل مذهبي | ومن أين والغايات بعد المذاهب[1]

فالتشاؤم الذى حل به جعل الكلمات فى الصورة تفصح عنه فى (كره الغنى — برفض المطالب — والصراع الحاد بين الزهد والرغبة فى الإثراء — حريصاً — جباناً — انتهى — لحظ — المراقب — تنازعنى رغب ورهب — أعيانى إطلاع المغايب — يقدم رجلا ويؤخر أخرى — رهبة المعاطب - أخاف على نفسى دون العواقب) .

واقعده التشاؤم ، فلم يبق فيه حركة حتى اختلت المقاييس عنده ، فهو ينشد وهو نائم : « الغاية قبل الوسيلة » ، وذلك فى آخر صورة حين يقول وهو فى نجوة الضعفاء المنهوكين :

ألا من يرينى غايتى قبل مذهبي | ومن أين والغايات قبل المذاهب

(٣) السخرية : إن الحياة التى حرمته من نعمة الصحة والعافية ، والبرء من الاختلال ، الذى أتى عليه ، بينما منحت غيره ذلك وهم كثير .

وابن الرومى فى هذا بشر مثلنا له خصائص البشر ونقائصهم ، لهذا تمرد طبعه ، واحتد مزاجه ، وتسارع غضبه ، وتولدت فيه روح السخرية وأصبحت صوره الساخرة ولوحاته العابثة اللاهية ، تشعرنا بمرارة تعتصر الشاعر ، وغبن حل به وحده ، ويعرفنا ذلك بقوله :

وكل لهو لهاه النفس مشغلة | عن ذكر ماهم من الأحداث لاقونا[2]

ويقول مصوراً أصحاب اللحى :

إن تطل لحية عليك وتعرض | فالمخالى معروفة للحمير
علق الله فى عذاريك مخلاة | ولكنها بغير شعير
أيما كوسج رآها فيلقى | ربه بعدها صحيح الضمير

---

(١) الديوان المخطوط ورقه ٥٨ ، ٦٤ جـ ١
(٢) المخطوط ٣٠٢ جـ ٤

هو أحرى أن يشك ويغرى ... باتهام الحكم بالتقدير[1]

وصورة أخرى :

ولحية سائلة منصبة ... شهباء تحكى ذنب المذبة[2]

وصورة صلعة أبى حفص الوراق فى قوله :

يا صلعة لأبى حفص ممردة ... كأن مساحتها مرآة فولاذ
ترن تحت الأكف الواقعات بها ... حتى ترن بها أكناف بغداد[3]

وحديث السخر فى صوره طويلة ، ولنا معه وقفات طوال فى مواضع مختلفة .

ولعل هذه الصورة التى جئت بها للاستشهاد فقط ، كشفت لنا فى جلاء عن أثر اختلال أعصابه ، وضعف تركيبه فيها ، وكان هذا باعثاً قوياً فى تكوين الصورة الشعرية عنده ، حتى سمت وحلقت وجعلته هو فى الميدان وحده ، يحمل بجسمه الناحل الشاحب الهاوى فوق ما يطيق ، فالنار من مستصغر الشرر ، والشمس ترى صغيرة ضعيفة من بعيد ، ولكن حرارتها وضوءها ونورها وحيويتها وأثرها يملأ الدنيا كلها .

كذا شأن العباقرة ، ضعـــاف مظلومون ، ولكن ما أعظم ثراء الإنسانية والدنيا بفكرهم ومشاعرهم ونشاطهم ، فقد آثروا الإنسانية والحياة عن أنفسهم وحياتهم فإحدى الكفتين فى الميزان – أثناء العمل والحركة – راجحة والأخرى مرجوحة وإحداهما مأخوذة والأخرى آخذة .

والأمر كذلك فى النوابغ وفلتات الزمن ، يأخذون من ذاتهم وأنفسهم ليدفعوا الحياة بقوة إلى السمو ، والناس إلى السعادة والنعيم ، فالشمعة لا تضىء إلا إذا احترقت ، وليس الضوء مقصوراً على معدن الشمعة ، فهناك معادن كثيرة للنور والضياء .

إذن فما معدن شاعرنا وهل للجنس نصيب فى النبوغ وروعة التصوير ، هذا ما يقحمنا فى معركة عنيفة حول الباعث الأخير وهو الجنس والوراثة .

(٦)

الجنس :

الشاعر هو أبو الحسن على بن العباس بن جريج المشهور بابن الرومى ، وقيل جده

---

(١) بالديوان المخطوط ورقة ٢٨٠ جـ ٢

(٢) الديوان المخطوط ورقة ٤٣ جـ ١

(٣) الديوان المخطوط ورقة ٢٦٦ جـ ٢

يدعى جورجيس[١] وقيل : جرجس[٢] ، وقيل غير ذلك .

ولد ابن الرومى مولى لعبد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور الخليفة العباسى ، فى دار بدرب الختلية بالعقيقة فى بغداد ، وذلك فى يوم الأربعاء الثانى من رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين ، ذكر ذلك ابن خلكان بقوله : « ولد أبو الحسن على بن العباس بن جريج الرومى ، يوم الأربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب سنة إحدى وعشرين ومائتين ببغداد فى الموضع المعروف بالعقيقة ، ودرب الختلية فى دار بازاء قصر عيسى بن جعفر المنصور[٣] ، قال العقاد : توافق إحدى وعشرين من يونيو سنة خمس وثلاثين وثمانمائة ميلادية ، والسابع والعشرين من بؤونة سنة اثنتا عشرة وخمسمائة قبطية[٤] ، ويقول المرزبانى : هى العتيقة بدل العقيقة وتقع فى الجانب العربى من مدينة السلام[٥] .

هذا ما ذكره المؤرخون عن أصل الشاعر ، فهو يرجع فى جده الأول إلى جنس غير عربى ، فجريج أو جورجيس أو جرجس رومى وابن الرومى يفخر بأجداده فى شعره ، وحينئذ يرتفع بجنسه ومعدنه عن معدن العرب ، فتارة ينتسب إلى الروم من جهة أبيه فيقول .

آبائى الروم توفيل وتوفلس ولم يلدنى ربعى ولا شيث[٦]

ويقول وهو يفتخر بنفسه ومواليه من بنى العباس :

ومتى اختل ابن روميكم فأياديكم حرى منه قمن[٧]

وقـــوله :

مولاهم وغذى نعمتهم والروم حين تنصنى أصلى[٨]

وابن الرومى هو الذى يعرف وحده لروميته ، كيف يمدح ويقول : ـ

---

(١) وفيات الاعيان: ابن خلكان ج ٣ ص ٤٢

(٢) معجم الشعراء :المرزبانى ٢٨٩

(٣) وفيات الاعيان: ابن خلكان ج ٣ ص ٤٢

(٤) ابن الرومى:العقاد ٨٦

(٥) معجم الشعراء :المرزبانى ٢٨٩

(٦) الديوان المخطوط ورقة ١٢٧ ج ١

(٧) المخطوط ورقة ٣٠٩ ج ٤

(٨) المخطوط ورقه ج ٤

إذا الشاعر الرومى أطرى أمره فناهيك من مطرى وناهيك من مطر[1]

والروم وهو منهم تحسن الشعر فوق إحسان العريب له :

قد تحسن الروم شعراً ما أحسنته العريب[2]

وقوله :

وإذا ما حكمت والروم قومى فى كلام معرب كنت عدلا[3]

وإذا كان الشاعر رفيع النسب كريم المعدن وجبت له الرعاية والحفظ على الناس جميعاً.

يابنى السمرى قد لزمتكم حرمة الروم ويحكم فاحفظونى[4]

وتارة يتطاول على العرب بنسبة اليونانى :

ونحن بنو اليونان قوم لنا حجى ومجد وعيدان صلاب المعاجم[5]

ويقول :

إن لم أزرملكا أشجى الخطوب به فلم يلدنى أبو الأملاك يونان[6]

وتارة ينتسب إلى الفرس من جهة أمه كما ينتسب إلى الروم من جهة أبيه :

كيف أغضى الدنية والفرس خؤولى والروم من أعمامى[7]

وقوله :

بل إن تعدت فلم أحسن سياستها فلم يلدنى أبو السواس ساسان[8]

ولكنه حينما يذكر أن كنيته أبو الحسن وأن اسمه على ، وأن أباه يدعى العباس وقد نشأ هو وأبوه فى بيت العباسيين ، وانتسبا إليهم فإنه يفتخر بمواليه من بنى العباس وينتسب إليهم ويعتبرهم أهله فيقول :

قومى بنو العباس حلمهم حلمى كذلك وجهلهم جهلى
نبلى نبالهم إذا نزلت بى شدة ونبالهم نبلى[9]

---

(١) المخطوط ورقه ج٢
(٢) المخطوط ورقه ٥٥ ج ١
(٣) المخطوط ورقه ١٧٧ ج ٣
(٤) المخطوط ورقه ٣٧١ ج٤
(٥) المخطوط ورقة ٢٨٣ ج ٤
(٦) المخطوط ورقه ٣٣٩ ج٤
(٧) المخطوط ورقه ٢١٩ ج ٤
(٨) المخطوط ورقه ٣٣٩ ج ٤
(٩) المخطوط ورقه ٢١٨ ج ٤

لا أبتغى أبدا بهم بدلا لف الله بشملهم شملى

إلى قوله :

أنا منهم بقضاء قد ختمت رسل الإله به وهم أهلى(١)

وعلى هذا فابن العباس يرجع إلى أصول عديدة ، فهو يونانى فارسى رومى عربى ، ولا يستطيع أحد أن ينكر على ابن الرومى شيئا من ذلك ، حتى ابن الرومى نفسه .

وزاد من مكانة الشاعر ، أن تعددت أصوله ، وتشعبت من روافد قوية متنوعة ، ومختلفة فى المنبع والمجرى والعمق والإتجاه ، فتتدفق فى مصب واحد فيصبح غزير المياه عميق الغور ، وتآكل شواطئه فى اتساع ليفسح لمد أغزر .

هذه الروافد الأربعة ، قد خلصت لشاعرنا ، وأعملت فيه ولا يستهان بواحد منها ، فكل أمة من هذه الأمم بلغت الغاية التى ليس بعدها مطلب من الحضارة والرقى وألوان الثقافة ، وغلب على كل أمة طابع معين ، وسمه خاصة ، جعلت لها كيانا وذاتا مستقلة فنبغ اليونان فى الشعر والنثر والفلسفة والمنطق والطب والحكمة ، وللفرس شهرة فى علوم السياسة وتدابير الملك وعلم النجوم ، ويمتاز الرومان بالاختراع وعلوم السياسة والتفوق فى الحروب(٢) .

واشتهر العرب بالفصاحة وعلوم الأنساب والأثر والنجوم ، فلكل شعب من هذه الشعوب سمات تميزه عن غيره فى التفكير ، وله وسائله فى طريقة التعبير والتصوير ، ودرجة العاطفة والتخيل والإيجاز والتفصيل .

وكل هذه الخصائص ، وتلك المميزات ، توافرت فى الدولة الإسلامية والحضارة العباسية ، وعاش الشاعر فيها ، كساق الشجرة التى تنوعت جذورها وامتدت ، وأصبح هو والناس يستظل بتلك الفروع الباسقة الناضرة .

والباحث الدقيق يرد هذا الباعث وهو عامل الجنس والوراثة إلى أصوله الحقيقية ، وهو ما يتصل بالبيئة من عوامل التقدم الفكرى والدينى والعلمى والثقافى والحضارى ، وأن هذه العوامل هى الجديرة بالتأثير والأعمال والتكوين ، وبها تتخذ الأمة طابعا تنفرد به عن غيرها من الأمم .

---

(١) المخطوط ورقه ٢١٧ ج٤

(٢) أصول النقد أحمد الشايب ٨٦ الطبعه السابعه ١٩٦٤

ويوضح ذلك أن الأمة العربية عندما بلغت شأوا ، واكتملت عندها وسائل التقدم والحضارة فى العصر العباسى ، بلغت الغاية التى أذهلت بها كل الأمم من حولها وأوزعتهم بل أصبحت تهتدى بها كل الأمم ، فى بناء حضارتها وتشييد نهضتها ويرجع اهتمامى فى هذه الدراسة بعامل الجنس إلى عدة عوامل :

أولا : بيان العلاقة بين عامل الجنس عند ابن الرومى وبين العوامل السابقة ، وأن الجنس عند المدققين يرجع غالبا إلى العوامل الأخرى .

ثانيا : قد يمتد الرقى الفكرى والعلمى والحضارى أجيالا متعاقبة يرثه جيل عن جيل وتأخذه أمة عن أمة فيصير ذلك الأمر طابعا يميزها ، يتصل بها اتصالا وثيقا حتى يصير « كأنه فارق خلقى بين هذه الأجناس البشرية [1] » .

ثالثا : إن بعض الباحثين[2] اعتبر الجنس عند شاعرنا ، هو العامل الأساسى ، والباعث الحقيق ، لنبوغ ابن الرومى وتفوقه فى شعره وتصويره ، فهو طائر يصدح فى غير سربه .

وهذا البعض يرى أن عبقرية ابن الرومى ونبوغه فى الشعر ، واستقصائه المعنى وترتيبه الأفكار ، متفق وطبيعة الفكر اليونانى المنطق ، حتى أصبحت القصيدة عنده وحدة مترابطة لا يصح فى معانيها التقديم أو التأخير أو الحذف أو الزيادة ، وأن الشاعر يولى اهتمامه بالمعنى ، ويهمل اللفظ ، ويؤثر الوضوح وخياله قوى عميق غير الخيال العربى ، ويرتبط دائما بأسرار الحياة وكوامن الطبيعة ، وينفرد من بين شعراء العرب بملكة التشخيص والتصوير ، وذلك كله إنما يرجع إلى شىء واحد فقط ، وهو أنه من جنس غير جنس العرب وغير جنس عصره ، وهو الجنس اليونانى ، وأن الشاعر ورث هذا عن أجداده اليونان وحدهم ، وعن صفاتهم وخلقهم فكانت اليونانية هى وحدها سر النبوغ ، ومكمن العبقرية ، وفى هذا يبدو ما للوراثة من الفاعلية والتأثير ، فهى تجرى فى الشاعر كجريان الدم فى العروق ، ومن هذا وذاك يتركب الفكر والعقل ويدق الاحساس عند ابن الرومى .

يقول المازنى عن أثر الوراثة فى تكوين ابن الرومى حينما يتكلم عن الوراثة فى أبوى الشاعر : « فإنه لم ينته إلينا شىء عن أبوى ابن الرومى ، وذلك ما نأسف له « لأن للوراثة أثراً كبيراً وفعلا لا يستهان به »[3] ، والباحث يأسف كثيراً لما جناه المؤرخون على الشاعر ،

(١) أصول النقد الادبى أحمد الشايب ٨٦

(٢) من مثل العقاد والمازنى

(٣) حصاد الهشيم المازنى ٢٦٦

فلم يعرفوا الكثير عن أصله وأبويه فإن ذلك وحده كفيل عنده بشرح سر تكوين الشاعر، ومفتاح نبوغه .

ويؤكد هذا الاتجاه فيقول : « وقد نعلم أن للوراثة أثراً لا يستهان به فى تركيب الجسم واستعداد العقل ، فليس بمستغرب أن يرث مثل ابن الرومى وهو آرى الأصل — فارسى يونانى — كثيراً من شمائل قومه وصفاتهم ، وأنه فى شعره أقرب إليهم من العرب[1] .

فابن الرومى عند المازنى لا يشبه العرب فى أى شىء ، فهو بتركيبه وموهبته وقدرته يرجع فى الأصل إلى الآرية ، يرث عن قومه الفرس واليونان صفاتهم وشمائلهم ، أما أخلاق العرب وهو بينهم ، وأبواه من قبله لا أثر لها فيه ، وجوهر الإسلام وسماته لم تمتزج بفكره وأحاسيسه ، وهذا خلاف الواقع وما عليه شعره الذى يستدلون به على شخصه وفنه واتجاهه ، ويزداد إلحاحاً فى تثبيت هذه الفكرة ، ويتعقبها مرات عديدة ليؤسس هذه القاعدة التى يبنى عليها نظريته فى تصوير ابن الرومى ، وبعد أن يكثر من الشواهد التى تثبت انتفاء العروبة عنه .

يقول المازنى « كان كهؤلاء من غير الأمة التى نبت فيها ، ولكنه يختلف عنهم — أو عن كثير منهم ويباينهم بأنه احتفظ بطبيعة الجنس الذى انحدر منه ، حتى صارت روميته هذه التى يتشبث بها ويعلنها ولا يكتمها ولا يغشيها بالفارسية — مفتاح شعره ونفسه وحتى لا سبيل إلى فهمه وتقديره بغير الإلتفات إليها ، والتنبيه لها، وأنه ليصلح أن يتخذ المرء شاهداً على قوة الوراثة وفعلها ، على الرغم من كل تأثير مناهض لها مضعف لفعلها[2] ، ثم يتبع ذلك بما يؤيد قوله ، ويثبت رأيه ، باتجاه العقاد وهو يتفق معه فى ذلك حيث يورد قول العقاد عن الرومية « هى أصل هذا الفن الذى اختلف به ابن الرومى عن عامة الشعراء فى هذه اللغة الخ »[3] .

وذكر العقاد قبل ذلك أن الذى يعجب له أن شاعراً مثل ابن الرومى كيف يخمل ذكره فى عصره ، ويخفى مكانه الذى ارتقى به الشعر ، ويذكر عدة أسباب لا تروى غلته ولا تقنع نفسه ولا ترد عجبه ، وإنما الذى أزال العجب وأطفأ الظمأ هو أنه رومى وعبقرى يونانى ، فيقول عن سبب الأسباب « أى أنه هو ذلك التفرد الذى جنى عليه وغربه عن

---

(١) المرجع السابق ٢٠٦
(٢) المرجع السابق ٢٨١
(٣) نفس المرجع

نفوس أبناء عصره ، وأذواقهم فلم يألفوه ولم يطربوا له طربهم لأشباههم الذين ينظرون إلى الحياة بأعينهم ، ويتناولون المعانى على طريقتهم ، فكان يحدثهم عن طبيعة غير طبائعهم ، ومزاج غير أمزجتهم ويطلع عليهم بشعر ليس فيه من العربية إلا كلماتها وحروفها ، أما معانيه فهى من معدن غير معدنها ، وعالم بعيد عن عالمها ، ولا حاجة بك إلى الإمعان فى درس ترجمته والتنقيب عن تاريخ عصره ، لتعرف سر هذا المزاج الغريب الذى اختص به من بين شعراء العربية ، فإن للاسم الذى اشتهر به الشاعر إشارة جلية إلى ذلك السر ، وهو نسبته إلى الروم ، واختلاف عنصره عن عنصر اللغة التى كان ينظم الشعر بألفاظها وأوزانها .

فالرومية هى أصل هذا الفن ، الذى اختاب به ابن الرومى عن عامة الشعراء فى هذه اللغة ، وهى السمة التى أفردته بينهم إفراد الطائر الصادح فى غير سربة ، وربما بذهم فى أشياء ، وقصر عنهم فى أشياء غيرها ، ولكنه لا يشبههم ولا يشبهونه فى تفوقه وتقصيره على السواء ، فلهذا انقطع ما بينه وبينهم من نسب الأدب وجرثومة الفن ، لا لأنه أفضل منهم جميعا ، ولا لأنهم جميعا أفضل منه ، والعبقرية اليونانية ظاهرة فى شعر ابن الرومى ظهورا ليس أغرب منه ولا أبين عن الفارق العميق الخفى ، الذى يفصل بعض الأجناس عن بعض ، على بعد السلالة وتباين البيئة وتمويه الظواهر (١)

ويقول العقاد فى كتاب آخر « وصفوة القول فى هذه العبقرية أنها كانت عبقرية يونانية لولا الإفراط والانهماك ، أو أنها كانت عبقرية يونانية مكبرة الجوانب بعض التكبير(٢)

والمازنى يتفق مع العقاد فيما اتجه إليه من تمجيد الوراثة ، والإعتداد بعامل الجنس وأنه هو كل شىء فى التكوين والتفكير ، ويتفقان أيضاً فى عدم التحديد ، ودقة الفاصل بين اليونانية والرومية ، وأنهما سواء من حيث الخصائص والإتجاه والتأثير وأنهما أهملا — وهما مؤمنان أشد الإيمان بالوراثة — ما للفارسية من جهة أمه من أصالة فى تكوينه ومزاجه ، وما لحضارتها المعاصرة لابن الرومى من أثر فى عقله ودمه ، وأخيرا أهملا أثر البيئة الغالبة الحاكمة المسيطرة على الشاعر وعلى آبائه من قبله ، وهى البيئة العربية الإسلامية ، التى أحالت بالعقيدة الجديدة كل جنس إلى شكل آخر

(١) مقدمة ديوان ابن الرومى ص ج د ه مختارات كامل كيلانى

(٢) ابن الرومى : العقاد ٢٧٧

وصبغته بالحياة الجديدة ، وإن لم تكن الصبغة سابغة إلا قليلا ، وأهل المازنى والعقاد كل هذا .

ومثل المازنى والعقاد لا ينبغى أن يتورطا فى مثل هذه الأمور ، وأن يقعا فى مثل هذه الأخطاء التى سنوضحها فيما بعد، وهما من هما أصحاب مدرسة الديوان والدعوات الجديدة فى التحرر الفكرى والابتكار فى الشعر والتجديد فيه ، ولعل الدوافع التى زجت بهما فى هذا الدرب الضيق هى :

١ — التسرع فى الحكم مع أنهما باحثان اشتهرا بالدقة والترتيب وعمق التفكير .

٢ — أنهما وجدا فى ابن الرومى شاعرا مغموطا حقه من الناس والتاريخ ، فأشفقا عليه وأرادا أن ينصفاه ، ولم يكن هناك سبيل سوى أنه من جنس آخر وفوق كل جنس .

٣ — أن سوق اتباع الثقافة الغربية ، والفكر الأجنبي ، كانت رائجة حينذاك وأنهما خير من يمثلان هذه الحركة الجديدة ، كما وجدا من إقبال الشباب والطلاب والمحبين أذنا صاغية ، تقبل وتقيل كل جديد من غير تفكير ، بعد أن أفرغا فيهم نشاطهما وقدرتهما على الإقناع فاكتسبوا بذلك الثقة العمياء منهم ، والتى لا تقبل الجدل والمناقشة ، إلا فى القليل النادر الذى ظهر أخيراً .

٤ — أنهما ظنا أن الحضارة اليونانية قد أربت على كل الحضارات ، وأن لا أثر للحضارات الأخرى فى الإنسانية ونشاطها ، فالحضارة الفارسية والرومية والإسلامية لا وزن لها ، لأن اليونانية اتسمت بفكرها وأدبها وعلمها فشملت كل شىء وتفردت دون غيرها .

لذلك نرى من الصواب أن أقف مع الصاحبين وقفة نستجلى فيها ما وقعا فيه من أخطاء وما تسرعا فيه من أحكام يأباها البحث ، وتنكرها الدقة والحقيقة وذلك فى إيجاز :

١ — أن هناك فرق بين اليونانية والرومية ، فاليونان جنس واحد وهم أصحاب الحضارة القديمة ، ويسمون الاغريق فى التاريخ القديم[1] أما الروم ومنهم ابن الرومى فهم أجناس متعددة ، يطلق عليها الامبراطورية الرومية أو البيزنطية ، فهى من الأجانب الذين فرضت عليهم الامبراطورية الرومانية حكمها ، وفق مجموعة القواعد والشروط غير السخية ، وكانت الرومانية تطلق عليها اسم « مواطنى الولايات[2] » .

---

(١) الاغريق : هـ . د . كيتو ترجمة عبد الرازق يسرى راجعه د . محمد صقر خفاجه ١٠١ وما بعدها ، تاريخ الحضارة الهلينية : ارنولد توينى ترجمة عبده جرجس راجعه د . محمد صقر خفاجه ص ٢٢ وما بعدها .

(٢) تاريخ الحضارة الهلينية : ارنولد توينى ترجمة عبده جرجس مراجعة د . محمد صقر خفاجة ص ١٧٩ وموجز تاريخ العالم : هـ . ج . ويلز ترجمة عبد العزيز جاويد ، مراجعة محمد مأمون نجا ص ١٤٣ وما بعدها .

ولذلك نرى حكام هذه الإمبراطورية من وقت لآخر مختلفين فى الأجناس .

والروم تخالف الرومان المؤسسين للامبراطورية الرومانية، وهم أيضا ليسوا يونانيين[١] وقد ذكر الله الروم فى القرآن الكريم وسمى سورة بأسمها لأنها كانت ذات حضارة وقوة بحيث تغلبت على منافسها فى العالم وهى الفرس ، وقد انتصرت عليهم قبل ذلك وأخبر الله بأن العرب سينتصرون على الروم فقال الله تعالى : « آلم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله »[٢]

والصاحبان لم يفرقا بين اليونانية والرومية ، فهما سواء عندهما ، هذه تساوى تلك تماما ، مع أن المسعودى المؤرخ القديم قد فرق بين ذلك حيث يقول : « تنازع فى فرق اليونانيين فذهبت طائفة من الناس إلى أنهم ينتمون إلى الروم .. وإنما وهم من وهم أن اليونانيين ينسبون إلى حيث تنسب الروم ، وينتمون إلى جدهم إبراهيم ، لأن الديار كانت مشتركة ، والمقاطع والمواطن كانت متساوية ، وكان القوم قد شاركوا القوم فى السجية والمذهب فلذلك غلط من غلط فى النسبة وجعل الآب واحدا ، وهذا طريق الصواب عند المفتشين وسبيل البحث عند الباحثين ، والروم قفت فى لغاتها ووضع كتبها اليونانيين ، فلم يصلوا إلى كنه فصاحتهم وطلاقة ألسنتهم ، والروم أنقص فى اللسان من اليونانيين وأضعف فى ترتيب الكلام الذى عليه نهج تعبيرهم وسنن خطابهم[٣]

٢ — ولو سلمنا جدلا بأن ابن الرومى وأسرته احتفظوا بأصالتهم اليونانية ، وهم يعيشون فى ظل الامبراطورية الرومية حتى يصح رأى الصاحبين من جانب واحد ، فإن هناك جوانب عديدة قد أضعفت كثيرا من شأن هذه اليونانية الخالصة ، منها أنه ليس كل يونانى عبقرى فليس كلهم عباقرة فى الفلسفة كأرسطو ، وفى التمثيلية كأرسطوفان وغيرهم ممن يعدون على الأصابع[٤]

ومنها أن تلك العبقرية التى وصل إليها اليونانيون إنما كانت نتيجة لمراحل ممتدة استغرقت

---

(١) موجز تاريخ العلم : هـ . ج . ويلز

(٢) سورة الروم آيات ١ : ٥

(٣) مروج الذهب المسعودى (فصل ذكر ملوك اليونانيين ولمع من أخبارهم وما قاله الناس فى بدء أنسابهم ج ١ ص ٢٤٢ — ٢٤٣ طبعة دار الرجاء القاهرة ١٩٣٨

(٤) الاغريق : هـ . د . كيتو المرجع السابق ١٠١ ومابعدها

قرنين من الزمان ، ولم يخلقوا عباقرة ، وإنما كان ذلك التأثيرات المختلفة على أجيال متعاقبة جيلا بعد جيل ، يورثه أحواله وصفاته وشمائله ، ولو كانوا عباقرة بالأصالة فكيف نعلل اندثار حضارتهم وجمودها قبل الميلاد بثلاثة قرون(١)

وشاعرنا يعيش فى القرن التاسع الميلادى ، إذن بينه وبين عصر العباقرة اثنا عشر قرنا أفلا يتأثر ابن الرومى بهذه البيئة الجديدة التى تناقض تماما بيئة العباقرة اليونانيين قبل الميلاد ، وكيف نقبل قول العقاد عن يونانية الشاعر ؟ على الرغم من الإنفصال البعيد والممتد حين يقول : فإن فى الاسم الذى اشتهر به الشاعر إشارة خفية إلى ذلك السر وهو نسبه إلى الروم ، واختلاف عنصره عن عنصر اللغة التى كان ينظم الشعر بألفاظها وأوزانها وقوله : والعبقرية اليونانية ظاهرة فى شعر ابن الرومى ظهورا ليس أغرب منه ولا أبين من الفارق العميق الخفى الذى يفصل بين بعض الأجناس عن بعض على بعد السلالة وتباين البيئة وتمويه الظواهر .

وما هذه الصفات والشمائل اليونانية التى لمحها المازنى ، والتى ورثها عنهم الشاعر ؟ فليس بمستغرب أن يرث مثل ابن الرومى كثيرا من شمائل قومه وصفاتهم ، وكيف حافظت أسرة ابن الرومى عليه؟ مع إمتداد الزمان وخفوت الحضارة الإغريقية لولا النهضة الأوربية الحديثة كما يقول المازنى « بطبيعة الجنس الذى انحدر منه » .

ومنها أن الحضارة العباسية الإسلامية كان يعيشها ابن الرومى ، ويتأثر بها عن قرب وامتزاج ، أفلا يكون من الصواب والمعقول أن يصير الشاعر ابن عصره ونبت زمانه ، حتى لا يتورط فى نسبة كل صفاته إلى غير زمانه ، وقد أحال بينها ظلام متراكب ؟ .

وربما اعتمد الصاحبان فى اتجاههما على فاعلية المؤثرات المختلفة فى العقل البشرى وبمرور الأزمان والأجيال تصير له صفات طبيعية وشمائل يرثها عن بنى جنسه ، وتكون فى الإنسان كاليد والرجل .

ولكن العلم تكفل بالرد عليهما فى هذا ، وهو أن الصفات التى يكتسبها الإنسان فى حياته لا تورث ، وهو ما عليه الكثرة من علماء الوراثة ، اللهم إن كان المازنى والعقاد تأثرا برأى ليسنكو العالم الروسى ، وهو رأى يمالىء السياسة الشيوعية فى روسيا ، ولا يعتمد على

(١) راجع موجز تاريخ العالم : هـ . ج – ويلز ترجمة عبدالعزيز توفيق جاويد ص ١١٣ : ١١٥ ط السعادة ١٩٥٨ وما بعدها .

نتائج علمية صحيحة ، لذلك رده علماء الوراثة فى أمريكا وأوربا ، حتى يثبت لهم ليسنكو نتائج صحيحة .

ويرى ليسنكو وأتباعه أن من الخطر على الإنسانية نفى نظريته ، وهى أن الصفات المكتسبة لا تورث ، لأن هذا يعوق التقدم الإنسانى والحضارى ، ويدفع بنى الإنسان إلى مهاوى اليأس ، لأنه إذا لم يورث صفاته المكتسبة (لا الوحدات الوراثية) لذراريه من بعده فلا فائدة فى الاهتمام بألوان الثقافة ومنابع الحضارة ، لشعور الإنسان فى ذلك بعدم مساهمته فى الرقى البشرى[1]

وليس هذا فى رأينا صحيحا . ولا يمكن بحال أن يوقف سير التقدم والحضارة لأن من واجب الجيل المعاصر ، الذى ورث عن الأجيال السابقة درجة ما من النهضة الحضارية بعد أن أعمل فيها فكره ، أن يسهم بنشاطه فى رفعتها ، ويقفز بها خطوات إلى الأمام ، وينبغى عليه أن ينقلها بأمانة إلى الجيل الذى بعده ، وهو بدوره سيسهم فيها كما أسهم من قبله ، وهكذا ، والأمثلة على ذلك كثيرة كحضارة الإسلام وحضارة أوروبا الحديثة وغيرها .

إن وسائل التقدم هى التى تحفظ هذه الحضارة باستقلال تام عن الإنسان ، وهى آلات الطباعة والمطبوعات ودور الكتب والمحفوظات وغيرها ، وليس على الإنسان إلا المحافظة على هذه الوسائل ثم يأتى من بعده يواصل دوره فيها وهكذا .

على أن الصفات المكتسبة التى تورث إنما هى صفات الأمة المتحدة الشخصية ، فكأن الأمة شخص قد اكتمل له خصائصه وصفاته وشمائله ، لتكون الأجيال المتعاقبة فيها هى الخلايا التى تسهم فى التقدم وتنميه ، فإن كانت هذه الخلايا ضعيفة ذهبت بشخصية الأمة ، وإن كانت قوية صحيحة دفعتهـــا إلى الأمام قدما لكى يسهم الإنسان فى دوام النهضة ، فعليه أن يتخير لأبنائه وجيله أماً صحيحة ناضجة مكتملة الوحدات الجسمانية والعقلية ، حتى ينهض الخلف بأعبائه من بعده ، وصدق الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول . « تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس » .

فالإبن غالبا يرث عن أبويه بعض الاختلال فى الوحدات الجسدية ، فيرث عنه القصر والطول واللون وحجم اليد والرأس ، وبعض الأمراض التى ورثها أبوه عن أجداده وغير ذلك ، كما قيل بأن ابن الرومى ورث اختلال الأعصاب عن أبيه ، وسنوضح ذلك فى مكانه إن شاء الله .

---

(١) راجع ثقافة الناقد الأدبى : محمد النويهى ١٨٨ إلى ١٩٣

٣ — لم ينبغ ابن الرومى ، لأنه يعود إلى أصل يونانى فقط ، بل لأنه عاش الحضارة الإسلامية كاملة ، أو لأنه يشعر فى نفسه بأصول عديدة فيعتز بأصله اليونانى والفارسى والرومى والعربى ، وشخصية كهذه تكاملت فيها من الأصول - بما لم يتحقق لغيره - تعتز بنفسها ، لذلك كان كثيراً ما يمدح نفسه بهذه الأصول كلها ، وقد تقدمت الأمثلة على ذلك فى صوره الأدبية ، ، ويزداد ابن الرومى عزة بأصوله ، وثقته بنفسه وأنه من خير الناس عندما يشعر على الرغم من ذلك - بالغربة والوحدة فى وطنه الذى يعيش فيه ، وهو يملك فيه ما لا يملك غيره يقول : —

ليت شعرى ماذا حسدت عليه أيها الظالمى إخائى عيانا
أعلى أننى ظمئت وأضحى كل من كان صاديا ريانا
أم على أننى ثكلت شقيقى وعدمت الثراء والأوطانا[1]

وقد شعر ابن الرومى على الرغم من هذا بأنه غريب فعكف على نفسه وفنه ، ليثبت أصوله وشرفه فى فنه وتصويره ، ولينطق شعره بنبوغه وتفوقه على معاصريه جميعا ، وأنه من أجناس تنتشر فى الأمة كلها ، وتلتقى فى رجل واحد مثله يقول معبرا عن غربته أيضا .

ورجال تغلبوا بزمان أنا فيه وفيهم ذو اغتراب[2]

ولإحساسه بهذه الغربة عكف الشاعر فى نهم على اغتراف ألوان الثقافة والفكر والحضارة التى ترجع إلى أصوله المختلفة من يونانية ورومية وفارسية وعربية وإسلامية ، فصاغه كل ذلك للأدب العربى شاعرا عبقريا مصوراً ، وصدق المعرى فى وصفه لنشاطه العقلى حين يقول : « كان عقله أكثر من أدبه » .

٤ — أننى أرجح أن ابن الرومى مع تأثره البالغ بمختلف الحضارات السابقة — كان أشد تأثرا بالحضارة الفارسية من اليونانية وذلك لعدة أمور :

(أ) ثبت أن أمه كانت ترجع إلى أصل فارسى ، وقد طال عيشه معها ، وماتت وهو كهل . يقول :

أقول : وقد قالوا : أتبكى كفاقد رضاعا وأين الكهل من أرضع الحلم
هى الأم يا للناس جزعت لفقدها ومن يبك أما لم تذم قط لا يذم[3]

---

(١) الديوان المخطوط ورقة ٣٩٠ جـ ٤
(٢) الديوان المخطوط ورقة ٥٩ جـ ١
(٣) الديوان المخطوط ٣٩٥ جـ ٤

فكان أكثر تأثرا بها من أبيه ، الذى مات صغير السن حتى سمى محمدا أخاه والدا يقول: بأخى بل بوالدى بل بنفسى .

(ب) كانت الحضارة الإسلامية فى العصر العباسى لها الأثر الأكبر فى النهضة الفكرية والعلمية فى أثناء الخلافة العباسية . ومع أن الفرس كان لهم الحظ الأوفى فى الدولة لشدة نفوذهم وقوة سلطانهم وأن الخلافة قامت على أكتافهم ، حتى هيمنوا على السلطة لفترة غير وجيزة واستعان المعتصم بالترك ، لكن حضارة الإسلام وحدها هى السبب فى تكوين عدد كبير من أبناء الموالى الذين عاشوا فى ظلها وصبغهم بالصبغة الإسلامية .



وابن الرومى نفسه كان أكثر ارتباطا برجال الفرس ، وبالعلماء والوزراء منهم ، فكان معظم ممدوحيه من بنى طاهر وآل نوبخت ، وبنى صاعد ، وبنى الفياض ، وبنى بلبل وآل وهب وغيرهم ممن يرجعون إلى أصول فارسية صرفة .

(ﻫ) إذا كان ولابد أن نرجع ونرد ابن الرومى إلى جنس واحد ينتسب إليه ، وهو من الصعوبة بمكان ، فإننى بصفة عامة أرجح انتسابه إلى الدولة العربية العباسية الاسلامية ، فهو وليد زمانه وابن عصره والشجرة الوارفة الناضرة الظليلة لحضارة المسلمين فى العصر العباسى .

وأنا فى هذا الاتجاه ألتقى من جهة واحدة مع الدكتور طه حسين الذى يرد سر تفوق الشاعر وتكوين عقله إلى الثقافة الإسلامية اليونانية ، ثم ينفى عنه الثقافـــة الفارسية . فيقول : « وأنا أضيف تكوين عقل ابن الرومى إلى الثقافة الإسلامية اليونانية أكثر مما أضيفه إلى وراثته اليونانية ، ومن المحقق أن اجتماع الثقافة إلى تلك الوراثة هو الذى كون هذه الطبيعة الخاصة التى نجدها فى شعر ابن الرومى[1] » . ولا أتفق معه فى الحكم على ابن الرومى باليونانية الصرفة ، واعتداده الكامل بالوراثة فى الصفات المكتسبة .

وقد سلم فى تسرع بمـــا ذهب إليه المازنى والعقاد فهو يقول : « أما العقاد فقد كتب عنه كتابا هو من غير شك أحسن ما كتب عن ابن الرومى حتى الآن . . وعن المازنى فى مقالاته عن ابن الرومى فى كتابه حصاد الهشيم «عناية أشهد أنها من أقوى العنايات فلا أعرف أنى قرأت شيئا أروع ولا أمتع من هذه الفصول[2] » . وقد أوضحنا وجهة نظرنا فى ذلك .

---

(١) من حديث الشعر والنثر طه حسين ١٤٠ سنة ١٩٥١

(٢) المرجع السابق ١٣٤

ولا أتفق معه فيما تردد فيه كثيراً ، حينما تحدث عن يونانية الشاعر ، فتارة يجزم بأنه يونانى وأنه لم يتأثر كثيراً بوراثات أخرى فيقول : « ومصدر هذا ما تجدونه فى الكتب العربية قديمها وحديثها من أن أصل هذا الشاعر يونانى صريح لا يحتمل شكا ولا خوفا وأن ابن الرومى كان قريبا من أصله اليونانى لم يبعد العهد به ، فلم تضعف وراثته ولم يتأثر كثيراً بوراثات أخرى »

وقد ميزت بين الرومية واليونانية وذكرت طول العهد الذى امتد باليونانية الحقيقية إثنى عشر قرنا حتى وجود ابن الرومى فى القرن الثالث الهجرى .

وتارة يجزم بأنه لا يعرف أن ابن الرومى يحسن اليونانية أم لا بقوله : « لسنا نعرف أكان ابن الرومى يحسن اليونانية أم لا »[1]

وتارة يتردد فى جنسية ابن الرومى فيقول : إنه ليس باليونانى الخالص وبالفارسى الخالص ولا بالعربى الخالص . ولكنه نتيجة للطبيعـــة المختلفة التى كونت عقله وملكته الشاعرية ، ثم يرجع فيغلب الثقافة الإسلامية اليونانية — وليست معهما الفارسية — على وراثته اليونانية ، وهكذا يمضى طه حسين بين الثبات حيناً والتردد أحياناً ، ولن نستطيع أن نقف على أرض ثابته معه ، وعلى الحقيقة فى نظرته لابن الرومى .

يقول طه حسين « وابن الرومى ليس يونانيا خالصاً ، ولكنه يونانى من ناحية ، وفارسى من ناحيـــة أخرى فإذا كان أبواه أو جده يونانياً فأمه فارسية ، وإذن فالطبيعة الخاصة التى تؤثر فيـه ، ليست هى الطبيعة المختلطة ، وإنما الذى كون عقله وملكته الشاعرية هى ثقافته ، وهذه الثقافة فيما يظهر كانت ثقافة متأثرة جداً بما عرفه المسلمون من الثقافات الاجنبية والعربية »[2]

وأظن أن تردد طه حسين إنما هو شبيه بتردد العقاد لا فى مقدمة ديوان الشاعر كما سبق ولكن فى كتابه عن ابن الرومى — إن لم يكن طه حسين متأثراً به فى ذلك .

فالعقاد يبدو أنه رجع عما جزم به فى مقدمة الديوان أخيراً من يونانية ابن الرومى ومساواة ذلك بالرومية ، وإهمال ما عدا ذلك من المؤثرات الأخرى ، وذلك فى كتابه عن ابن الرومى عند حديثه عن عبقرية الشاعر .

واعتزاز العقاد بنفسه ، يجعله إذا عدل عن رأى ، تبين له خطؤه ، لا يسرع إلى ذكر الحقيقة مرة واحدة ليريح نفسه وقراءه ، ولكنه يأبى أن ينتقل مرة واحدة من الخطأ إلى

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٩

(٢) المرجع السابق ١٤٠

الحقيقة ، بل يتعلق بالتحايل والتردد والتخبط ، ويلح فى ذلك ليرهم غير المتعمقين فى البحث بأنه على صواب ، ولم يتورط فى خطأ من قبل ، ويظل متردداً بين الخطأ والحقيقة المغلفة بقدرته العجيبة على الحوار ، وربط الأفكار بما يهدف إليه .

وهكذا كان العقاد عندما ارتد عن رأيه فى عبقرية ابن الرومى وأثر اليونانية فيها .

يفسر العقاد عبقرية الشاعر بأنها عبقرية يونانية إلا أن ابن الرومى أضعفها بشـــدة إفراطه ، وعظيم انهماكه ، وخرج بها عن أصلها ، بأن زاد فيها وتعمل فى تكبيرها ، « وصفوة القول فى هذه العبقرية أنها كانت عبقرية يونانية لولا الإفراط والإنهماك ، أو أنها كانت عبقرية يونانية مكبرة الجوانب بعض التكبير »(١) .

ثم يرتقى بعد الجزم درجة فى التحايل على خطئه السابق ، فيرى أن ابن الرومى نشأ بحساسيته المرهفـــة ومزاجه الملى فى ظل حضارة قوية نبغ بها ، وأصبح على مثال فريد « فربما كان القول أن ابن الرومى رجل حساس متوفر الاعصاب ، ملئ المزاج نشأ فى حضارة زاهية فأجابته وأجابها ، وأخذت منه وأخذ منها فنبغ على ذلك المثال الفريد ، لأنه لابد فى الشعر من مثال فريد »(٢) .

وإلى هنا نصدق أن الرجل رجع عن رأيه السابق ولكن أين ذهب العناد منه والتصميم حتى فى الخطأ ، فليعد إلى الأرجوحة قائلا وهذا أقل فى العجب مما لو اعتبرنا عبقريته قد ورثها عن أبائه اليونان . ثم يأخذ درجة أخرى فى سلم التردد ليشرك القارىء معه قائلا له من هم اليونان أباء الشاعر ، أهم يونان الجزر أم يونان البلد ، أم يونان آسيا الصغرى ولكنه يسرع بالإجابة ليريح القارىء من عناء البحث فى ذلك فيقول : لا تتعجل ولا تبحث فهذا أمر صعب تفسيره وليس فى الإمكان ، ليقنع غيره بهذا التردد ، ثم يرتقى درجة أخرى فى السلم ليقرر — حيث يزيل منا العجب — : أن الإغريق أنفسهم قد اختلطت دماؤهم بدماء الآسيويين فهم فى ذاتهم جنس غير خالص ، بل امتزجوا بفكر آسيا وفنهم ثم يصل إلى حقيقة التردد ، حتى يوشك أن يعترف بالحقيقة ، وهى أنه لا يمكن الجزم فى القول بوراثة الفطرة الفنية ، حتى نحدد الأصل اليونانى الذى تحدر منه الشاعر بل لو جد الباحث فى بحثه ليكشف عن المزايا الأصلية التى تنتقل مع الدم فى الفطرة اليونانيـــة لأعياه البحث فى بيان ذلك .

---

(١) ابن الرومى حياته من شعره : العقاد ص ٢٧٧

(٢) ابن الرومى : العقاد ص ٢٧٧ .

يقول العقاد : « ربما كان هذا أقل فى العجب من تفسير عبقرية يونانية على اعتبار أنها موروثة عن آبائه اليونان إذ من هم آباؤه اليونان الخ . . ؟ ومن الصعب الذى يحتاج إلى التفسير أن هؤلاء الإغريق جميعاً سليقة واحدة . . . ثم نحن لا نعلم أن الإغريق فى قديم عهدهم كانوا عنصرا واحدا ينتمى إلى سلالة واحدة . . ولو أننا بحثنا عن مزية أصلية فى الفطرة اليونانية تنتقل مع الدم ، وتسرى فى خلال التكوين لأعيانا . . (١) الخ » .

وهنا يصل العقاد إلى درجة يقنع فيها القارىء بالحقيقة وكيف يقر ذلك ؟ وقد ابتعد عنها هو من قبل ، ومن هو ؟ يعرف نفسه ثم عاد كما بدأ فى المراوغة بين الهبوط والصعود حتى لا يطمئن القارىء عنده ، ولا يستريح فيقول . ما هو أشد خطرا على المحققين وخروجا على الطرق المتبعة فى إثبات الحقائق ، إنه لا يعنيه فى هذا التفسير وسوق المقدمات حتى يصل النتيجة المحققة ، ولكن ما يعنيه — وهو ما يتفق وطبيعة المتردد — هو وصف العبقرية اليونانية لا تفسيرها والبحث عنها حتى يثبت يونانية ابن الرومى فكأنه بذلك ، قد بنى عبقرية الشاعر على غير أساس ، ثم يسوق الدليل على ما سبق وكأنه حقيقة . وهو أن الشاعر الذى ينتمى إلى اليونان فى أى موطن غير الشاعر الذى ينتمى إلى العرب ، فذكر العبقرية اليونانية عنده كفيلة بالإقناع ، ولا يحتاج من المعرّض إلى تعليل الأصول ، والتعسف فى تقسيم خصائص الشعوب .

يقول : « فنحن لا نفسر عبقرية الشاعر حين نسميها بالعبقرية اليونانية ، ولكننا نصفها فى كلمات موجزة وصفا يقربها إلى الأذهان . . وما من شك فى أن الشاعر الذى تحدر من أصل يونانى أيا كان مقره غير الشاعر الذى تحدر من أصل عربى أيا كان مقره فحسبنا إننا نعرف ما نريد حين نذكر العبقرية اليونانية ، ولا نحاول بعد ذلك الخروج إلى تعليل الأصول ، والتعسف فى تقسيم خصائص الشعوب (٢) .

ولا يزال يقدم الأدلة على الاكتفاء بالوصف للعبقرية اليونانية لا البحث عنها وبيان نسبة ابن الرومى إليها ، وصلته بها فيقول . إنها العبقرية اليونانية التى ينبغى أن تؤخذ بالمفهوم الوصفى الفضفاض المتعارف فى لغة الآداب .

ثم يدرك العقاد بأنه يبتعد كثيرا عن الحقائق العلمية الثابتة ، والتى تتصارع مع نفسه

---

(١) المرجع السابق ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، يستحسن أن يرجع إلى النص كله حتى تتضح الفكرة أكثر عند العقاد وإن كنا عرضنا فكرته الأساسية من غير استطراد .

(٢) المرجع السابق ٢٧٨ — ٢٧٩

فى الداخل ليقترب من الحقيقة ، فيقرر أن هذا الوصف بالعبقرية اليونانية الذى قلنا أنه يكفى فى التفسير ، قول لا يجدى للوصول إلى الحقائق فى الأنساب ، ثم يهبط أخيراً إلى أدنى درجات سلم التردد ليقرر أن العبقرية إذا لم تفهم بالتفسير السابق فى لغة الأنساب فحسب العقاد من كلمة العبقرية أنها كلمة مفهومة فى لغة الآداب .

يقول العقاد : فخير ما نفهم به عبقرية ابن الرومى أنها عبقرية يونانية على المعنى المفهوم بين قراء الآداب من هذه الكلمة ، إذ لا نعرف صفة لعبقرية ابن الرومى هى أوجز ، ولا أبين من هذه الصفة المجموعة فى كلمة واحدة .. أما إذا كان كذلك لأنه من سلالة اليونان فذلك قول لا نجزم به ، ولا نجزم بنفيه لأنه يستطيع أن يكون كذلك فحسبنا إذن من كلمة العبقرية اليونانية أنها كلمة مفهومة فى لغة الآداب وإن لم تكن مفهومة فى لغة الأنساب (١)

فإذا امتد الزمن وظن العقاد أن جمهوره نسى خطأه ، أو التردد بين الخطأ والحقيقة إذا اطمأن إلى ذلك ، فانه يعلن رأيه فى جرأة معبرا عن الحقيقة فى أمر الوراثة اليونانية وليست اليونانية تمتاز عن أى شعب آخر وجنس غيرها ، وليست لها طبيعة فوق طبائع الأجناس الأخرى بل الأمر كله يرجع فى النهاية إلى الثقافة والحضارة وألوان الفكر فهى تؤثر وتميز جنسا عن آخر ، لا الوراثة كما جزم بذلك من قبل (٢)

وعبقرية ابن الرومى لا تقتصر على اليونانية فحسب كما زعم العقاد والمازنى ومن تبعهما ، ولكنها ترجع عند شاعرنا إلى أسس عديدة ، وعوامل كثيرة امتدت الى مسافات بعيدة وإلى أنماط مختلفة قبل عصره وفيه ، وفى نفسه ، فصبغت عبقريته من ذلك كله وساهمت هذه العوامل السابقة فى بنائها وتكوينها كما أنه تجاوب معها ، وتفاعل فيها ، فأعطى من نفسه وروحه بقدر ما أعطى العصر له فكان الشاعر العبقرى الفنان المصور وهذا ما سنتناوله بالتفصيل فى الفصل الآتى بعد .

قلنا — إن صح القول — إن ابن الرومى يرجع فى نسبه الى أصول أربعه : يونانية ورومية وفارسيه وعربيه ولكن ما أثر هذا كله فى صوره الادبيه .

يقول : ابن الرومى اليونانى الذى تأثر بالقياس المنطق حينما يصور سماحة البخلاء

---

(١) المرجع السابق ٣١٥ — ٣١٦

(٢) راجع كتاب العقاد عن : «أثر العرب فى الحضارة الغربية» الذى ألفه سنة ١٩٤٦ م فى توضيح الفكرة واتجاهه الاخير

الذين يمدحهم الشاعر ، ويوضح بها اطراد القياس وعدم تخلفه يقول :

سأمدح بعض الباخلين لعله ... إذا اطرد المقياس أن يتسمحا (٣)

وقوله أيضا :

وغابت تحت الحس حتى ما يرى الا قياسا

وتظهر يونانيته أيضا فى حبه للطبيعة وهيامه بها ، وسعه أفقه فى التجاوب معها وما أكثر صوره فى هذا الشأن وقد مضى الكثير وسيأتى أكثر .

وتظهر الفلسفة اليونانية فى صوره حيث يقول :

إذا ما كساك الدهر سربال صحة ... ولم تخل من عيش يلذ ويعذب

فلا تغبطن المترفين فإنهم ... على حسب ما يكسوهم الدهر يسلب (٣)

ويقول :

فان الداء أكثر ما تراه ... يكون من الطعام أو الشراب (٤)

يقول ابن الرومى وهو أعظم الشعراء إختراعا فى التصوير ، وابتكارا للصورة الأدبية كما اشتهر الروم بالإختراع والابتكار وقد عاش آباء الشاعر فى ظل الإمبراطورية الرومية حتى لقبه أهل عصره بالرومى . يقول فى صانع الرقاق وصور «الخباز» فى صورة لم يسبق لها نظير فى الأدب العربى :

إن أنس لا أنس خبازا مررت به ... يدحوا الرقاقة وشك اللمح بالبصر

ما بين رؤيتها فى كفه كرة ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر

إلا بمقدار ما تنداح دائرة ... فى صفحة الماء يرمى فيه بالحجر (١)

وحينما يصور ذوائب الكتان وهى تتموج وتتمايل مع الريح فى تلاحق وتتابع كموجات الغدير التى تتراقص مع النسيم يقول :

وجلس من الكتان أخضر ناعم ... توسنه دانى الرباب مطير

إذا درجت فيه الشمال تتابعت ... ذوائبه حتى يقال غدير (٢)

وشهرة الروم بالحروب ، وتفوقهم فيها سرت إلى نفس ابن الرومى وامتزجت بنفسه

---

(١) الديوان المخطوط ورقة ١٥٠ ج ١

(٢) الديوان المخطوط ورقة ٤٧ ج ١

(٣) الديوان المخطوط ورقة ٦٧ ج ١

(٤) الديوان المخطوط ورقة ٣٦٠ ج ٢

(٥) المخطوط ورقة ٣٠٥ ج ٢

فقد صـــور البحر الذى انعكس على صفحته ضياء الشمس وحرارتها، ثم حركت الريح أمواجه فى تلاحق ، صور من ذلك جيشا من الفرسان و بأيديهم سيوف قواضب ، لا ينفلت منهم أحد ، حتى هو :

أظل إذا هـزته ريح ولألأت | له الشمس أمواجا طوال الغوارب
كأنى أرى فيهن فرسـان بهمة | يليحون نحوى بالسيوف القواضب(١)

وابن الرومى الفارسى تفيض صوره بثقافة الفرس ومذاهبها فى الحياة . فهى تقـول بالطبيعتين ، طبيعة الخير وهى علوية سماوية ، وطبيعة الشر وهى أرضية ساقطة . ويبدو ذلك واضحاً حين يصور فيقول :

فينا وفيك طبيعة أرضية | تهوى بنا أبدا لشر قرار
الأرض فى أفعالها مضطرة | والحى فيه تصرف المختار
والنفس خيرك إنها علوية | والجسم شرك ليس فيه تمار
فأنفذ لخيرك لا لشرك وابتغ | أولاهما بالقـادر الغفـار(٢)

ثم الجدل الذى اشتهر به الفرس والحاحهم فيـــه بالحجج الواهية الواهنة ، فهى كآنية الزجاج، الـكاسر لها مكسور، كما أن القاتل مقتول بالقصاص أو بإحباسه بالتعدى، وكذلك الآسر مأسور .

لذوى الجدال إذا غدوا لجدالهم | حجج تضل عن الهوى وتجور
وهن كآنية الزجاج تصادمت | فهوت وكل كاسر مكسور
فالقاتل المقتول ثم لضعفه | ولوهية والآسر المأسور(٣)

ويقول فى هجاء إسماعيل بن بلبل ، ينفى عنه عربيته ، ويخلع عنه ثوبها ، ونلمح من خلال ذلك الروح الفارسية فى التصوير ، وإن استعمل بعض الألفاظ الفارسية فيما يقول :

أإسماعيل من رجـــل | تعرب بعــــد ما شاخا
وأصبح من بنى شيبان | ضخم الشـــأن بذاخا
وصار أبوه بسطاما | وكان أبوه قيبـــاخا
وصار يقول « قم عنا » | وكان يقول « قوهاخا »(٤)

وكان لليونانية والفارسية والرومية بصفة عامة أثر كبير فى التصوير عند الشاعر فى كل

(١) المخطوط ورقه ٦٠ جـ ١ — (٢) المخطوط ورقه ٢٨١ جـ٢
(٣) المخوط ورقه ٣٥٩ جـ ٢ — (٤) المخطوط ورقه ١٧٢ جـ ١

ما يتصل بالصورة من عناصر وإيحاء وظلال واستيفاء لجوانبها ومعانيها، فيأتى على كل شىء حتى لا تبق لها بقية بعد ذلك . يقول ابن خلكان .

« هو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب ، يغوص على المعانى النادرة فيستخرجها من مكامنها ، ويبرزها فى أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ، ولا يبقى فيه بقية[1] » .

ويقول ابن رشيق : « وكان ابن الرومى ضنينا بالمعانى ، حريصاً عليها ، يأخذ المعنى الواحد ويولده ، فلا يزال يقلبه ظهراً لبطن ، ويصرفه فى كل وجه ، وإلى كل ناحية حتى يميته ، ويعلم أنه لا مطمع فيه لأحد »[2] .

وحين يستوفى عناصر الصورة من حركة ولون وشكل وصوت وطعم ورائحة يقول :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان ... فيهن نوعان تفاح ورمان

وفوق ذلك أعناب مهدلة ... أطرافهن قلوب القوم قنوان

ألفن من كل شىء طيب حسن ... فهن فاكهة شتى وريحان[3]

وهذه صورة تلتقى فيها الحركة التى تركتها القدود فى القلوب من الوجد ، وتلك الفوقية والتحتية والتلويح ، مع اللون فى التفاح والرمان والأعناب والسواد والظلماء والعناب ، ثم الطعم والرائحة المختلفة للرمان والتفاح والعنب والعناب وغير ذلك مما يتصل بالدراسة الفنية للصورة الشعرية .

وفى استيفاء الصورة لعناصر الجمال يقول فيها : —

وتضاحك الروض الكثيب بصوبه ... حتى تفتق نوره المرتوق

وتبسمت نغماته فكأنه ... مسك تضوع فأره مفتوق

وتغرد المكاء فيه كأنه ... طرب تعلل بالغناء مشوق[4]

وأما ابن الرومى المسلم العربى العباسى ، فشعره العربى كفيل بهذه النسبة لأن الأسلوب — وهو عربى — لا شك — هو القالب الذى يصب فيه الشاعر معانيه وأغراضه وهو الصورة التى تعبر عن مشاعره وأحاسيسه وخواطره .

ومن ذلك أنه يؤمن بالقضاء والقدر فيقول : —

---

(١) وفيات الاعيان: ابن خلكان ج ١ ص ٤٩٩

(٢) العمده : ابن رشيق ج ٢ ص ٨

(٣) المخطوط سبق

(٤) المخطوط ١١٠ ج ١

إذا أتاك من الأمور مقدر ... وهربت منه فنحوه تتوجه[١]

ويقول أيضاً : —

تبارك العدل فيها حين يقسمها ... بين البرية قسما غير متفق[٢]

وأن الأرزاق مقسومة ومقدرة .

الرزق آت بلا مطالبة ... سيان مدفوعه ومجتذبه[٣]

والإعتزال مذهب أسلامي يدين له ابن الرومي : —

معـتزل مسر كفر ... يبدى ظهوراً لها بطون

أأرفض الإعتزال رأيا ... كلا لأنى به ضنين

لو صح عندى له اعتقاد ... ما دنت ربي بما يدين[٤]

والروح الاسلامية تلبس الصور لبوس الجلال ، وتغشيها بالوقار والهيبة يقـول وقـد ازدانت الدنيا بأثواب الربيع .

أصبحت الدنيا تروق من نظر

بمنظر فيه جلاء للبصر

ثنت على الله بآلاء المطر

وفى العفو والصفح يقول : —

خذالعفو واصفح عن أخ بعض عيبه ... إذا مابدا وارفعه بما أنت غامز

فإن هو أدى بعض حقك فأرضه ... فليس بمغبون أخ متجاوز[٥]

فهذا من قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » وقوله تعالى : « فأصفح عنهم وقل سلام » .

---

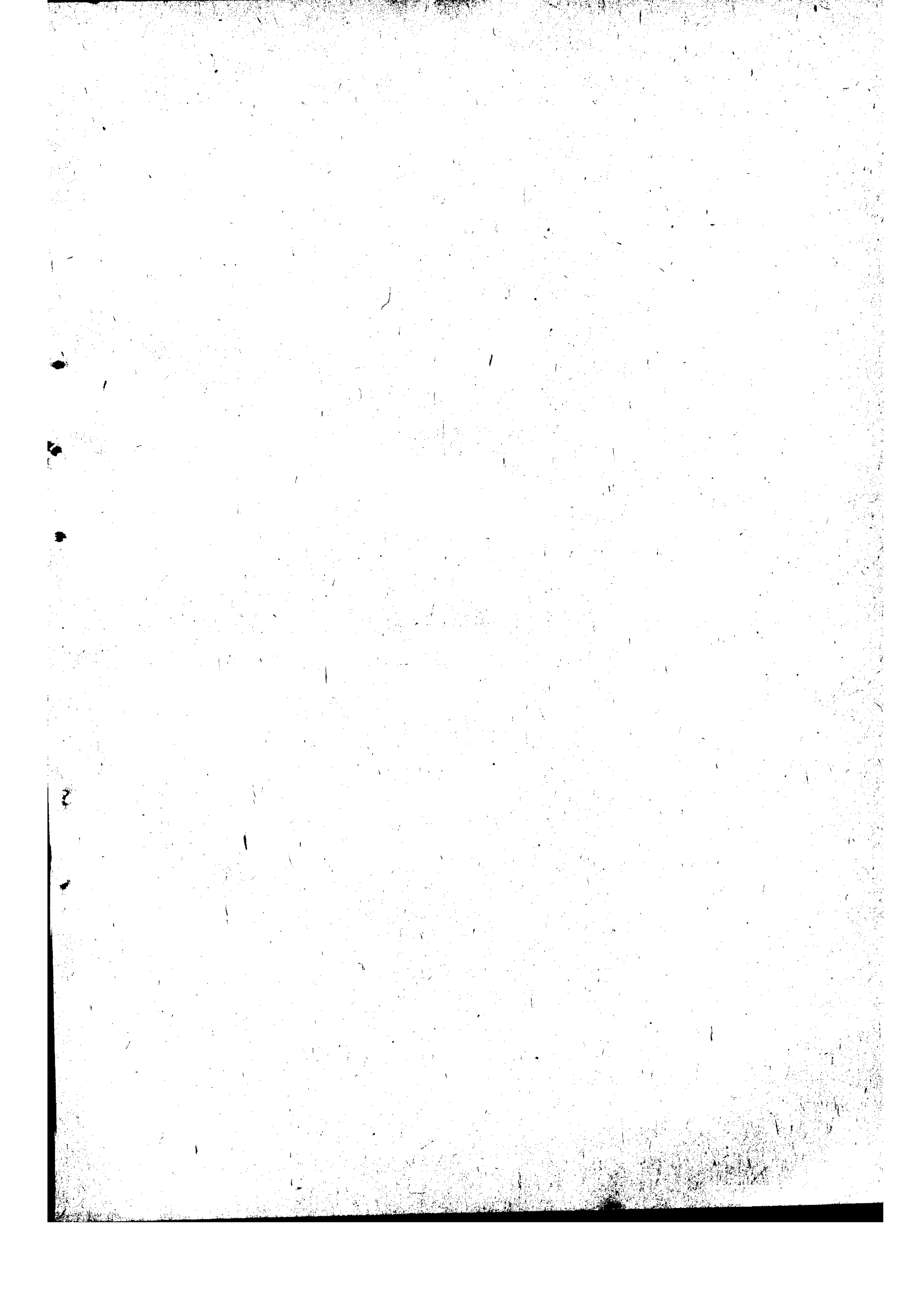
(١) الديوان المخطوط ورقة جـ ١ — (٢) المخطوط ورقة ١٣٣ جـ ١

(٣) الديوان المخطوط ورقة ١٠٥ جـ ١ — (٤) المخطوط ورقه ٣٨٢ جـ ٤

(٥) الديوان المخطوط ٣٨٢ جـ ٣ ورقة ٣٦٦ ، الاوراق مخطوط : للصولى (٣٣٥هـ) الجزء الثالث

الفصل الثاني

عبقرية ابن الرومي في الصورة الأدبية



(١)

الشعر يخاطب العاطفة ، ويهزها بطرائق شتى مثل الخيال والإيقاع الموسيقى وغيرهما، ويخاطب العقل ، ويحرك الخواطر ، ولكنه مع ذلك لا يتمادى فى الحكم العقيمة ، والنظريات الدقيقة المحدودة ، ولا يقتصر فى التصوير على الأوصاف الخارجة للأشياء ، وإلا كان الشعر قريبا ، يعنى بالمظاهر والقشور ، وسلعة مزجاة ، تخطف الابصار .

والشعر الشاعر ، هو الذى يحدثك من أعماق نفس قائله ، لينطلق شعورك فياضا ويذهب خيالك محلقا ، فتتحطم أمامك الحدود والمقاييس ، وتحلق فى ميدان فسيح ، فى عالم الجمال والروح .

والشاعر هو الذى يحس بالحياة إحساسا عميقا ، ويشعر بها شعورا صادقا ، فهو عبقرى بين إخوانه ، وشخصية فذة بين لداته ، صاغته الحياة على نظام خاص ، ونمط فريد ، ليؤدى مهمة خاصة ، لا ينهض بها كل الناس ، لأن الشاعر أدق وأعمق إحساسا بالحياة من غيره ، وأوضح وأصفى شعوراً من الآخرين ، فهو يحدثك بلغة الموسيقى الشعرية عن نفسه .

والموسيقى لغة العاطفة ، وهى نغمات غامضة ، تسرى فى النفس خفية ، دون أن يعبر عنها تعبيرا واضحا ودقيقا ، وان استطعنا أن نشعر بذلك شعورا عميقا ، فلغة الموسيقى مبهمة غير محدودة .

وهكذا كان ابن الرومى المصور الملهم فى تصويره الأدبى ، والعبقرى فى تناوله الشعرى لا تشذ عنه هامسة ، ولا تند لامسة ، حتى بلغ من إرهافه ، التطير والتشاؤم فانقلبت عنده الأوضاع ، وتبدلت الأحوال ، وصار قلبه الساحر ينفث الجلال فى لوحاته الفنية ، والسحر فى صوره الشعرية ، فأطلق عليه لنبوغه فى التصوير : الشاعر المصور ، لأن الأديب فى التعبير ، يخلع على الصورة ظلا من نفسه ، وروحا من شخصه ، وفيضا من خياله ، ولونا من عاطفته ، وقوة من انفعاله ، وصدقا من شعوره ، وسحراً من إلهامه ، ووحيا من خواطره ، ولعل أحداً لا يستطيع ذلك سوى ابن الرومى ، غالباً كما قال النقاد قديما وحديثاً (١) :

(١) كابن رشيق فى عمدته : ص ٢٦٤ ج ١ ، ص ٢٠٤ ج ٢ ، والعقاد فى ابن الرومى ص ٣٠٧ وغيرهما .

لا نكاد نعرف هذا المذهب فى التصوير لدى الأدب العربى القديم إلا عند المصور البارع أبى العباس الرومى ، حتى قالوا : إنه ليس ابن عصره ، ولا نبتة زمانه ، وأولى به أن يحتل مكانة بيننا فى العصر الحديث ، عصر النهضة الخارقة والثقافة العميقة المتعددة .

ولا يخفى على الباحث العوامل الكثيرة التى أسهمت فى توجيه شخصية ابن الرومى وبناء شاعريته بصفة عامة ، وبراعته فى التصوير بصفة خاصة ، وأن هذه البواعث — وقد مرت — تعددت واختلفت مواردها ، ولكنها قد يشترك معها فى تكوين الشاعر غيرها فى عصر ابن الرومى من العصر والحضارة التى بلغت مبلغا أربى على مطامع المنهومين ومشتهى العابثين ، ومجتنى المعربدين ، ومنزع العلماء والمفكرين ، كل يجد مأربه وينال بغيته ، ويحقق مايصبوا إليه ، من أقرب طريق ، وأيسر جهد ، وأسرع وقت دون عناء وبذل مشقة .

لذا كانت هذه البواعث فى نظرنا ، بل معظمها إن لم تكن كلها ، هى التى أنتجت شاعرية ابن الرومى والبحترى وغيرهما ، لأنها قسم مشترك بينه وبين غيره .

أما أسباب عبقرية الرومى فى الصورة الشعرية ، التى صاغت شخصيته وميزته عن غيره من الشعراء ، فكان شعره امتداداً لنمو الصورة ، وابتعاثا لروحها واستمراراً لجمالها . ومن تفيأ بظلها ، مسه نعيمها ، وجذبه سحرها ، وأبرأه نسيمها ، وأسكره طيبها ، فلا ندرى أى شىء أسكره ؟ حتى صار ثملا مترنحا ، هل هو سحر الطبيعة ، أو جلال الصورة ، أو كلاهما ، ليس هذا ولا ذاك ، ولكنه هو الشاعر المصور ، والفنان البارع ، الذى منحته الحياة روافد من نبعها الصافى ، وأمواجا من فيضها الزاخر ، وأفرغ ذلك فى التصوير فأبدع ، وفى التنسيق فأطرب ، وتلك هى الروافد التى فاضت بها عبقريته فى التصوير الشعرى والدوافع التى نفثت السحر من مهجته وسداه فى الصورة الأدبية :

(١)

كرهه للحياة :

الحياة التى نعيش فيها ليست هى الروح التى تسرى فى القوام البشرى فحسب ، ولكنها هى مانحس به من مختلف النشاط الإنسانى فى الكون ، ومن أناس وأفكار واتجاهات وعقائد وحضارات وسلوك ، هى ملء أسماعنا وملتقى بصرنا ، وما تتحرك به أفواهنا من كلمة منطوقة أو لقمة صامتة ، وما تتناوله أيدينا أو تقطعه خطواتنا ، وما يجول فى العقل ، أو ينبض به القلب .

وحياة ابن الرومى هى التى أحاطت به على امتداد عمره ، من مطاعم ومشارب ، وملذات وشهوات ، وما يلتقى به من أهل وأزواج وأولاد ، وأقارب وأصحاب ، وخلان وأصدقاء وأنداد وأعداء ، وشباب وشيوخ ، وحكام ومحكومين وما أشبه ذلك .

حياة ابن الرومى هى ما يجول فى فكره ، وما يحسه بوجدانه ، وهى المراحل التى مرت به من طفولة وصبى ، وشباب وشيخوخة ، وكهولة وهرم ، وغناء وطرب ، وصحة ومرض ، وحياة وموت .

هذه هى الحياة التى يعيشها شاعرنا ، ويحياها بحلوها ومرها ، وصفائها وكدرها ، وعذبها وملحها ، ومرها وحمضها .

ولقد كره ابن الرومى هذه الحياة منذ أن تنبه عقله لأحداثها وصروفها ، وظلمها وبغضها ، لأنها لم تبتسم له ، ولم تمنحه ما به يحمدها ، وأصرت على إيذائه وتابعته فى عناد الفينة بعد الفينة ، فأسلمت جسده للأوجاع ، وعرضته للأسقام والآلام يقول :

وظلم الليالى أنهن أشبننى　　　لعشرين يحدوهن حول بجرم(١)

وقد حرمته الحياة من الشباب قبل الأوان فكيف لا يكرهها :

سلبت سواد العارضين وقبله　　　بياضهما المجرد إذ أنا أمرد

وبدلت من ذاك البياض وحسنه　　　بياضاً دميما لا يزال يسود

وكنت جلاء للعيون من القذى　　　فقد جعلت تقذى بشيبى وترمد

لعبت بأولى الدهر فاغتال شرتى　　　بأخرى حقود والجرائم تحقد(٢)

ويقول :

أما رأيت الدهر كيف يجرى　　　يظهر ما أكتمه من عمرى

بأحرف يخطهـا فى شعرى　　　يمحو بها غصن الشباب النضر

وإذا محـا سطر بدا فى سطر(٣)

والحياة هى التى أجهزت على ربيع عمره ، حتى قوست ظهره ، وأصبح فى خريف الحياة على غير أوان :-

---

(١) الديوان المخطوط ورقة ٢٤٢ ج ٤
(٢) المرجع السابق ورقة ١٧٧ ج ١
(٣) المرجع السابق ورقة ٣٦٣ ج ٢

وأضحت قناة الظهر قوس متنها   وقد كان معدولا وإن عشت خخا(١)

وأصرت على إيذائه فأصلعته :

عزمت على لبس العمامة حيلة   لتستر ما جرت على من الصلع(٢)

والتعبير فى البيت يدل على سرعة الهرم الذى محا الشباب ، فتتابع المعنى وتتابع الإيقاع بسرعة يوحى بذهاب الشباب وإقبال للشيب .

وأنهك قواه قبح الوجه والصلع والشيب جميعاً :

فإن وجهى يقبح صـــورته   ما زال بى كالمشيب والصلع(٣)

وأصيب بالعور كما أصيب بالعشى فى البصر :

شغلت عنك بعوار أكابده   لا بالملاهى ولا ماء العناقيد

ويورك طرفى فالشخوص حياله   فرائد من أدنى مدى وهو فرد(٤)

قد أصابه الهزال وغشاه الكلال ، وغربل فى مشيته :

ودب كلال فى عظامى وأدبنى   جنيب العصا أناد أو أتأود(٥)

ويقول :

إن لى مشية أغربـــل فيها   آمناً أن أساقط الأسقاطا

ويقول :

أنا من خف واستدق فلا يثقل   أرضاً ولا يسد فضـــاء

يقول القائلون ضويت جسداً   ولم تنضجك أرحام النساء

إذا ما كنت ذا عود صليب   فيكفينى القليل من اللحاء(٦)

مثل هذا الرجل الذى ولد ضعيفاً ، فلم ينضجه الرحم ، وتعهدته الحياة ، حتى شاب وهزل ، وغربل فى سن مبكرة ؛ أفلا يكون ناقماً على الحياة غاضباً عليها .

ويصور الحياة التى وقفت له بالمرصاد فى قصيدة منها :

---

(١) المرجع السابق ورقة ١٧١ حـ ١

(٢) الديوان المخطوط ورقه ٤٦ جـ ٣

(٣) المرجع السابق   (٤) المرجع السابق

(٥) المرجع السابق ورقة ١٨٧ حـ ١

(٦) المخطوط من قصيدة إلى أبى القاسم ٨ : ١٢ جـ ١

إن الليالى والأيام قد كشفت ... من كيدها كل مستور ومكنون
وخبرتنا بأنا من فرائسها ... نواطقا بفصيح غير ملحون
أب وأم لهذا الخلق كلهم ... كلاهما شر مقرون بمقرون
دهر ودنيا تلاقى كل من ولدا ... لديهما بمحل الخسف والهون
للذبح من غذوا منا ومن حضنا ... لابل ومن تركاه غير محضون[1]

. . . . . إلخ .

وغيره كثير فى شتى المناحى ، ومختلف الأمور فى الحياة ، التى قست عليه ، وأعملت سهامها فيه . وما قدمته من قبيل الإشارة والتلميح ، ومن يستعرض شعره يحس الكره الشديد عند ابن الرومى للحياة والناس .

ومعنى أن الشاعر كره الحياة ، أى خافها وحذر منها لأنها آذته وأضرته . والذى يخاف شيئاً ، أو يتربص به عدو ، يتيقظ له ، ويتابع حركاته وتصرفاته أ، هذا مما يجعل الشاعر يخشى بأس الحياة ، ويرقب لددها ، ويتابع خطواتها ، ويرصد حركاتها . ويديم نظره إليها ، ويفكر فى الوسائل التى يتقى ... د عنه سهامها إن أمكنه ذلك .

ويظهر ذلك جلياً لدى الشعوب فى حروبها ، عندما تكره عدوها ، وتردكيده ، فانها تستغل كل الوسائل فى الإنتصار عليه ، وتخر ... ن ذلك بتجربة حيـــة تستفيد منها كل الشعوب .

كذلك كان ابن الرومى الشاعر ، فقد سلبته الحياة كل شىء كما رأينا ، وكما نرى فأخذ يتعمق فى الوسائل التى يتخذها لنفسه دفاعا له عن كيد الحياة ، ويتخذ الأسباب التى تدفع عنه شرها ، أو على الأقل يقف على أسباب كره الحياة له ، وأثر وقعها فيه ، ليكون هو خير تجربة للغير ، ونموذجاً إنسانياً فى الحياة .

لذا غاص فى أعماقها ، وانجاب فى تيارها ، يحلل ويعلل ، ويستطرد ويفصل ، فى يقظة ووعى ، ودقة أحساس ، وعمق مشاعر ، وتوتر أعصاب .

وشريط الحياة يعرض علينا أمثلة كثيرة كهذا النموذج الإنسانى ، ويبين لنا أن معظم العباقرة والمفكرين والقادة والمصورين والعلماء ، لم يكونوا فى الغالب إلا ممن لفظتهم الحياة ، حينما أنكرهم المجتمع إلى حد ما ، ولم يجدوا لهم فيه موضع قدم فينبع إلهامهم من

(١) الديوان المخطوط ورقة ٣٩١ جـ ٣

موارد الكرة ، وتصاغ عبقريتهم من ضيقهم بالناس والحياة ، فما رأينا منهم إلا شارد اللب ، ومنبوذاً طريداً ، أو منطوياً على نفسه ، أو معتكفاً فى عزلته يتخذ الوسائل ويتعلق بالأسباب ليجد لنفسه ، ولو موضع قدم فى مجتمعه الصاخب الكاره له ، فأصحاب النظريات والمبادىء والقيم ، وذوو الرأى والفكر ، كم تجرعوا جميعاً ألوان العذاب . وصنوف الآلام ، وا كتووا بنار البشرية الملتهبة ، فكانوا هم ضحايا نبوغهم ، ومبتلى تفوقهم وتفردهم ، ولكنهم — وهم يعلمون ذلك فى نفس الوقت — دعاة الحرية والسلام والتقدم ، وبناة الأمم والحضارات ، وصروح العلم والفن ، ورواد الفكر والأدب .

وما كان ابن الرومى فى هذا السبيل بدعا لم نجد له نظيراً ، ولا فرداً ولا صاحب له ، بل أنبتت الحياة كثيراً من أمثاله، وأعظم منه فى غير فنه ومذهبه الأدبى .

وقد قست الحياة عليه ، سواء أكانت هذه القسوة من الحياة نفسها لسوء حظه فيها ، أم بسببه هو لتطيره وتشاؤمه ، والذى أظنه أن الحياة منحته حظه فقط ، فالحياة فى ذاتها لا تظلم الناس ، ولا تقسو عليهم ، وابن الرومى من بينهم لم تترصده الحياة ولم تتعقبه ، ولكنه هو الذى أساء إليها ، ولم يلاطفها ، ولم يعالج أمورها برضى وقناعة وإيمان ، سواء أكان ذلك لضعف فى العقيدة أو لإختلال فى الأعصاب أو لاعتلال فى الجسم أو لكل ذلك ، وكان دائما ينظر إليها بمنظار أسود ، تجانست فيه السيئات والحسنات ، وامتزجت الفضائل بالرذائل ، وتلاحمت لديه عناصر الخير بمظاهر الشر .

وطه حسين يتبع رأى العقاد ، فى حب ابن الرومى للحياة ، وغنائه فيها ، وإن تردد بين الحب والبغض للحياة أنا . يقول : « كان اضطراب مزاجه يبغض إليه الناس ويسىء رأيه فيهم ، ولكن قوة حسه ، ورقة طبعه كانت تحبب إليه كل اللذات ، فكان يجمع بين الخصلتين ، فهو رجل يحب اللذة ويسرف فيها ، ويتهالك عليها ، فهو إذاً محب للحياة أشد الحب وهو فى الوقت نفسه مبغض للأحياء ، قبيح الرأى فيهم ، يتبرم بهم أشد التبرم ، ويود لو استطاع أن يتخلص منهم ، أما الأحياء فكانوا يبغضونه كما كان يبغضهم[1] » .

فنراه من النص تارة يجعل ابن الرومى محباً للحياة أشد الحب ، وتارة مبغضا للأحياء أشد البغض ، يتبرم بهم أشد التبرم ، ولا أدرى ما الحياة التى يقصدها

(١) من حديث الشعر والنثر : طه حسين ١٣٥ دار المعارف ١٩٥١ .

الدكتورطه ، أهى نسج من الخيال، ووهم من الأوهام، لا يحس بها إلا بمقدار ما ينتشى به السكران وهو مخمور ، أو هى اللحظة الفاصلة التى يصعب تحـــديدها بين سبحات المنتشى المخمور ، وبين صحوته ويقظته ساعة إدمانه ، ليست الحياة من هذا الصنف ، ولا من ذاك اللون ، وإلا لما عمرت الدنيا ، وطاب للناس الحياة فيها .

والحياة إنما تكون بما فيها من أحياء يعمرونها ، وساسة يحكمون ويتحكمون فيها، وقادة وعلماء ، وأقرباء وأصدقاء ، وخلان وأصفياء ، ومطاعم ومشارب، ومغانم ومثالب، هذه هى الحياة التى تجمع بين النبتة الميتة الجافة ، وبين الزهرة الفواحة المتفتحة ،فكيف يحب ابن الرومى الحياة ويكره الأحياء ، وهم عصبها وقوامها ؟

ويلح طه حسين كعادته ، فى التأرجح وعدم الثبات على حال ، وفى شكه لموقف الحياة من ابن الرومى ، فلا يدرى أكانت الحياة تحبه أم تبغضه ؟ وهل هى تكره أحدا أو تحب آخر ؟ إنما نحن بمشاعرنا وأحاسيسنا ، نلبسها ثوب الكره ، ونحن بفكرنا وعقولنا نصيبها بما أصابنا نحن من ظلام وقتام ، ولست أنصب نفسى واعظا فيها ولها ، فى هذا البحث الذى له مجال آخر ، ويكفينا فيه من الوعظ اللمحة الدالة ، والإشارة الواضحة . يقول طه حسين.

« أما الحياة فلست أدرى أكانت تحبه ، أم كانت تبغضه ؟ ولكن الشيء الذى لا شك فيه ، أنه أخذ من اللذات بحظ لا بأس به ، ولعله أسرف فى ذلك فضاعف ما يجده من ألم وضاعف ما كان فى أعصابه من اضطراب ، وفى مزاجه من فساد »[1] .

وهذه الكرة الذى لم يفارقه — حتى للطبيعة حينا — أكسبه ميزة جديدة ، وهى تبلد الاحساس نحو مصائب الحياة وأحداثها عليه أحياناً ، وهذا ما يتوقع من الحصانة . كاتخاذ الجسم حصانة من كثرة تدافع الدواء والداء فى النفس ؛ وفى شاعر تراكمت عليه ألوان الآلام ، وصنوف المصائب والفواجع ، فأصبح لا يبالى :

إن تلك الغصون عندى لتضحى ظالمات فهل لها من متاب
ما أبالى أ أثمرت لاجتناء بعد هذا أم أيبست لاحتطاب[2]

وليس معنى كره الشاعر للحياة أن يكون مستغنيا عن لذاتها وشهواتها ، فهذا ما يضطر إليه اضطراراً ملحاً ، لا تصد النفس عنها مطلقاً ، لأن اللذات والمشتهيات تتعلق بكيانه

(١) من حديث الشعر والنثر : طه حسين ص ١٣٥
(٢) المخطوط ورقة ٦٧ جـ ١

وحياته ، وبخاصة لمن شعر بأن الحياة لم توفه حقه ، منذ أن كان فى الرحم ، حتى ذوى عوده لعله يجد فى ذلك عوضاً ، لكن الحقيقة أنها ضاعفت من أسقامه وعلله كما سيأتى بعد ذلك حتى الشخص الذى يتمنى الموت ويرقبه بين حين وآخر . ليريح نفسه من عناء الدنيا ، فإن غريزة حب البقاء ترغبه فى المطاعم والمشارب ، وإن كانت تضاعف آلامه . وإذا حل به الموت تمثل قول الله تعالى : « وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر » .

وهذا الاضطرار للحياة جعل ابن الرومى يتفرس فى جنباتها وقد ظلمته ، ويستقصيهامن من أدناها وقد بغضته ، ليرى مكانه فيها ، ويتأكد من كرهه لها .

والنهم الذى أصابه نتيجة لكرهه للحياة ، وعوضاً عن ذلك الكره ، أو سدا الخلل فى جسمه ، ليس مقصوداً لذاته ، ولا هو يحبه ويهواه ، وإنما هو لهو فقط ، وشىء يشغله ويصرف نظره قليلا ما عن نظارته السوداء ، فهى لذائذ تلهيه فترة ما لينسى فيها بعض آلامه وأثقاله ، حتى يعود ويعود من جديد ، فى لقاء مستمر متتابع مع مرارة الأوجاع والمصائب يقول :

وكل لهو لهاه الناس مشغلة … عن ذكر ما هم من الأحداث لاهونا[1]

بل يجد فى ذلك تسلية فقط ، لا لذة ولا حبا مغرقا :

إل من ساءه الزمان بشىء … لأحق امرىء بأن يتسلى[2]

ويقول :

إنما الدنيـــا مـــلاه … واغتبـــاق واصطبـــاح
والمزاح الجـد إن فـكرت … والجـد المزاح[3]

وابن الرومى حينما يصور نفسه وشعوره ، تجاه الحياة التى يبغضها ، يرى شخصه ميتاً ، ولكن نهمه للملذات والشهوات ما زال حاراً وقوياً كالجمر الذى يتآكل ، ويصبح رماداً ، وحرارته ولهبه شديدين إلى فترة ما ، حتى بعد أن تخبو النار ، هذا فى رأيى مثل الرجل الذى أيقن من الموت ومع ذلك يأنس فى الدواء والطعام — وهما لا يبرحان فمه — الحياة والبقاء .

(١) المخطوط ورقة ٣٥٢ جـ ٤
(٢) المخطوط ورقة ١٦٥ جـ ٣
(٣) الديوان المخطوط ورقة ١٦٦ جـ ١

يقول :

شعر ميت لذى وطر حى　　كنار الحريق ذات اللهيب(١)

ولذلك فقد استوى كل شيء عنده فى الحياة ما دامت هى قد نغصت عليه حياته :

سليم الزمان كنكوبه　　وموفوره مثل محروبه
وريب الزمان غدا كائن　　وغالبه مثل مغلوبه(٢)

والحياة من طبعها الشر ، كيف لا ؟ وقد أخرجت أبانا آدم عليه السلام من الجنة يقول :

فينا وفيك طبيعة أرضية　　تهوى بنا أبدا لشر قرار
هبطت بآدام قبلنا وبزوجه　　من جنة الفردوس أفضل دار(٣)

ويقول :

أب وأم لهذا الخلق كلهم　　كلاهما شر مقرون لمقرون
إن ربيا قتلا أو سمنا أكلا　　فما دم طمعا فيه بمحقون(٤)

وابن الرومى فى كراهيته الشديدة للحياة ، وحزها فى جسده ، يتوقف عنده الماضى ، ويتجمد لديه المستقبل ، أما الحاضر فيسدر فيه ، ويتمدد فى طوله وعرضه ، ويسترخى فى مهاده ، لا يبالى أحداً ، ولا يلوى على شيء ، ثم يندفع متخطفا كالصقر على الملذات والمشتهيات ، والمطاعم والمشارب ، فى نهم المنتقم من حياته القاسية ، ويتحين كل فرصة ، لكى يسدد إليها سهامه بعد أن أصابته الدنيا بسهامها ، ويلتهم المناعم واللذائذ ، وهو يخشى أن تهرب هى الأخرى ، فتعقب فى نفسه الحسرة والألم ليزداد كرهاً على كره . ولذا فهو يأكل بمعدته وقلبه لا بفمه ، حتى يثير انتباه الحاضرين ، فيضحكون عليه ، ويسخرون منه ، وهو ينتقم لنفسه من الحياة ثم يستسمح الحاضرين ، لعذره فى ذلك . يقول :

ذرينى قسطنطين أكل شهوتى　　وكبشمنى أنى بذلك راض(٥)

---

(١) المخطوط ورقة ٢٦ ج ١
(٢) المخطوط ورقة ٨٢ ج ٢
(٣) المخطوط ورقة ٢٨١ ج ٢
(٤) المخطوط ورقة ٣٩٢ ج ٣
(٥) المرجع السابق ورقة ١٨ ج ٣

ويقول فى الموز :

يكاد من موقعه المحبوب ... يدفعه البلع إلى القلوب[١]

والمشمش فى ظنه طبيب ، يذهب آلامه وأسقامه ، وينسيه بغضه للحياة

وإذا ما رأيت الدهر بستان مشمش ... فأيقن بحق إنه لطبيب[٢]

ولهذا النهم أحل الخمر ، كما استحلت الحياة قسوته يقول :

أحل العراقى النبيذ وشربه ... وقال الحرامان المدامة والخمر[٣]

ويقول :

شارك الخمر فى إسمها ليس إلا ... أن أداموه مثلها فى الدنان

وحكاها فى اللون والريح والطعـ ... ـم ولطف الدبيب فى الجثمان

فهو لا خمر فى الحقيقة لكن ... هو خمر فى الظن والحسبان[٤]

ويقول فى القطائف ، التى أحيت فيه نهما على نهمه ، حتى كاد لا يستقيم منطقه هنا ولا نحس لذته لها ، ولو كان ابن الرومى محبا لها ، ومقدسا لمذاقها ، لأعطانا صورة حية صادقه ، وأثرها فى نفسه ، بحاسته الفنية المعروفة ، ولكن النهم لا الحب هو الذى جعله يجود إلينا بهذه الصورة الفاترة « سرور عباس بقرب يفوز » يقول :

قطائف قد حشيت باللوز
والسكر الماذى حشو الموز
تسبح فى آذى دهن الجوز
سررت لما وقعت فى حوزى
سرور عباس بقرب فوز[٥]

والذى يأكل بغير حساب ، لا يعرف معنى اللذة فى الطعام ، ولا يميز ذوقه بين الغث والسمين ، ولا بين الحلو والمر ، فالمعدة عنده كالشيطان لا تبقى ولا تذر ، بل تأتى على كل شىء ، وهو فى غفوة عن اللذة ، لا يعنيه إلا الحشد والتكثر . يقول ابن الرومى :

إملأ ثناياك واكدم كدما ... تسرع فيما قد بنيت هدما

لهفى عليها وأنا الزعيم ... بمعـــدة شيطانها رجيم

(١) المخطوط ورقه ٥٧ ج ١ .
(٢) المخطوط ورقه ١٠٨ ج ١
(٣) المخطوط ورقة ٣٠٥ ج ٢
(٤) المخطوط ورقة ج ٤
(٥) المصورة ٢٨٩ ج ٢

وأما رمضان فهو ثقيل الظل ، لأنه متواطىء مع الحياة عليه ، فيهجوه قائلا :

شهر الصيام وإن عظمت حرمته شهر طويل ثقيل الظل والحركة[1]

ويقول :

رمضان يزعمه الغواة مبارك صدقوا وجدك انه لطويل [2]

أما الشراب والخمر فلا يقلان عن الطعام فى النهم ، بل هى تنسيه آلام الحياة وتخفف من أسقامه . يقول :

ومدامة كحشاشة النفس لطفت عن الإدراك باللمس

لنسيمها فى قلب شاربها روح الرجاء وراحة اليأس [3]

وأما الأحياء وهم عصب الحياة ، فأخذوا يتعقبونه ويطاردونه ، حتى كرههم وخشى منهم ، فأعد لكل عدته ، وأشهر سلاحه فى وجوههم . من الهجاء المقذع .

فكان من أهجى شعراء العرب ، مما جعل معاصريه يبتعدون عنه خوفا من لسانه ، فقد هجا الأخفش وابن عمار والبحترى وغيرهم ، فكانوا يتقونه ويحذرونه ، وهم مع ذلك يكيدون له ويؤلبون طيرته ، فيسخر منهم ، ويمسخ صورهم ، ويتخذ لهم كل وسيلة ترد عنه كيد الناس ، وهو فى ذلك يتمزق ألما وحسرة لمصيبته بينهم ، فالحياة عند الخلق عامرة رابحـــة ، أما هو فلاحظ له فيها ، ولا نصيب ، اللهم إلا القسوة والجحد والنكران ، وهذا الزمان عجيب وغريب يقول ابن الرومى :

أترانى دون الألى بلغوا الآ مال من شرطة ومن كتاب

إلى قوله :

ألم أكن دون مالكى هذه الأم لاك لو انصف الزمان المحابى[5]

حتى الملوك والساسة لم يعطفوا عليه ، ولم ينصفوه ويعطوه حقه ، بل كرهوه وحرموه من متعة الحياة وبهجتها :

قد بلينا فى دهرنا بملوك أدباء علمتهم شعراء

وحمل على البحترى فى أبيات غير قليلة :

الحظ أعمى لولا ذاك لم نره للبحترى بلا عقل ولا أدب

---

(١) المخطوط ورقة ١٤٧ جـ ٣
(٢) المخطوط ورقة ١٦٧ جـ ٤
(٣) المخطوط ورقة ٣٧٤ جـ ٢
(٤) الديوان المخطوط ورقة ٨٩ جـ ١

قبحاً لأشياء يأتي البحتري بها | من شعره الغث بعد الكد والتعب[١]

ويقول متأسياً :

خليلي قد عللتماني بالأسى | فانعمتما لو أنني أتعلل
وما راحة المرزوؤ في رزء غيره | أيحمل منه بعض ما يتحمل[٢]

وباتجاهنا هذا نخالف العقاد، بل إننا على نقيضه تماماً ، فهو يدعى بأن ابن الرومي «يعبد الحياة ويقدسها» فيقول : «وابن الرومي كان من أخلص محبي الحياة بين محبيها الكثيرين .. وهكذا كان ابن الرومي يعبد الحياة عبادة لا يبتغي عليها أجراً ، غير ما يبتغيه خلص العابدين، فكان حياً كله لا مكان فيه للموت إلا الخوف منه والتفكير فيه ، وإنك لتتابع أبياته الكثيرة في هذا الغزل أو هذه الفتنة أو في هذا السكر - فيخيل إليك أنه شارب قبض على الكأس ، يود أن يجرعها مرة واحدة من فرط التعطش والخوف عليها ، لولا أنه يستعذبها ، ويستطيبها فيرتشف منها رشفة بعد رشفة ، ويعود إليها ينظر ما فرغ منها ، وما بقي فيها ، ويضن ويشتاق ويشعر بمراره الفقد، لفرط شعوره بحلاوة المتعة، فما انقصت من تلك الكأس — الحياة — قطرة ، إلا أحس بطيبها ، وأحس بألم فقدها ، وعرف مقدارها ، وقاس من الكأس حيزها ، وعاد يرتشف لينسى ، فيزداد ذكراً على ذكر ، وخسارة بعد خسارة ، وأي ذكر ، وأي خساره وأي ألم ، وأي فجيعة[٣] » .

ثم أخذ يسرد الأبيات التي يحن فيها إلى شبابه الغض ، وقد ذكرنا بعضها ، وبينا فيها أن الشاعر كان لا يمجد شبابه ، ولكنه كان يبكيه لأنه حرم من متعته وميعته ، فقد سرى فيه الضعف والشيب والهزال وهو في سن مبكره كما وضح من تصويره :

وظلم الليالي أنهن أشبنني | لعشرين يحدوهن حول مجرم[٤]

وإن سلمنا للعقاد حبه لشبابه ، فلا نسلم بأي حال أن ابن الرومي من عباد الحياة يعبدها ولا يبتغي على ذلك أجراً .

لأن معنى العبادة : هو الطاعة والخضوع والإمتثال ، ولا تكون إلا لمعبود يستحقها لأن له صفات الهيمنة والقدرة والجمال والجلال ، وقد عبدنا الله وقد سناه لأنه جميل ولأنه مصدر الخير والحق والجمال ، بل هو الوجود كله ، والحقيقة كلها .

---

(١) المخطوط ورقه ٨٥ جـ ١ (٢) المخطوط ورقه ١٨١ جـ ٢
(٣) ابن الرومي : العقاد ٢٨٠ — ٢٨١ (٤) المخطوط ورقه ٢٤٢ جـ ٤

ولا يمكن أن يقع في تصور أي إنسان وعقله، أن يقدس العابد الشر والمكروه، فكيف قدس ابن الرومي الشر في الحياة؟ وهو يلاحقه في كل مكان فيفر منه ويخشاه، ويحذر من الحياة لأنها في نظره منبعه، وهي أشد قسوة عليه، فقد حرمته من كل شيء كما بينا.

إنه لم يعبد الحياة لأنها كانت مبعث طيرته، فقد ضنت عليه بالخير وتعقبته بالقسوة والعنف، وطالما حرمته الكثير مما هو ضروري له، ومحتاج إليه، ففضل الفقر والجوع والحرمان عن الأسفار الرابحة، التي تعود عليه بالنعيم والسعة أياماً وشهوراً، ولكنه حرم نفسه من كل هذا، لأنه ما وثق في الحياة يوماً، وفي أحيائها وأناسها ساعة، فماء دجلة يتربص به وأمواجه جيوش فتاكة، وشربة من كوز، يحذر منها، تتهادى في بلعومه بيسر وحذر، حتى لا تقبض روحه:

فأيسر إشفاقي من الماء أنني أمر به في الكوز مر المجانب

حتى صحوة الحياة واعتدالها تكيد لابن الرومي، وتنزل به كرباً وشدة

ولم أنس ما لاقيت أيام صحوه من الصر فيه والثلوج الأشاحب

إلى قوله:

إلى أن وقاني الله محذور شره بعزته والله أغلب غالب

فاضت الأرض ماء، لتتصدى له، وتوقع الشر به وحده. يقول:

سقى الأرض من أجلي فأضحت مزلة تمايل صاحبها تمايل شارب
لتعويق سيري أو دحوض مطيتي وإخصاب مزور عن المجد ناكب[1]

وقد بلغ كرهه من الحياة، أن اشتكى إلى الله سوء حاله فيها ومنها في قوله:

إلى الله أشكو أن بحري زاخر وإني من المعروف في منهل ضحل[2]

ومن الأحياء أيضاً:

وذو آلة فاستخدموني لآلتي بقوتي وإلا فأرزقوني مع الزمنى
هبوني أمراً لاحظ فيه لجتني أما في اصطناع المعروف مكرمة تبنى[3]

والدنيا كلها قد تنكرت له:

لقد أنكرتني بعلبك وأهلها بل الأرض بل بغداد صاحبة النيل[4]

---

(١) المخطوط ٥٩ : ٦١ جـ ١ .
(٢) المخطوط ٢١٧ جـ ٤ .
(٣) المخطوط ٢٤ جـ ١
(٤) المخطوط ٢١٧ جـ ٤

لذا حذر الناس وخافهم :

حذرتني الناس فقــد أصبحت نفسي لا تألف إنســانا(١)

إنه أصبح لا يعرف للحياة طعما ، فهو في أرق دائم ، وسهر مستمر :

لم يسـترح من له عين مؤرقة وكيف يعرف طعم الراحة الأرق(٢)

بل بلغ به الأمر في الحياة أن صار كالريشة المعلقة في الهواء ، تصيرها الرياح حيثما تشاء ، وأصبح لا حيلة له فيها ، مسيرا مجبورا . يقول :

لو ترى الناس بينهم لأجبرت صراحا ولم تقـل باكتساب

وكذاك الدنيا الدنيـة قدرا تتصـدى لآلام الخطاب(٣)

هكذا كره ابن الرومي الحياة التي تصدت له ، فعكف على نفسه يدبر ويفكر ، ليأمن شرها ويقف على أسباب نكره لها ، فإن تيسر له من مطعمها ومشربها ، إلتهمه بكل ما يملك انتقاما منها ، كل ذلك كان له الأثر في عمقه وتأمله ، وتربية الحاسة الفنية فيه ، حتى أصبح الشاعر ، والمصور العبقري .

وإذا كان ابن الرومي كره الحياة ، فإنه هرب إلى مسرب من مساربها الجميلة ، لعله يجد هناك عوضا ، كما وجد بعضه في ملذاتها ومطايبها ، ونعمائها وشهواتها .

(٢)

هروبه الى الطبيعة :

والطبيعة نسج مترابط بين الكائنات المختلفة ، من الإنسان والحيوان والنبات والجماد ، وكل ما في الكون من مخلوقات في باطن الأرض وجوفها ، فالمعادن المختلفة التي استغلها الانسان فأصبحت أداة سلام أحيانا ودمار حينا ، والبراكين الثائرة التي تهدأ بعدها الأرض ، وتطمئن في مدارها ، أو ما على ظهر الأرض من إنس وجن ، وسهول تستقر فيها الحياة ، وجبال تشد الأرض إلى قرارها المكين ، ومن حيوان قد تباينت أنواعه ، وتتابعت درجاته ، ونبات مختلف ألوانه ، أو ما في الكون من عوالم مرئية في ثوب الأرض التي يحيط بها من الفضاء ، كالظلام والنور ، والبرق والرعد ، والنسيم العليل ، والرياح العاصفة ، والشمس والقمر ، والنجوم والشهب ، وسماء الشتاء التي تبعث الحياة

---

(١) المخطوط ٣٧٠ ج ٤ . (٢) المخطوط ١٣١ ج ٣ .

(٣) المخطوط ٨٩ وما بعدها ج ١ .

فى النبات ، والخريف فى ثورته وعنفه ، وحرارة الصيف وآلامه ، وسماء الربيع فى زرقتها وصفائها ، وقد ازدانت الدنيا بأبهى حللها .

وأكثر من ذلك مما ظهر لنا أو خفى ، من الكون وجوهر الوجود نلمح الطبيعة الساكنة الهادئة أو المثمرة الثائرة ، قبل أن تحركها ريشة الشاعر ، وتلونها بعبقريته ، وينفث فيها من سحره ، ويبث فيها من روحه ، هى الطبيعة التى تشجيها السذاجة ، كالطفل الذى يقفز عن غير وعى ابتهاجا ، ويضحك ملء فمه عند ما يحصل على اللعبة التى يهواها ، والحلوى التى يحبها ، أو يطرب ويفزع عند ما يقع نظره على تمثال الأسد ، وقد كشر عن أنيابه ، أو صورة لوحش يفترس صيده ، هذه هى الطبيعة ، والتى عبر عنها المازنى بقوله البساطة التى لم يعد عليها الفن ، أو الوجود فى ذاته وبكل حريته . يقول : ولا نحتاج أن نقول : إن هذا الإحساس الذى يخالجنا حين نجتلى الطبيعة ، ونتأمل بساطتها ، لا دخل فيه للشعور الفنى ، ولا للأشياء نفسها ، إذ ماذا فى زهرة أو حجر أو عصفور يغرد ؟ إنها ليست هى ذاتهـا التى تثير فى نفوسنا عواطفها ، بل ما وراءها : أى الحياة وعملها الباطن والوجود الحر فى ظل سننه ، ومن هنا تمثل الطبيعة طفولتنا الحبيبة إلينا ، العزيزة علينا أبدا (١) » .

والعرب حتى فى جاهليتهم اهتموا بالطبيعة ، لأنهم عاشوا فى أكنافها ، وتقلبوا بين أحضانها ، ووصفوها وصف أناس ارتبطت حياتهم بمظاهرها ، من صحراء واسعة ، ووهاد متباينة ، وسهول فسيحة ، وجبال وكثبان ، ورمال ووديان ، وصخور وأطلال ، وأرض وسماء ، وليل مزدان بالقمر والنجوم والشهب والبروق والرعود ، ونهار يفيض بالنور والحياة ، ويتحدر بالقتام والغمام ، ويتهامس بالنسيم ، كما يعصف بالرياح ، ويقصف بالأعاصير ، والعرب فى مدار السنة يتقلب عليهم الصيف بحرارته والشتاء بمطره وبرده ، والخريف والربيع ، وما بين الأرض والسماء من أعشاب ونبات ، ونخيل أشجار ، وزهر وثمر ، وحيوان وطير ، وحشرات وزواحف ، ومنازل وخيام ، وعيون وأنهار ، والحمائم والنسور ، والعقاب والحبارى والصقور ، والإبل والظبى ، وحمار الوحش والغزال ؛ وصف الشعراء العرب قبل العصر العباسى الطبيعة فى البيئة العربية البسيطة التى عاشوا فيها من أرض وسماء ، وجبال وصحراء ، فهى طبيعة لا تركيب فيها ولا تنوع ، وبيئة لا ازدواج فيها ولا تشابك .

(١) حصاد الهشيم : المازنى ٣٠٩ — ٣١٠ سنة ١٩٦٩ الشعب .

كان موقف الشعراء من الطبيعة حتى قبيل العصر العباسي يغلب عليه التدرج والترقي في وصفها من السذاجة والبساطة إلى التعمق والتركيب، ومن التنافر والتباعد إلى التآلف والقرب، وهذه صور تضع أيدينا على ارتباط الشعر العربي قديماً بالطبيعة، والشعراء يتنقلون في مدارجها، حتى اكتمل الشعر في وصفها أو كاد أن يكتمل فنياً، ويرقى بالوجدان والمناجاة.

ونبدأ بامرىء القيس حين يصف ثقل الليل على صدره فيقول:

وليل كموج البحر أرخى سدوله — على بأنواع الهموم ليبتلي

فقلت له لما تمطى بصلبه — وأردف أعجازاً وناء بكلكل

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي — بصبح وما الإصباح منك بأمثل(١)

وامرؤ القيس يصف الليل وطوله على صدره المهموم، فهمومه تكاثرت وتراكمت حتى أصبحت كالليل الشديد الظلام، ظلماته بعضها فوق بعض كموج البحر المتراكب، وهو ليل قد امتد، حتى صار له صلب وأعجاز وصدر.

فاستغاث لينجلي عن الشاعر بنور الصباح، ولكن الصباح عنده امتداد لليل، وصنوله لاستبداد الهموم به، وتمكنها من نفسه.

ويصف عنترة بن شداد روضة من رياض الطبيعة فيقول:

أو روضة أنفا تضمن نبتها — غيث قليل الدمن ليس بمعلم

جادت عليه كل بكر حرة — فتركن كل قرارة كالدرهم

سحا وتسكابا فكل عشية — يجرى عليها الماء لم يتصرم

وخلا الذباب بها فليس ببارح — غرد الفعل الشارب المترنم

هزجا يحك ذراعه بذراعه — قدح المكب على الزناد الأخذم(٢)

فالشاعر يصف تلك الروضة التي سح عليها المطر المتدفق المتلاحق، فاتخذ من الأرض عيوناً مستديرة كأنها الدراهم وحولها الزرع المتموج، والنبت الناضر، تتزين بأبهى حللها، حتى شدت الأنظار، مأخوذة ببريقها وسحرها، والطير بأنواعه حافل ومحاق بها، فانتشى مهتزاً طروباً، يعزف أعذب الألحان، وهو يعلو ويهبط بأجمل التغريد، يشدو ويطارب، حتى بلغ من ابتهاجه وفاه باللحن والنغم، أن ضم إلى أوتار جناحيه وإلى صوته وترا ثالثاً

(١) دلائل الاعجاز: عبد القاهر الجرجاني تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي ٣٣٧

(٢) ديوان عنترة: ضبطه محمد محمود المطبعة العربية ص ٩٩، ١٠٠

وهو حك الذراع بالذراع ، لينسجم مع النغم ، ويضاعف من أثره ، وأحسب أن هذه القطعة الحية النابضة من الطبيعة لا تفارق الحس فى أى زمان ومكان .

وصورة أخرى تنبض بالحياة ، من معلقة مشهورة للشاعر المخضرم لبيد يقول :

عفت الديار محلها فمقامهـــا ⁂ بمنى تأبد غولها فرجامها[١]

هى الطبيعة ، التى عاشها لبيد بن منى ومدافع الريان ، وغيرها مما يتجاوب فى أصدائها الرعد ، ويلمع البرق فى جنباتها ، وتهتز الدنيا بالامطار ، فتسرى الحياة فى النبات ، وتنتشر الظباء والنعام والبقر هنا وهناك،فرادى وجماعات،وتضع أولادها،وتلفهم بالرعاية والحنان.

وفى العصر الأموى نجد أحد شعرائه وهو عمر بن أبى ربيعة يفيض من إحساسه ومشاعره على الحياة ، فيخلع على الطبيعة الخشية والخضوع فيقول :

دمية عند راهب فى اجتهاد ⁂ صوروها فى جانب المحراب[٢]

فهى دمية عند عابد راهب مغرق فى خضوعه ورهبانيته ، أمام هيبة المحراب وجلاله فغشيت الدمية الهيبة والجلال ، والخشوع والذلة فكان الشاعر فى إحساسه عميقاً ومنظما لافكاره ويفتن « فى الخيال فيعقد فيه ويركب » . وهذه صورة لكثير عزة، الشاعر العذرى المشهور ، وقد اختلف عليها النقاد القدامى والمحدثون ، يقول الشاعر .

ولما قضينا من منى كل حاجة ⁂ ولم ينظر الغادى الذى هو رائح

وشدت على دهر المطايا رحالنا ⁂ ولم ينظر الغادى الذى هو رائح

أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا ⁂ وسالت بأعناق المطى الاباطح[٣]

سكون ورهبة ، وصمت سادر ، واعتناق فن الحياة ، وامتزاج بالوجود فى مناجاة حبيبين ، ووشوشة عاشقين ، والوادى ينساب بأعناق المطى ، بين الهضاب وفى السهول .

وفى العصر العباسى قد تعددت روافد هذا الفن ، فظهر فى أجمل صوره ، وأبهى حلله وبخاصة على يد شاعرنا ابن الرومى الذى عاش مع الطبيعة بقلبه وروحه .

لذا كان شعره فى الطبيعة أكثر تنوعا ، وأعمق غوراً ، وأرحب أفقاً ، وأسهل طواعية لإحساسه ومشاعره ، فكانت مأواه التى آوى إليها والظل الوارف الذى جفف عرقه .

---

(١) ديوان لبيد تحقيق إحسان عباس ٢٩٧ بيروت ١٩٦٢ وستأتى فى الفصل الرابع .

(٢) حديث الاربعاء د . طه حسين .

(٣) أسرار البلاغة الإمام عبد القادر الجرجانى تحقيق السيد رشيد رضا .

هرب ابن الرومى إلى الطبيعة ، واستجار بأشجارها وأزهارها ، وأنهارها ومغانيها وشمسها وقمرها ونجومها، لينسى فيها آلامه ، ويهرب إليها مترفقا بوساوسه .

وهناك فرق بين حب الطبيعة ، والهرب إليها فى البداية ، والشاعر فر إليها لا حبا فيها ، ولا عشقا لها ، ولكن لتنسيه آلامه فى الحياة ، وكراهيته لها ، بل ظل أيضاً مشدوداً بالكرة لظنه أن الطبيعة جزء من الحياة وصنولها ، وأطل الكرة فى تستر وخفاء من وراء مظاهر الطبيعة حينا ، توهما منه أنها والناس جميعاً عليه ، كما فى صوره العديدة فى قصيدة عنت الدهر ، وفى تصويره للنخل ، فقد عذره لأنه يذود الأنامل عن جناه ، فهو يكره الناس ويتصدى لهم بالأذى ، ولم يبتسم الشاعر لخيره ، بل خاف من شوكه ، وقرنه بالعوسج الذى لا نفع فيه :

عذرنا النخل فى إبداء شوك — يذود به الأنامل عن جناه
فما للعوسج الملعون أبدى — لنا شوكا بـــلا ثمر نراه
تراه ظن فيه جنى كريما — فأظهر عدة تحمى حمـــاه
فلا يتلحن لدفع كف — كفاه لؤم مجناه كفاه[1]

ولكن الأحياء عنده ، لهم من الإدارة بحيث يغضبون ويرضون ، ويبغضون ويحبون أما الطبيعة فلا تغضب ولا تصر على الغضب ، ولذا اطمأن إليها قليلا قليلا ، حتى تعاطف معها ، وأحس بها ، وأحست به فأحبها حبا عميقا — ريثما تسكن عنه طيرته — وغاص فى أعماقها ، وتمكنت من إحساسه وخواطره ، حيثما ينصرف عنها شيطانه الشرير ، ويصغى إلى الكون ، ويمنحه أسرار الحياة ، ويكشف عنه قناع الغموض ، فإذا ناجى الرياض استقصى كل ما يجول بخاطره من معانيها وأسرارها ، وتناول جزئياتها واحدة بعد واحدة ، وبهذا الحب الخاص ، والهيام الصادق ، أخلص لها فى الكشف عن أسرارها ، فاكتملت صورتها عنده ، وفاق تصويره كل تصوير ، كما يخلص الحبيب لحبيبه ، حين يبذل طاقاته ، ويسخر كل مواهبه وإمكانياته فى إرضائه ، فكذلك ابن الرومى ، فنيت ذاته حبه للطبيعة عندما أحبها ، كما فنيت روحه فى كراهية الحياة ، فأجاد فى النقيضين ، ولا أرى ذلك إلا عمقا وبعدا ، كبعد السماء عن الأرض ، وكلاهما لا يلتقى مع صاحبه مع أنه على نقيضه .

وحب ابن الرومى للطبيعة فى شعره ، يختلف كثيراً عن إحساس الشعراء لها ، فإحساسه مفعم بالجمال فيها ، وأدوات الإحساس عنده كثيرة ، هى العين والسمع واللمس والشم والذوق ، ولا فائدة لها فى التصوير إلا بالشعور المتدفق ، والإحساس المرهف ، ليحس الشاعر

[1] الديوان المخطوط ٢٥ جـ ١ .

بالطبيعة ، ويتجاوب معها ، وتمتزج روحه بأسرارها وكوامنها ، وأدوات الإحساس تختلف في درجاتها فيما بينها ، وفي قدرتها على التوصيل ، وإن كانت العين والسمع تستأثر بالحظ الأكبر ، فتراه حينما ينساب بين الرياض ، ويذوب في ألوانها وأصواتها وحركاتها وتقلباتها ، يقول وكأنه زهرة متفتحة تتجاوب مع ماحولها :

إذا شئت حيتني رياحين جنة — على سوقها في كل حين تنفس
وإن شئت ألهاني سماع بمثله — حمام تغنى في غصون توسوس
تلاعبها أيدي الرياح إذا جرت — فتسمو وتحنو تارة فتنكس
إذا ما أعارتها الصبا حركاتها — أفادت بها أنس الحياة فتؤنس
توامض فيها كلما تلمح الضحى — كواكب يذكو نورها حين تشمس [1]

في هذه الروضة استخدم الشاعر كل مايملك من عناصر الإحساس وأدواته ، بل من عناصر إحساسه بالجمال في الروضة ، فقد دفعنا ابن الرومي إلى أن نحس باللمس ، فنمد أيدينا لنحيي الروضة ونبادلها التحية والسلام ، ونحس بالشم فتمتلأ أنوفنا برياحينها الزكية الفواحة من رياحين الجنة ، وما تحمله الرياح من العطور على أجنحتها ، وما تمتزج به ريح الصبا من الطيب فيبعث الشم فينا الشعور بها .

هذه هي أقل الحواس نقلا عند الشاعر ، فما بالك بما يملأ العين والأذن من الأشكال والألوان والأصوات والحركة والحيوية ، وهو لا يحتاج إلى توضيح إلا بقدر النظر في هذه القطعة ، أما مايحتاج إلى توضيح هو الإحساس بالجمال عند الشاعر ، وقدرة ابن الرومي على التأثر والتجاوب والتعاطف مع الروضة التي ملكت عليه كل شيء ، والتجدد في الزمن ، كما يظهر في (كل حــين تنفس — تغنى — توسوس — تلاعبها — تسمو — تحنو — وتنكس — تلمح — يذكو — تشمس) وقد انجذب سمعه إلى الغناء فسكشفت الأغصان عن مكنونها في وسوسة وخفاء ، لأنها أحست بحبه لها ، فآثرته بالسر الدفين التي لا يعرفه إلا المحبون ، وغير ذلك من المناجاة والحب الخالص ، الجدير بقدرة ابن الرومي على نقل الحيوية إلينا في صوره الدقيقة الرائعة الحية ، فكثيرا ما يشاركنا أمره في التصوير ، ونحس بكل ما أحس به ابن الرومي من جمال في الطبيعة ، وكشف لأسرار الوجود ، وهذا هو سر خلود الفن الرفيع .

وابن الرومي عند ما يطمئن إلى أحضان الطبيعة ، بعد أن دفعته إليها زحمة الهموم

---

(١) الديوان المخطوط ورقه ٤٠١ جـ٢

وشدة اليأس من الحياة ، ليستقبلها، وينعم لوقت ما ، يقف متأملا فى هذا المهرجان ، مهرجانه الحياة، فيقول وهو مفعم بالحب :

مهرجان كان صـــورته … كيف شاءت مخيرات الأمانى

لبست فيه حفل زينتها الدنيا … وزافت فى منظر فتان

فهى فى زينة البغى ولـكن … هى فى عفة الحصان الرزان

ولا يند عن خياله ذلك النبت الصغير « شكير » وهو يختال فى مهرجانه :

كادت الأرض يوم ذلك تفشى … سر بطنانها إلى الظهران

وتعود الرياض مقتبــلات … ناعمات الشـكير والأفنان(١)

الطبيعة تظل ناعسة نائمة حتى إذا التفت إليها ابن الرومى ، تحب نفسها وتعشق ذاتها ، وتختال فى عريها وهى تتحرك إلى الإمام وتتراجع إلى الخلف ، وتعلو وتهبط أمام مرآة نفسه وصفحة وجدانه ، فينسلخ ابن الرومى من أوجاعه وآلامه ليعانقها . ويراقص لداته فيها لينسى لحظات الشقاء والبؤس والحرمان ، فالأرض أنثى تزينت للوصال وقد أثنت على الله بالمطر وحبته بالزهر والنوار فى حياة المستجدى وخضوع العابد ولا أظن أحدا من الشعراء يرقى إلى هذه الصورة إلا أبو العباس ؟

أصبحت الدنيا تروق من نظر

بمنظر فيه جــلاء للبصر

أثنت على الله بآلاء المطر

فالأرض فى روض كأفواف الحبر

نــيرة النــوار زهراء الزهر

تبرجت بعد حياء وخفر

تبرج الأنثى تصدت للذكر(٢)

وبإحساس شاعرنا الفنى ، يستظل بأغصان الطبيعة وأشجارها ويستروح أسحارها ونسيمها وجداولها ، ويبعث فيها الحركة ، ويشعل فيها وساوس العشاق ، فينسجم فى هذا المركب تغريد الطير مع غناء الحمائم فى لحن سجى يغيب عن الوجود فوق الأغصان التى تميس بها فى نشوة وطرب .

(١) الديوان المخطوط ورقة ٣٨٣ ج ٤

(٢) الديوان المخطوط ورقة ٣٠٩ ج ٢

حتيك عنا شمال طاف طائفها   بجنــــة نجرت روحاً وريحانا
هبت سحيرا فناجى الغصن صاحبه   موسوساً وتنادى الطير إعلانا
ورق تغنى على خضر مهدلة   تسمو بها وتمس الأرض أحياناً
تخال طائرها نشوان من طرب   والغصن من هزة عطفية نشوانا(١)

وابن الرومى يقف على أسرار الطبيعة وخفايا الكون من الثمار والرياحين ، والغصون والأنهار، والكل فى تعاون تام وانسجام، وائتلاف وتوافق، ويرتقى بها الشاعر فى مدارج الفن ، فتبرز لديه فى معارض الصور ، أبرع لوحــة فنية ، تنشد فى مسارح النغم معزوفة الحياة :

إن تلك الغصون عندى لتضحى   ظالمات فهل لها من مثـــاب
ما أبالى أأعثرت لاجتناء   بعد هذا أم أيبست لاحتطاب
كم لديهم للهوهم من كعاب   وعجوز شبيهة بالكعـــاب
بنت كرم تديرها ذات كرم   موقد النحر مثمر الأعناب
حصرم من زبرجد بين نبع   من يواقيت جمرها غير خاب
من جوار كأنهن جوار   يتسللن من ميـــاه عذاب
لابسات من الشفوف لبوساً   كالهواء الرقيق أو كالسراب
ومن الجوهر المضيء سنـــاه   شعلا يلتهبن أى التهـــاب
فترى المـــاء ثم والنار والآل   بتلك الأبشـــار والأسلاب
يوجس الليل ركزهن فينجاب   وأن كان حالك الجلباب(٢)

وابن الرومى فى حبه للطبيعة وهيامه بها ، يبعث فيها الحياة ويناجيها كما تناجيه ، وينصت إليها عندما تهمس إليه بحفيف أشجارها ، وخرير مياهها ، ويعطف عليها عندما يهجره الناس ولا يؤدون حقه ، وتعطف عليه وتحتضنه لتنسيه آلامه ، وتعوضه عن ضيعته فى الناس ، ويرى فى تمايل الأغصان وسوسة وهمساً ، وفى تغريد الطيور احتفالا وفرحاً وفى مهرجان الربيع موكب العروس يمتزج بها كما يمتزج مع أصحابه وخلانه ، إلا أنه قد أحس به ، ففتح له منافذ السعادة ، وأبواب النعيم ، لأنه هو الذى يملك مفتاحه . لذلك أرهفت الطبيعة حسه ، وعمقت وجدانه ، فكان خصيب الخيال ، رحب الأفق ، حين يستوفى أركانها

---

(١) المخطوط ورقة ٣٩١ جـ ٤
(٢) المخطوط ٩١ جـ ١

ويسبر أعماقها ، فأودع فى تصويره الأدبى سحر الكلم وروعة النسق ، وجلال الإيقاع والنغم ليرسم لوحة رائعة ، تلاقت فيها خطوطها الفنية ، من حركة ولون وصوت وطعم ورائحة ، لذا يحلق أبن الرومى بتصويره الشعرى كما يحلق العباقرة والمصورون .

يقول العقاد : « وننتقل من ذلك (أى عبادة الحياة) إلى الخاصة الأخرى ، من خواص الطبيعة اليونانية ، وهى حب الطبيعة ، فقد وصف الطبيعة شعراء كثيرون ، ولم يمنحها الحياة إلا قليلون ، أما الذين منحوها الحياة فأصبحنا نحبها وتحبنا ، ونعطف عليها ، وتعطف علينا ، ونناجيها وتناجينا ،فهم أقل من هؤلاء القليلون . . ثم يقول : أما الطبيعة التى تحب وتناجى ، ويتم التعاطف بين الشاعر وبينها عن ثروة غزيرة من الشعر والشعور فهى طبيعة الحور الخافقات فى الهواء ، والعرائس السابحات بين الأمواج ، والعذارى الراقصات فى عيد الربيع ، والجنيات الهامسات فى رفرفة النسيم ، ورقرقة الغدير ، وحنين الصدى وحفيف الأغصان[1] .

ولنا مع العقاد فى رأيه هذا اتجاه يسانده من ناحية ، ويخالفه من ناحية أخرى ، ونحن نؤيده فى جانب واحد هو أن ابن الرومى أحب الطبيعة ، وهام بها ، وناجاها ، وتعاطف معها ، فوجد فيها فتاته التى فقدها فى زحمة الحياة العابسة فى وجهه ، حتى تبرجت الأنثى كما يقول العقاد : « تبرج الأنثى تصدت للذكر ، ويرى وراء هذه الزينة التى تبدو على على وجهها عاطفة من عواطف العشق ، تتعلق بها العفة فى الشهوة تعلقها بالعاطفة الإنسانية الشاعرة :

فهى فى زينة البغى ولكن   هى فى عفه الحصان الرزان

ولا يقول هذا القول على سبيل الاستعارة اللفظية ولكنه يقوله ، ويصف الطبيعة الوصف الذى يقتضيه الشعور ، ويمليه عليك ذلك التصور ، فيشف وصفه لها عن شغف الحى بالحى ، وشوق الصاحب للصاحب[2] .

وإن كنت مع العقاد فى هذا الحب ودرجته ، لكنى أخالفه فى بواعثه أولا ، وحجمه ثانياً ؛ فأما بواعثه التى أراها فهى :

أولا : أن العقاد جعل الأساس فى حب الشاعر للطبيعة ، هو أنه ليس من جنس العرب وكأن ابن الرومى لم يعش فى بغداد التى بلغت من الحضارة أوجها وقتذاك ، ولكن سبب

---

(١) ابن الرومى العقاد ٢٩٦ ، ٢٩٧

(٢) المرجع السابق ٢٩٧

الأسباب عنده هو يونانيته فحسب، كل يوناني عنده، يكفي أن يولد في اليونان ليكون عبقرياً ومحباً للطبيعة، وهذه مغالطة، وانجذاب نحو الضوء اللامع، الذي يعشى البصر حتى يعمى عن الحقيقة.

وعندي أن اليونانية ليست هي كل الأسباب في عبقرية الشاعر ولا في حبه للحياة، كما في الفصل السابق، وإن اتفقت في ذلك مع آخر[1]. وخالفته كذلك في اتجاه آخر، سأوضحه بعد، وقد تسرع في اتجاهه والحكم عليه، كما تعجل العقاد حينما تحدث عن سر العبقرية كما سبق أن ذكرت.

ثانياً: يرى العقاد أن سبب تفوق ابن الرومي، في حبه للطبيعة أنه أحبها عن إرادة قوية، وجهته إليها في بداية الأمر حبا وعشقا لها، وعن اختيار كما ينتقى المحب حبيبته، لأن طبيعة الشاعر باعتباره يونانيا طبع على الحب والعشق لها.

ولا أظن العقاد مصيبا في ذلك ولا شاعرنا تحرك إليها عن رغبة، وتلاقى معها في البداية عن هوى، والذي أراه كما قلت من قبل: أنه هرب إليها كارها الحياة والأحياء مدفوعاً إلى أحضانها، ليخفف من آلامه وتستريح أنفاسه، حتى اذا اطمأن اليها وجدها من صنف آخر غير الناس، لا تغضب ولا تحقد في أغلب الأحيان بل تحب وتعشق، لذا أحبها وقلما يرجع الى طبعه بين وقت وآخر، عن طريق غير مباشر ليبوح بكرهه لها وغضبه كما سيأتي. وليس الباعث على حب الطبيعة كما يقول العقاد: «فعلى هذا النحو تتجلى الطبيعة للعبقرية التي تحبها وتمنحها الحياة، فليست هي دمية ولا حلية، وليس هي مروحة للحياة، ولا مجلسا للمنادمة، ولكنها قلب نابض، وحياة شاملة ونفس تخف اليها وتأنس بها و «ذات» تساجلها العطف وتجاذبها المودة، ثم هي عمار لا خواء فيه، وأسرة لا تبرح منها في حضرة قريب ويناجيك وتناجيه. ويعاطيك وتعاطيه، وقد كان ابن الرومي يحب الطبيعة على هذا النحو ويستروح من محاسنها نفسا تتصبى الناظر إليها[2]».

وأما حجم هذا الحب للطبيعة فليس كما يرى العقاد: إن ابن الرومي منحها كل ما يملك من حب فأصبحت تخاص له في حبه، وظل هو كذلك يحفظ لها الود، يجاذبها المودة كما تجاذبه، ويعطيها الإخلاص كما تعطيه، لا تتنكر له أبدا، ولا تثور عليه، بل هي أوفى عنده من الأحياء والناس، فهي كما يقول: «نحبها وتحبنا ونعطف عليها وتعطف علينا ونناجيها وتناجينا»، بل يشغف بها «شغف الحي بالحي وشوق الصاحب إلى الصاحب ولم تكن عند الشاعر في رأي العقاد مجرد مهاد وثير ولا روضة ظليلة يستريح اليها الشاعر، تخفيفا من جهد أصابه، أو تلطيفا لتعب ألم به. أو جنوحا لها من ضجيج الحياة وصخبها.

---

(١) د. محمد النويهي

(٢) ابن الرومي: العقاد ٢٩٧

يقول العقاد : « وقد يستريح الشاعر إلى الطبيعة لأنها ظل ظليل ، ومهاد ، وثير وهواء بليل، وراحة من عناء البيت وضجة المدينة ، فلا يعدو بذلك أن يستريح إليها كما تستريح كل بقية حية إلى الماء والظل والهواء » .

ولم تكن الطبيعة عند الشاعر فى رأى العقاد كارهة لابن الرومى بغيضة عنده ، يعطف عليها فتتمرد له ، ويناجيها فلا تناجيه ، ويتقرب إليها فتفزع منه لأنه منحها من حياته ونفث فيها من روحه وأحاسيسه ، أو بث فيها ما عنده من خرافات وأساطير .

يقول العقاد : « وقد يمنحها الشاعر حياة من عنده أو من عند الخرافات والأساطير فإذا هى حياة بغيضة ، لا تصلح للتعاطف والمناجاة ولا يصدر عنها الفزع والإحجام ولا تقوم بينه وبينها إلا الحواجز والعداوات .

أما الطبيعة عند ابن الرومى فى رأيه لا هذا ولا ذاك ولكنها هى « التى تحب وتناجى ويتم التعاطف بينها وبين الشاعر عن ثروة ، فهى غزيرة من الشعر والشعور الخ ما ذكرنا سابقاً » .

ولسنا مع العقاد فى اتساع هذا الحجم لحب الشاعر ولا نؤيده فى عمومه وشموله ، فقد أحب ابن الرومى الطبيعة وليس الحب كله ، ولا فى كل وقت ، فكما أحب كره ، وعلى الرغم من إخلاصه لها ، فقد كرهها وخافها ، كما خاف الناس وارتعدت فرائصه ، فهرب منها كما هرب من الحياة ، فكان مخلصاً فى كرهه لها حينا . فأمر الشاعر غريب : إما أن يخاص فى الحب أو يخاص فى نقيضه ، وهو الكره وفى كليهما عنده إبداع فى التصوير وعبقرية فى التعبير .

وليس بينهما أمر ثالث وسط ، يتوسط النقيضين ، كما يقول الباحث الذى أشرت إليه سابقاً ، والذى يرى أن ابن الرومى لم يحبها ولم يكرها ، بل وقف منها موقفاً وسطا بين الحب والكره والعشق والبغض . فكما أحب وكره وقف الشاعر من الطبيعة بين هذا وذاك، موقف المستريح وهو بعينه ما أنكره العقاد .

يقول الباحث : « إن جزءاً من شعر ابن الرومى فى الطبيعة هو بالضبط ما أنكره العقاد فى شعر ابن الرومى بقوله : وقد يستريح إلى الطبيعة لأنها ظل ظليل ومهاد وثير ، وهواء عليل الخ » ، بل نجد فيه أن الطبيعة عنده ليست إلا ملعباً وملهى ومسرحاً للقصف

---

(١) ابن الرومى : العقاد ص ٢٩٦ .

(٢) نفس المرجع السابق

والطرب وأكل الطعام اللذيذ ، وشرب الخمر ، وإلقاء الفضلات على الأرض ، أى الطبيعة التى يعرفها عامة الناس يوم شم النسيم ، وإليك قصيدة واحدة تمثيلا[١] :

أنشد بأيامنا لتشهرها   وقل بها معلنا لتظهرها
وأبلغ ازدياداً بنشر أنعمها   لا تخف إحسانها فتكفرها
من جلب الصنعة أن تبادر   بالنعمة موليكها فتشكرها
إنا غدونا على خلال فتى   كرمها ربنـــا وطهرها
باكرنا بالصبوح مدلجا   لنشوة شاءها فبكرها
عاج بنا مائلا إلى حلل   قصور ملك له تخيرها
أحكم إتقانها بحكمته   وشاد بنيانها وقدرها
وسط رياض دنا الربيع لها   لحاك أبرادها ونشرها
وجادها من سحابة ديم   وزاد أنوارها وعصفرها
وساق ما حولها من جوانبها   فزانها ربنا ونضرها
فهى لفرط اهتزاز رونقها   تخيل نطقا لمن تبصرها
كأنها فى ابتهاج زهرتها   وجه فتى للسرور يسرها
إذا بدا وجهه لزهرتها   حار لها تارة وحيرها
واختار من أحسن القوف لها   أفضلها قيمة وعرعرها
مشعرة بالشموس من ذهب   بين عيون تنير مشعرها
كأنها فى احرارها شمس   يعشى لها من دنا فأبصرها
أمامها بركة مرخمـــة   ترضى إذا ما رأيت مرمرها
أعارها البحر من جداوله   لجا غزير الماء أخضرها
كأنما الناظر المطيف بها   فوق سماء حتى لينظرها
رباع ملك يريك منظرها   أنبل ذى بهجة وأكبرها
لو قابلتها نبلا خلائقه   لم تك فى حسنها لتصغرها
ثم أتى مسرعا بمائدة   عظمها جاهداً وكبرها

---

(١) قالها ابن الرومى يمدح سليمان بن الحسن بن مخلد وقد تقلد أبوه الحسن بن مخلد الوزارة للمعتمد لفترة قصيرة ثم فر إلى مصر عام ٢٦٦ هـ .

محفوفة شهوة النفوس على ... أحسن نضد تريك منظرها
تخالها فى الدوار من سعة ... كدارة البدر حين دورها
ثم انثنينا إلى الشراب وقد ... جاء بآلاته فأحضرها
من تحف ما تغب فائدة ... لم تكن فى وهمنا ولم ترها
وقينة إن منحت رؤيتها ... رضيت مسموعها ومنظرها
شمس من الحسن فى معصفرة ... ضاهت بلون لها معصفرها
فى وجنات تحمر من خجل ... كان ورد الربيع حمرها
يسعى إليها بكأسه رشأ ... أنشه الله حين ذكرها
تشبه أعـــلاه لا تغادره ... وينثنى مشيها مؤزرها
يقول من رآه وعاينها ... سبحان من صاغة وصورها
فى كفة كالشهاب لاح على ... ظلماء ليل دجن فنورها
كأن زرق الدبى جوانبها ... تاج لها تانج فنفرها
إن برزت للهواء غيرها ... أو فرغت بالمزاج كدرها
فليس للشارب الحصيف سوى ... أن تتراءى له فيبدرها
ثم أتت مسرعا مجامره ... تمنحها ندها وعنبرها
يا لذة للعيون قد علمت ... بأنها جمعت لتبهرها
يا حسرتى كيف غاب وهب ولم ... يكن لها حاضراً فيحضرها
إذا أتى سالما كنيتنا ... أعادها محسناً وكررها
أحسن من كل ما بدأت به ... أخلاقه إذا بدا وأظهرها
من كرم يستبى معاشره ... وعشرة لا تدم مخبرها
وخدمة للصديق دائمـــة ... يجشمها النفس كى يوفرها
ثم حدا نطقها بفطنته ... فساقها مرشدا وسيرها
ها إنهـــا مدحة مبالغة ... إن امرؤ منصف تدبرها(١)

إن استطعت أن تقنعنى بأن الشباب الذين يخرجون إلى الحدائق والمنتزهات فى يوم شم النسيم ، ويحملون زجاجات البيرة والكونياك ، ويحملون عوداً يترنمون عليه ، وقد

(١) الديوان المخطوط ورقة ٣٥٧ جـ ٢

تصحبهم .... مأجورة لليوم يحيون الطبيعة فلك أن تأمل فى إقناعى بأن قائل هذه القصيدة أحب الطبيعة ، وواضح جداً فيها أن ابن الرومى إنما اتخذ الطبيعة كمقصف جميل يزيد من استمتاعه بهذه المائدة الشهية والشراب اللذيذ والقينة والغلام »(١) .

وأظن أن الباحث وجد من باب التكريم لشاعرنا هذا أن يوفيه حقه من الإستقصاء فى المعنى فيكون موقف ابن الرومى من الطبيعة قد استنفد فيه كل ما يتصوره العقل والفكر بالحدود الجامعة المانعة، فما يتصوره المنطق فى موقف الشاعر لا يخرج عن أحد هذه الأمور: أما حب وأما كره وأما بين بين لا كره ولا حب ، وربما بنى الباحث رأيه على هذا ، لاشتهار ابن الرومى بالتقصى وسيطرة الفكر على روح الخيال فكأنما العقل أمسك بزمامه ووجهه كما يحب ويرضى .

والأمر عندنا على خلاف ما ذهب إليه الباحث والعقاد معاً ، وقد وضحته مسبقاً ، وأزيده هنا توضيحاً فى مخالفتى للباحث فلقد وضحت رأيى تجاه العقاد ويؤيد ما اتجهت اليه من انكار التوسط عند الشاعر كما قال الباحث هذه الوقائع وتلك العلامات : —

أولا : كان أبو العباس لا يعرف التوسط بين الامور فى حياته ، ولو عرف ذلك لأحب الناس ولم يكره الحياة ، فقد عاش معذباً محروماً فى صراع بين نفسه وبين الحياة فنفسه أنانية مغرقة فى ذاتها ، لا يعبد سواها ، فهو مغرور ، يرى فى نفسيته وشاعريته ما لا يراه الناس ، من هنا انطوى على ذاته ، واعتكف فيها ، حتى لم ير فى الحياه غيرها ، لذا تفانى فى حبها ، فكان لا يبرح بيته،وكره الناس والحياة أشد الكره ، فسلط عليهم لسانه ، لانهم لم يقدروا عبقريته قدرها ، ولم يجازوه عليها ، فأفرط فى الكره ، حتى تطير ، وأفرط فى الحب كذلك ، وكلا الإفراط فى الحب ، والإفراط فى الكره إلى حد التطير، ارتفعا بالتصوير فى شعره ولم يعرف التوسط فى الأمور ، ولا التحايل فيها ، حتى تستقيم له الحيـــاة كما استقامت لغيره :

وابن الرومى حينما يفرط فى حب ذاته يقول :

نحن بنى اليونان قوم لنا حجى ومجد وعيدان صلاب المعاجم(٢)

فهو وعشيرته هم أحق الناس بالحياة والغنى ، وترقى المناصب ، فهم أصحاب العقول ، وأهل الحسب،وعندهم استوى المجد ، فيقول مترفعاً فى عزة وأنفة عن العرب :

---

(١) ثقافة الناقد الادبى د: محمد النويهى ٢٣١ وما بعدها ـ الطبعة الثانية بيروت ١٩٦٩ م

(٢) الديوان المخطوط ورقه ٢٨٣ جـ ٤

قـــد تحسن الروم شعراً ما أحسنته العريب(١)

ويقول :

كيف أغضى على الدنيـة والفر س خؤولى والروم أعمامى(٢)

ويقول مترفعا بعلمه وأدبه وحكمته :

إنا امرأ رفض المكاسب واقتدى يتعلم الآداب حتى أحكما
فكسا وحلى كل أروع ماجد من حر ماحاك القريض ونظما
ثقة برعى الأكرمين حقوقه لاحق ملتمس بألا يحرما(٣)

ويقول معتزا بنفسه وسعة ثقافته مخاطبا القاسم :

إن أكن غـــير محسن كل ما تطلب إنى لمحسن أجزاء
فتى ما أردت فارض شعر جل محطى ففاق بى الخطباء
ومتى حاول الرسائل رسلى بلغتنى بلاغـــة البلغـاء(٤)

ويقول :

أنا ليث الليوث نفسا وإن كنت بجسمى ضئيـــلة رقضاء
شهد الله والموازين والقسـ ط جميعا شهـادة أمضاء
إن رأيي لذى الرجاحة وزنا دع يمينى وزنه والآراء

ويقول :

وإذا ما حكمت والروم أهلى فى كلام معرب كنت عدلا
أنا بين الخصوم فيـه غريب لا أرى الزور للمحاباة أهلا
ومتى قلت باطلا لم ألقب فيلسوفا ولم أسوم هرقلا(٥)

وبلغ من محبته لذاته ونفسه ، وترفعه عن الناس الذين تعقبوه فى خطوة ، وأوصدوا أمامه أبواب الحياة فاضطر إلى أن يعتزلهم ، ويتخذ داره مقرا دونهم وصولا لناظره عنهم حتى يمكث بها فوق الثلاثة أيام لا يرى أحداً ، وربما هو وأهله فى حاجة لغذاء ، وكلما يهم بالخروج يرى منهم ما يكره ، فيعود كما كان ، وقد تقدم ما يشير إلى ذلك .

(١) المخطوط ٥٥ جـ ١
(٢) المخطوط ٣١٩ جـ ٤
(٣) المخطوط جـ ٤
(٤) المخطوط ورقة ١٤ : ١٨ جـ ١
(٥) المخطوط ١٧٧ جـ ١

وحينما يكره الناس يسلط عليهم لسانه ، ويهجوهم أشد الهجاء ، ومنهم البحترى الذى أقبلت الدنيا عليه، وأما ابن الرومى فمجدوب الحظ محدود العطاء :

الحظ أعمى لولا ذاك لم نره   للبحترى بلا عقل ولا أدب

يقول وقد كره كل شىء فى الدنيا .

إذا طاب لى عيش تنغصت طيبة   بصدق يقينى أن سيذهب كالحلم(١)

وقوله :

ولا تغبطن المترفـين فإنهم   على حسب ما يكسوهم الدهر يسلب(٢)

وسوى ذلك كثير :

(ثانيا) من توافرت فيه أسباب العبقرية ، وتلاقت فى طبعه روافدها التى نعرضها فى هذا الفصل لا يمكن بحال أن يكون ميت الإحساس ، عديم الشعور ، أوعلى الأقل ضعيف فى هذين ، كما هما عند الناس العاديين ، الذين يعالجون أنفسهم فى مجتمعهم، ويتخذون الحل الوسط ، وإن كان لا يتفق مع مبادئهم فى الحياة ، حتى تسير أمورهم ، وتستقر حياتهم ، فلا يصابون بمثل ما أصيب به ابن الرومى ، من نكر وشظف فى الحياة ، وهذا مالا ترضاه العبقرية ، وتأباه كل الإباء ، فالعبقرية طاقة غير عادية فى البشر لا تعرف إلا الكمال فى كل شىء ، ومن لفح حرارتها الشديدة فى الإنسان العبقرى تمتد إلى أنفسهم فتشعتل فيها ، وتستحيل إلى رماد ، ولهذا السبب نرى أن معظم العباقرة قصار الأعمار ، يقول ابن الرومى :

أنا الذى تحشـد الرواة له   فكل أيام دهره جمع(١)

وكذلك فخره على معاصره البحترى بأدبه وشعره ، إذ البحترى لا عقل له ولا أدب وشعره إنما هو امتداد للشعر الجاهلى ، وتكرار له ، واعتداء عليه ، كما فى القصيدة التى سبق ذكرها .

ويدافع ابن الرومى عن شعره ويرتفع بمنزلته فيه فلا يرتقى إليه أحد ، بل يتقاصر الكل دونه، ولروعته لا يفهمه الناس ، ولا يقدرونه قدرة ، بل عموا عن ذلك الفن الجميل ، والتصوير الحى القوى ، فليس على ابن الرومى — كسيدنا سليمان — أن يفهم البهائم والطير ، ولا الكلاب والقردة ، وحسب شعره هذا للعاقل والفاهم إذا سمعه قدسه ، وأخذ

---

(١) المخطوط ٢٦٠ ج ٤   (٢) المخطوط ٥٩ : ٦٣ ج ١

(٣) الديوان المصور الجزء الثالث

بروعته، وانبهر بجماله وجلاله، والذى لا يفهم شعره إنما هو قرد يتأجج الحسد فى قلبه، فلا خفف الله عنه، بل ازداه كمدا على كمده كلما زايلته صورته، وانبهر بقدرته الشعرية، وتمكنه من ناصية التصوير، فيصاب بالقذى فى عينيه، بل بالعمى، حتى لا يرى منه شيئا ولا يسمع من شدة حقده وكمده عنه شعرا يقول :ـ

قلت لمن قال لى عرضت على الا ... خفش ما قلته فما حمده
قصرت بالشعر حين تعرضه ... على مبين العمى إذا انتقده
ما قال شعرا ولا رواه فلا ... ثعلبه كان ولا أسده
فإن يقل أننى رويت فكالد ... فتر جهلا بكل ما اعتقده
إن رمت زينى بأن تعرضنى ... لثلبه؟ فالسليم من قصده
أنشدته منطقى ليفهمه ... فغاب عنى عمى وما شهده
وقال قولا بغير معرفة ... إفكا فما حل إفكه عقده
شعرى اذا تأمله الإنسان ذو الفهم والحجى عبده
لكنه ليس منطقا بعث الله به آية لمن جحده
ما بلغت بى الخطوب رتبة من ... تفهم عنه الكلاب والقردة
لا خفف الله عنك من حسدى ... وزاده الله فوقه كمده[1]

ويبين عبقريته الشعرية التى جلبت له سوء الحظ وحرمته مما ينعم به عوام الناس الذين يموجون فى الخيرات والنعيم والرفاهية، أما هو فتفرده بالعبقرية فى شعره، وخروجه على الراهن المألوف فى تصويره ومعانيه، عاش مهملا مغمورا. فعجبا لهذا الشعر الذى تعهده، وأتم صنعته، حتى استوى على يديه، فيتحول اليه ليقتله.

يقول ابن الرومى :

ويح القوافى ما لها سفسفت ... حظى كأنى كنت سفسفتها
ألم تكن هوجا فسددتها ... ألم تكن عوجا فثقفتها
كم كلمات أحكمت أبرادها ... وسطها الحسن وطرفتها
ما أحسنت إن كنت حسنتها ... ما ظرفت ان كنت ظرفتها
لهفى على الدنيا وهل لهفة ... تنصف منها أن تلهفتها

(١) المخطوط ٢٤٩ جـ ٢

كم آهة لى قد تأوهتها ... فيها ومن أف تأففتها
أغدو ولا حال تسمنتها ... فيها ولا حال تردفتها(١)

ولعل معترضاً يقول . إن ابن الرومى كان دون الناس إن لم يكن من سوادهم ، فقد كان يمدح من أجل القليل والدون من العيش ، فكان عليه أن يترفع عن هذا نظراً لعبقريته ، ولا يطلب إلا معالى الأمور فى كل شىء ، ولكن الرد على هذا ميسور ، فابن الرومى حين استجدى وطلب القليل إنما كان ذلك أمراً لازماً للإبقاء على حياته ، وكان يطلب ذلك عند ما يصرعه الجوع ، فالمذبوح لتعلقه بالحياة ، لا يفتأ عن الحركة ، حتى بعد أن ينزف دمه كله ، ولم يبق إلا نبض الهواء الجديد الذى يحل محل الدم المنزوف ثم يعود ليرضى عبقريته ويعالج نفسه فيقول :

أنا الذى لا يذل صاحبه ... ولا يرى فى وليه ضرع(٢)

ولكننا نسأل أنفسنا عن سبب هذا الإستجداء، أهو لضعف فى أدبه؟ وقصر فى تصويره وشك فى موهبته وعبقريته ، لا شىء من هذا كله فالرجل معتد بنفسه ، واثق بأدبه ، مترفع بشعره وأنه بهذا الفن وثق من قدرته الذاتية ، ولكن الناس هم الذين بخسوا حقه لغفلة منهم ، أو بلادة أو موت احساس، أو جهل أو ظلم .

يقول ابن الرومى :

خذلونى وطأ طأوا البدر جهلا ... وتظنوه يخبط الظلما(٣)

ثالثاً — ثم إذا رجعنا إلى النص ذاته ، الذى ساقه الباحث دليلا على موقف ابن الرومى من الطبيعة الموقف الوسط ، كما هى العادة عند الناس الذين يهرعون إليها للترفيه والتسلية ، وقضاء الوقت والنسيان لبعض الآلام ، إذا رجعنا إلى القصيدة بشىء من التفصيل كانت حجة عليه لا له ، ودليلا فنياً قوياً لنا من الشعر ذاته إن لم نعتد بالدليلين السابقين وهما من الدراسات النفسية والتاريخية حول النص، وأن أيدت كلا منهما بأمثلة من شعر ابن الرومى .

والقصيدة هذه قالها ابن الرومى فى صديق له ، أعد رحلة خلوية لأصدقائه وفيهم شاعرنا احتفالا بأعياد الربيع ، وما أحب هذه الأعياد لابن الرومى ، لأنه يتنفس فيها ويظهر مكنون حبه للطبيعة التى هام بها ، بعد أن هرب إليها من الناس وهذا الهيام هنا لعدة أسباب :

---

(١) المخطوط ورقه ٤٩ جـ ٣
(٢) المخطوط ورقه ٤٣ جـ ٣
(٣) المخطوط ورقه ١٥ جـ ١

(ا) أنه اندمج فى الطبيعة وعشق الربيع ، مأخوذاً بمناظره التى ملكت عليه حسه وعقله ، فلم يبصر غير جماله ، ولم يحس إلا بجلاله ، ولم يقبل الشاعر على صاحبه - لأنه من الناس الذين كرهم - إلا فى الأبيات الأربعة الأولى من القصيدة ، ثم غرق فى بحر الطبيعة الزاخر ، يبادلها حباً بحب ، وهياماً بهيام ، فهو يباكرهم فى الصباح ، ويهتز فى لطائف يداعبهم ، ومضوا حتى نزلوا بقصور غاية فى الروعة والجمال والإحكام ، حتى كأنها العروس نضارة وجمالا ، وروعة كروعة الربيع نفسه ، وماجادبه من أمطار استحالت إلى أنهار وجداول ، تحيط بالرياض والقصور ، ومن هاموا بها ، إحاطة هالة العرس بعروسه ، فتتابع النظرات . واتصالها بالعروس ، وتعلق القلوب ، وانجذابها إليها فى شوق مثل إحاطة الأنهار والجداول بالقصور والرياض ، وهن جميعاً مصدر الفرحة والقوة والجمال ، ولم تضن الرياض على عشاقها بالزهور الناضرة فبادلتهم برونقها ، وحيتهم بزهرها ، حتى لا يميز الرائى بين العاشق والمعشوق .

ولم تبخل الطبيعة على القصور فحولت أشعة الشمس الذهبية سقوفها إلى شعور من ذهب ، يتخللها ومضات من بريق الحياة وضيائها ، فبدا السقف للبصر كالشمس يغشى البصر من شدة ضيائه ووهج حرارته ، وتزداد الطبيعة سحراً فى حركة الأنهار والجداول الدائبة الممتدة ، حتى تسكن فى بحر عميق ، وبركة من مرمر كخزانة يوسف عليه السلام ، حتى لا ينضب معين الرياض ، ولا ينقطع ماؤها يوم أن تغضب الطبيعة على هذه الدوحة فتبخل عليها بالمطر ، لتجد فى المخزون استمرار بقائها وحيويتها وسحرها وجمالها ، والذى يطوف حول البركة المرمرية ، إنما يرى السماء بنجومها منعكسة على سطحها الصافى ، وذلك لنقاء مرمرها ، وصفاء مائها ، وفى وسط هذا المرمر والاندماج فى الربيع ، والتبادل بين المشاعر ، والتجاوب فى العواطف ، إذ بمائدة واسعة كالبــدر قد اكتملت هى أيضاً بأشهى الألوان من الغذاء ، فأسالت لعابهم ، وحركت أشـواقهم ، وجعلت من الأصحاب سوراً يحفها كالجداول حول القصر .

وإذا كان الصباح الباكر ، والدوحة الوارفة ، قد شربا من النسيم بعد اغتذائها بالماء العذب الصافى ، فأصحاب المائدة جذبتهم لذة الطعام إلى لذة الشراب والمنادمة ، وحفل المجلس بألوان الطرب من تحف وكئوس وآلات للغناء ، ومغنيات خجلات قد استحيين من جمال الطبيعة فأعارتهن حمرة الورد ونضارة القد ووضاءة الشمس ، ويسير الساقى ، هذا الغلام الذى فاض عليه جلال الكون والربيع ، فأحاله إلى أنثى غضة بضة ، وهو يسعى بين الندامى بالكأس

فى كفه كالشهاب الذى يضىء دكنة الربيع واخضراره ، ويتألق وسط ضباب المرمر وهى تفوح بالند والعنبر ، فما أعظم الطبيعة وحفلات الربيع فيها ، التى يهرع الناس إليها ليمتعوا فيها الحياة ولكنها جذبتهم إليها ليكونوا هم مددا من الحياة فيها ، بل هم ومظاهر الربيع صنوان يكملان الطبيعة ، فالتقى جمال القصور بسحر الشمس والضياء ، وامتزج النسيم بالأنفاس ، فمن حرم من هذه الرحلة الحلوية ، أعقبته الحسرة ، وحلت به الندامة ، ثم يفيق ابن الرومى من غفوته ، ليوجه نظرة إلى مدوحة بأبيات هى والمطالع لاتعدل سبع القصيدة .

فهل بعد تلك الحيوية والمناجاة ، وتبادل المشاعر والإحتفاء بالكون ، جمال ؟ وهل بعد ذلك نتهم ابن الرومى فى حبه للطبيعة بأنه إنسان عادى يتلهى بها وتستريح أنفاسه إليها كما يستريح المسافر من عناء السفر أظن أن شاعرنا برىء من هذه التهمة فهو المحب للربيع الواله بالطبيعة .

(ب) أن الباحث يرى أن ابن الرومى اتخذ الطبيعة كمقصف جميل يزيد من استمتاعه وأنه كان متلهفا إلى المائدة لا إلى الإستمتاع بالنظر إلى الطبيعة .

وشاعرنا ما كان كذلك بل استمتع بالطبيعة ، وهام بها إلى الحد الذى وصفناه وأما المائدة والخمر والغناء ، فما هى إلا عناصر الجمال فى الربيع تنضم لتشارك الرياض والجداول والأنهار والنسيم والقصور فى مهرجانها وزينتها ، فساحة الطبيعة تشمل كل هذا .

وابن الرومى لم يكن متلهفا إلى المائدة فلم يظهر هنا منهوما يأكل بيديه ورجليه وكل جوارحه بل تمتع هو بألوان الطعام وكثرته وسعة المائدة التى غذت روحه ونفسه ، حتى شبع بها قبل الأكل لذلك اتخذ هو والأصحاب من الاستماع والشعور باللذة كوكبة تحافظ عليها ، ولا يلتهمونها التهاما كما صور الباحث ، وعلى فرض أنهم متلهفون إليها ، ألم تكن هذه الطبيعة هى التى توافرت فيها عناصر الجمال وتفتحت فيها لذائذ الربيع ، حتى طابت ونضجت فاندفع عشاقها ، يلتهمون الطعام والشراب بينهم فغابوا فيها كما امتزجت أرواحهم وأحاسيسهم بالرياض والنسيم والأنهار وغيرها .

وليس هذا غريبا على النفس البشرية فإذا تفتحت شهية الإنسان المغلقة اندفع إلى مسارب الطبيعة ، فتبعث فيه من الحيوية والنشاط فلا يلبث ألا يكب على الطعام والشراب وكأن الطبيعة هى التى تأكل وتشرب .

وعلى ذلك فالقصيدة فى رأينا لاتخرج عما ذهبنا إليه من رأى فى عبقرية ابن الرومى ،

فقد تخلص من واقعه فى الحياة ، وهرب إلى الطبيعة ، بعد أن استقر فيها أحبها وأحبته ، وهام بها وهامت به وأخلص فى حبه وهيامه أحيانا ، وكان يغشى هذا الحب بضباب من الكره حينا ، وتسرى فيه سحابة من البغض الفينة بعد الفينة ، ولعل ذلك يرجع إلى معالجته موقفا فى الطبيعة تتصل به ملابسات الحياة والأحياء ، أو مناجاته الطبيعة من خلال مواقف الأحياء منها ، فنجد حب ابن الرومى هنا ليس حبا خالصا ، ولا مناجاة صادقة . ولا هياما عميقا كما يقول العقاد ولا نجد حبه أيضاً حب المستريح فى أحضانها ، ليخفف عن نفسه أعباء الحياة ومتاعبها كما يقول الباحث ، ولكنه كان على الضد من ذلك فقد ارتعب من الطبيعة حينا وخافها حينا ، وتجنب التعرض لبعض مظاهرها العادية غير المخوفة ، وفزع منها وأحجم عنها ، وأصبحت لديه على نقيض مايراه العقاد فى موقف ابن الرومى من الطبيعة حين يقول « وقد يمنحها الشاعر من حياة عنده أو من عند الخرافات والأساطير ، فإذا هى حياة بغيضة لا تصلح للتعاطف والمناجاة ولا يصدر عنها إلا الفزع والإحجام ، ولا تقوم بينه وبينها إلا الحواجز والعداوات (١) » فهو ينفى هذا الكره عند ابن الرومى للطبيعة على عكس ما نقول .

ولعل ذلك الكره لبعض مظاهر الطبيعة حينا ، يرجع كما يقول الباحث إلى ضعفه ، واعتلال جسمه ، واضطراب أعصابه ، وكثرة مخاوفه ، وطغيان هواجسه — « ولن يجد القارىء عناء فى تفسير هذا : فضعف صحته ، واشتداد علله ، وكثرة هواجسه ، جعلته يتأذى أعظم التأذى من قوى الطبيعة على تنوعها ، فى معظم فصول السنة من حر وبرد وريح ومطر ، وشمس وثلج وجفاف ورطوبة » هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى جعلته يتخيل عناصرها الطاغية العاصفة ، قوى شريرة ساخطة عليه معادية له تتعمد إيذاءه وتعمدا(٢) » .

هذا بالإضافة إلى أنه كان يتصور شرور الأحياء من خلال الطبيعة كأن شر الناس وسخطهم قد أعدى مظاهر الطبيعة الفاتنة ، وقسوة الدهر عليه وسوء حظه من الحياة قد سرى فيها ، ودب فى جمالها وجلالها ، فتحولت الطبيعة عنده إلى حياة قاسية شريرة ، تفتك به ، ويهرب منها ، ويخاطر بكل شىء دونها ، ولكنها تتعقبه فى خطواته خطوة خطوة ، فنراه فى الليل فريسة لبيته الذى اصطفاه وآواه ، وأمن فيه من الناس واطمأن إليه فإذا سقفه يكاد يطبق على روحه وأنفاسه ، ويرعبه بصوته كأنه صرير الجنادب ، يقول :

---

(١) ابن الرومى العقاد ٢٩٦ .

(٢) ثقافة الناقد الادبى : محمد النويهى ٢٣٥

يؤرقني سقف كأني تحته ... من الوكف تحت المجنات المواضب
تراه إذا ما الطين أثقل متنه ... تصر نواحيه صرير الجنادب

ويقول وهو يحذو ابن عروس ، ويكيل مقته له ، ويصب عليه نار الغضب حتى تحولت الطبيعة إلى ابن عروس :

قد جف واديه من تنفسه ... فما به في الربيع مرتبع
لا ماء فيه ولا نبات وهل ... خصب بوادي البوار أو مرع(١)

والماء هو عنصر الحياة التي ترد الروح ، عند يأس يفر منه ويتحاشى لقاءه فما أحسن الأوقات التي يضيها الإنسان على شاطىء بحر أو في نزهة بحرية للصيد أو للركوب وابن الرومي يكره كل ذلك في هذا المقام ، لأنه لم يتسلح للمياه بسلاح السباحة ، فقد خاف الماء في الكوز ، فمر به مر المجانب ، وخشي منه الهلاك على كل شارب ، ومداعبة النسيم للمياه ، واهتزاز الأمواج فيه ، وقد لمعت بأشعة الشمس ، وتحولت إلى قعقعة سيوف ، كما تحول خرير الماء الشجي ونغمة الساري إلى جيش من الرعب قد اكتظ بالفرسان والقادة والكل يريد أن يفتك به ، وإذا تصورنا أن هذا البحر الخضم الطاغي ، إنما هو نهر دجلة ، الذي منعه من عطية وافرة لأحد الأغنياء بسامرا ، فأرسل إليه هذه القصيدة يعتذر فيها ، لأنه يخشى السفر والبحر . يقول ابن الرومي وهو يرتعد من الطبيعة ، وهو بعد لما يقاربها :

وأما بلاء البحر عندي فإنه ... طواني على روع مع الروح واقب
ولو ثاب عقلي لم أدع ذكر بعضه ... ولكنه من هوله غير ثائب
ولم لا ولو ألقيت فيه وصخرة ... لوافيت منه القعر أول راسب
ولم أتعلم قط من ذي سباحة ... سوى الغوص والمضعوف غير مغالب
فأيسر إشفاقي من الماء أنني ... أمر به في الكوز مر المجانب
وأخشى الردى منه على كل شارب ... فكيف بأمنية على نفس راكب
أظل إذا هزته ريح ولألأت ... له الشمس أمواجا طوال الغوارب
كأني أرى فيهن فرسان بهمة ... يليحون نحوي بالسيوف القواضب(٢)

ويتبدى كرهه للطبيعة في قتام رياض المحبين ، وليس بين ابن الرومي وبين الروض

(١) الديوان المخطوط ٣٩ ج ٢ المصور الجزء الثالث
(٢) الديوان المخطوط ٥٩ : ٦٤ ج ١

من ملابسات الحياة والأحياء كنهر دجلة التى هو معبر لمطالبه آماله وصديقه ولكن هنة الطبيعة المجردة من كل الملابسات فيخيم ذلك الضباب الحزين على نفسه ومن وراء ستار حين يصف جنة الأحبة فيقول : ـ

يا ليت شعرى وليت غير مجدية | إلا استراحة قلب وهو أسوان
يقول تجاورت فى غصون لسن من شجر | لكن غصون لها وصل وهجران
تلك الغصون اللواتى فى أكتها | نعم وبؤس وأفراح وأحزان
يبلو بها الله قوما كى يبين له | ذو الطاعة البر عن فيه عصيان

إلى قوله :

أنكى وأزكى حريقا فى جوانحنا | خلق من الماء والألوان نيران
إذا ترقرقن والاشراق مضطرم | فيهن لم يملك الأسرار كتمان
ماء ونار فقد غادرن كل فتى | لابسن وهو غزير الدمع حران
تخضل منهن عين فهى باكية | ويستحر فؤاد وهو هيمان
واصلت منها فتاة فى خلائقها | غدر وفى خلقها روض وغدران
ألوف تزكى وهى زاكية | إذا أساءت جوار العطر أبدان
يغيم كل نهار من مجامرها | ويشمس الليل منها فهو ضحيان
كأنها وعيدان الند يشملها | [illegible]مس عليها ضبابات وأدجان
شمس أظلت بليل لا تخوم له | [illegible]لا نجوم لها فى البحر أثمان(١)

فما هو [illegible]د[illegible]ث التمنى والجدب والوصل وا[illegible] [illegible]ى والبؤس والأحزان والبلاء والعصيان والنكاية ، والحريق والإضطرام والدموع [illegible]ى العين والبكاء ، والغدر والغدران والإساءة والغيم والمجامر والليل والضباب والا[illegible] [illegible]ى والظلام ؟ ألم يكن هو ابن الرومى حينما يكره ويبغض ، ولعلك توجه إلى لوما وهو أر[illegible] [illegible] العشاق والمحبين قد سرى إلى الروضة ذأعدائها . . ولكن ما ذنب الطبيعة الجميلة حتى [illegible]ا ابن الرومى ثوب القتام والحزن من لون عا لفته [illegible] نفسه الفزعة الخائفة حين يفزع أ[illegible] [illegible]ف .

وما ذنب شمس الأصيل التى تظهر فى أجمل [illegible] ، وقد تغنى بجمالها الشعراء ؟ ما ذنبها [illegible]و هى تغيب [illegible] لم يسر اليها غدر المحبين مثل ما [illegible] هناك أنها تغيب فى حياء وخفر ، ولم

(١) الديوان مخطوط ٣٣٧ ج ٤ .

يجن عليها أحد سوى كره ابن الرومى حينما يكره ، وغضبه حينما يغضب فهو يخاف الطبيعة ويهرب منها ولا ننكر حبه الكثير لها حينا آخر .

يصف ابن الرومى ساعة الغروب فيكاد يقضى عليه ، ويصاب بالمرض من شدة خوفه ، ويرتمى على الأرض ، متوسدا خده بالتراب ، منهوك الأوصاب قد غاص فى عرقه وفاضت عيونه ، بالدموع وعلا جسمه الشحوب والصفرة ، تلك هى مشاعر ابن الرومى البغيضه عن جمال الغروب وروعته يقول :

وقد رنقت شمس الأصيل ونفضت	على الأفق الغربى ورسا مزعزعا
وودعت الدنيـا لتقضى نحبهـا	وشول باقى عمرها فتشعشعـا
ولاحظت النوار وهى مريضة	وقد وضعت خدا على الأرض أضرعا
كما لاحظت عواده عين مدنف	توجع من أوصابه ما توجعا
وظلت عيون النور تخضل بالندى	كما اغر ورقت عين الشجى لتدمعا
يراعينهـا صورا إليهـا روانيا	ويلحظن ألحاظا من الشجو خشعا
وبين إغضاء الفراق عليهمـا	كأنهما خـــلا صفـاء تودعا
وقد ضربت فى خضرة الروض صفرة	من الشمس فاخضر اخضرارا مشعشعا(١)

(٣)

الاحساس المرهف ·

مضى من دوافع عبقرية ابن الرومى فى الصورة الأدبية بخاصة ، وفى شعره بعامة ، كرهه للحياة ، مما جعله يهرب إلى الطبيعة ، فأدى هذان الدافعان إلى ثالث لا يقل شأنا عنهما فى تكوين عبقريته وهو الحس المرهف .

وهذا الإحساس الذى اعتبرته نتيجة للعاملين السابقين جعلته عاملا مستقلا بحكم طبيعته ومكانه وحجمه مما يحتاج منا إلى كشف وإفاضة وتحليل .

لذا رأيت أن أتناوله مستقلا عن سابقيه فطبيعته أنه ينمو داخل النفس ، مستعينا بروافد الإحساس من الحواس المختلفة .

ومكانه فى الشعور الباطنى الذى يفيض فى شكل فنى عندما يغفل الوعى ويغفى العقل فى سنة من نوم ·

---

(١) الديوان المخطوط ورقة ٤٨ ج ٣

وأما حجم الإحساس المرهف ، فعريض وعميق ، يحتاج إلى دقة ومراجعة حتى نوضح عناصره ونكشف عن أسباب الإرهاف فيه وهى :

(١) العمق فى الإحساس :

ويرجع إلى اتساع ثقافة ابن الرومى ، وسرعة انتقاله من معنى إلى معنى ، ومن صورة إلى صورة ، وتعاقب الأوجه الكثيرة على الفكرة الواحدة واستقصائه وإسرافه .

(ب) الدقة فى الاحساس :

وترجع إلى اختلال أعصابه ، وتطيره وانطوائه على نفسه وسخره .

وتناول مثل هذه الموضوعات العديدة والوقوف على كل ما يتصل بها أمر ليس من الممكن أن نوفيه حقه كاملا ، لاعتماد بعض أجزائه : ـ

أولا : على العلوم الحديثة فى الطب والتشريح وعلم الأعصاب والعلوم الإنسانية البحتة، حتى وإن تأثرنا به فسيكون مكرورا على ألسنة النقاد الذين وقفوا عليها فى لغاتها الأصلية ولا يصح أن ننكر جهد هؤلاء الباحثين ولكن الذى ينبغى أن يهتم به الباحث هو الوقوف على هذه النظريات والنتائج العلمية ثم دراسة النص الأدبى فى ضوئها وهو ما نتجه إليه .

ثانيا : أن بعض الأجزاء لها مكانها ، الذى سنتناوله فيه بالدقة والتفصيل والتمثيل .

ثالثا : أن الذى يعنينا هنا إنما هو بيان أثرها فى الحس المرهف ، والشعور الحار المتدفق ، وسأعرض هذا بالتفصيل : ـ

(ا) عمق الاحساس :

عاش ابن الرومى غريبا فى عصره ، لإحساسه العميق الذى فاق به أقرانه ، مما جعل أدبه وشعره عند معاصريه ، مهملا بالنسبة لمن هو دونه ، لا يثاب عليه ، وريحه خامدة هامدة ، لا تمنحه ثقة الناس فيه ، وتعلقهم به ، لذا كرههم ، لأنهم لم يفهموا شعره ، وهجاهم لأنهم لم يهتزوا لبراعة تصويره ، فرماهم بالعجز وبلادة الفهم والحس ، فهم جهلاء كالبهائم ، وإنما يعبد شعره ، ويحس بجماله ذو الفهم وأصحاب العقول المستنيرة يقول : ـ

شعرى إذا تأمله الإنسان ذو الفهم والحجى عبده

لكنــه منطق بعث الله به آية لمن جحـده

ولا أنا بالمفهم البهائم والطير سليمان قاهر المردة[1]

(١) المخطوط ورقة ٢٤٨ جـ ٢

وبهذا الشعور العميق أصبح شاعرنا سريع التأثر ، غضبى المزاج ، واسع العقل ، متوقد الذهن حاد الذكاء ولوعا بالجرى وراء المتناقضات ليؤلف بينها وبالتطواف فى كل حالاته وملابساته ، يستقصى المعانى ، ويلح فى تتبع جزئياتها ، حتى ينتهى إلى كل ما يتصل به من الدقائق والخفايا ، وهو فى ذلك معتد بنشاطه العقلى ، ومعتز بإحساسه القوى ، فلا يرى فى عالم الشعر شعراً غير شعره ، ولا فى التصوير الأدبى غير تصويره ، ولا يربط بين ذلك الإبداع وبين إقبال الدنيا عليه فهذا حظ أعمى ، يحيد عنه إلى البحترى[١] .
يقول مترفعاً بشعره :

ولا تزال صورتى إذا طلعت   لناظريه قذاه بل رمده[٢]

وترجع أسباب العمق فى الإحساس إلى عدة أمور ومجالنا فى هذه الأسباب هنا كما قلت هو بيان أثرها فى التصوير الأدبى للشاعر منها :

أولا : عاش الشاعر فى أزهى العصور العربية . بل أزهى العصر العباسى ، الذى نضجت فيه ألوان الثقافة المختلفة: عربية وفارسية ويونانية ورومية وهندية من فكر وفلسفة وعقائد وعلوم مختلفة ، وسعت جوانب الذهن ، وعمقت القوى الفكرية ، وتعددت فيه ألوان الحضارة الجديدة المتنوعة ، فأنتهت بالعرب إلى المعيشة المعقدة والصراع السياسى ، والفتن فى الحكم ، وتتابع المشاكل ، والتفنن فى التعلق بأسباب المجد والشهرة والإنطلاق من حصار التقليد ، الذى جمد فيه أسلافهم ، والإنفتاح على العالم الجديد ، وفيما وراء ذلك من التفكير المجرد والتصوير البكر ، والاستنتاج والتحليل والتدليل والتعليل ، وابن الرومى فى ذلك كله منفتح على العالم الجديد ، وغائص فى أعماقه ، يقلب ويدرك ويراجع فكره ، ويفرز ويقارن ويناسب ، فى عمق تحليل ، وانسياب وراء الفكرة لا يدخل من باب فيها ، إلا ولج فى آخر ، حتى يكون آخر الأبواب عنده حسه العميق ، وفكره الدقيق ، ولذا نعجب مما وصل إليه من أعماق الأعماق ولا عجب فهذا هو اختزانه العقل الباطن ، وما وراء الحس الظاهر من غزارة الثقافة والحضارة الشهية ، وهى أنضج وأنعم ثروة فى عصور الدولة العباسية على الإطلاق .

---

(١) المخطوط ورقة ٨٠ جـ ١
(٢) المخطوط ورقة ٢٤٨ جـ ٢

وابن الرومى حينما يستقصى المعنى ، وتلتقى الخاطرة عنده بالإحساس يسرى معهما ويتمدد ، فلا تدرى أين العمق أفى الخاطرة زهرة الثقافة الحاضرة أم فى الإحساس معمل الفكر الحس ؟

يقول فى العنب الزارقى :

لم يبق منه وهج الحرور   إلا ضياء فى ظروف نور[1]

فهو ناعم البشرة ، صافى الغلاف ، رائق المظهر ، منحته الشمس من روحها ، واشتعلت به نارها وحرارتها ، فأذابت منه كل غشاء ، ولم يبق منه إلا ذلك الضياء المشع ، فى ظروف من نور ، ياله من امتداد فى الفكر ، وعمق فى الإحساس ؟ حتى لم يبق لغيره بقية فى هذا الوصف الجميل .

وكأن ابن الرومى معنا فى العصر الحديث يعاصر كبار الموسيقيين فى العالم وعظماء الغناء والطرب ، فهو ابن عصره كما يصلح أن يكون ابن عصرنا يقول عن صوت وحيد المغنية مصورا إياه :

فيه وشىء وفيه حلى من النغم   مصوغ يختال فيه القصيد[2]

والمكر صفة ذميمة لا يعرفها صاحبها ، كيف تستوطن نفسه ، وأين هى منه ؟ وكيف تسرى فى جسده ، أما ابن الرومى فقد أبصرها بعينيه ، وأحسها بيديه ، وتلقى نبضاتها ودقاتها بسمعه ، فهو يدب فى الإنسان كدبيب الغذاء فى الأعضاء ، وأزداد إحساسه به لأنه أخفى من الغذاء ، والتعبير بالخفاء ، يشير إلى المعنى الكبير ، وهو الإختلاف بين الأمرين ، فالغذاء والمكر فيهما انمدام وخفاء ، سعة ثقافة وطب وفلسفة :

لك مكر يدب فى القوم أخفى   من دبيب الغذاء فى الأعضاء[3]

ويهوى ابن الرومى الخمر ويعشقها ، فهى حبيبة لديه ، لذا يدرك بإحساسه أثرها الغامض وهو مخمور ، وكيف تسرى روحها العذبة فى جسده كسريان الحمى فيه ، وتتمشى فى أعضائه كأنها دبيب أمطار على صفحة الأرض .

لها لذة طعم ورس كأنه   دبيب نمال فى نقايات يرمم[4]

مذاق ومسرى يدب فى العروق كلاهما ألذ من البرء وأحلى ، ونصيب عينيه منها ،

---

(١) الديوان المخطوط ٣٧ جـ ٢   (٢) الديوان المخطوط ورقة ٢٥٦ جـ ٢

(٣) المخطوط ٦ جـ ١   (٤) المخطوط ٢٥٢ جـ ٤

ونشوبه بها لا يقل عن تأثره من الخمر ، وسكره بها ، فهو يصف ألوانها وصفاءها ، التى لطفت فأصبحت لونا مشاعاً فى الفضاء ، ممتزجاً بالضباب . فى عناق مع النسيم كما فى صورته السابقة(١) .

هذا هو عصر ابن الرومى ، وأثره فى إحساسه العميق ، فقد كان يموج بألوان الثقافة والحضارة كما يقول : —

قد بلينا فى دهرنا بملوك أدباء علمتهم شعـراء
قـد أقاموا نفوسهم لذوى المدح مقام الأنـداد والنظراء(٢)

ويقول : —

أترانى دون الألى بلغوا الآ مال من شرطة ومن كتاب
وتجار مثـل البهـائم فازوا بالمنى فى النفوس والأحباب

ثانيا : الاسراف فى الاستقصاء :

ولا أظن أحداً كابن الرومى يعيش فى العصر العباسى الذى يموج بألوان الثقافة والعلم والفكر والحضارة ، ثم لا يكون هو ابن بجدتها ، حتى قال عنه المسعودى « إن الشعر كان أقل أدواته » لا أظن شخصاً كهذا ، يكون قريب الفكرة ضعيف المعنى ، تافه الموضوع بل لعله هو الشاعر العربى الوحيد الذى يعرف من شعره كما قال العقاد وطه حسين .

هو ابن الرومى صاحب المطولات يحلق بعقله فى الفكرة هنا وهناك ، ويرتفع من معنى لآخر ، فى قدرة عجيبة ، وفى سرعة انتقال ، لأدنى ملابسة ، ويدير المعنى الواحد على وجوه عديدة ، يقلب نظره فيها ، من غير ابقـــاء على نفسه ، حتى أصابه خلل فى الأعصاب وغربلة فى الأعضاء ، ونحافة وشحوب ، فلا يبقى على المعنى ، وينقلب فى أحضانه ذات اليمين وذات الشمال ، ليربط بين المعنى والمعنى ، ويصل إلى ما يقصد إليه بعد لأى ومشقة شديدين .

وإحساسه الحاد وعقله المثقف ، ونفسه المصقولة ، ونقمته على الحياة ، وسخطه على العصر ، وادمانه القراءة ، واستغراقه فى الإطلاع ، وتقلبات الصروف عليه ، ومرارتها فى نفسه ، كل هذه الأمور جعلته يتحرج من كل شىء ، ولا يطمئن إليه ، إلا إذا فتش فيه ، وقلب جوانبه وأمن مخاوفه .

---

(١) المخطوط ورقة ٢٦٧ جـ ٤ (٢) المخطوط ١٠ جـ ١

فالفكرة التى يتناولها ، والمنبهات التى تهتز لها حواسه ، إنما هى عواد تفتك به ، وتنال من نفسه ، لذا جند نفسه لها ينقب ويدقق ، ويحقق ويثقب ، ويلف ويدور ، حتى يقف منهوك القوى خائر الجسم ، يقول المازنى يفرق بينه كإنسان شاذ غريب الأطوار وبين إنسان عادى : (هذا كله يستوجب من المرء أن يكون أكثر التفاتا إلى ما عداه ، وذلك مظهر الرجل العادى فى الأغلب والأعم ، عنايته بما يقع فى نفسه من الخارج أشد وأعظم استغراقا له من عنايته بما يأتى من ناحية نفسه ، ووعيته أغص بصور العالم الخارجى منها بنشاط كيانه وأعضائه ، وليس له من الذاتية أكثر من القدر اللازم للاحتفاظ بفرديته ، وليس كذلك الرجل الشاذ الذى يخلق على غير طراز الأوساط ، والذى يظل طوال عمره أشبه بالطفل من حيث علاقته الذاتية بما عداها ، ومن هنا تكون المبالغة فى العمل الشخصى والغلو فى أهميته ... ولا ريب فى أن كل أمرىء يعتز بعمله ويكبره ، ولكن الفرق بين الرجل العادى وبين الشاذ ، هو أن الأول لا يغالى بعمله ، ولا يعدو به قدره ، وأن الثانى يجاوز الحد المعقول ، ولا يستطيع أن يتصور واحد من الناس قد يخالفه فى ذلك ولا يرى رأيه ، فان فعل فهو خصم وعدو ، وقدكان ابن الرومى لسوء حظه — أو لحسنه ولحسن حظنا على الأصح — واحدا من هؤلاء الشواذ فنه الشعر ، فالشعر عنده أحق ما فى الحياة بالعناية والإكبار وقائلة أولى الناس بأن نوفر له أسباب الحياة التى يتطلبها فنه[1]

وبلغ من الإسراف فى الاستقصاء أن لحظ ما لم يلحظ غيره من الشعراء ، وكان عمقه موضع عجب ودهشة ، حيما فضل النرجس على الورد وأقام عدة أدلة على ذلك .

وأظن الشاعر قد ارتاع من عين النرجس ، الذى ترقبه كلما هرع إلى أحضان الطبيعة فاسترعى ذلك انتباهه ، وامتزج بأعماق إحساسه ، ليكشف أسراره ويفسر علله ، كى يأمنه ويطمئن إليه وأما الورد فلا عين له تشيعه ، ولكنه هادىء الطبع ، يستحى من النرجس فيظهر الخجل على وجنتيه .

والأدلة التى أقامها فى هذه الصورة الأدبية النرجسية هى :

أولا : أن النرجس يشبه العين والثغر ، والورد شبيه بالخد ، والأعين والثغور أفضل من الخدود .

ثانيا : أن النرجس اسم والورد صفة والاسم عمدة والوصف فضله .

(١) حصاد الهشيم المازنى ص ٢٩٧

ثالثا : أن نظرات النرجس أخجلت الورد فتورد خداه.

رابعا : أن النرجس مبتسم بينما الورد منطو لأن الخجل لفه وجمعه.

يقول ابن الرومى فى هذه الصورة الفريدة :

للنرجس الفضل المبين لأنه ... زهر ونور وهو نبت واحد
ينهى النديم عن القبيح بلحظه ... وعلى المدامة والسماع مساعد
خجلت خدود الورد من تفضيله ... خجلا توردها عليه شاهد
هذى النجوم هى التى ربيتها ... بحيا السحاب كما يربى الوالد
فتأمل الاثنين من أدناهما ... شبها بوالده فذاك الماجد
أين العيون من الخدود نفاسة ... ورئاسة لولا القياس الفاسد(١)

تتابع فى إدراك المعانى، وتحليل وتعليل لكل ما خفى، وإصرار على الاسراف بغير قاعدة، وبدون ضابط، وصبر ومثابرة فى الغوص والبحث، فيستنفد ويستفرغ مخزونه من صور وخواطر، حتى أصيب بالوسوسة والشك وهو مع هذا معتز بنفسه، واثق من قدرته فى الأدب والعلم، وبراعته فى التصوير، فهو يكرر ويلح، ويفصل ويعاود من غير سأم ولا ملل، يقول:—

أين مثلى مفاتش لك أم أين ... نديم تعده ندماء
شهد الله والموازين والقسـ ... ـط جميعا شهادة إمضاء
إن رأيى لذو الرجاحة وزنا ... دع عينى وزنه والآراء

وابن الرومى فى استقصائه عند العقاد، بلغ الغاية فى الإسراف إلى حد النهم فى كل شىء يقول: « وكان هذا ديدنه، فى كل أمر من أموره إسراف واستقصاء لا يمسكهما ضابط ولا تعقدهما عزيمة، إسراف واستقصاء فى النكتة وفى المعنى وفى الدرس، وفى الطعام والشراب والشهوات لا حد لهما إلا البشم والامتلاء، واستنفاد ما بين يديه من مادة فى ساعتها حتى لا سؤر ولا صبابة.

إن يكن عندك لى نصح ... فما عندى انتصاح
لا تلمنى فالهوى فيـ ... ـه جماع وطماح

وتختلف نزعات الإسراف، وسببها كلها واحد: سببها توفز الحس ومطاوعة الرغبة الحاضرة، والاندفاع معها، وقلة الصبر عنها ولو أن هذه الأشواق الجامحة، شفعت بمسكة

---

(١) الديوان المخطوط ورقه ٢ ٢ ج١

من العزم المتين ، لا عتدلت حالة ، ولو بعض الاعتدال وسلم جسمه ولو بعض السلامة ولكن أنى له العزيمة ؟ وهو أسير أحساس للحظة التى هو فيها ، لا يترك له استغراقه فى مؤثراتها الحاضرة منفذا إلى التفكير فى مقابل أو غابر ، ولا يعدل بما يزينه الحس والخيال حظا تزينه له الحكمة والحصافة (١)

ب – دقة الاحساس :

ودقة المشاعر عند ابن الرومى ، تزيد من إرهاف حسه ، والدقة فى الشعور هى طبيعة شاعرنا ، عندما يصور أو يرسم لوحاته الفنية ، أو يضرب على معزوفة الفن الرفيع أو عندما يغضب على من يطارده ، أو يحرمه حقه أو ينفعل بمشهد من مشاهد الطبيعة أو يرضى عن إنسان قريب إلى قلبه ، كل ذلك يجعله يغيب عن الوجود ويسبح فى اللاشعور ويستبطن مراكز اللاوعى ، بآلته التصويرية الدقيقة يوفق بها ما تنافر ، ويجمع ما تباعد فى غمرة تشبه الوحى ، وهو يتمدد فى جوانب النفس ، منخطفا فى مداها الواسع الفسيح ليلتقط بآلته السحرية الصور الغريبة ، والمناظر الشاردة ، واللوحات الباهرة النادرة ويفيض عليها من روحه، ويستمد من عاطفته ألوانها فى ترابط وتناسق ، وتناسب واتساق ، ويجول فيها ما يضطرب من انفعاله القوى ، ويتحرك ، يقول عاشق الخمر ورائده فى الشعر العربى أبو نواس الماجن :

وقت عن الماء حتى ما يلائمها ... لطافة وجفا عن شكلها الماء

فلو مزجت بها نورا لمازجها ... حتى تولد أنوار وأضواء (٢)

وهذه مغالاة من النواسى ، وبعد عن الدقة المطلوبة فى التصوير ، فالخمر مهما بلغت من الصفاء ، لن تصل إلى درجة الصفاء فى الماء ، وإلا فما الفرق بين الماء والخمر والأخير به رواسب وشوائب العنب أو الفاكهة وألوانها واشتد فى المبالغة بأن جعلها نوراً وضيا .

أما ابن الرومى فهو دقيق الحس لا تفوقة شاردة ولا واردة ، ينقل إليك الواقع كما هو ، ويركب الصورة كأنها الأصل وقد أفاض عليها من إحساسه ومشاعره ، فلا تمايز بين الأصل والصورة إلا ما نحس به من روح الشاعر ومزاجه ، وهذا ما يحدد الشخصية فى الأدب والشعر ، حتى يقال لكل شاعر نابه شخصيته المستقلة فى التعبير ، وهذه هى براعة ابن الرومى فى دقته حيث يقول :

---

(١) ابن الرومى : العقاد ٣٠ ٤

(٢) ديوان أبى نواس

صفراء تنتحل الزجاجة لونها ... فتخال ذوب التبر حشو أديمها
لطفت فكادت أن تكون مشاعة ... في الجو مثل شعاعها ونسيمها(١)

فهي صفراء بما امتزجت بها من عناصر ، حتى استحالت الزجاجة مثلها فأصبحت كقطعة من ذهب ، وهي في لطفها كالماء في رقته ، حتى امتزجت بالجو وشاعت في الضياء ، والجو والضياء كالخمر ليسا في صفاء الماء لأن الغبار والتراب والضباب كثيرا ما يشوبهما لذلك كان التشبيه بها أقرب إلى الخمر من الماء الصافي وهذا يدل على أن ابن الرومي بلغ الغاية في دقة إحساسه .

وترجع هذه الدقة عنده إلى أسباب عديدة هي : —

أولا : اختلال أعصابه :

اضطراب العقل ، واختلال الأعصاب والغدد : من القضايا في التشريح ، التي تكون الأحكام فيها تقريبية ، وهكذا شأن العلم والعقل البشري القاصر في المعرفة .

وابن الرومي في هذا يحتاج إلى توقيع الكشف عليه في تجربة حية يلتقي فيها أمهر الأطباء وعلماء التشريح والنفس في العالم لأنه شخصية معقدة ملتوية ، تحتاج إلى جهد ، وليس معنى ذلك أنني أنفي ماوصل إليه الباحثون في هذا الخلل ولكن معناه إلا ننقل هذه العلوم الحديثة لنطبقها على شعر ابن الرومي — لا على شخصه وجسمه — تطبيقا حرفيا ولكن المقصود من هذا هو الإستئناره والكشف والحكم الاول والأخير إنما هو شعر الشاعر .

والذي نطمئن إليه ولا نشك فيه ، هو أدبه وشعره فإننا لو رجعنا إليه ، وأعملنا الفكر والعقل فيه بالتحليل والموازنه ، وطبقناه على نماذج حية تقرب من شخصية ابن الرومي في شعره ، لو فعلنا ذلك لقاربنا الصواب ، وخرجنا بنتائج لا بأس بها .

ولا خلاف في أن الشاعر كان يختلف عن الشعراء في العالم العربي ، وله شخصية فريدة بينهم .

وابن الرومي مضطرب مختل قد سيطرت عليه مخاوفه وهواجسه ، مما يجعلنا نحكم بشذوذه وغرابة أطواره بين أنداده من الشعراء ، وشعره هو الوسيلة الوحيدة لتحكم عليه ، وصوره الأدبية هي المقياس له أو عليه .

واختلال ابن الرومي واعتلاله لم يكن سببا في بلادة حسه ، أو ضعف وجدانه

(١) الديوان المخطوط ٢٦٧ ج ٢ وستأتي بتفصيل في فصل الموازنات .

أو فتور شعوره ، بل كانت سببا فى هجوم الوساوس عليه ، وكثرة الهواجس والمخاوف حتى صار إحساسه كمقياس الحرارة يهتز لأدنى تأثير ، لذلك بلغ درجة متناهية فى حدة المشاعر ورفاهة الحس ، حتى أصبحت كل حاسة من حواسه تمثل شخصا بعينه هو ابن الرومى ، واعتصمت الحواس جميعا فى ترابط لتبرز لنا ذلك الإنسان المتهوء المتحفز ، والمستوفز المتخطف ، والممتد فى نفسه ، وفى أعماق الوجود كله .

وهذا شأن العباقرة يفنون ويذوبون ليدفعوا الإنسانية والعلم إلى الأمام ، قال المازنى: (وقد كان ابن الرومى لسوء حظه — أو لحسنه ولحسن حظنا على الأصح — واحدا من هؤلاء الشواذ فنه الشعر)[١] .

بلغ من حدة إحساسه أن أمواج دجلة إنما هى عدو يغتاله ، وكان أشد رهافة فى الحس حينما خشى الموت من الماء فى الكوز ، والماء هو الذى يعيد إلى النفس حياتها بعد الظمأ الشديد القاتل وقد ذكرنا تصويره لهذ التوفز والدقة فى إحساسة .

وحينما يصف ابن الرومى الأحدب لا تفلت من دقة إحساسه فلتة ولا تفوته هامسة أو تستعصى عليه لامسة بل يأتى على كل ما يتصوره العقل البشرى فى الشىء . فأخادعه قد تناهت فى القصر حتى طال قذاله وكأنما تجمعت أجزائه من أعلى ومن أسفل الى الأمام وفى الداخل ناحية البطن ، مع انتفاخ العروق ، وشد الأوداج ، وتكشير الوجه ، وتصلب الأعضاء ، شأن هذا شأن المصفوع على قفاه فهو متربص بتلقى الصفعة بعد الصفعة فى تجدد واستمرار ، ومغزى التجدد هنا فى الصفع ليفيد أن الأخدع لشعوره بهذا النقص الجسدى يعانى منه كل لحظة تمر عليه ، كما يعانى المصفوع لمذة الصفع أبد الدهر .

أظن أن ابن الرومى بدقة احساسه لم يترك لأحد شيئا بعده ، ومهما وضح المعنى فلن أكشف عما أودعه ابن الرومى من دقته فى بيتين اثنين لا غير ، لا فى قصيدة يقول :

قصرت أخادعه وطـــال قذالة   فكأنه متربص أن يصفعـــا
وكأنما صفعت قفـــاه مرة   وأحس ثانية لهـــا فتجمعا

وإذا عقد ابن الرومى موازنة بين شيئين أوفى على كل منهما وأعطى لكل تمام صورته بحيث لا تبدو مختلة ، ولا ناقصة ولا باهتة ، بل مكتملة الجوانب ، مستوفية الشمائل والصفات فوجه عمرو كوجه الكلب فى الطول ، ولكن الكلب الألوف تتخلى عنه المقابح شيئاً

---
(١) حصاد الهشيم المازنى ٢٩٧

فشيئاً مع الزمن ، أما عمرو فتزداد مقابحة مع الزمن لجفائه ونفرة الناس منه ، وسوء حالة ، ولهذا استحق الكلب أن يكون وفياً ، لأن الناس ألفوه ، واستحق عمرو أن يكون غادراً ، لأنه تجافى عن الناس ونكل بهم . هل نعد هذه الدقة دقة فى التناول والتصوير ، إنه المصور الدقيق البارع حين يقول :

وجهك ياعمرو فيــه طول	وفى وجوه الكلاب طـول
مقابح الكلب فيـك طرا	تزول عنهـا ولا تزول (١)
والكلب واف وفيك غـدر	ففيك عن قـدره سفول

ثانيا : تطيره :

وطيرته ظاهرة نفسية نبعت من اختلال أعصابه وهى ترجع كما ذكر العقاد إلى خلل أعصابه مما جعله يستحضر الخوف ، وتصرعه الهواجس ، وتسلمه للأوهام ويختلق الوجوم والظنون ، حتى أفرط فى كل ذلك ، وجعله يسىء الظن بكل شىء .

وإذا تمكنت هذه الطبيعة من النفس ولازمتها ، تجعل صاحبها ضعيف الثقة بنفسه وبالوجود ، شارد العقل ، مستغرق الإحساس فى غفوة وغيبوبة لايفيق منها إلا وقد فسر كل شىء لامسه ، وكشف لنا النقاب عنه لأنه يفعل ذلك ، وهو يخاف من مظاهر الحياة وعناصرها ، فيفتش عنها حتى يقف على سر ضعفها ، وعنها يصل هو إلى سر ضعفه بتطيره منها وهذا يؤدى بدوره إلى إحساسه الدقيق وشعوره المرهف ، يتحفز لكل هامسة ويثب لكل لامسة ، ويتوفز لكل منبه ، ويجول بنظره متصلبا من شدة الخوف والرعب ، الذى يملك عليه نفسه ، فجمح خياله ، واتسعت صورته ، حتى رأى الأوهام شاخصة ماثلة أمام عينيه وحواسه وعقله ، فقد خاف من كل شىء من الماء والريح والصحو والمطر والحدب والحور والعور والخصى ، بل تشاءم من سماع الأصوات ، وذكر الأسماء والصفات ، وبلغت به طيرته أن صحف الأسماء ، وقلبها وقدم وأخر ليرضى حسه ، ويهدىء من خوفه ، فكأنه لايهدأ إلا مع الهاجس الوسواس يقول :

فآمن ما يكون المرء يوما	إذا لبس الحذار من الخطوب (٢)

ودقة إحساسه التى نبعت من مخاوفه وطيرته ، هى التى جعلته يفسر استقبال الوليد

---

(١) المخطوط ورقة ٢١٨ جـ ٤

(٢) المخطوط ورقة جـ ١

للدنيا ، فى تفصيل دقيق ، وإحساس شامل مع إقامة الأدلة وإقناع الخصم وإفحامه ، وذلك من الواقع والمشاهد ، حتى يكاد الانسان للدقة والصدق يصدق مايقوله الشاعر ، وما يصوره من الحياة والحوادث .

فالطفل البرىء النظيف الطاهر ، عندما يستقبل الحياة يفزع من ويلاتها ويصرخ من أحداثها ، وأول ما يلاقيه من أحداث الحياة ثقل ضغط الهواء على جسمة والغلاف الجوى فى الدنيا على حسه ، وهو غير ما ألفه داخل الرحم ، حيث إن ضغط الهواء عليه أقل ، فغلاف الهواء فى الرحم ، أخف كثيراً فى الدنيا لأن الهواء الساخن بتأثير حرارة الجسم والرحم ، يكون أقل فى الكثافة والوزن والضغط من الهواء العادى أو البارد فى الجو ، وهذا هو سر صراخ الطفل عند استقباله الدنيا الجديدة .

ثم يقيم ابن الرومى الدليل تلو الدليل ، والبرهان ، عقب البرهان ليشفع بعضه بعضا فى الإقناع والتسليم ، وإذا لم يكن الأمر كذلك فعليك أيها الخصم أن تقيم الدليل على سر صراخه ، مع أن الدنيا أوسع مما كان فيه الطفل من الضيق ففيها يتنفس كيف شاء ، ويتحرك ويقفز ، ويرى على بعد نظره ويسمع على امتداد سمعه ، فالخصم لايجد سبيلا للرد الا الإقتناع والتسليم هل بعد هذه الدقة فى الإحساس ، والشمول فى التصوير ، والإحاطة بكل جزئية فى الصورة ، ووضعها فى مكانها المناسب ؟ هل بعد هذا كله من دقة وتحر ؟ يقول ابن الرومى :

لما تؤذن الدنيا من صروفها	يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنهـــا	لأفسح مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه	بما سوف يلقى من أذاها يهدد[1]

ثالثا : انطوائه على نفسه :

اذا اجتمع فى الإنسان خلل فى الأعصاب وتطير فى كل أحواله ، فإنه يجد من باب عطفه على نفسه ، ورحمته بها أن يريح جسده ويطمئن الى مضجعه ، حتى لا يحملها مالا تطيق ويحتفظ لها بالطاقة الحرارية التى يبذلها فى حركته وجهده فيعتكف فى بيته ، ليريح جسده وتهدأ أعصابه بعض الشىء من ناحية ، ويعتزل الناس والحياة اللذين حلبا عليه شقوته من ناحية أخرى فكان الناس يترصدونه فى كل مكان ازداد تشاؤما وتطيرا .

وجد ابن الرومى فى انطوائه راحة لنفسه وتخفيفاً لها من هذين الحملين العظيمين ،

(١) الديوان المخطوط ورقة ٤٧ جـ ١

ولا نظن أن المنكمش في ذاته خال من الفكر ، بعيد عن الهواجس ، ولكن الحقيقة إنه تفرغ إلى البحث فى خفايا نفسه ، والتنقيب عن أسرارها ، فلا يخرج من ذاته إلا كال الإحساس ، متعب الذهن ، مثقل العقل والفكر ، لكثرة مادار فى جوانبها ، وحار فى أعماقها . لذا نرى الرجل الإجتماعى الذى يعيش بين الناس أقرب إلى البساطة فى التفكير ، من المنعزل عنهم ، ويكون فى احتكاكه بالناس أكثر وأعظم نفعاً لهم من نفسه ، لأنه لايهتم بها أكثر من اهتمامه بالجتمع ، ولا يحتمل ساعة يخلو فيها إلى نفسه ، بل إن علاقته بالمجتمع ، أكسبته القدرة على المعايشة والتحايل والتكيف والتمثيل ، ليأخذ مكانه بينهم وتعظم منزلته فيهم ، ويتفرغ لهم ، فتخلو نفسه من المتاعب الفكرية ، والصراعات النفسية ، والانفعالات المتضادة والمخاوف المدمرة والنزعات المختلفة .

وأما المنطوى المتمدد داخل نفسه ، ينعكف عليها ، ويعيش فريسة للصراعات النفسية والذهنية والانفعالية والعاطفية ، فيأخذ فى المقارنة والمداولة ، والتحقيق والتثبيت ، والتقارب والتباعد ، والتشابه والتناقض ، والمقابلة والمجانسة ، حتى يستقيم فكره ، ويصدق احساسه ، وهؤلاء الصنف من الناس هم أغلب العباقرة والمفكرين والقادة والحكماء .

كذلك كان ابن الرومى يلتفت الى داخله ، وينحطف الى أعماق نفسه ، فنشأ عن ذلك حدة فى احساسه ، ودقة فى شعوره ، وجيشان فى انفعاله فلا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ألم بها بحيث لم يجاره فى دقته وتحليله أى شاعر آخر قبله ، فى استيفاء مايجد على نفسه من انفعالات ، وتقصى مايخطر لعقله من خواطر ،والإجهاز على مايصوره خياله من صور ولوحات .

يقول فى روضة انعطفت عليه لتعينه على حياته التى دفنها فى انكماشه بل على حياة الناس جميعاً :

إذا شئت حيتنى رياحين جنة	على سوقها فى كل حين تنفس
وإن شئت ألهانى سماع بمثله	حمام تغنى فى غصون توسوس
تلاعبها أيدى الرياح اذا جرت	فتسمو وتحنو تارة فتنكس
اذا ما أعارتها الصبا حركاتها	أفادت بها أنس الحياة فتؤنس
توامض فيها كلما تلمع الضحى	كواكب يذكر نورها حين تشمس

فهذه الروضة اكتملت لها كل الخصائص والصفات ، وجمعت من عناصر الصور وأحسن اللوحات مالم تجتمع لشاعر آخر ، فالروضة تحييه لا باليد ولكن بأنفاسها

المتلاحقة ، وقد تبخرت عن طيب من روائح جنة الخلد ، ثم بصوتها العذب الحنون لا كصوت الإنسان ، بل صوت الحمائم ، وهى تعزف ألحان الحب ، وحفيف الأغصان ، وهى تهمس همس العشاق والأحباب ، ثم تركع الروضة أمامه خاضعة خضوع الواله فتركع الأغصان ، وتسجد فى خشوع واطمئنان ، ثم ترتفع لتتملى من نوره وقداسته لتعود مرة ومرة ، وهكذا حتى تشبع فى الحياة الحركة والأنس والتآلف ، ثم تحييه بابتساماتها المشرقة ، التى تنبعث من أصل الحرارة والضياء وهى الشمس .

ان دقة ابن الرومى لم تدع هنا شيئا ، ولا صفة ، ولا جزئية ، الا وقد شدت حواسنا اليها . وتلك هى القدرة العجيبة ، والعبقرية الفذة النافذة فى التصوير الأدبى .

رابعا : سخره :

اجتمعت عوامل كثيرة أدت الى سخره اللاذع فى شعره : من تطير واضطراب فى أعصابه وانكماش على نفسه ، وعدم العناية من المجتمع بشعره ، وانصراف المجتمع عنه، مع أن نفسه جمعت بين مفاخر العرب والروم والفرس وسيأتى هذا مفصلا فى مكانه .

كل هذه العوامل جعلته مشدود الطبع ، حاد الشعور ، مرهف الحس سريع الغضب ، عابثا بنفسه وبالناس متمرداً فى طبعه ، ناقما على نفسه،ولم يصدرعنه هذا السخر الا لإحساسه بمرارة الحياة فى عبثها وجدها ، وغرائب المتناقضات فيها وعجائب المقابلات ، ووسط هذه الغرائب وتلك العجائب نما السخر عند الشاعر ، ويتعمق الأشياء ، ليقف على كل سر ، ويطمئن الى كل خفى ، فتكمل صورة السخر عنده ، وتجتمع أطرافها حتى لاتبقى لها بقية ، لأنها سلاح يشهره فى وجه الغير ، فلابد أن يكون ماضيا ينفذ ويغيب فى خصمه حتى يموت ، فلا يقوى على الحركة بعد ذلك ، لأن السخر عنده أصبح معركة لا بد أن يخرج منها منتصرا ، لذا جمع فيها كل أنماط السخر وعناصر الهزء ، وهذا يحتاج من ابن الرومى الى الدقة فى الإحساس ، والدقة فى الإحساس تنمى السخر عنده فكلاهما يمد الآخر ، حتى وصلا عنده الى درجة الكمال ، والا لأصبحت الصورة الساخرة مهتزة منهوكة لا تقوى على الإلحام والإفحام .

لهذا كله كان ابن الرومى ، دقيق الإحساس ساخرا أبلغ السخر ، مقذعا أشد الاقذاع ، حتى عرف عنه انه الأديب الساخر ، رائد مدرسة السخر فى شعرنا العربى .

ودقة إحساسه التى تأصلت فيه ، وجهت سخره إلى نفسه وذاته ، ولم يكتف بسخره للناس لكنه سخر من نفسه التى هى أعز ما يملك بين جنبيه ، فى صور نضحك منها ، وتجلب عطفنا عليه بعد أن تفرقت أشلاء نفسه الممزقة يقول :

وبورك طرفى فالشخوص حياله قرائن من أدنى مدى وهى فرد[1]

أليست هى الدقة التى تجعل الخط خطوطا ، والنقطة نقطا ، والشخص أشخاصا ؟ فهذه بركة وخصب فى البصر على غير ما ينبغى . ويقول :

وكيف ولو ألقيت فيه وصخره لوافيت منه القعر أول راسب[2]

فالغريق الذى لا يعرف السباحة يسقط ، ليكون أسرع الى قاع البحر من الصخرة بل يدفع نفسه دفعا اليه ليعجل بالغرق ، ويتخلص من إزهاق الروح ، فيستقر على أرض ثابتة كما تعود ذلك على وجه الأرض ، ولو كانت هذه الأرض قاع البحر ، انها دقة الإحساس التى نبعت من سخره من نفسه .

ولا تكاد تطيق الصمت ، فتنفلت الضحكات المحبوسة مضطرة ، لتنعكس الصورة الساخرة على صفحة الوجه حين يقول فى قصر :

على أنه جعد البنان دحيدح إذا ماشى مستعجلا قيل مدرج[3]

فهو قصير الأنامل والأطراف ، إذا أسرع فى سيره — ولا أطراف له — بدا كالكرة التى تتدحرج على الأرض ، والكرة يركلها لاعب ، لكن القصير تقذفه الأنظار لشدة حيائه من قصره ، فيسرع فى خطاه لكى يغيب عن العيون .

أبعد هذه الدقة دقة فى الإحساس ؟ وشعر ابن الرومى زاخر بالصورة التى تدل على دقة إحساسه وستأتى منثورة فى هذه الدراسة .

تلك هى العوامل الأربعة التى أدت إلى دقة إحساس ابن الرومى وشعوره المرهف ، فأخرج لنا الشاعر أجمل الصور وأدقها ، لا تعوزها أى شىء بعد عبقريته الشعرية وأعماله فيها ، فهو الشاعر العبقرى المصور .

(٤)

الحاسة الفنية :

والحاسة الفنية هى رابعة الدوافع لعبقرية ابن الرومى فى الصورة الأدبية بخاصة ، وفى شعره بعامة ، وهى تعتبر نتاج عوامل كثيرة ظاهرة وباطنة ، تؤثر فى الشاعر .

---

(١) المخطوط ورقة ١٨٧ جـ ١ (٢) المخطوط ورقة ٦٠ جـ ١

(٣) المخطوط ورقة ١٣٤ جـ ١

كانت الدوافع السابقة وهي كرهه للحياة ، وهروبه إلى الطبيعة ، وإحساسه المرهف بشتى مظاهره وألوانه ، لها الفضل الأكبر في تربية الحاسة الفنية في نفسه ، وتهذيبها وصقلها ، وهي الغاية التي يتطلع إليها الناقد عند الشاعر ، والشعر لا يرتفع الا اذا توافرت فيه ، فهي روح الفن ، وعصبه ، وجوهر التصوير الأدبي بحيث لا يرقى الشاعر الى مستوى العباقرة ، الا اذا اكتملت عناصرها في احساسه وخواطره ، وسرت في صوره ، وتدفقت في خياله ، أما التقليد في الصورة أو الصورة الخالية من الحاسة الفنية ، فتهبط بصاحبها الى مستوى المتشاعرين .

والحاسة الفنية عند الشاعر ، التي تتكون عنده من الدربة والمطاولة ، والتمرين وسعة الاطلاع ، والإدمان في القراءة . والفهم المستقيم ، والوعي التام والتيقظ العميق والبصيرة النافذة .

هذه الحاسة انما تظهر مكتملة في التصوير الأ[illegible]ى ، حين يعطيك الشاعر أثر المشهد ووقعه على نفسه ، وما بثه فيه من مشاعر وأحاس[illegible] ، وذكريات دفينة ، وصور مستترة لا تطفو الا ساعة الإدراك الحسي ، وسيطرته على [illegible]عي الخارجي ، فيتحرك الخيال في يقظة وانتباه ، ليلتقط من هنا وهناك ، ويؤلف [illegible] الأشتات المخزونة ، ويخرج حشداً من الصور ، توحي إلينا ببعض ماندركه من مشاعر [illegible] خواطر ، وما وراء ذلك من البعض المخزون [illegible] يتبدى لنا يوما بعد يوم ، وهذا هو [illegible] خلود الأدب الراقي ، الذي يصدر عن حاسة فن[illegible] خالقة ، يظل مادامت الانسانية والحي[illegible] تجدد واستمرار .

وأ[illegible] التصوير غير الأدبي ، فالمصور ينقل [illegible] كما هو من الواقع يمثل لحظة واحدة أثناء الت[illegible]ه أو تصويره ورسمه ، يجمد فيها الز[illegible] وتوقف الحركة وما وراء ذلك من مشاعر [illegible] احاسيس وإن نبغ مصور في لوحته ، [illegible]ى فيها ظل من حاسته الفنية ، فإنما يكون للحظه توقفت بعدها الحركة ، كما يرسم صو[illegible] لب سريع البديهة حاد الذكاء يستطيع أن يجعله مشدود العينين يحرك بيده الصفحة اليمنى [illegible]م عيناه أسفل الصفحة اليسرى .

ول[illegible] هذه الحركة ، لا تتجاوز لحظة طي ال[illegible]فحة والإتيان على الأخرى ، فالرسام هنا كما يقول شوقي ضيف « إن الشاعر لا يعرض [illegible] كما يعرض المصور الجمال المادي » وإنما يعرض أثره فيه[1] » .

(١) في النقد الأدبي : دار شوقي ضيف ٩٤ .

وابن الرومى متمكن من هذه الحاسة الفريدة أو هى قد تمكنت منه ، يلحظ بها الصلات ، ويربط بين الأشياء بدقة ، ويجمع بين الأشتات فى يقظة وحذر ، تستقبل حواسه الألوان المختلفة فى الطبيعة ، فتمتزج فى معامل حاسته الفنية ، وتدير عليها العصارات المختزنة ، التى أصبحت تشف عن روح الشاعر ومزاجه ، فتبرز لوحة فنية منسجمة الألوان ، تفيض عن قوة وبراعة بأضوائها وظلالها وإيحاءاتها .

ونمت هذه الحاسة الفنية عند شاعرنا ، حتى أصبحت من طبعه لا تنفك عنه ، هازلا أو مادحا ، أو جاداً أو ساخراً ، أو محبا أو كارها أو مبغضا ، هى عنده بصمته فى كل أثر أدبى له ، وترجع أسباب التكوين لهذه الحاسة إلى عدة أمور .

(١) اعتداده بنفسه ، وتعصبه لشخصه ، فهو رجل يجمع بين الدم اليونانى والفارسى والرومى والعربى ، ورجل هذا شأنه قد بعد عن ساحة الحكم والسياسة ولم يجد له مكانا بين مجتمعه إلا أن يتفوق بنبوغه وعبقريته التى غذيت بموارد مختلفة ، لا تجتمع فى أحد من عصره .

كيف أغضى على الدنية والفرس   خؤولى والروم من أعمامى

والرجل المعتد بنفسه ، لا يقبل التسليم للأمور من أول وهلة ، ولكنه يتناول كل منها بالفهم والتعليل ، والموازنة والمقارنة والاستقصاء ، حتى تظهر شخصيته فيما يتناول ، وما يعبر عنه من غير تقليد ولا محاكاة أو محاذاة .

وهذا مايشير إليه ابن رشيق فى اكتمال الحاسة الفنية عند الشعراء والكتاب لحسن تصرفهم فى المعانى اللطيفة وبعدهم عن التقليد والتكلف يقول :

« أرق الناس فى الشعر طبعا ، وأملحهم تصنيفا ، وأحلاهم ألفاظا ، وألطفهم معانى ، وأقدرهم على التصرف وأبعدهم عن التكلف[1] » .

وابن الرومى فى هذا أقدرهم وأعظمهم فهو شاعر الفكرة ورائد الصورة المبتكرة .

(٢) عاش ابن الرومى فى أعماق الحضارة العباسية بألوانها المختلفة من فكر وعلم وثقافة وفلسفة وعلوم كونية وعقائد مقلبا نظره فى أبهائها التى احتشدت بألوان الطعام والشراب ، والغناء واللباس ، والفرش التى لم يعهدها العرب من قبل ، ومستمتعا بجمال الطبيعة ، ومروجها وربيعها ، وبحارها وأنهارها ، وحيواناتها ووحوشها ، واستجاب إحساسه لهذه الأمور ، ليختزن كل ذلك فى عالم اللاشعور والباطن الذى تنمو فيه الحاسة الفنية .

(١) العمده : ابن رشيق .

ولاكتمال الحاسة الفنية عند الشاعر ، لا بد من الإدمان فى القراءة ، وسعة الاطلاع ، والقدرة على التحصيل من كل العلوم القديمة والحديثة ، وهـذا هو ما قام به شاعرنا من الإلمـام بكل ما يدور فى العصر من نهضـة علمية ، وحضارة وثقافة ، وصراعات مذهبية وعقائدية ، حتى قال المسعودى عنه : « كان الشعر أقل آلاته » ويقول المعرى عنه : « إن أدبه كان أكثر من عقله وكان يتعاطى علم الفلسفة » .

وقد وضح صاحب المثل السائر أن الدربه والمران هما الأساس فى تربية الذوق الجمالى ، وهو مانسميه بالحاسة الفنية عند الشاعر ، يقول « إن مدار علم البيان على حكم الذوق السليم ، وأن الدربة والإدمان أجدى على القارىء نفعا ، وأهدى بصراً وسمعاً ، وأنهما يريانه الخير عياناً ، ويجعلان عسره من القول إمكاناً ، وكل جارحة منه قلباً ولساناً[1] » .

(٣) انطواؤه على نفسه مما جعله يتأملها ، ويغوص فى أعماقها ، ويقلب نظره فى جوانبها ، ويحلل كل خاطرة ، ويقف مع كل واردة ، ويدقق فى كل ماتقع عليه حواسه ، فيناظر ويقابل ، ويحط ويأخذ ، ويزاوج ويفرد ، فعقله فى شغل دائب ، وحسه فى حركة دائمة ، لأنه ترك المجتمع ، ليخلو بنفسه . وقد وضحنا ذلك فى مكان آخر سبق بالتفصيل .

(٤) تشاؤمه الذى جعل الشاعر يحذر من كل شىء ، يخاف من النسيم الذى يلاطف وجهه ، فأخذ يشده كل منبه ، ويقف أمامه فى حذر وترقب ، يستنبط كل الوسائل الممكنة ، ليأمن ويطمئن على نفسه ، فكان كل ما يقع عليه حسه هو عدو لدود ، وخصم ملح ، يريد أن ينال منه ، كل هذا جعله يستعد له بكل ما يملك من حس وفكر ، وقد مرت أمثلة كثيرة على هذا .

(٥) فشله فى حياته فلم ينل حظه من الطعام والشراب والملبس ، والعمل الذى يكفل له حياة سعيدة ، ولذا أخذ يحلل أسباب فشله ، وعوامل إخفاقه ، وليس هو دون الكتاب ، ورجال الشرطة والتجار وغيرهم ، ممن نالوا حظهم فى الحياة كما سبق فى شعره :

(٦) خلل أعصابه وسقم صحته وارتباك جهازه الهضمى مما أدى إلى نهمه وإسرافه فى خيـاله وتصويره وتطيره وهواجسه ومخـاوفه ، وقد ذكر النويهى بعض هذه العوامل التى كونت شخصية ابن الرومى وطبيعته الفنية حين يقول : « لا يظن القارىء

---

(١) المثل السائر : ابن الأثير ٣

أنى لا أريد أن انكر على ابن الرومى إحساسه الحاد ، فهو لاشك على نصيب هائل من حدة الإحساسات جميعا من نظر وسمع وذوق وشم ولمس .. ولكن ما سببه ؟ أسببه أن معدن عبقريته اختلف عن معدن عبقرية غيره من شعراء العرب ، فجعله يحس بما لا يحسونه ؟ بل سببه تلك العوامل الجسمانية الشخصية المحضة التى شحذت من حواسه جميعا إلى حد مفرط بل إلى حد مخيف ، ولكن إن زادت عنده درجة الإحساس ، فليس معنى هذا اختلاف نوع الإحساس ، ولا معناه له طبيعة فنية من معدن مخالف ، حتى نحتاج إلى تسميتها يونانية (١)

قال النويهى هذا وهو فى معرض الرد على العقاد الذى ينسب الطبيعة الفنية عند ابن الرومى لكونه يونانية فحسب . ولست مع العقاد بل خالفته تماما وأوضحت أن هناك ستة عوامل أسهمت فى تربية الحاسة الفنية وتهذيبها لا كما يقول العقاد عن الطبيعة الفنية عند الشاعر ، وكذلك المازنى ، ومدى مهارة ابن الرومى حينما يصور أو يقول شعرا .

يقول العقاد : « إن الطبيعة الفنية ، هى تلك الطبيعة التى تجعل فن الشاعر جزءا من حياته أيا كانت هذه الحياة من الكبر أو الصغر ، ومن الثروة أو الفاقة ، ومن الألفة أو الشذوذ وتمام هذه الطبيعة أن تكون حياة الشاعر وفنه شيئاً واحدا ، لاينفصل فيه الإنسان الحى من الإنسان الناظم ، وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره ، وموضوع شعره هو موضوع حياته ، فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه ، يخفى منها ذكر الأماكن والأزمان ولا يخفى فيها ذكر خالجة ولا هاجسة مما تتألف منه حياة الإنسان (٢)

ويقول : « وليس الأمر كله حسابا لظواهر ، كذلك الحس الذى لا مذهب له وراء العيون والآذان والآناف ، ولا هو بالدقة التى ترهف الحواس إرهافا فلا يكون قصاراها إلا أن تقابل بين المرئيات والمسموعات ، أو بين هذه وتلك ، وبين المشمومات والملموسات كلا إن هذه اليقظة الحسيه لتصاحبها : يقظة فى الشعور الباطنى ، تسرى به فى كل مسرى وتنفذ إلى كل منفذ ، وتترجم العواطف والأخلاق ، كما تترجم المناظر والألحان (٣)

وابن الرومى بحاسته الفنية يستوفى كل ما يتصل بالصورة ظاهرا وباطنا ، ونحس فيها حرارة وصدقا ونشعر أن بها قلبا ونفسا ، يزيد ذلك كله خلابا وطرافة .

---

(١) ثقافة النقد الادبى : د . محمد النويهى ٢١٣

(٢) ابن الرومى العقاد ٥

(٣) المرجع السابق ٢٩١

ويذوب وجدان ابن الرومى فى النسيم الطرى ليتصاعد فى ريح الصبا :

هبت سحير افناجى الغصن صاحبه ... موسوسا وتنادى الطير إعلانا
ورق تغنى على خضر مهدلة ... تسمو بها وتشم الأرض أحيانا
يخال طائرها نشوان من طرب ... والغصن من هزة عطفية نشوانا

فقد عانق ابن الرومى ريح الصبا ، بعد أن ذاب نسيمه فى وجدانه ، وهو يسبح فى الطبيعة مستبحرا داخل إحساسه بريح الصبا التى هبت فى السحر ، وفى وسوسه الغصن لقرينه وهو يناجيه ويناغيه ، وفى صيحات الطيور لتؤذن ببهجة الحياة وحفلها الثمل الراقص ، والحمائم تنشد أعذب الألحان ، مائسة فى نشوة وطرب على مسرح الطبيعة اليانع الأخضر المهدل ، بالثمار الناضجة ، المعبقة بالعطور والياسمين ، والحياة كلها طرب حتى الأغصان قد سرت فيها العدوى فاهتز عطفاها .

أى حاسة فنية تخرج لنا هذه اللوحة الرائعة التى تمازج فيها الشكل والحجم واللون والحركة والتمثيل والطعم والرائحة إنها لوحة شاعر ، ولا يمكن أن تكون لمصور رسام .

وقد يتبادر إلى الذهن ، أن الحاسة الفنية تنجح وتؤدى مهمتها كاملة إذا كان المشهد التى التى تعرضه منظورا مرئيا بارزا فى الطبيعة كالنص السابق .

ولكن الحاسة الفنية لا تعجز عن تصوير الباطن كالظاهر ، والخفى كالمشاهد ، الكل فى التناول سواء ، ربما كانت فى الباطن أقوى وأظهر ، لأن جل الناس لا يدركونه كما أدركته هذه الحاسة . يقول ابن الرومى .

حضضت على حطبى لنارى فلا تدع ... لك الخير تحذيرى شرار الحاطب
وأنكرت إشفاقى وليس بما نمى ... طلابى أن أبقى طلاب المكاسب
ومن يلق ما لاقيت فى كل مجتنى ... من الشوك يزهد فى الثمار الأطايب
أذاقتنى الأسفار ما كره الغنى ... إلى وأغرانى برفض المطالب
فأصبحت فى الإثراء أزهد زاهد ... وإن كنت فى الأغراء أرغب راغب
حريصا جبانا أشتهى ثم أنتهى ... بلحظى جناب الرزق لحظ المراقب
ومن راح ذا حرص وجبن فأنه ... فقير أتاه الفقر من كل جانب
تنازعنى رغب ورهب كلاهما ... قوى وأعيانى اطلاع المغايب
فقدمت رجلا رغبة فى رغيبة ... وأخرت رجلا رهبة للمعاطب
أخاف على نفسى وأرجو مفازها ... وأستار غيب الله دون العواقب
ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى ... ومن أين والغايات بعد المذاهب

هذا موقف إنسانى يتجدد مع الناس والزمن ، كل يوم فهو دائماً وليد ساعته يزيغ النظر فيه ، متحيراً عند بعض الناس لغموضه ، وما يبدو فيه من تناقض ، ولكن شاعرنا العبقرى بحاسته المعجزة يصور بشعوره الإنسانى نموذجاحياً من أسرار الكون ومتناقضاتها فوقف حائراً مشدوها ، صريع العقل ، غاضباً ثائراً يائساً ، فى عاطفة إنسانية وإحساس فنى دقيق، لا فى فكر مجرد ، ولا حكمة جافة .

ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى ومن أين والغايات بعد المذاهب

أحاسيس متناقضة بين الرغبة الملحة فى العطية والمنحة والحياة وبين الرهبة الشديدة من الأسفار والرحلات ، بين الجبن والشهوة ، والحرص والرغبة ، بين الموت والحياة ، لخوفه على حياته ، جعله يتوسل ضارعاً ويقول لصاحبه (إلك الخير) وأنت جدير فلا تكف يدك البيضاء لمعتذر إليك ، بعد أن أشعل النار فى حصاده الذى كاد — لولا الحرص — أن يجتنبه فى حقلك الناضج ، وأنا أحق الناس منك بالعفو . لأننى ابتليت فى مثل ذلك بالمحبه والبلاء، حتى زهدت فى طيبات الحياة ،وكرهت الغنىفصار الفقريلاحقنى بأظفاره الناشبة ، ويتركنى فى صراع نفسىبين الموت والحياة ، ونزاعبين الرغبة والرهبة، فأقدمرجلا وأؤخر أخرى، وأقف حائراً كانسان أمام القوة الكبرى ، وما وراء الأستار من غيب لا أدرى كيف تكون عواقبه،وكيف أبغىغايتى من الحياة؟والغاية بعدمعالجة الطرقواجتياز المذاهبإليها .

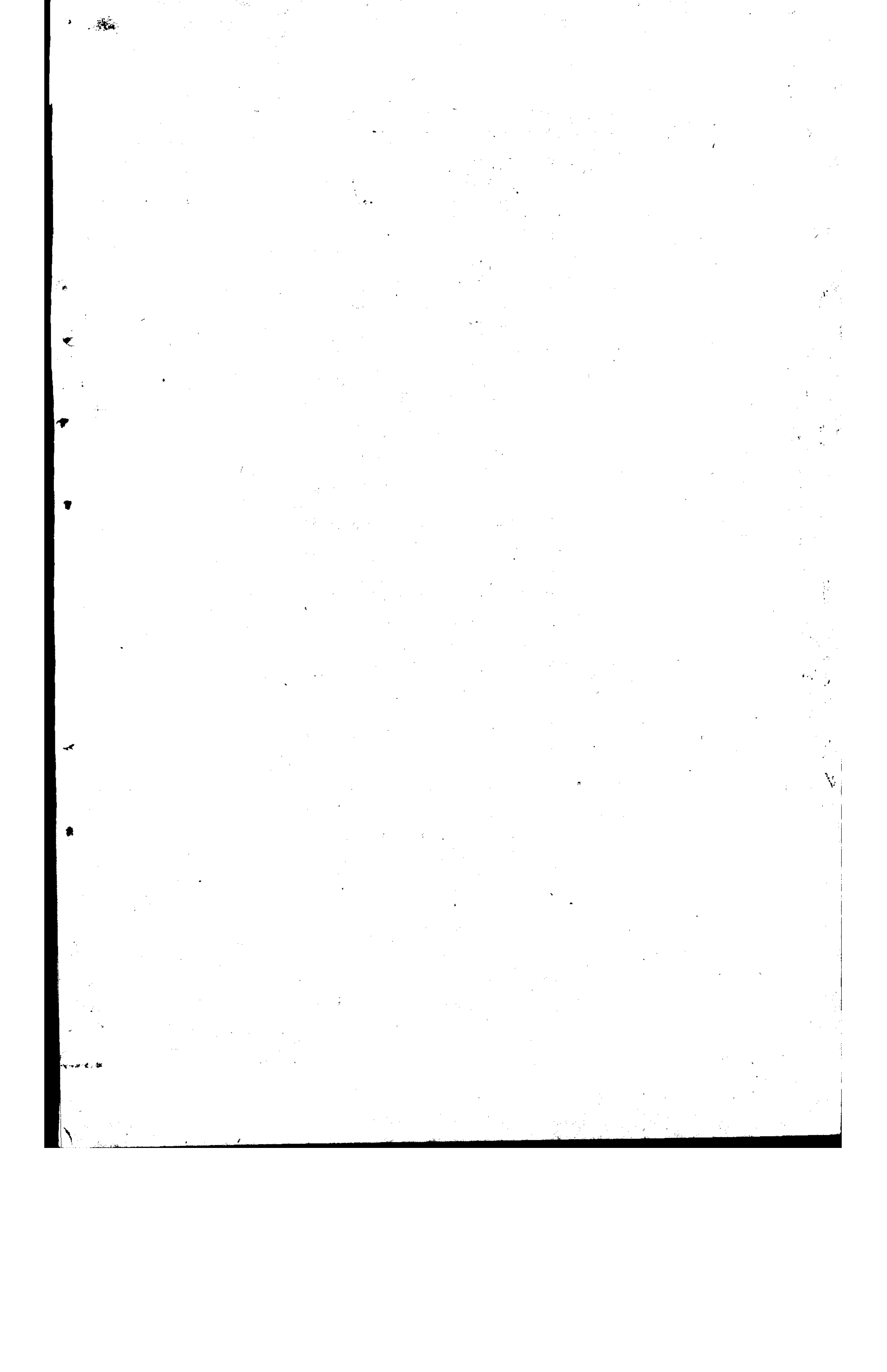
وهو ابن الرومى الإنسان العاجز ، حينما ينسرب إلى المجال الكونى العميق الواسع ، ليقف عاجزاً متحيراً أمام عالم الغيب والقدرالغامض ، والقوى الخارجة عن حدود المادة ، وقد زاغت منه أسرار الأقدار ، وحجبتدونه ألغاز الحياة،وتعطل إدراكه لكنهالحقيقة.

إنه ابن الرومى ، نموذجاً إنسانيا حياً ، يتعاقب فى كل لحظة مع الزمن ، وفى حيرة البشر ، وصخبه بالحياة ، وعجزه أمام ألغاز الكون وحقائق الوجود .

كل ذلك يعرضه بحاسة فنية خالقة ، يفيض عنها شعوره ووجدانه ، محموماً بحرارة العاطفةالتى تنبض بالحياةوالحركة ، وقد أخفق فىعرضها المناطقة والفلاسفة بفكرهم الجاف ، وتسقهم الرتيب الصامت ، يقول :

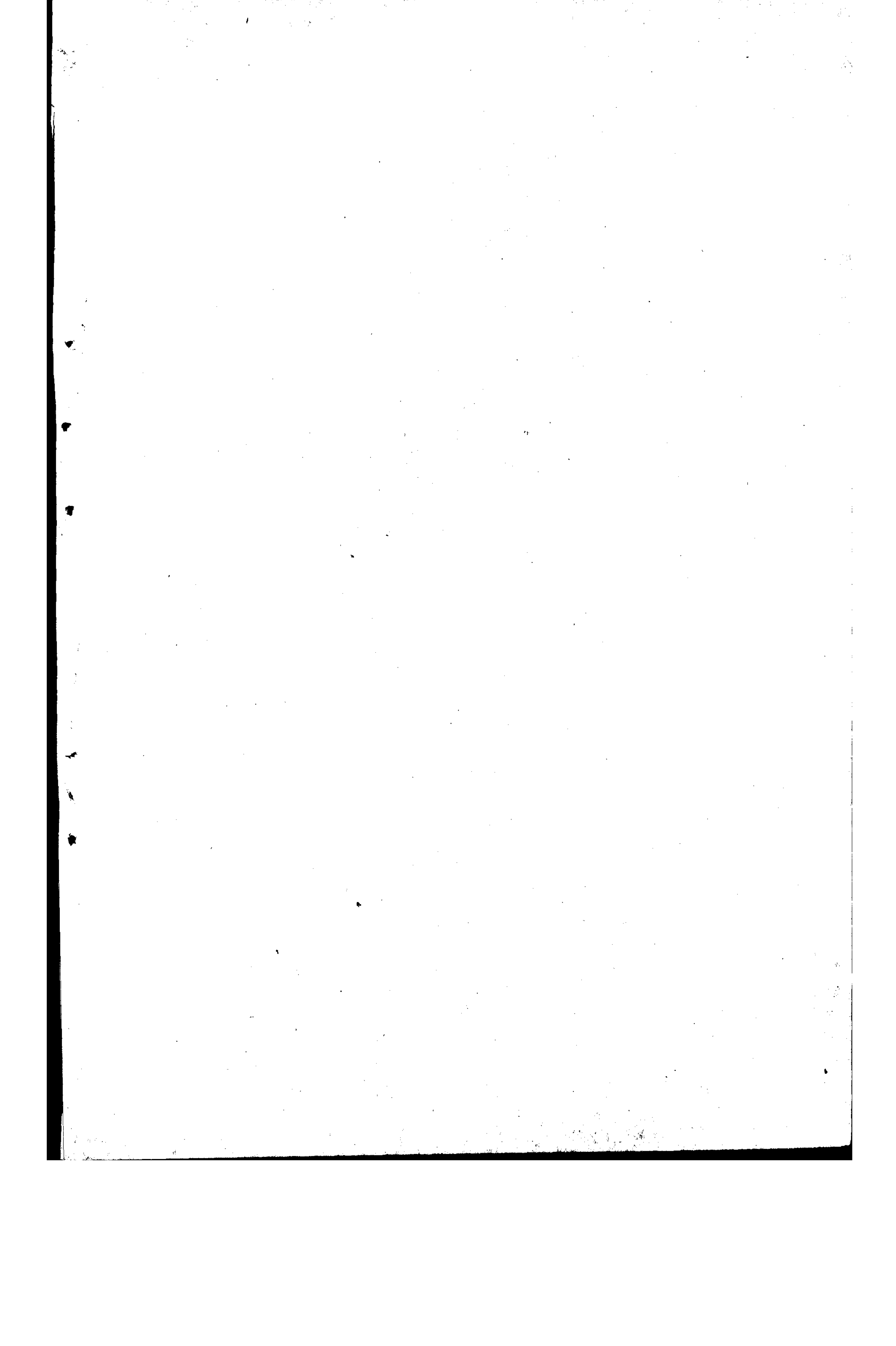
تنازعنى رغب ورهب كلاهما قوى وأعيانى اطلاع المغايب
فقدمت رجلا رغبة فى رغبة وأخرت رجلا رهبة للمعاطف
أخاف على نفسى وأرجو مفازها وأستار غيب الله دون العواقب
ألامن يرينى غايتى قبل مذهبى ومن أين والغايات بعد المذاهب(١)

(١) المخطوط ورقة ٥٨ ج ١



الفصل الثالث

ابن الرومى من خلال الصورة الأدبية



(١)

عاش ابن الرومى فى القرن الثالث الهجرى ، وعاصره شعراء وأدباء ونقاد وعلماء ، حظى اللامعون منهم بالعناية والإهتمام فى كتب السير والتاريخ والأدب ، ولم يكن شاعرنا أقل منهم فى النبوغ الشعرى ، ولسوء حظه لم يحظ إلا بالقليل فى مجال الدراسة الأدبيـــة والنقدية قديما وحديثا ، الذى لا يكشف كثيرا عن نشأته وحياته وعلاقته بالحياة والناس ؛ وكان ابن الرومى أقل شعراء العربية أخبارا فى كتب الأدب والتراجم القديمة ، فأبو الفرج الأصفهانى صاحب الموسوعة الأدبية (الأغانى) أهمل أخبار الشاعر وشعره ، وكان إذا ذكره ألم باسمه فى مناسبات عامة مع غيره من الشعراء ، أو فى معرض الحديث عن غيره منهم ، فهو يروى[١] إعجاب ابن الرومى بشعر الحسين بن الضحاك ، ولعل السبب فى إهمال أبى الفرج له يرجع — كما أشار إليه بعض النقاد — إلى هجاء ابن الرومى للأخفش الذى كان أستاذا للأصفهانى ، أو أنهما كانا مختلفين فى المذهب ، فشاعرنا شيعى والأصفهانى أموى ، أو خشية من هجاء ابن الرومى له ، يقول بعض الباحثين : ـ

ولا تكاد تجد شاعراً ، اختلف النقاد فى منزلته الأدبية مثل ابن الرومى ، أهمله صاحب الأغانى إهمالا ، يعلله بعض بالخصومات الأدبية التى كانت بين ابن الرومى والأخفش ، أستاذ أبى الفرج ، ويعلله آخر بأن ابن الرومى كان شيعيا ، وأبا الفرج كان أمويا ، وقال آخرون : إن روح السخط على ابن الرومى كانت لا تزال متأججة اللهب ، ولأهاجيه ، فى رجالات الدولة ، وأعلله أنا بأن أبا الفرج لم يرتض مذهب ابن الرومى فى الشعر ، ونهجه فى نظم القريض[٢].

والسبب الأخير أقرب الأسباب إصابة لإهمال الأغانى لشاعرنا ، لأن ابن الرومى فى مذهبه الشعرى ، كان على غير مذاهب العرب فى شعرهم ، ولذلك لم يقدره النقاد فى عصره قدره ، ولم يفطنوا لروعة التصوير فى شعره ، فاهملوا شخصه وشعره ، وكان ابن الرومى يحس ذلك فيقول :

---

(١) الاغانى : أبو الفرج الاصفهانى ج ٦ ص ١٧٩ ، ١٨٠ تصحيح أحمد الشنقيطى مطبعة التقدم.

(٢) ابن المعتز وتراثه فى الادب والنقد والبيان : د . محمد عبد المنعم خفاجى ص ٤٣٩ وفصول فى الادب والنقد : د . محمد عبد المنعم خفاجى ٨٨ الطبعة الاولى ١٣٣ م

ورجال تغلبـــوا بزمان أنا فيـــه وفيهم ذو اغتراب (١)

ويقـــول :

شعرى إذا تأمله الإنسان ذو الفهم والحجا عبـــده (٢)

وهذا الدليل مع الرأى السابق الذى استدللنا به يؤيد ما اتجهنا إليه من الاسباب فى هذا الإهمال ، إذ يقول الباحث نفسه بعد ما سبق ذكره ، لأن القاضى الجرجانى يقول عنه فى وساطته ، وقد تجد كثيراً ينتحل تفضيل ابن الرومى ، ويغلو فى تقديمه ونحن نقرأ القصيدة الواحدة من شعره ، وهى تناهز المائة ، أو تزيد فلا تعثر فيها إلا بالبيت الذى يروق أو البيتين ، ثم قد تنسلخ قصائد منه ، وهى واقفة تحت ظلها جارية على رسلها ، لايحصل منها السامع إلا على عدد القوافى ، وانتظار الفراغ منها (٣) ، وكأن ابن الرومى أحس بأن من زايله النحس فى حياته ، ليس ببعيد عليه ألا يغدر به بعد مماته ، فأنطق شعره بلسان حاله وترك صوره الأدبية تروى ظمأنا من أخباره وأحواله ، وإن كانت غير كافية فى زيادة معرفتنا به .

لذلك كثر فى شعره — من بعده — التحليل والتعليل ، والتخمين والتغليب ، والتعلق بأضعف الأسباب وأوهنها ، لتكون عدة الباحث فى دراسته .

ولعل العقاد فى نظرى يعد رائد هذه الدراسة فى الكشف عن أخبار (ابن الرومى وحياته من شعره) ، وكان ذلك عنوان كتابه الذى ألفه عن ابن الرومى .

ودورنا فى هذا الفصل ، ليس دور المترجم لحياة الشاعر ، ولا المستقصى لجميع الأخبار عنه ، فهذا ليس عمدة بحثنا ، اللهم إلا إن جاءت أخباره وحياته من خلال تصويره الأدبى وفى ذلك غناء كثير ، لأن ابن الرومى ، أوشك أن يملك عليه التصوير الشعرى كل شىء فى نفسه ، ويسد عليه كل باب فى مجال الحديث والكلام ، ولذلك اقترنت شاعريته بالتصوير على وجه التقريب ، فكان هو الشاعر الملهم والمصور .

---

(١) الديوان المصور ج ١ ص ١٩٤ .

(٢) الديوان المصور ج ٢ ص ٥٠ .

(٣) ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان : د . محمد عبد المنعم خفاجى ص ٤٣٩ وفصول فى الأدب والنقد . د . محمد عبد المنعم خفاجى ص ٨٨ الطبعة الأولى ٣٧٣ م .

على أنى لن أتقيد بكل صورة تكشف لنا عن الشاعر هنا ، فتراني أشبه بالمترجم الذى يعتمد حشد الترجمة فى مكان واحد متصل ، ولكن هناك صورا تكشف عن زوايا من حياة الشاعر ، اعتمدت عليها فصول أخرى ، ووجدت مكانها المناسب والضرورى فيها ، كما حدث ذلك فى الكلام عن مولده ، وأصله ، فأطمأنت الصور فى موضعها متآخية مع سائر الصور والأفكار ، يشد بعضها بعضاً .

أمه :

سبق أن ذكرنا مولد الشاعر ، والصور التى تكشف لنا عن جنسه وأصله وعن نسب أبيه وأمه ، ولكن أم الشاعر لم تكن كأبيه الذى فارق الحياة على عجل ، بعد أن أسس لابنه بيت الشرف حيث يقول : —

شاد لى السور بعد توطئة الأس أب قال : أنت للشرف[1]

ولازمته أمه بعد أن اطمأن إليه الشيب ، وسرت فى عودة خطى الضعف والكهولة وأسرعت هذه الخطى ، عندما جزع فى أمه بموتها جزعاً تنكر فيه بصره ، لكل المناظر والمشاهد فى الحياة ، وكأن الحياة لبست ثوب الحداد من أجلها ، فأصمت سمعه عن سماع الأصوات والانغام التى تحولت فى أذنيه إلى نشيج ، وبكاء حزين ، وكيف لا يغدر به الامل والمنى وقد غدرت به أمه منذ أن انقطعت عنه بالموت ، فانقطع معها حبل الوصال بينه وبين خلانه ، وخلت الدار من كل أنيس إلا من مجلس أمه ، بعد أن اختفت عنه ، وموطن حركتها ، الذى ملأ نفسه بالوحشة فيقول :

نبا ناظرى يا أم عن كل منظر وسمعى عن الأصوات بعدك والنغم
وأصبحت الآمال مذبنت والمنى عوادر عندى غير وافية الذمم
وصارمت خلانى وهم يصلوننى وقد كنت وصال الخليل وأن صرم[2]
وآنسنى فقد الجليس واوحشت مشاهده نفسى ولم أدر ما اجترم

خالته :

وكانت لأمه أخت ، هى بمنزلة أمه عنده ، فكلتاهما جناحان له ، يحلق بهما حراً

---

(١) المخطوط ورقة ٢٩٨ جـ٤

(٢) المخطوط ورقه ٢٦٠ جـ ٤

طليقا كيف شاء ، وبعد موت خالته ، مضى فى حياته ، وآوى إلى بيته بجناح واحد يقول :

أليست الدنيا بدار صلاح   بعينيك صرعاها مساء صباح
أرانى وأمى بعد فقدان أختها   وإن كنت فى دفة بها وصلاح
كفرخ قطاة الدوبان جناحه   فباء إلى حصن بفرد جناح(١)

وهذه الصورة تدل على أن كلتيهما سواء عنده ، وأن خالته ماتت قبل أمه ، ولعطفهما الشامل عليه ، فقد أصبح كالطائر السجين لفقد جناحيه ، وما أروع التعبير بهذه الكلمات فكل كلمة لوحدها صورة معبرة عن حزن الشاعر وشدة ألمه وهى (بان ـ فباء ـ حصن) .

اخوه :

وبعد موت أمه لم يبق له من أهله سوى أخ له يسمى « محمدا » ويكنى بأبى جعفر ، والراجح أن الشاعر ليس له أخ غيره ، وكان يعد محمدا ولدا وورد فى ديوانه ما يشير إلى أخيه ، « وكان يكتب » يعنى محمدا « لرجل فعزل بعد مدة ، فعبث به آل أبى شيخ أصدقاؤه وقالوا : عزلك شؤمك وكان بين آل أبى شيخ وابن سعدان مؤدب المؤيد مودة ، فخرجوا إليه فى أيام المؤيد فأقاموا مدة وكان من المؤيد ما كان وتشتت أصحابه ، فكتب إليهم أبو جعفر يولع(٢) بهم ، ويقول : أنا شؤمى عزال ، وشؤمكم قتال ، وسيأتيكم فى هذا نظم على بن العباس(٣) ومن ذلك النظم قوله :

أنا شؤمى فيما تقولون عزا   ل ولكن شؤمكم قتال
. . . . الخ الخ(٤)

وكان محمد شقيقا للشاعر ومات بعد موت أمه كما يظهر فى رثائه له يقول : ـ

بأخ شقيق بعد أم برة   بالأمس قطع منهما أقرانه(٥)

وموت أخيه ملأ حياته بالحزن وغشى قلبه باللوعة والأسى ، وإن كانت الأيام تنسيه بعض آلامه وأحزانه ، لكن الذى يعزيه ويسليه حقاً ويطفىء حرارة الشوق لأخيه ، هو أن ما بين الشاعر وبين حافة القبر خطوات ، وهناك يجد الراحة ، والحياة الحقة ، بعد أن أظلمت فى وجه الدنيا يقول وهو يرثى أخاه :

---

(١) المخطوط ورقة ١٠٦ ج ١
(٢) يغرى بهم
(٣) يعنى به أخا الشاعر ابن الرومى
(٤) الديوان المخطوط ١٨٠ ، ١٨١ ج ٣
(٥) ابن الرومى : العقاد ص ٩١

وتسلبني الأيام لا أن لوعتى ولا حزن كالشىء ينسى فيعزب
ولكن كفانى مسلياً ومعزياً بأن المدى بينى وبينك يقرب(١)

وخيال شقيقه لا يفارقه أينما أقام أو تحرك ، لأن الحزن الذى أعقبه ملك عليه أمره وحينما أحس بالبرء من مرض ألم به ، ذكره موت أخيه بقسوة الدنيا عليه ، فازداد مرضا على ضعفه ، ولكن الله الرحيم استجاب دعاءه وقبل شكواه ، فعافاه منه وفك قيود البلاء عنه ، والأغلال التى أودت بجسمه ، وكان يعانى منها جهوداً لا يستطيع أحد حمل أثقاله ، وضاعف من هذا الألم المحسوس المجسم الذى يراه الناس ، ما هو أشد منه وهو الحزن العميق على أخيه ، الذى يعصر جسمه فى خفاء فأصبح شاحباً ناحلا سقيما ، يقول :

فيه عافانى الإله من الشكو وفك البلاء عنى كبوله
بعد جهد حملت منه ضروبا ليس أثقالهن بالمحمولة
ومصاب بمقلة النفس منى ضمن الجسم سقمه ونحوله(٢)

فالشاعر يسترحم الناس ويستعطفهم ، لأنه يحس بفراغ كبير بعد موت أخيه ، أيحسده الناس وقد ظل من بعده ظامئاً ، وهم من حوله قد ارتووا ، أم على أنه يمشى وحيداً حاسر القلب والفؤاد ، وهم حوله يتسارعون فى الحياة ركبانا ، أم على ثكل أخيه ، وجفوة الثراء له ، وهجرة الأوطان عنده حتى أصبح بدون أخيه حزيناً فقيراً غريباً ، يقول ابن الرومى عاتباً على ابن عمار العزيز :

ليت شعرى ماذا حسدت عليه أيها الظالم إخـــانى عيانا
على أنى ظمئت واغتدى كل من كان صادياً ريانا
أم على أننى أمشى حسيراً وأرى الناس كلهم ركبانا
أم على أنى ثكلت شقيقى وعدمت الثراء والأوطانا(٣)

زوجته :

زوجته وأم أولاده الثلاثة شيعت أبناءها إلى مقرهم الأخير ، وأبت أن تتركهم من غير رعاية وراع ، فذهبت عندهم هناك فيما وراء الحياة الدنيا ، فى الحيـــاة

---

(١) الديوان المخطوط ورقة ٣٥ ج١
(٢) الديوان المخطوط ورقة ٢٣٦ ج ٤
(٣) الديوان المصور الجزء الثالث :

وتركت أيام فى الحياة ولا حياة ، غربة ولا وطن ، ووحدة ولا أنيس ، وهناك يصرخ فى عينية بعد أن تصلبت وجمدت ، أن تهطلا بالدموع ، وكيف تغرق فيها والمصاب جلل ؟ والحزن بلغ مداه ، فشحهما بالعبرات ، وجمودهما عن الدموع ، أصدق فى الوفاء ، فقد كان البكاء منذ القدم دواء للأسى وسبيلا للبقاء والحياة ، أما الشاعر المكروب فقد جفف الأسى البكاء . فلا بكاء ولا دموع عنده ، ولا فائدة فى العيش بعد أن غاب الخليل عن عينيه ، والذي ينكر ذلك فهو كاذب غير مخلص لقرينه وغير صاف لحليلته :

عينى شحا ... ولا تسحا	جل مصابى عن البكاء
تركما الداء مستكنا	أصدق عن صحة الوفاء
أن الأسى والبكاء قدما	أمران كالداء والدواء
وما ابتغاء الدواء إلا	بغيا سبيل إلى البقاء
ومبتغى العيش بعد خل	كاذبه خله الصفاء[1]

ذكر العقاد « ولا تشحا » بالشين[2] وهذه لا تفيد المعنى السابق الذى وضحناه كما لا تفيد معنى زائدا عما قبلها ، ولكنها عندنا تفيد أن الشاعر من هول الكارثة أمر عينيه أن تشحا لشدة حزنه وإطباق الألم على نفسه ، وناداهما ألا يسحا لأن المصاب جلل وهذا هو المناسب للمعنى على أن غير العقاد ذكر الكلمتين بالسين[3] :

وقد تزوج الشاعر بعدها بأخرى ، وأنجبت له طفلا ، وبذلك اكتملت محارمه ستة ، واستنبط العقاد ذلك من قول ابن الرومى وهو يخاطب ممدوحه :

منعت الكفاف الذى لم تزل	تجود به كفك الموسعة
فان كنت مسلم ذى حرمة	لقول أعاديه : ما أضيعه
فعجله بالسيف كى يستر	يح إن كنت من مثله فى سعه
أتسلمنا للردى ستة	وقد كنت ترحمنا أربعة ؟[4]

أولاده :

فقد أولاده الثلاثة فى حياته وحياة أمهم[5] ، وألح المرض على إبنه الأوسط محمدا ،

---

(١) المخطوط ورقة ١٦ جـ ١ (٢) ابن الرومى العقاد ص ٩٧

(٣) ابن الرومى : مختارات كامل كيلانى (٤) المخطوط ورقة جـ ٣

(٥) هذا هو ما رجحه العقاد بناء على أن الشاعر من طبيعته الاستقصاء فى الموضوعات فلو ماتت زوجته قبل أولادها ، لاشار إلى ذلك فى رثائه لاولاده وهو لم يفعل ذلك .

فصور ذلك أروع تصوير ، حين خطفه الموت ، ولم يمهله حتى اتصل المهد باللحد ، والأيام لم تباعد بينهما فنسى عهد المهد ، وذلك بسبب المرض ، الذى أزف دمه ، فأحال غضاضة جسمه ، وتوردت بشرته إلى صفرة وشحوب ، بينما أياديهم لا تفتأ لحظة فى المحافظة عليه ، والرعاية له ، ونفس محمد — مع حرصهم الشديد عليه — تتساقط لحظة بعد لحظة ، فذوى عوده ، وتلاشى ظله ، وتآكل جسمه ، كما يتآكل القضيب من نار سرت فيه ، فى تتابع وإصرار وعناد ، وهم فى ذلك كمقياس درجة الحرارة يعلون ويهبطون ، وتنتابهم مرارة الألم والحزن ، المرة بعد المرة إشفاقا عليه ليكون عذابهم أشد وأنكى ، وحال نفسه التى تتساقط كحال القضيب المفرد الذى يتلاشى ، وليس معه آخر لتكون النار فيهما أبطأ وأخفى فى الفناء والعدم ، أنه لحته وسداه ، وفلذة كبده يتركه معذبا محطما منهارا .

لقد قل بين المهد واللحد لبثه ... فلم ينسى عهد المهد إذا ضم فى اللحد
ألح عليه النزف حتى أحاله ... إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد
وظل على الأيدى تساقط نفسه ... ويذوى كما يذوى القضيب من الرند(١)

ثم يحجبه الموت عن ناظريه فلا يرى إلا أخويه أمامه فيصبح الشاعر باسمه « محمد » إبنه الذى يعرفه بكل صفاته وأحواله ، وروحه ورائحته ، وينفلت صارخا باسمه من سجن الحزن الذى أطبق عليه ، وليس بعد موته شيء يسليه ، بل ازداد قلبه وجدا بما يتوهم البشر فى أخويه أنهما سلوة لأبيهما ، ثم يتوجه إلى ولديه قائلا : إنكما لن تكونا عزاء لى فى أخيكما فكأنه فى قلبى شاغر ، وكل منكما له مكانا يتربع عليه ، بل أنتما أشعلتما الجوى بين جوانحى أضعافا مضاعفة وأنتما تلعبان معاً فى ملعبه ، ولا تذكران أخاكما محمداً ، عن غير عناد منكما وقصد ، فتمتد ألسنة النار فى فؤادى ، فأزداد حرازة وشقاء بكا من بعد محمد ، فأنا وهو فى وحشة : لكنه هو فى وحشة القبر ، وأنا فى وحشة الفرد ، وإذا كنا جميعاً من جنس واحد ولا يفهم أحد غيرى وغيرك ما ألم بى ، فسلام ينزل عليك من الله برداً وسقياً ، ونسيما وطيباً ، ونوراً ورحمة يقول :

محمد ماشيء توهم سلوة ... لقلبى إلا زاد قلبى من الوجد
أرى أخويك الباقيين كليهما ... يكونا الأحزان أورى من الزند
إذا لعبا فى ملعب لك لذعا ... فؤادى بمثل النار عن غير ما قصد

(١) الديوان المخطوط ورقة ١٩٥ جـ ١

وأنت وإن أفردت فى دار وحشة فإنى بدار الأمس فى وحشة الفرد
عليك سلام الله منى تحية ومن كل غيث صادق البرق والرعد(١)

وصور لوعته وحزنه فى رثاء ابنه الثانى ، ونرى أن اسمه الحسن وهو أكبر أخواته وبه تكنى أبوه فقد اشتهر عنه كنية أبى الحسن ، ولم يذكر اسمه فى رثائه ، لأن الشاعر عرف به لدى الناس جميعاً ، وإذا عرف الأخوان الآخران ، وهما محمد وهبة الله ، عرف الثالث وهو الأكبر الذى تكنى به ابن الرومى يقول :

حماه الكرى هم سرى فتأوبا فبات يراعى النجم حتى تصوبا
أعينى جودا لى فقد جدت للثرى بأكثر مما تمنعان وأطيبا
بنى الذى أهديته للثرى فلله ما أقوى قناتى وأصلبا(٢)

إن شدة الحزن ، تذهب الدمع وتجفف المآقى ، وتجمد العين فيه عن الدموع ، فقد جفف محمد ما عند أبيه من دمع عندما أهدى أخاه الثانى للثرى فلم يبق فيه دموع ولا بكاء .

لهذا أرجح أن ابنه الثالث وهبة الله ، مات آخرهم لأن الصورة الادبية التى يرثى بها ابنه الحسن ، تبين أن الشاعر أصبح غريباً فى الحياة ، لا وطن له ، بل وطنه الحقيقى الملحق به ولده الأخيرة ، فليس فى نهار الشاعر أنيس ولا فى ليلة راحة ، وأن ذكراه لن تسلى القلب المرهون بلقاء أحبابه ، وأخيراً فإنه مما يقوى رأينا : أن الشاعر فى النهاية انبرى واعظاً حكيماً ، كما يحدث عادة من الكبار وقد نفضوا أيديهم من زينة الحياة ومتاعها قائلا : الأولاد فتنة فى الحياة ومحنة عند البلاء :

ما أصبحت دنياى لى وطنا بل حيث دارك عندى الوطن
ما فى النهار وإن فقدتك من أنس ولا فى الليل لى سكن
ولقد تسلى القلب ذكرتها إنى مبان لقاءك مرتهن
أولادنا أنتم لنا فتن وتفارقون ، فأنتم لنا محن(٣)

(٢)

علمه :

شعر ابن الرومى غنى بمادته المتنوعة ، فالرجل كان على علم بعلوم عصره ، ومعارف زمانه ، ولكن المؤرخين وأصحاب التراجم ، لم يخبرونا عن ذلك بشىء إلا شواذ لا تفسر

(١) الديوان المخطوط ورقة ٢٤٦ جـ ٤ (٢) الديوان المخطوط ورقة ٧٣ جـ ١
(٣) المخطوط ورقة ٣٧٧ جـ ٤

تعليم رجل من عامة الناس فى عصر الشاعر؟ أما ابن الرومى فهو الذى عرفنا بعلمه ، وعمق ثقافته ، وسعة اطلاعه ، عن طريق شعره المرآة الصافية ، وتصويره الدقيق الذى يشف عن درجته فى العلم والمعرفة ، فحينا يصور لنا الشاعر فى قوله :

إن للحظ كيمياء إذا ما مس كلبا أحاله إنسانا

نعرف أن للرجل حظاً لا بأس به من علم الكيمياء .

ونحس فى هجائه صاعد بن مخلد وابنه حين يقول .

وثنى بابنه السفيه المغنى بأساطير رسطا طاليس

والذى لم يصخ بأذنيه إلا نحو ذو ثوريوس أو واليس

عاقداً طرفه ببهرام أو كيوان أو هرمس أو البرجيس

أو بشمس النهار والبدر والزهرة عند التثليث والتسديس

واجتماعاتهن فى كل قيد وافتراقاتهن عن كل قيس[1]

نحس أن الشاعر واسع الاطلاع ، ملم بعلماء الرياضة والفلسفة ، فيذكر أسماءهم التى نقلها كما هى فى كتبهم المترجمة فى القرن الثالث أو قبله .

وحينما يصور لنا براعة اسماعيل بن بلبل فى الحكمة والكتابة والشجاعة يقول :

وافى عطارد والمريخ مولده فأعطياه من الحظين ما اقترحا[2]

لأن عطارد كان إله الحكمة والكتابة والمريخ إله الحرب والشجاعة فى فلسفة الفرس وحكمتهم التى ألم بها ابن الرومى :

وإذا صور خالف المرثدى بما وعده من سمك قال :

أالحوت حوت الأرض أم حوت يونس لك الخير أم حوت السماء أروم

نظهر فى هذه الصورة الأدبية معرفته بالأساطير القديمة ، وعلم الفلك الحديث والقديم ، فحوت الأرض هو الثور الذى يحمل الأرض على قرنه كما اعتقد العلماء ذلك وحوت يونس هو الذى ابتلعه كما فى القرآن الكريم ، وحوت السماء هو أحد الأبراج المعروفة فى السماء عند علماء الفلك[3] .

وأما اهتمامه بالفلسفة ، فمن حسن حظنا أن المعرى الشاعر ذكر لنا خبراً عن إطلاعه عليها ليطابق الخبر الأثر فى رسالة الغفران يقول أبو العلاء : « أما ابن الرومى فهو أحد

(١) الديوان المصور ٢٩٤ جـ ٢

(٢) ابن الرومى : العقاد ص ٢٠١

(٣) ابن الرومى العقاد ١٠٢

من يقال : إن أدبه أكثر من عقله وكان يتعاطى علم الفلسفة ، واستعار من أبى بكر السراج كتاباً فتقاضاه به فقال ابن الرومى :

لو كان المشترى حدثاً لكان عجولا .

ويقول المسعودى فى مروج الذهب : « وكان أقل أدواته الشعر[1] » .

هذا هو الخبر ، أما الأثر فهو على اتساع ديوانه يبدو فى استقصائه المعنى والتمطيط فيه والاختراع والتوليد ، وغيره مما اشتهر عنه نتيجة التأثر بالفلسفة وعلوم الحكمة والمنطق والكلام .

ومن الصور التى تكشف لنا عن فلسفته قوله فى فضل الصبر وسبق أن ذكرته ومطلعه :

أرى الصبر محموداً وعنه مذاهبه   فكيف إذا لم يكن عنه مذهب[2]

ويعطينا صورة صادقة عن نفسه ، ومبلغ عرفانه ، ليدل على قدرته الفائقة فى تحليل نفسه ، وتأثره العميق بالفلسفة ، التى انتشرت آنذاك ، فقد أخذ ذلك من فلسفة الفرس ، التى تقول بوجود الطبيعتين ، الخير والشر فى الإنسان ، لأنه خلق من طينة الأرض وروح السماء وفى الطين التربة الصالحة والفاسدة فهو يحفظ للإخوان الود ، وللأعداء البغض ولم يبق للمتفلسفين من بعده قوله :

شكرى عتيد   وكذاك حقدى
للخير والشر   بقاء عندى
كالأرض مهما   استودعت تؤدى
وأين عن   طينتنا تعدى
احفظ الأعداء   والأود
ما استودعوا من   بغض وود
ماذا يقول   القائلون بعدى[3]

والطفل يستهل الدنيا الواسعة الرحبة الرخية بالصراخ ، بعد انعتاقه من الضيق والظلمات والذى ابكاه ما ابصره الطفل من الظلم واختلاف الحدثان فيها فكأنه يشهد بعين الحقيقة ما لا تراه عيون الناس ، إنها صورة أدبية أساسها التحليل والتعليل الذى انسحب عليها من هيامة بالفلسفة كما سبق[4] .

---

(١) ج ٣ ٢٨٣   (٢) المخطوط ٦٦ ج ١

(٣) المخطوط ٢٢٨ ج ٢   (٤) المخطوط ١٧٧ ج ١

وابن الرومى ينفر من الباطل الذى أفسد التفكير ، وأوهم العقل بحبالاته التى لا تعتمد على دليل ولا تقوم على برهان أفلا يكون عالما بالمنطق ، وعلم الكلام ؟ يقول :

يا باطلا أوهمتنيه مخايله بلا دليل ولا تثبيت برهان(١)

وعلم الجدل عنده وهو معتزلى ، يتخذ سبلا كثيرة للاقناع : منها تحطيم الجادل وإيهامه ببطلان كلامه ، وضعف برهانه فأهل الجدل حججهم باطلة جائرة ومنها — وهو أقوى ما يملكه الشاعر — الإقناع بالمشاهدة والصور والواقع فبرهانهم كآنية الزجاج ، إذا اصطدمت تحطمت ، والكاسر هو مكسور بظلمه والقاتل مقتول بجنايته ، والآسر مأسور بجرمه ، يقول :

لذوى الجدال إذا غدوا لجدالهم حجج تضل عن الهوى وتجور(٢)
وهن كآنية الزجاج تصادمت فهوت وكل كاسر مكسور
فالقاتل المقتول ثم لضعفه ولوهيه والآسر المأسور

وقياسه المعروف فى تفضيل النرجس على الورد ، فى صورة مبتكرة من أروع الصور ، فالورد خجل من تفضيل النرجس عليـه ، والنرجس مبتسم ، والورد صفة وهى لون ، والنرجس اسم ، وهو ذات ولون وريحان ، وعين النرجس أفضل من خد الورد ، وسبق ذكر هذه الصورة الشعرية(٣) .

والعصر عصر الغناء والطرب والرقص والموسيقى وقد تخصص رجال فى ذلك احتلوا مكان الشعراء فى مجالس الخلفاء والأمراء واشتهروا بتأليفهم عنها، وسبق أن نقلنا ما ذكره المسعودى فى مروج الذهب عن إجابة أحد الندماء على سؤال الخليفة المعتمد (٢٧٩ هـ) فى الرقص وأنواعه ونختار من النص قوله ، فجملة الإيقاع فى الرقص ثمانية أجناس .. الخ والرقاص يحتاج إلى أشياء فى طباعة وأشياء فى خلقته وأشياء فى عمله فأما ما يحتاج إليه فى طباعه فخفة الروح وحسن الطبع على الايقاع .. الخ الخ . مما ذكرته فى بواعث الصورة .

وابن الرومى فى تصويره الادبى قد ألم بطرف من هذا الفن الحديث وآلات الموسيقى شتى وعديدة منها :

كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران(٤)

ولعل سائلا يقول : إن عامة الشعب تعرف ذلك لاشتهار هذه الفنون فى العصر ، فإن

---

(١) المخطط ٣٦٨ جـ ٤
(٢) المخطوط ٣٠٩ جـ ٢
(٣) المخطوط ٢٠٢ جـ ١
(٤) المخطوط ٣٣٧ جـ ٤

كان كذلك فليس لديهم القدرة التى بها يذيبون معرفتهم بالفن فى تصويرهم الشعرى ، كما صور شاعرنا الغناء والموسيقى والرقص فى بيت واحد سيأتى ، وتعد هذه الصورة نموذجاً رائعاً يدل على مقدار تحصيله من فن الطرب ، وابن الرومى يصور وحيد المغنية ، وقد انهمرت أناملها فى الأوتار لينساب النغم ، متعانقا مع صوتها الحنون العذب ، وقد اتخذت كل نبرة من صوتها ونغمة من عودها ، شكل نتف منفوشة من الحرير ، وانسجمت ألوانه الزاهية ، وسرى هذا النغم المؤتلف فى موجات متتابعة لتداعب أطراف ثيابها ، كما تهتز لها صماخ آذان الولهى المشدوهين ، يقول المصور البارع الموسيقى الفنان :

فيه وشى وفيه حلى من النغم مصوغ يختال فيه القصيد(١)

وأما علوم العربية والإسلام فقد أجاد ابن الرومى شعرها ونثرها .

ألم تجدونى آل وهب لمدحكم بشعرى ونثرى أخطلا ثم جاحظا(٢)

وسبق أن ذكرت ما يجيده الشاعر من العلوم العربية فى نص من همزيته للقاسم ، فالرجل فيها حكيم وشاعر وخطيب وكاتب الرسائل البليغة .

معرفته باللغة :

وله باع طويل فى غريب اللغة ، ولشعوره بأنه غير خالص العروبة ، أراد أن يثبت قدرته البالغة ، وملكته الحافظة ، فى غريب اللغة العربية ، يقـــول فى تصوير الأسد ومرادفاته :

ليأمن سقاطى فى الخطوب ونبوتى جنان الذى يخشى على ويحذر
فما أسد جهم المحيا شتيمه(٣) خبعثنة ورد السبال غضنفر
يسمى بأسماء فمنهن ضيغم ومنهن ضرغام ومنهن قسور
له جنه لا تستعار وشكة هو الدهر فى هذى وهذى مكفر
أهاب كتجفاف(٤) الكمى حصانة وعوج كأطراف الشباحين يغفر(٥)

والأسد والغضنفر والضيغم والضرغام وقسور كلها بمعنى واحد ثم الغريب من الألفاظ مثل (جهم وشتيمه وخبعثنه) وهى صفة من صفات الأسد (وشكة وتجفاف ويغفر) وغيرهما .

وكان يلحق القصيدة التى يبعث بها إلى عدوحيه بتفسير الغريب فيها ، ويعتذر عن ذلك

(١) المخطوط ٢٥٧ ج ٢ (٢) المخطوط ٤٣ ج ٢ (٣) شتيمة : كريهة
(٤) تجفاف : درع (٥) المخطوط ورقة ٣٦٤ ج ٢

أحياناً ويقول :

لغيرك لا لك التفسير أنى ... يفسر لابن بجدتها الغريب(١)

القوافى :

وإذا أطال الشاعر القافية ، وتلك شيمته فى القريض ، فإنه يصور اعتذاره لمخاطبه عن طول القصيدة ويشفعه بحسن التعليل ، وروعة التصوير يقول وهو يعتذر لأبى القاسم الشطرنجى فى عتابه الطويل :

ولك العذر مثل قافيتى فيك اتساعا فأنها كالفضاء
وتأمل فأنها ألف المد لها مدة بغير انتهاء(٢)

ويعتذر فى قصيدة المهرجان التى يهنىء فيها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر .

هاكها ـ لا أقول ذاك مدلا ... قول ذى نخوة بها وامتنان
بين أثنائها مديح نفيس ... من لبوس الملوك والفرسان
إن تكن سهلة القوافى فليست ... فى المعانى بسهلة الوجدان
فابتذلها فى يوم لهوك واعلم ... أنها بعد من ثياب الصيان
وابسط العذر فى ارتخاص القوافى ... واتباعى سهولة الأوزان(٣)

فهى كالعقد يتوسطها درنفيسة لايلبسها إلا الملوك ، ولا يتقلدها إلا الفرسان الشجعان ، خقافيتها تنساب كالماء فى عذوبة وسهولة ، ومعانيها قوية عميقة فى الفكر والوجدان ، بما سيمنحها الشهرة والذيوع وتغمر عبيد الله بالرعاية والحفظ ، فينسى ملل القوافى الممتدة وركوب الأوزان الخفيفة .

مذهبه فى العقيدة :

شب الشاعر يافعا متفتحا ، واستوى عقله وفكره ، ولانت له القوافى فى عصر قد استقرت فيه مذاهب فى العقيدة ، تختلف من حيث درجة القوة والضعف والصحة والخطأ ، وتميز الاتجاهات واختلاطها ، واستقام لكل مذهب أصحابه من معتزله وقدريه وأهل سنة وأشاعرة وجبرية ومذاهب منقولة عن الأعاجم من مثنوية وخلافها .

وابن الرومى وهو شاعر الفكرة ومعشوق للمعانى ، ومأخوذ التعليل والتدليل والتحليل ، والاستقصاء فى عناصر التصوير والتنسيق ، ليس غريباً عليه أن يختار من مذاهب العقيدة مذهب أهل العقل والتفكير ، وهو مذهب المعتزلة ، فهو معتزلى متعصب فى إعتزاله .

(١) المخطوط ٨٤ جـ ١ (٢) المخطوط ٩ جـ ١ (٣) المخطوط ٣٧٧ جـ ٤

أأرفض الاعتزال رأيا كلا . . لأنى به ضنين(١)

وهو يميل لأهل القدر منها الذين ينزهون الله عن تعذيب المضطر فى صدور الفعل منه ، وإنما يعاقب العبد المختار فى فعله ، ويصور الشاعر مذهبه الذى يصل بين المتباعدين كصلة الرحم فإن لم يكن بينه وبين العباس بن القاشى قرابة فالدين هو الذى يصل بينهما ومذهبهما فى العقيدة هو الذى يجمعهما وهو « العدل والتوحيد » لأنه يحترم صلة الرحم ، ولا يقطع حبالها كائتلاف المعانى ، وانسجام الأفكار وتلاحم الصور ، ولا يشبه المذاهب التى تنبنى على التثنيه ، والفرقة والجحود والنكران ، لهذا يصور ابن الرومى مذهبه فيقول :

إن لا يكن بيننا قربى فآصرة ... للدين يقطع فيها الوالد الولدا
مقالة العدل والتوحيد يجمعنا ... دون المضاهين من ثنى ومن جحدا(٢)

ويقول مصورا اختيار العبد فيما يثاب ويعاقب عليه :

الخير مصنوع بصانعه ... فتى صنعت الخير أعقبكا
والشر مفعول بفاعله ... فمتى فعلت الشر أعطبكا(٣)

أما الرزق عنده فليس بالنبوغ والعبقرية ، ولا بالجد والاجتهاد ، والتعب والسهر ، ولكنه مقدر ومحسوب ، فهو كالكيمياء يجعل الكلب إنساناً والحظ أعمى حاق بالبحترى ولا عقل ولا أدب .

الرزق آت بلا مطالبة ... سيان مدفوعة ومجتذبه(٤)

مذهبه الحزبى :

أما الحزبية الشيعية التى أذهبت بملك بنى أمية ، وأقامت دولة لغيرها ، إلا أن سياسة العباسيين حفاظا على ملكهم ، ظلوا يحاربون الشيعة ، ويشبون لهيب الحزبية بقسوتهم على آل البيت الطالبين وقد زاد من حرارة الثورة وزاره هذه الدولة من الفرس ، التى كانت تبطن هذا المذهب حباً له وتظهر خلافه طمعاً فى المنصب والجاه ، حتى يستقيم لها الحكم ، كبعض حكام الأسرة الطاهريه مثلاً وفى هذا الإتجاه عندهم إعتراف بالجميل لأصلهم وحضارتهم ومثنويتهم ، فهم فى كفرهم كانوا يؤمنون بالمثنوية والزرادشتيه والتفرقة والوثنية ، فكيف لا يثبتون حضارتهم القديمة ليصبحوا جديرين بالحكم فى دولة الحضارة ، وهم يشعرون فيها أنها دولتهم وهم أولى بها من العرب ، يقول ابن الأثير فى تاريخه « إن سليمان بن عبد الله

(١) الديوان المخطوط ٣٨٢ جـ ٤
(٢) المخطوط ١٨٩ جـ ١
(٣) المخطوط ١٦٢ جـ ٣
(٤) المخطوط ١٠٥ جـ ١

ابن طاهر انهزم إختياراً فى حرب الحسن بن زيد العلوى الذى ثار بعد مقتل يحيى بن عمر ؛ لان الطاهرية كلها كانت تتشيع » .

وقد أيد العقاد ذلك لأن التشيع كان يوافق هواهم ، ويجدد ملك فارس[1] ، وابن الرومى قد اختلط دمه بدماء غير عربية ، فلا عجب أن يكون للمذهب الشيعى أميل ، وأن يدافع عنه أعداءه ويمالىء أصحابه وهذا أمر .

وأمر ثان : دفع الشاعر إلى هذا المذهب وهو شعوره بالغربة فى وطن لم يقدره قدره ، ولم يعطه حقه ، فمنعوه وحاربوه وطاردوه حتى انطوى على نفسه وتطير ، كانطواء مذهبه الشيعى وغربته فى دولة بنى العباس التى تتعقبهم وتقضى عليهم الواحد بعد الآخر ، كلما أطل برأسه زعيم منهم ليرد نصاب الحكم إلى أهله وذويه ، من بنى على بن أبى طالب ، ومن هنا أحبهم ابن الرومى وائتلف طيره مع طيرهم الذى يطير سارياً فى الضباب والعتمة والظلام كلوائهم الأسود .

وأمر ثالث : هو أن الخلفاء فى دولة العباسيين لم يتقربوا إلى ابن الرومى ، إلا فى النادر كالمعتضد ، وأن تقرب هو إليهم كان حظه ما تركته طير البحترى التى تعود بطاناً ، ويتردى طير الشاعر خماصا .

ولعل انتقال الخلافة عن بغداد وشؤم الشاعر من الأسفار ، هو الذى باعد بينه وبينهم فاطمأن إلى بغداد ، وإلى أهل الحكم فيها من عملاء الدولة الفارسيين ، فكان مذهبه الشيعى يلتقى مع مذهب بعض الولاة والوزراء من الفرس فى بغداد ، وهم بنجوة عن عاصمة الخلافة بعد أن انتقلت عاصمة الشيعة عن فارس إلى بغداد فكان كلا الحزبين طرفى نقيض إذا استقر أحدهما هنا ، اطمأن الثانى هناك ليحقق كل بغيته ، ويملى ارادته .

وأمر رابع : هو أن هوى أبوية ، يسير مع الشيعة ، لأن أمه من أصل فارسى والفرس أنصار المذهب وحماته ، وأما أبوه فقد سمى الشاعر عليا وهو اسم كان يأباه المخلصون لخلفاء بنى العباس ، وقد ذكر العقاد ذلك لأن أبا الشاعر كان مولى لأحد أبناء الأسرة العباسية ولكنه أقصى عن الخلافة والحكم لذلك كان يكرم الشيعة ويعطف عليها ، ووصل الامر الى أن بعض الخلفاء كان يكرمهم ، كالمعتضد الذى أحبه الشاعر وأغدق عليه مدحه[2] .

---

(١) ابن الرومى حياته من شعره : العقاد

(٢) ابن الرومى العقاد ٢١٩

ويؤيد هذا قول أبي العلاء المعري عن مذهب الشاعر في رسالة الغفران وهو « أن البغداديين يدعون أنه متشيع ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيمية ، وما أراه إلا على مذهب غيره من الشعراء[1] .

ويكفي في الرد على المعري ما سبق من أدلة على أنه متشيع متعصب ، لا أن الشاعر في تشيعه على مذهب غيره من الشعراء الذين ينظمون الشعر من أجل الهبات والعطايا لا اعتقاداً وتفانياً في مذهبهم .

وإن جيميته المشهورة القوية لتصور مذهبه الشيعي أروع تصوير ، ونكتفي منها بصورة واحدة ، وهي صورة الثراء والنعيم ، الذي يثقل بني العباس ، مع الهزال والضعف والضوى ، الذي يودي ويقضي على بني علي بن أبي طالب يقول :

أفي الحق أن يمسوا خماصا وأنتم ... يكاد أخوكم بطنة يتبعج

وتمشون مختالين في حجراتكم ... ثقال الخطى أكما لكم تترجرج

وليدهم بادي الضوى ووليدكم ... من الريف ريان العظام خدلج[2]

ايمانه ودينه :

وأما إيمان الرجل ، وصلته بربه ، وطاعته فيما أمر ونهى ، واتباع شريعته فهو إيمان على حرف ، وعقيدة رجل ظن أن في ظلم الحياة له غمطاً لحقه ، وقسوة من الدنيا عليه وكيدا له ، وإزهاقا لروحه ، وترصداً به . لذلك ضعف إيمانه بربه ، وتسليمه لأمره ، واستثقل طاعاته وأوامره ، فهو مهزوز العقيدة ، مضطرب الدين تمكن الشيطان منه ، حتى تطير وتشاءم من مواقع الخير والفأل الحسن ، ومنابع الرحمة به ، والفضل عليه ، فهو يكذب إذا ما اضطر إلى الكذب .

وإني لذو حلف كاذب ... إذا ما اضطررت وفي الأمر ضيق

وهل من جناح على مرهق ... يدافع بالله مالا يطيق[3]

ويكره شهر الصيام ، شهر الخير والبركات :

شهر الصيام مبارك لكنما ... جعلت لنا بركاته في طواله

شهر يصد المرء عن مشروبه ... عما يحل له وعن مأكوله

---

(١) رسالة الغفران : أبو العلاء المعري تحقيق : كيلاني

(٢) المخطوط ١٤٠ ج ١

(٣) المخطوط ١٠٦ ج ١

لا أستثيب على قبول صيامة   حتى تصرمه ثواب قبوله[1]

ويسب دهره وزمانه الذى بخسه حقه، ولو كان على دين لمــا سبه لقول الله فى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا تسبوا الدهر فأنا الدهر » يصور ذلك قوله :

بخسونى كبخس دهرى حقوقى   واستعدوا على كاستعداده[2]

ويستحل الحرام ويحتج لحله باطلا ، فالنبيذ شراب حلال عنه :

أحل العراقى النبيذ وشربه   وقال الحرامان المدامة والسكر

وقال الحجازى الشرابان واحد   فحلت لنا بين اختلافهما الخمر

سآخذ من قوليهما طرفيهما   وأشربها لا فارق الوازر الوزر[3]

وأما سبحاته النادرة مع الزاهدين فلم تبق معه إلا ساعة أن ينظم ، فإذا ما فرغ عاد كما كان ، شأن المعربدين ، الذين يفيقون لحظات عندما يشعرون بخطئهم ، ثم يجرفهم تيار طبيعتهم الطاغية هو كذلك عندما يصور لنا الزاهد فى قوله :

بات يدعو الواحد الصمدا   فى ظلام الليــل منفرداً

وقد جفت عيناه غمضهما   والحلى القلب قد رقــدا

فى حشــاه من مخافته   حرقــات تلذع الكبدا

لو تراه وهو منتصب   مشعر أجفـــانه السهـــدا

كلمــا مر الوعيـــد به   سح دمع العين فاطردا

ووهت أركانه جـزعا   وارتقت أنفاسه صعدا[4]

وإحساسه بتقصيره فى طاعات ربه ، وزعزعة إيمانه ، جعله يفزع وهو على فراش الموت ، ويصور لقاءه بربه لقاء مرعبا فهو الهول ودونه كل هول :

غــداً ينقطع الهــول   ويأتى الويـــل والعــول

إلا أن لقــاء الله   هـــول دونه الهول[5]

(٥)

صفاته وطباعه :

وشعر ابن الرومى وتصويره الدقيق لذاته وصفاتها ونفسه وأغوارها ، ليس غريبا على مثله فهو قد انطوى على نفسه ، وكره الناس واحتجب عنهم فى بيته أياما وليالى ، فأصبح

(١) المخطوط ٢٣٦ ج ٤ (٢) المخطوط ورقة ج ٢ (٣) الديوان ورقة ٣٠٥ ج ٢
(٤) الديوان المصور ورقة ٢٦٣ ج ٢ (٥) الديوان المخطوط ج ٤

وحيداً ، تؤانس نفسه غربته فأنس بها وآنست به لذا أحبها وعشقها وعند ذلك تعرف عليها كل المعرفة فبلغ الغاية فى وصف ظواهرها وغاص فى أعماقها فاستكشف منها كل غامض ودفين ، وسر مكنون .

ولا يصح أن نبالغ كثيراً ، فى أن صفات الرجل وأخلاقه تحتاج من الباحثين إلى التعمق فى دراسة علوم الفلسفة والنفس والاجتماع ، لتكشف عن صفات النفس وأخلاقها كما يدعى البعض(١) وبأن العقاد هو ابن بجدتها ، الذى ابتكر هذا اللون عند ابن الرومى ، فتعرف على صفات ابن الرومى وأخلاقه ، ولكنى أرجع وأرد ابتكار العقاد فى ذلك إلى أنه أول كاتب عن ابن الرومى فى العصر الحديث ، لا أنه هو وحده يستطيع ذلك ولا أنه هو رائد من يطبق هذه العلوم فى النقد الأدبى وتفسيره ، ولو سبق البعض أو غيره إلى ذلك لقلوب ما وصل إليه العقاد إن لم يساوه أو يسبقه وبلغ الغلو من أحدهم أن بالغ مبالغة شديدة فى هذه الدراسة النفسية وخصص لذلك كتابا ضخما وجعل الهدف من كتابه هو التشريح والطب وعلم النفس(٢)

وحينما يصور ابن الرومى شبابه قائلا :

وظلم الليالى أنهن أشبننى لعشرين يحدوهن حول مجرم(٣)

نعلم أن الشاعر شيبته الأحداث وتقلبات الزمن فى سن العشرين كما يحدث عادة لبعض شباب اليوم الذى ضاقت به سبل العصر .

الأمر لا يحتاج إلى هذه الحالة من التهيج والإنبهار حول ما وصل اليه كاتب وحسبه عندى أن له فضل السبق والتنبيه .

فإذا قال الشاعر :

سلبت سواد العارضين وقبله بياضهما المحمود إذ أنا أمرد
وبدلت من ذاك البياض وحسنه بياضا ذميما لا يزال يسود(٤)

إنما كان يصور لنا سواد شعره أثناء شبابه ، وغضاضة جسمه ، وصفاء بشرته ، وبياض لونها ، فقد كان فتى أمردا محبوبا ، يأسر الغانيات ويسبي المفتونات ، فتغمزه بأطرافهن إعجابا ، وتميل نحوه مسحورة مبهورة يقول :

---

(١) كالمازنى — ود محمد النويهى : (٢) محمد النويهى فى كتابه ثقافة الناقد الأدبى
(٣) الديوان المخطوط ورقة ٢٤٢ ج ٤ (٤) المخطوطه ١٧٧ ج ١

طرفت عيون الغانيات وربما أمالت إلى الطرف كل مميل[١]

ويصور ابن الرومى صغر رأسه وهى عنده علامة الذكاء ، أما الكبر والضخامة فهو دليل الشؤم والغباء فرأسه مثل رأس الحية .

إذ تنقصتنى بصملكة الرأ س سفاها واذمت غير ذميم
ما تعديت أن وصفت خشاشا لوذعيا كالحية المشئوم
وقديما ما جرب الناس قبلى ثقل الهام فى الخفاف الحلوم[٢]

ويصور نحالة جسمه وهزال عوده ، فهو خفيف دقيق كالحية الرقشاء .

أنا من خف واستدق فما يثقل أرضا ولا يسد فضاء
أنا ليث الليوث وإن كنت بجسمى ضئيلة رقشاء[٣]

وأصبح مقوس الظهر منعطف القوام فى قوله :

وأضحت قناة الظهر قوس متنها وقد كان معدولا وأن عشت نخحا[٤]

وقوله فى هذه الصورة :

أرى قوامى لج فى تقويسة ولقد يلج اللين فى تعطيفه[٥]

ويصور غزارة لحيته فى قوله :

ولم أزل سبط الأخلاق واسعها وإن غدوت امرأ فى لحيتى كشث[٦]

وإن كانت قصيرة لأنه يذم أصحاب اللحى الطويلة ويسميها أذنابا وخالى :

ولحية سائلة منصبة شهباء تحكى ذنب المذبة[٧]

ويقول :

فاتق الله ذا الجلال وغير منكرا فيك ممكن التغيير
أو فقصر منها لحسبك منها نصف شبر علامة التذكير
لو رأى مثلها النبي لأجرى فى لحى الناس سنة التقصير[٨]

وبارك الله له فى بصره فالمناظر أمامه أصبحت غنية بأعدادها ، وفيرة بفرائدها بينما هى عند من هو مستقيم النظر صحيح البصر ، منظر واحد وفرد واحد والصورة هى التى تدل

---

(١) المخطوط ١٨٤ جـ ٣ (٢) المخطوط ٣٢٢ جـ ٤
(٣) المخطوط ١٢ جـ ١ (٤) المخطوط ١٧٢ جـ ١ (٥) المخطوط ٩٠ جـ ٣
(٦) المخطوط ١٢٧ جـ ١ (٧) المخطوط ٤٣ جـ ١ (٨) المخطوط ٢٨٠ جـ ١

أما عينه الأخرى فقد أصيبت بالعور[1] :

شغلت عنك بعوار أكابده لا بالملاهى ولا ماء المناقيد

أمسى وأصبح فى ظلماء من بصرى فما نهارى من ليلى بمحدود[1]

على ضعف بصره يقول :

وبورك طرف فالشخوص حياله فرائد من أدنى مدى وهى فرد[2]

قال مصطفى صادق الرافعى الأصح هى رواية « شورك » بدل « بورك » ، لأن المقام مقام تحسر وحزن ولا يعقل أن يتهكم الشاعر بنفسه هنا[3] .

ولكنى أرجح لفظ « بورك » ، لأننا سنعرف أن الشاعر سخر من كل شىء حتى من نفسه وستأتى الأمثلة على ذلك .

وأصبحت صورته بشعة ، فقد تتابعت عليه النقائص كالشيب والصلع الذى جعل صورته قبيحة يقول :

فان وجهى بقبح صورته مازال بى كالمشيب والصلع[4]

ولذلك غطى صلعته بالعمامة التى كانت هى نذير شؤم أيضا فأكلت ما بقى من شعره فأصبح الشاعر لا يتخلى عنها ويألفها يقول :

عزمت على لبس العمامة حيلة لتستر ما جرت على من الصلع[5]

وخارت قواه ، ودب فى عظامه الكلال ، ولازمته عصاه حتى أصبح كالمتأدبين فى خضوعهم وتلازمهم يقول :

ودب كلال فى عظامى أدبنى جنب العصا أنأد أو أتأود[6]

بل الجمع علة الضعف عليه والزوال فكأنه حين يمشى كالمرأة التى تغربل فتهوى بكتفها الأيمن بينما يرتفع كتفها الأيسر ، مع التلفت بوجهها من غير قصد يمنة ويسرة وهكذا ، ولكنه فى ضعف الشيوخ ، لا فى عجب النساء ودلعهن أثناء الغربلة يقول :

إن لى مشية أغربل فيها آمنا أن أساقط الآسفاطا[7]

---

(١) المخطوط ٩٦ ج ١ (٢) المخطوط ١٩٦ ج ١

(٣) المعرفة عدد يناير سنة ١٩٣٢ ص ١٠٧٩

(٤) الديوان المصور ج ٣ ، والديوان المخطوط ٩٦ ج ٣

(٥) الديوان المخطوط ٤٦ ج ٣ (٦) المخطوط ١٧٧ ج ١

(٧) الديوان المصور الجزء الثالث

وإن كنت لا أؤيد وجهة نظر أحد المحدثين (١) الذى يفسر غربلة الشاعر بالعجب والتبختر لكى يرد ابن الرومى على من يتهمه بالتخنث فى مشيته التى يترجرج فيها ، فيهتز المنكبان ، ويقبل بوجهه يمنة ويسرة ، فى تيه وعجب ، كالمرأة التى يترنح عطفاها على حركة الغربال مع التتابع فى حركة الوجه يميناً ويساراً ، فالغربلة عنده كناية عن القوة والعجب وليس كناية . عن الشيخ الضعيف الذى يعجن .

ولست معه فى هذا التفسير ، لأن كثرة الشواهد التى دلت على ضعفه تعيننا على تفسير هذا البيت ، فهو يدل على ضعفه وهزال جسمه ، ويؤيد ما نقول هذه الصورة التى يصور فيها الشاعر سقمه حين يشرب فى تتابع كئوس المرض والسقم، حتى أصبحت — لولا الموت — هى الموت والقضاء يقول :

أنا ذاك الذى سقته يد السقم كؤوساً من السقام رواء

ورأيت الحمام فى الصور الشنع فكانت لولا القضاء قضاء(٢)

وكانت له ضيعة جدباء لاتثمر ولا تطعم ،بل كثيراً ما عانى منها ، واشتكى جدبها وقد ابتليت كثيراً بالجراد ، الذى لم يبق على شىء منها يقول :

أعانى ضيعه مازلت منها   بحمد الله قدما فى عناء(٣)

ويقول :

لى زرع أتى عليه الجراد   عادنى مذ رزأته العواد

كنت أرجو حصاده فأتاه   قبل أن يبلغ الحصاد بالحصاد(٤)

ولجدب الضيعة فهى لا تقع عليها خراج ، لأن الشاعر طلب من وهب بن سليمان أن يعفيه من خراجها ، فالخطوب لم تبق شيئاً منها يقول :

سلبته الخطوب ما فى يديه   وله من تجمل أثواب

غير أن ليس فى خراجى وحدى   ما بأعلاقه يسوغ الشراب

لك فى مكثرى الرعية دونى   حلب شئت بل أحلاب(٥)

(١) مصطفى صادق الرافعى فى مجلة المعرفة عدد فبراير سنة ١٩٣٢ ص ١٢٠١

(٢) المخطوط ورقة ١٤ ج ١

(٣) المخطوط ورقة ١ ج ١

(٤) المصور ٩٦ ج ٢

(٥) المخطوط ورقة ٥٧ ج ١

وله دار أجبره تاجر يدعى (بابن أبى كامل) على بيعها بعد أن هدم بعض جدرها ليدفعه نحو البيع ، فكتب إلى سليمان بن عبد الله بن طاهر ليعينه على هذا الرجل ، (وكان الناس يتشوفون إلى أوطانهم ولا يفهمون العلة فى ذلك حتى أوضحها على بن العباس الرومى ، فى قصيدة لسليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه على رجل من التجار يعرف بابن أبى كامل كان أجبره على بيع داره واغتصبه بعض جدرها يقول :

ولى وطن آليت ألا أبيعه ... وألا أرى غيرى له الدهر مالكا

عمرت به شرح الشباب معتما ... بصحبة قوم أصبحوا فى ظلالكا

الخ الخ[1] .

وكانت له دار أخرى ، غصبتها منه أمرأة، فيعجب من زمنه ، ويزداد حسره وغماً منه، لأن من غصب عقاره واستولى عليه كف خضيب — لا كف بطل — مفتول العضلات ، فابن الرومى يعيش فى دولة هو مظلوم فيها ، وقد جف عوده لقلة النصير وندرة المجير يقول:

أقول إذا غصبتنى كف جارية ... الله أكبر من ود ومن هبل

إلى قوله :

وإن أعجب شىء أنت مبصرة ... فى كل ما حملته الأرض من ثقل

كف خضيب من الحناء غاصبة ... كفاً خضيباً من الابطال والعضل

يا حسرتا لى ويالهفا وياعجباً ... إن هذا الحال لم تنكر ولم تزل

فى دولتى أنا مغصوب وفى زمنى ... عودى ظمىء بلارى ولابلل[2]

والظاهر أن الديون قد ألحت عليه ، فلم يبق على شىء مما يملكه فى حياته ، حتى استأجر أخيراً داراً فى البصرة ، وهى التى مات فيها كما يقول أبو عثمان الناجم فيما رواه عن ابن الرومى وهو على فراش الموت يقول الشاعر «أقص عليك قصتى تستدل بها على حقيقة تلفى، أردت الانتقال من الكرخ إلى باب البصرة الخ قوله[3] .

وصور ثقل الديون عليه كثيرة منها :

---

(١) زهرة الأداب الحصرى الجزء الثالث .

(٢) المخطوط ورقة ١٨٩ جـ ٣

(٣) رسالة الغفران أبو العلاء المعرى تحقيق كيلانى .

يامن يحملنى دينى رجائيه ... على دين ثقيل أنت قاضيه
ووكانتى إلى بحر سواقيه[١] ... وقد حانى إخوانى مواردهم

ومنها :

أقول لما رأيت عرس ... تستزرق الله بالدين
سيجعل الله بعد عسر ... يسرا بجدوى أبى الحسين[٢]

ومن كثرة الديون انطلق ابن الرومى إلى القاسم بن عبيد الله ، يصرخ فى وجهه قائلا :

ثوبى الرث والثياب طراء ... وطعامى برغمى المحشوب
وحلى عارية وجدارا ... ت بيوتى كلها منقوب
ومقيلى فى الصيف سخن بلا خيش فعظمى يكاد منه يذوب[٣]

فاندثار العقار وغلبة الدين ، وقهر الرجال له ، اضطره كل ذلك إلى الشح اضطراراً وكأنه ليس من شيمته فيشكو إلى الله بخله ، ويلوم نفسه على شحها التى كثيراً ما غالبها ولكن . . . يقول : —

إلى الله أشكو شح نفسى لأننى ... أرى الجود لى حظاً وشيمتى البخل
وقد كان حق الجود بذل دخائرى ... إلى أن يرانى الله يعوزنى الأكل
ولكن نفسى آثرت نيل مالها ... وما حيث نيل المال ما يوجد النبل[٤]

فالقليل الذى نضج به الدهر وأقره عليه يحتفظ به كما يحافظ على عرضه فلو أضاعه أقترض من غيره ، ليرعى عرضه وفى هذا القرض ضياع للعرض أيضاً ، لأن ابن الرومى يشعر — بعد ضياع القليل المرهون للعرض ، وعدم الحفاظ عليه ، بهوان عرضه من ناحيتين :

أولاهما : أن ضياع القليل المرهون للعرض وعدم الحفاظ عليه يجعل العرض بعده مكشوفاً قابلا للإهانة لا يدفعه دافع ، فقد ذهب حاميه وهو القليل .

ثانيهما . أن ابن الرومى يشعر فى اقتراضه ، من أجل حماية العرض كأنه يعان عن عرضه

---

(١) المخطوط ورقة ١ جـ ٤ ... (٢) المخطوط ٣١٧ جـ ٤
(٣) المخطوط ٢١٢ جـ ١ ... (٤) المخطوط ٢١٧ جـ ٤

وقد خلا عن الحماية ، وتجرد عنها ، لذلك فهو يطلب من المقترض منه أن يعطيه ما يحفظ به عرضه ، بعد ما فرط فيما قبله من المال المصون للعرض .

وفى هذا ما يشير أيضاً إلى غيرته على عرضه ومحافظته على شرفه ، وعفة نيته وما يدل على الشح الممدوح لا المذموم ، وبخاصة فيما يتصل بالشرف والكرامة يقول :

إذا لم يكن عندى سوى ما يكفنى ... فشحى عليه مثل شحى على عرضى

لأنى ما أتلفته احتجت حاجة ... تذيل مصون العرض فى طلب القرض (١)

وقد استطاع ابن الرومى المصور الشاعر أن يترجم لنا عن صفاته وملامحه من خلال صوره الحية النابضة ففاضت عن رجل ، تلاحقت به ضروف الزمان ، فمر شبابه مرور العابر الذى لم يبدأ قليلا ، ولم يطمئن حتى صرعه الشيب والهزال فظل هزيلا ناحلا ضعيفاً ، على أن جفاف العود ونحوله ، لا يضير صاحبه كثيراً ، وربما يكون جاف العود أشد صحة ، وأعظم قوة من البدين السمين ، إلا أن الذى نخر فى عود الشاعر الصلب النحيف هى سجايا اتصلت بطباعه ، وشيم نبعت من أخلاقه ، وخصال شفع بها مزاجه ، فالتقى هذا مع ذاك ، فكان أشد عوناً على إنهاك صحته ، وإرهاق بدنه ، واعتلال جسمه ، واختلال أعصابه ، فأصبح موتوراً أو كالموتور ، متوفز الحس ، مشدود الأعصاب ، متحفز الحركات ، موزع التفكير ، فضاعف ذلك من المغالاة فى نهمه للطعام والشراب ، لا حباً فيه ، ولكن انتقاماً منه لأنه لا يستقر عنده إلا الفينة بعد الفينة ، فكان يريد بذلك أن يخضع الغذاء والشراب لسلطانه فلا يفلت من يديه أبداً ، لأن من يخاف شيئاً يقدم له سبل الولاء والطاعة حتى يخضع له فإذا صور الشراب شوق الحاضرين إليه أخبرنا نفطوية عن أحمد بن حمدون : « تذاكرنا يوما بحضرة المكتفى فقال : أفيكم من يحفظ فى فى نبيذ الدوشاب شيئا ؟ فأنشدته قول ابن الرومى :

إذا أخذت حبة ودبسه

ثم أجدت ضربه ومرسه

ثم أطلت فى الإناء حبسه

شربت منه البابلى نفسه

فقال المكتفى : قبحه الله ، ما أشرهه لقد شوقنى فى هذا اليوم إلى شرب الدوشاب(٢) »

---

(١) الديوان المصور الجزء الثالث . (٢) مروج الذهب المسعودى ج ٤ ص ٣٤٦

ولقد أجاب المكتفى عنا ، فليس عند الشاعر محبة فى الشراب ولا تقديراً لأثره فى النفس ، بل كل ما عند الرجل ، النهم والإغراق فى الشراب من غير وعى ولا تدبير ، وبشراهة ما أقبحها !.

والطفت الخمرة حتى صارت كالنفس التى لا ترى ولا تلمس ، بل بلغ نسيمها من اللطف حتى كاد يضله لولا روح الرجاء ، التى يحيى فيه أمل اللقاء ، وراحة اليأس ليرجع إليها على أمل كالأمس :

ومدامـــة كحشاشة النفس لطفت عن الإدراك باللمس
لنسيمها فى قلب شاربها روح الرجاء وراحة اليأس
وتمــد فى أمل أن نشوتها حتى يؤمـــل مرجع الأمس(١)

وأما نهمه فى الطعام فمعدته شيطانها رجيم ، وهى التى تصور ابن الرومى بدقة ، وتحدد درجة اللهفة بإحكام يقول :

لهفى عليها وأنـــا الزعيم بمعـــده شيطانها رجيم(٢)

وليس بعجيب عليه هذا التهافت فى لذات الحياة ومناعمها ، وعدم التحفظ للكثرة التى تنهك معدته وتفجر أمعاءه ، واللامبالاة فى التصون عن الكظة التى تقعد حركته ، وتوقف نشاطه ، لأن عصر الشاعر عصر النضج فى كل شئ حتى أتى على فن المنادمة وآداب المجالس وتقاليد اللقاء ، ونبغ الكثير فى هذا الفن ، فمنهم من أجاد التأليف فى الغناء ، ومنهم من أوفى على المنادمة ، وقد اشتهر فى الفن الأخير إبراهيم بن العباس الصولى ، وجحظة البرمكى الذين شهرا أيضا بفن الطهى ، وما صنعه على بن يحيى المنجم من التحايل على فتح شهية الخليفة المتوكل يدل على براعته أولا واشتهار هذا العصر بفن الطهى ثانيا ، وقد سبق هذا النص فى فصل البواعث فى الصورة الأدبية وليس المنجم بالمتخصص فى فن الموائد والطعام ، ولكنه كان ملماً ومثقفاً بفن الطهى والطبخ .

وكذلك الأمر عند شاعرنا دفعه نهمه وشراهته فى الطعام أن يتعلم فن الطهى وإعداد الطعام ، وأن يهذب نفسه بالإطلاع عليه بل يصبح هو معلماً للآخرين ، يعلمهم الطرق التى يعالج بها المطبوخ ، حتى يصير لذيذاً مقبولا ، يملأ ثنايا الآكل ، من حلاوته ويكدم فيه كدماً من حسن إتقانه ، فلا يلبث إلا أن يهدم فى لحظات ما بناه فى ساعات لتمـــام

---

(١) الديوان المخطوط ٣٢٤ ج ٢ (٢) الديوان المخطوط ج ٤

النضج ، وروعة الإتقـــان ، وابن الرومى لا ينسى أن يعرض ما يتصل بفتح الشهية ، وتحريك اللعاب وغيره مما يتصل بظرف الموائد وآدابها ، فى انفتاح الشهوات وذوبها فى المناعم واللذائذ ، وذلك بألا نسرع فى الأكل بمجرد وصـــوله ، بل نرمق أعيننا المأكولات المرة بعد المرة حتى تشبع العين من اللون والشكل والحجم فقد قالوا : « إن الشبع بالعين » ثم نقلبها ونجول بها أنحاء المائدة بدقة وعن قرب « ملياً » حتى تمتلىء بأنواعه المختلفة . والتفنن فى حسن عرضه وترتيبه ، ثم ينعتق من ثوب التعليم والتوجيه والتأديب ، ليرجع هو كعادته رطبيعته وليتركنا نشبع بالعين ، لينفرد هو فى سرعة خاطفه ملبياً داعى الشيطان الرجيم ، الذى سكن فى معدته فيسبل أجفانه ، ويندفع نحو الأكل بكل ما يملك من جوارح . يقول فى فن الطهى وآدابه :

يا سائلى عن بجمع اللذات	سألت عنه أنعت النعمات
فهاك ما أنشأته من قصة	مسلماً من شوبة ونقصة
خذ يا مريد المأكل اللذيذ	جردا فى خبز من السميذ
لم ترى عين ناظر مثلهما	فقشر الحرفين عن وجههما
حتى إذا ما صارتا طفاطفا	أضف إلى إحداهما تفائفا
من لحم فروج ولحم فرخ	تدور جـــوذا باهما بالنفخ
وأحل عليها أسطرا من لوز	معارضات أسطراً من جوز
إعجامها الجبن مع الزيتون	وشكلها النعنـــع بالطرخون
حتى ترى بينهما مثل اللبن	مقسومة كأنها وشى اليمن
واعمد إلى البيض السليق الأحمر	قـــدزهم الوسط به ودنر
وردد العـــين به ملياً	واطبق الخبز وكل هنياً
وترب الأسطر بالملح ولا	تكثر ولكن قدراً معتدلا
إملأ ثناياك واكدم كدما	تسرع فيها قد بنيت هدما
لهفى عليها وأنا الزعيم	بمعدة شيطانها رجيم(١)

إن ديوان ابن الرومى الحافل بألوان الطعام والشراب ، على غير المألوف فى دواوين من قبله ليدل فى صدق على مزاج هذا الرجل ، ونهمه الذى خرج على العادة فى الطعام

(١) مروج الذهب : المسعودى ج ٤ ص ٣٦٤

والشراب، فما عرف الأدب العربي شاعراً ترك في ديوانه مائدة، تختلف عليها ألوان الطعام والشراب، مثل عرفناه عن ابن الرومي، هيام وشراهة ونهم، ثم تصوير ذلك وتسجيله على نفسه من غير مبالاة، وبلا تحفظ ولا تصون، حتى رماه من قرأ شعره بالبطنة والضعف، وتفلت الزمام عن نفسه، لذا أصبح صريع اللذات لا يعرف الصبر إلى مزاجه سبيلا، فتقلب في الموائد لا يصده عنها صاد، من غير حواجز بينها وبين معدته، فهو جامح الرغبات مندفع الشهوات، حاضر الأشواق، يغرق في الطعام، ويسكر فيه فلا يدرى من حوله، ثم لا يفيق إلا وهو ساكن الجوارح، ثقيل الجسم قد غشاه السأم والوجوم، فقد أفرط على نفسه، وأثقل على معدته إلى حد الكلل، فيتوقف الهضم، ليظل مسهوما قد اختبل فكره، وتصلبت عيناه، ثم يتقى ما يجد من ألم وما يتوقع من نوبة، أو يحل من طعام آخر، فلا يرى معدته إلا وقد امتلأت على إمتلاء، وظلت متخومة مكظوظة، وكأن من حوله يضحكون عليه ويعجبون من أمره، فيدافع عن نفسه بشتى الوسائل قائلا :—

ذربى قسطنطين آكل شهوتى ... وتبشمني أنى بذلك راضى
وأكثر ما ألقى من الزاد كظة ... مدى يومها اليوم أسرع ماض(١)

وأحيانا يعطره من حوله بالهجاء، ويرميه بالبطنة والسرف، فيجيبه الشاعر لأنه أعد لكل جواباً، لعمق خبرته وسعة تجربته، فهو ليس ظالماً ولا مسرفاً ولا معيباً ولا مجترماً، والذى به إنما هو هفوة من الهفوات.

أ إن إصطبغت ولقمتى معضوضة ... أنشأت تهجونى بذلك ظالماً؟
عيب لعمرك غير إن لم آته ... عمداً فهبنى هافياً لا جارما (٢)

هذا الامتلاء والإسراف والبطنة والكظة (٣)، ضاعف من أعبائه وأسهم كثيراً في إنهاك أعصابه وسقم جسمه فازداد سقماً على سقمه، وعلة على علته، وخللا على خلله، واضطراباً على اضطرابه، فتحول الطعام عنده — وهو مصدر الصحة والرفة — إلى سم ناقع وعلة قاتلة، فازداد سوءاً على سوء، فهو يأكل ليعوض عجزه وضعفه فإذا بالتخمة تساهم هى أيضاً في الضعف والمرض يقول ابن الرومى :

تضعضعه الأوقات وهى بقاؤه ... وتغتاله الأوقات وهى له طعم(٤)

يقول العقاد وقد أصاب كثيراً في هذا : « إن ابن الرومى وقع من مزاجه وإسرافه

(١) المخطوط ١٨ ج ٣
(٢) المخطوط ٣١٥ ج ٤
(٣) الكظة إعياء المعدة بالطعام مما يسبب عسر الهضم
(٤) المخطوط ٢٩٧ ج ٤

فى حلقه موبقة لا يدرى أين طرفاها ، فزاجه إغراء بالإسراف ، والإسراف جنى على مزاجه ... فالعلة هى سبب الإسراف ، والإسراف هو سبب العلة ، وهو من هذه الحلقة الموبقة فى بلاء واصب ، ومحنة لا قبل بها للضليع الركين ، فضلا عن المهزول الضئيل (١) .

وهذا أمر ألفه كثير من المرضى فى عصر الطب الحديث ، فالطبيب ينصح المريض بألا يثقل على معدته ، ويتخفف من الطعام كلما أمكن ، ويوزع ما يحتاجه من الأكل على وجبات تضاعف الوجبات العادية أو تزيد ، وإلا إزداد عسراً فى الهضم على عسره ، ودب الضعف فى بدنه وأبى أن يبرحه المرضى .

وابن الرومى لنهمه لا يعرف إلا البطنة والإمتلاء ، ولا يسمع لطبيب ولا يستجيب لناصح ، فالشره عنده كالهوى ، جموح طموح ، وليس عنده للصبر مكان ، فهو مفتون بالحياة

إن يكن عندك لى نصح　　فما عندى انتصاح
لا تلمنى فالهوى فيه　　جماح وطماح
ما على المفتون فى ما　　غلب الصبر جناح
كل شىء غلب الصبر　　إليه فمباح
إنما الدنيا ملاه　　واغتباق واصطباح
والمزاج الجد إن فكرت　　والجد المزاح (٢)

هذا هو شأن المفتون بالطعام واللذائذ ، فإن حصل على دجاجة ، كان سموه فى التصوير ، ونبوغه فى التعبير أشبه بإغراقة فى الدجاجة وإتيانه عليها يقول : مصوراً هذه الأكلة الهنية السمينة الثمينة التى حفت باللذائذ والفرائد :

وخبيصة بيضاء دينارية　　ثمنا ولونازعها لك جوذر
عظمت فكادت تكون أوزه　　وثوت فكاد إهابها يتفطر

إن إسرافه وطمعه فيما هو أكبر، جعل من الدجاجة أوزة أمطرت على المائدة دهناً ولحماً وجوزاً محشواً بالسكر :

طفقت تجود بوبلها جوزا به　　فإذا لباب اللوز فيها السكر
نعم السماء هناك ظل صبيبها　　يهمى ونعم الارض ظلت تمطر
ياحسنها فوق الخوان وبنتها　　قدامها بصبيرها تتغرغر
ظللنا نقشر جلدها عن لحمها　　وكأن تبرا عن لجين يقشر

(١) ابن الرومى العقاد ص ١٣١　　(٢) المخطوط ٦٦١ ج١

وتقدمتها قبل ذاك ثرائد مثل الرياض بمثلهن يصدر
ومرققــات كاهن مزخرف بالبيض منها ملبس ومدثر
وأتت قطائف بعد ذاك لطائف ترضى اللهات بها وترضى الحنجر(١)

والسمك من شهره ومن نفسه محاورات ومداعبات ولها مكانها من بطنه وعقله وشعره
ماالحيتاننا جفتنـــا وأنى أخلف الزائرون منتظريهم(٢)

فالأسماك عنده بيضاء كالفضة مملوءة باللحم والشحم ، لا يحتاج قاليها إلى زيت لسمنتها وتغمر الشاوين ببخار كالضباب، وهو يتبخر من احتراق جسمها السمين ، فتمتلأ الأنوف ، وتنفتح الشهوات ، والشاعر لن يطيق صبراً ، إنه سيقطع حبال المودة ، إن لم يطفىء الصياد ظمأه اللاهث من اللحم الطرى ، ويشفى علته من السمك يقول :

بيض كأمثال السبائك بل مشحونة بالشحم كالعلك
تغنى عن الزيات قاليها وتبخر الشاوين بالودك
فليصطد الصياد حاجتنا تصطد مودتنا بلا شرك(٣)

وإذا حل شهر أيلول احتفلت معدته بالفواكه الكثيرة والعديدة ، التى ترضى نهمه وتذهب بكل علة توطنت بين أحشائه ، وأطبق عليها جانبيه ، حتى أوشكت أن تعده من سكان القبور ، فهو موسم النعم الحافل بالخيرات ، وقد رعته يد الله البيضاء ، وأسبغت عليه من نعمائها :

لولا فواكه أيلول إذا اجتمعت من كل نوع ورق الجو والماء
إذا لما حفلت نفسى متى اشتملت على هائلة الجالين غبراء(٤)
قل فيه ما شئت من شهر تعهده فى كل يوم يد لله بيضاء

والذى دفعه إلى هذا أن الحياة لم تعطه ما يريد ، ولم توفه حقه ، فغدا ينتهز الفرصة ليعوض ما فاته ، وما أحس أنه من حقه ، بل كانت تمر عليه أيام هو وأهل بيته ، وهم جميعاً جياع وعطاش ، والرجل الحريص مثل ابن الرومى مهما كان فقره المدقع لا تهزه ثلاثة أيام تمر عليه فى داره ، وهو جائع عطشان بل لابد أن يعيش من مخزون بيته أياما ، فالحرص عند الرجل يعوض فقره أحيانا ، ولكن الشاعر كان على رغم حرصه فقيراً مترباً متلافا مسرفا مهما أمطرته الحياة بطعام وشراب .

(١) المخطوط ٢٩ ج ٢ (٢) الديوان المصور الجزء الثالث
(٣) المخطوط ١٣٧ ج ٣ (٤) المخطوط ١ ج ١ الجالين : الجانبين ، غبراء : قبر

قال علي بن إبراهيم كاتب مسروق البلخي: «كنت بداري جالساً، فإذا حجارة سقطت بالقرب مني، فبادرت هاربا وأمرت الغلام بالصعود إلى السطح والنظر إلى كل ناحية، من أين تأتينا الحجارة فقال: إمرأة من دار ابن الرومي الشاعر، قد تشوفت، وقالت اتقوا الله فينا واسقونا جرة ماء وإلا هلكنا فقد مات من عندنا عطشا فتقدمت إلى إمرأة عندنا ذات عقل ومعرفة، أن تصعد إليها وتخاطبها، ففعلت وبادرت بالجرة وأتبعها شيئا من المأكولات(١)».

فهو وكيك الحال، صفر اليدين قد تواكل في سعيه على سعي القاسم بن عبد الله ليكفيه درهمين في كل شهر، ويسد حاجته من الجوع والفقر:

أركيكا رأيت عبدك صفرا ... لاجنى فيه أو جنى شنعاء

ويقول له أيضاً:

تاركا سعيه اتكالا على سعيك ... دون الصحاب والشفعاء

لى درهمين في كل شهر ... من فئام مايطرد الحوجاء(٢)

ويلح في ذلك ويقول:

نعم أنا ممنوع الذي لست كفؤه ... أتمنعني قوتي من العرض الأدنى

أذو آلة فاستخدموني لآلتي ... بقوتي أو لافارزقوني مع الزمني(٣)

والذي يؤكد فقره وقلة ماله هو ما صرح به معاصره البحتري، حينما هجاه ابن الرومي فأشفق عليه أبو عبادة وأرسل إليه تخت متاع وكيس دراهم، وقال: بأنه لم يحمله على ذلك إلا فقره، ولذلك دفع اليه هذه الهدية، فأهدى اليه ماسبق وكتب اليه ليريه (أن الهدية ليست تقيه منه، ولكن رقة عليه وانه لم يحمله على ما فعل الا الفقر والحسد المفرط)(٤).

وأمر الكساء عنده كأمر الطعام والشراب يلح الشاعر عليه ويحتاجه، ويطالب الثوب الذي يستر به جسده وهو حي، لا للكفن الذي لا يكون ضرورياً بل قد يكون أديم الأرض كفنا للميت، أما الحي فلابد من ستر عورته يقول:

جعلت فداك لم أسألك ... ذاك الثوب للكفن

سألتك لألبسه ... وروحي بعد في البدن(٥)

(١) زهر الأدب الحصري ج ٢ ص ٤٩٨ (٢) المخطوط ٥ ج ١ (٣) المخطوط ٢٤ ج ١
(٤) العمدة ابن رشيق ج ١ ص ١١٠ (٥) المخطوط ورقة ٣٨٠ ج ٤

ويقول :

طلبت كساء منك إذ أنت عامل ... على قرية النعمان تعطى الرغائبا

فأوسعتنى منعا إخالك نادما ... عليه وفى تمحيصة الآن راغبا(١)

تلك الحرارة التى تحتوى عليها هذه الصورة ، تؤكد صدق الشاعر فيما يقول ، وحقيقة ما عليه من الحاجة إلى ستر عورته ، وطلب الكساء أمر ضرورى ، وأحس الشاعر ندم أبى جعفر (٢) وهو الآن يعذبه ضميره ، ويحرص على تنفيذ الأمر .

وابن الرومى لا يمل من الإلحاح فى الطلب حتى يظن القارىء أن الممدوح بليد الإحساس أو غبى لا يفهم ، أو لم يقدر الشاعر قدره وهكذا هو مع كل ممدوح مغرق فى الطلب مفرط فى الاستجداء ، وأنه المغموط وحده ، وأن غيره دائماً هو الذى يفوز بنصيب الأسد ، أما هو فلا يستحق ، يقول لبنى وهب :

فاز الورى من ريحكم بسحائب ... هطلت وفزت بساقيات تراب(٣)

ويقول لأبى الصقر :

أبا الصقر لست أرى مهديا ... لك المدح - غيرى - إلا مثابا(٤)

ويقول :

أثبنى ورفهنى واجزل مثوبتى ... وثابر على إدرار برى وواظب(٥)

ويقول :

ثقلت حاجتى عليك فأصبحت ... وهى عبء من أثقل الأعباء (٦)

والشاعر فى إلحاحه فى الطلب ورغبته الجامحة فى العطايا ، يصر على ألا يفارق بغداد فهو قانع بالقليل مادام فيها ، ولا يرغب كغيره من الشعراء والعلماء فى السفر إلى غيرها ، فقد يسعد المسافر أو يشقى ، أما ابن الرومى قد اطمأن إلى بغداد لا يفارقها إلا قليلا ليعود إليها من جديد ويعيش فيها على كره كالعنين التى تعانقه عجوز :

أطال الله فى بغداد همى ... وقد يشقى المسافر أو يفوز

ظللت بها على كره مقيما ... كعنين تعانقه عجـــوز (٧)

---

(١) المخطوط ٣٢ جـ ١ (٢) هو ابو جعفر محمد بن على بن اسحاق النجرانى (٣) المخطوط ٥٤ جـ ١
(٤) المخطوط ٥٣ جـ ١ (٥) المخطوط ٨٣ جـ ١ (٦) المخطوط ٦ جـ ١ (٧) المخطوط ٣٥٢ جـ ٢

ورضى الرجل أن يعيش فى بغداد على كره منه ، فقد انتابته المجاعات وغشيه الفقر فيها فيصبح ويمسى وهو يهدر باليأس من الناس وتمطر عينيه بالدموع على خيبة رجائه فى مجتمعه الذى سد عليه كل أبواب الحياة فيقول :

هبونى امرءا لاحظ فيه لمجتن أما فى اصطناع العرف مكرمة تبنى

عفاء على الدنيا إذا ساء رأيكم فما هى بالدار الدميثة للسكنى(١)

جبنه وحرصه :

أن الشعر العربى على اتساعه فى الزمان والمكان ، لا تجد فيه إلا القليل من الشعراء الصادقين مع أنفسهم ، وبخاصة فى الشعر القديم ، ومن بين هؤلاء ولا شك شاعرنا ابن الرومى فإنه يحكم على نفسه بما هو فيها كما يحكم لها ، فلولا شعره لما عرفنا شيئا عن حياته وصفاته ومزاجه وأخلاقه ، فقد شهد على نفسه بالكذب كما سبق ويقر على نفسه هنا ، بعيبه لأن يرى الصدق يمحو المعايب :

أقر على نفسى بعيبى لأننى أرى الصدق يمحو بينات المعايب(٢)

ولا يرى حرجا فى وصف نفسه بالحرص والجبن، ومن اجتمعت فيه هاتان الصفتان، تكالب عليه الفقر من كل جانب :ـ

ومن راح ذا حرص وجبن فأنه فقير أتاه الفقر من كل جانب(٣)

هو مشدوه متحير جبان ، يخاف من أمور ميسورة لا تحتاج إلى أدنى تفكير يقول :

فقدمت رجلا رغبة فى رغيبة وأخرت رجلا رهبة للمعاطب(٤)

بل إنه يخاف من الماء الذى يشربه ويرد اليه روحه :

فأيسر إشفاقى من الماء أننى أمر به فى الكوز مر المجانب(٥)

وأمواج دجلة إذا حركتها الرياح ، ولمعت بضياء الشمس ، تحولت إلى جيش تتابعت فيه السيوف على الراكب وقد أمسك بها فرسان مغاوير يقول :ـ

أظل إذا هزته ريح ولألأت له الشمس أمواجا طوال الغوارب

كأنى أرى فيهن فرسان بهمة يليحون نحوى بالسيوف القواضب(٦)

إنه الضعيف الخائر المنهوك النفس ، يريد أن يظل قابعا فى بيته ، ويحصل على ما يحب من غير تعب ولا مشقة :

---

(١) المخطوط ٢٤ جـ ١
(٢) المخطوط من ٥٨ : ٦٤ جـ ١
(٣) المخطوط من ٥٨ : ٦٤ جـ ١
(٤) المخطوط من ٥٨ : ٦٤ جـ ١
(٥) المخطوط من ٥٨ : ٦٤ جـ ١
(٦) المخطوط ٥٨ جـ ١

ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ومن أين والغايات بعد المذاهب(١)

وصفه لعبقريته :

ويقول ابن الرومي عن عبقريته الشعرية وغزارة شعره : إنه يملأ الدنيا ويغني الدهر ، وقد احتشدت الرواة على بابه تجمع شعره لتوصيله إلى الأجيال من بعدهم يقول :

أنا الذي تحشد الرواة له فكل أيام دهره جمع(٢)

ويقول: ولو شئت ساجلت البحور غزارة وبادهت قرض الشعر جنة عبقر(٣)

ومتى ما أردت قارض شعر كنت ممن يساجل الشعراء

إلى قوله :

شهد الله والموازين والقسط جميعا شهادة إمضاء

إن رأيي لذو الرجاحة وزنا فدع يميني — وزنه والآراء(٤)

ضعفه الجنسي :

إن ضعف صحته ، واختلال تركيبه دفعه إلى الإسراف في المأكل والمشرب ، فساءت حالته ، وكلت معدته ، والتصقت يده بالتراب ، ولم يبق على شيء عنده إلا وأسرف فيه ، وأتى عليه .

والأمر كذلك في اللذة الجنسية وتروقها منذ الصغر ، أفرط فيها شابا ، فأسرع الشيب إليه ، حين تجاوز العشرين وكلت اللذة عنده ، وإن ظلت الرغبة فيه ، تخايله لحظة بعد أخرى فيزداد جوى وتعذيبا ، وحسرة على الشباب الذي فارقه وأفرغ ما عنده ، فلم يبق إلا ما يطفيء حرارة الرغبة التي تطل من حين إلى آخر حتى الموت ، عند المعتدل في الحالة الجنسية فما بالك في شاعر كابن الرومي الذي تعود الاسراف في كل شيء يقول مصوراً ذلك في عدة صور :

الشباب هو الذي جنى عليه في اللذة الجنسية ، فكان الشباب عنده كالملك في صوته وقوته ونزقه وطيشه وانطلاقه مما أدى إلى تمزق تاج الملك وسقوط سريره .

سقى الشباب وإن عفا آثار معهده القتير

ما كان إلا الملك أودى تاجه وهوى السرير(٥)

---

(١) المخطوط من ٥٨ : ٦٤ جـ ١
(٢) الديوان المصور الجزء الثالث
(٣) المخطوط ٣٤١ جـ ٢
(٤) المخطوط ٧١٤ جـ ١
(٥) المخطوط جـ ٢ ص ٢٦٧

يندب اللذة فى كل حين ، فهى بمثابة صيد طاش منه ، لأنه أغرق فى اللذة وجاوز الحد فيها ، وفى الاغراق الحرمان كل الحرمان يقول :ـ

صيد حرمناه على إغراقنا ... فى النزع والحرمان فى الاغراق(١)

فاللذة أمل ضعيف ، بل معدوم لانسان عنده رغبة جامحة ، طبعت نفسه على حب اللذة، وهذا يستدعى منا العطف والشفقة ، فالرجل قد انتابه النقيضان ، وأصبح فريسة لهما ، وهما : صبوة الفتى ، وضعف الشيوخ ، فهو فى تعذيب دائم وصراع عنيف .

شعــر ميت لذى وطر حى ... كنار الحريق ذات اللهيب

معــه صبوة الفتى وعليه ... صرفة الشيخ فهو فى تعذيب(٢)

وكثيراً ما ذكر هذا الضعف وأعلنه معبراً عنه ، وصوره فى شعره كاشفاً سره ، وموازنا بين حالاته ، لعل فى المكاشفة والمصارحة ما يخفف اللوعة والحسرة على النفس ، فالنفس التى امتلأت بالآلام والأسقام ، إن لم تفصح عنها وتفرج عن أعماقها بذكرها واعلانها تصاب بالكبت ، ويزداد عليها الهم ، ويتضاعف الألم فيظل صاحبها فريسة لعبئين ثقيلين ، يكفى أحدهما فقط فى القضاء على النفس وهما : أولا : كثرة الآلام والأسقام ، وثانيا : التفكير الدائم والهم الملازم فى كيفية التخلص من هذا الوباء ، وإراحة النفس من أعبائه وكلاهما مضن للجسد ، وقاتل للنفس .

والناس من حول ابن الرومى لم يرحموه ولم يمهلوه ، فما كاد الرجل يسرى عن نفسه ، بتصوير ذلك فى شعره ، إلا وانقض عليه الناس يعيرونه بضعفه الجنسى ، ويرمونه بالتخنث والأنوثة فيلاقى بلاء آخر ، وينتقل من بلاء الى بلاء ، فيسرع ليكاشف الناس بآلامه ويدفع الأذى والعيب عن نفسه ، فى تصوير ماجن عابث :

وحب الذات والنوع ، هو الذى دفع الشاعر الى هذا الدفاع الهاوى ، عن تخنثه الذى رماه به قومه ، والا فالرجل القوى الذى تهواه النساء لا يدفع تهمة الخنوثة عن نفسه بلسانه فغير معقول أن يعبر بذلك ، لأن فحولته أكبر شاهد على رجولته ، وأشد مدافعة لمن تغاليه الاتهامات والوساوس وفى العادة والغالب أن الرجل الضعيف هو الذى يندفع اليه الناس لمبارزته ومصارعته ، أما القوى فيخشاه الجميع ويهربون من ساحته .

ويظل ابن الرومى يخفف عن آلامه ، وضعفه الجنسى بالمصارحة والتصوير والمجاهرة

(١) المخطوط ١١٨ جـ ٣ (٢) المخطوط ورقة ٢٧ جـ ١

والمكاشفة بل يرتقى فى التخفيف عن نفسه إلى درجة الادعاء والقصص الشعرى الذى هو خيال لا حقيقة فيه ، ولكن هو الإمتاع والتسلية ، والانتقال من حالة إلى حالة ، ليتم التخفيف ، ويتصاعد الألم ويصور هذا الادعاء فى أقصوصة صغيرة يقول فيها :

كتبت ربة الثنايا العذاب	تتشكى إلى طول اجتنابى
وأتانى الرسول عنها بقول	لم تبينه فى سطور الكتاب
أيها الظالم الذى قدر الله	به فى الأنام طول عذابى
لو علمت الذى بجسمى من السقـ	ـم وضر الهوى لكنت جوابى
فتجشمت نحوها الهول والحرا	س قد هوموا على الأبواب
وهى فى نسوة حواسر لم يكحـ	ـلن جفننا برقدة لارتقابى
طالعات على من شرف القصـ	ـر يحاذرن رقبة البواب
ولها بينهن فى حـــديث	جلة « ليته يرق لما بى »
توقفت ساعة ثم ناديـ	ـت سلام منى على الأحباب
فتباشرن بى وأشرفن نحوى	بشهيق وزفرة وانتحاب
ثم قالت : أما اتقيت إله النا	س فى طول هجرتى واجتنابى
قلت ما عاق عن زيارتك أنكا	س وصوت يهيج من اطرابى
وافترقنــا على مواعيد سكـ	ـن بها لاعجا من الأوصاب[1]

هذه صورة أدبية كاملة تكشف عن ادعاء الرجل وعبثه ولهوه ، الذى وجد فيه ما يسرى عن نفسه ، ويكشف عن غمته ، وتكون معاناة التعبير ولذة الشعور والتصوير عوضا عما حل بجسمه من ضعف جنسى ، وما فارقه من لذة ومتعة أخنت عليه ، حتى شمت فيه العدو ، وخيب أمل العروس :

مولعاً موزعاً بها الدهر يرميهـــا بسهم الخضاب غير مصيب	
عاجز واهن القوى يتعاطى	صبغة الله فى قناع المشيب
رام إعجاب كل بيضاء خود	بسواد الخضاب ذى التعجيب
فتضاحكن هازئات وماذا	يونق البيض من سواد جليب
يا حليف الخضاب لا تخدع النفـ	ـس فما أنت للصبا بنسيب

(١) المخطوط ١١٥ ج ١

لهف نفسى على القناع الذى مح ‏ ‏ وأعقبت منه شر عقيب
منع العــين أن تقر وقرت ‏ ‏ عين واس بنا وعين رقيب
نفر الحلم ثم لى فأمسى ‏ ‏ خيب العرش أيما تخييب
شعر ميت لذى وطر حى ‏ ‏ كنار الحريق ذات اللهيب
معه صبوة الفتى وعليه ‏ ‏ صرفة الشيخ فهو فى تعذيب[١]

وذلك الضعف يرجع إلى إفراطه فى الغناء الجنسى ، وقلة تصونه عنه ، بل جارى ماشاع فى عصره من الهيام بالمذكر فزاد من ضعفه ، واجتمع لديه صنفان ينتقل فيهما من النساء إلى الغلمان ، والولدان ، والتقت الشهوة الجامحة فيما أحل الله مع الشذوذ الجنسى فيما حرم الله يقول :

استغفر الله من تركى علانية ‏ ‏ ذنبا هممت به فى شادن خنث
ظبى دعتنى عيناه ومنطقه ‏ ‏ بنية صدقت عن ظاهر عبث[٢]

ويقول فى سليمان الذى كبر وشاخ :

يا سليمان ظمـاء ‏ ‏ قطعت عنك السواقى
شخت فأذن بفراق ‏ ‏ وتجهز لانطـــلاق
نأكل اللحم ونرمى ‏ ‏ بكراديس العـــراق
قد تبدلنا بك المر ‏ ‏ دفدع بباب النفـــاق
فاسل عنا قد سقانا ‏ ‏ عنك بالسلوة ساق
قد أكلنـــاك لذيذا ‏ ‏ طيبـــاً حلو المـــذاق
وافظنـــاك كريهـــا ‏ ‏ غير مكروه الفراق[٣]

وغلام آخر جمع بين صفة التخنث وبين نعومة الإناث :

أيهـا الذاهـل عنى ‏ ‏ نمت عمن لا ينام
طال بى صدك والصد ‏ ‏ على الصب غـرام
من يكن من أمـه الحسن فمن أهوى أمام
هـو بالدل فتاة ‏ ‏ وهو بالزى غـلام
حار فى خديه ماء ‏ ‏ مازج الماء ضرام
يلتقى فى وجهـه ضـدان نور وظـلام[٤]

---

(١) المخطوط ٢٦ : ٧٩ ج ١ ‏ ‏ (٢) المخطوط ١٢٥ ج ١
(٣) المخطوط ١١٣ ج٣ ‏ ‏ (٤) المخطوط ورقة ٢٥٧ ج ٤

وابن الرومى فيما أحل الله له غارق فى لذاته ، نشوان من شهوته لا ينام الليل يقول :

ولقد يؤلفنا اللقاء بليلة ... جمعت لنا حتى الصباح نظاما
تجزى العيون جزاءهن عن البكا ... وعن السهاد ولا يصيب أثاما
فنبيحهن مراذهن يردنه ... فيما ادعين ملاحة ووساما
ونكافىء الآذان وهى حقيقة ... ألا تزال تكابد اللواما
فنثيبهن من الحديث مثوبة ... تشفى الغليل وتكشف الأسقاما
ونكافىء الأفواه عن كتمانها ... إذ لا يزال لها الصمات لجاما
فنبيحهن ملاثما ومراشفا ... ما ضرها أن تكون ملاما(١)

اللذة الجنسية ليست عنده مثلها عند غيره ، فمن العشاق والأحبة من يغيب فى لذة اللقاء ، ومنهم من يذوب فى سحر الحديث الزلال ، ومنهم من يستريح للعناق ويسكر فى الأحضان وكلهم عاشق بالعين أو الأذن أو القلب أو الحس .

أما ابن الرومى فله لذة أخرى ، وعشق آخر فالشهوة عنده ، والغمرة لا يشفيهما اتصال الشفتين وتلاحم الثغرين ، وإنما الذى يشفى غليله ، ويروى ظمأه هو أن ينسى ذاته وكيانه وشخصه ، ليذوب هو ومحبوبه ، وينصهرا معا فى بوتقة حارة وتصير الروحان روحا واحدة فلا تعرف روح الحبيب من المحبوب ، والجسدان جسد واحد فلا تعرف خشونة الرجل من نعومة الأنثى ، عشق عارم ، يفنى شباب الشاعر ، كما فنى فى روح الحبيب أو ذاب فى غضاضة المعشوق .

أعانقها والنفس بعد مشوقة ... إليها وهل بعد العناق تدان
وألثم فاها كى تزول حرارتى ... فيشتد ما ألقى من الهيمان
وما كان مقدار الذى بى من الجوى ... ليشفيه ما تلثم الشفتان
كأن فؤادى ليس يشفى غليله ... سوى أن يرى الروحين يمتزجان(٢)

ما من موضع فى جسد الشاعر وعقله وقلبه الا أحلت فيه محبوبته وثوت ، فما أبقت للنفس شيئا ولا أبقت على الجسم منه شىء .

جعلت لها صدرى مرادا تروده ... وبوأتها من حبة القلب منزلا
فما علقت من قبلها النفس معلقا ... ولا اتخذت من بعدها متعللا(٣)

---

(١) المخطوط ٢٦٢ جـ ٤
(٢) المخطوط ورقة ٣٧٣ جـ٤
(٣) المخطوط ٢٢١ جـ ٤

وغيره ... وغيره ... كثير ... وكثير ... حتى حديث المرأة له سحر حلال ، لو سمعه مسلم متحفظ وجد فى طوله استرواح من غير ملل، وأحس فى إيجازه بالحرمان والتعذيب ، لحديثها الساحر شرك للعقول، وروضة للمرتاضين،وعقال للمستوفزين يقول :

وحديثها السحر الحلال لو أنه — لم يجن قتل المسلم المتحرز
إن طال لم يملل وإن هى أوجزت — ود المحدث انها لم توجز
شرك العقول ونزهة ما مثلها — للمطمئن وعقلة المستوفز (١)

وقد بلغ به الإغراق الجنسى والشهوة الجامحة واللذة الفاضحة مبلغا كبيرا مما يدل على أن علاقته بالمرأة علاقة لذة وشهوة وجوع الى حد الافراط والإسراف لذلك أفرط كثيراً فى التحسر على شبابه ، وندب شيخوخته : التى حرمته من متاع المرأة :

فما لى عزاء عن شبابى علمته — سوى أننى من بعده لا أخلد
وإن مشيبى واعد بلحاقه — وإن قال قوم إنه يتوعد (٢)

ويقول :

لو يدوم الشباب مدة عمرى — لم تدم لى بشاشة الأوطار (٣)

وما أحب الشاعر المرأة حبا عفيفا ، وهياما روحيا ، تذوب فيه الأنانية المنحطة ، ويتجسد نكران النفس ، فتخلص المرأة فى نظره من الشهوات ، التى تملأ الحواس الظاهرة وإنما نزل عن هذا الحب المقدس العفيف ، وانحط الى التبذل فى اللذة ، والمكاشفة للشهوة بألفاظ القبح ، ووسائل الفحش وديوانه فيه الكثير من هذا الذى نربأ عن المكاشفة به ، وأن المحنا إليه بمثال مسبق . وهذا مثال آخر فيه القليل من التصون والحفظ يقول :

تتجمل الحسناء كل تجمل — الخ الخ (٤)

وهذا الطيش فى اللذة الجنسية ظلت تخايله فى كل وقت فى الشباب والشيخوخة حتى حتى تحولت الطبيعة الجيلة فى نظره الى فتاة فاتنة ، رأى فيها العوض عما فقده فى حياته التى لفظته وكرهته فسرت عدواه الى الأرض والزهر والرياض والأشجار والفاكهة ، وأصبح يرى المرأة فى كل هذا تتبرج له تبرج الأنثى للذكر :

---

(١) المخطوط ٢٦٣ جـ ٢ — (٢) المصور ٦٣ جـ ٢
(٣) المخطوط ورقة ٣٠٨ جـ٢
(٤) المخطوط ورقة ١٤٨ جـ ١

فالأرض فى روض كأفواف الحبر
نيرة النوار زهراء أزهر
تبرجت بعد حياء وخفر
تبرج الأنثى تصدت للذكر

والرياض فتاة تختال أمام عينيه فى أجمل منظر ، وأبهى حلة ، وفى دعة وسحر ودلال .

برياض تخايل الأرض فيها خيلاء الفتاة فى الأبراد

والرياض من أعف المعشوقات عنده ، لا يحن إلا له ، فهن عذارى غير عانسات قد ارتدين السندس الأخضر المنمنم فى وشى ، وهن يختلن فى دلال ، وعيون جذابة صارخة السحر ، يتمايل بها جيد ناعس وإله يقول فى أرجوزته :

وروضة عذراء غير عانسة جادت لها كل سماء راجسة
رائحة بالغيث أو مغالسة فأصبحت من كل وشى لابسة
خضراء ما فيها خلاة يابسة كأنها معشوقة مؤانسة
تروقك النورة منها الناكسة بعين يقظى وبجيد ناعسة (١)

وهكذا ملكت الشهوة والإسراف فيها عليه حسه ووجدانه وكل حواسه ، وأخذ يرتاد اللذة فى كل مكان ويبحث عما يطفىء ظمأه فى الحياة والطبيعة ، الحياة التى لفظته والطبيعة التى آوته ، وفى كلتيهما يكشف الرجل عن نفسه وعشقه وإفراطه وإسرافه فى الشهوات واللذات .

(٤)

سخطه :

أحس ابن الرومى ، أن الناس من حوله لم يفهموا شعره ، لا لخطأ فيه ، ولكن لعيب فى أنفسهم هم ، لا يميزون بين الجيد والردىء ، فشعره لروعته وجلاله قدعمى أبصارهم مثل الخفافيش حين يصيبها العمى ، اذا حلقت فى ضوء الشمس :

---

(١) المخطوط ٣٧٤ ج ٢

عابوا قريضى وما عابوا بمعرفة ... ولن ترى الشمس أبصار الخفافيش

وفى عماها لها شغل وأن طمحت ... فى الجو حتى ترى فوق المراعيش

فلا تروم أن ترى شمسا كهيئتها ... بلا عيون كما طارت بلا ريش(١)

وشعره هو الأمل الوحيد الذى بقى له من الحياة ليعينه على قسوتها ، ويرفع ذكره فيها ، وإذا بهذا الأمل قد تحطم ، وبابه الأخير قد أوصد ليعيش هو وحده فى جانب ، ومجتمعه فى جانب آخر فمن يرجى منهم الخير والعون ، قد أعانوا دهره على ترصد الشاعر فبخسوه حقه كما بخسه الدهر ، واعتدوا على حقه كما اعتدى عليه ، وحق لقلبه البائس القانط أن ينفض يديه من الشكوى ، فهو ساخط غاضب على الحياة والناس .

لا أشتكى يا أخى فؤادك ما أضحى فؤادى يشـكو إلى عواده

قسوة من خلائل بل أخــلا ... ء أعانوا الزمان فى إرصاده

بخسونى كبخس دهرى حقوقى ... واستعـدوا على كاستعداده

أتقاضى مواضعى من صبابا ... ت صديق وذكره وافتقاده

لا شرابا ولا سمـاعا وأما ... زاده ـ إن جفا ـ فأهون بزاده(٢)

يزداد السخط كلما أصر الدهر فى تعاقب الأحداث على إحساسه المتوفر وتوالى عدوان الحياة على شعوره الحاد المرهف ، وتتابعت صروف الزمن على سرعة نبضه واتصال حرارته ، فيملك عليه الغضب كل مسالك ، ويسد عليه السخط والاستياء كل منفذ ، وتغرق نفسه — وقد اضطرت إلى ذلك اضطرارا — فى النقمة على الزمن وأحداثه ، وفى الضغن على العصر وأبنائه ، فتذوب مرارة وألما وتتلظى حسرة ولوعة .

كيف العزاء وما فى العيش مغتبط ... ولا اغتباط لأقوام يموتونا

وكل لهو لهاه النفس مشغلة ... عن ذكر ماهم من الأحداث لاقونا(٣)

والسخط لا يبرىء منه كل عصر ، والتذمر لا تخلو منه أمة من الأمم ، وإذا كان الأمر كذلك ، فليس هذا غريبا على الشاعر وقد أحس بكل ما فى الدنيا من الظلم والغبن ، والتناقض والفساد ، فلو شكا حالته وبؤسه ، ووازن بين قدره وقدر الناس ، وحقه وحقهم ، وجدهم — وهم دونه — غير جديرين بالخير وحدهم ، وإن لم يكن أفضل منهم ، فلا أقل أن يكون مثلهم ، فأن شكا ذلك فلا لوم عليه منا ، يقول مصورا سخطه وغضبه :

---

(١) المخطوط ورقة ٤١٣ ج ٢ (٢) المصور ٦١ ج ٢ (٣) المخطوط ورقة ٣٥٢ ج ٤

طار قوم بخفـــة الوزن حتى . لحقوا خفـــة بقاب العقـاب
ورسا الراجحون من جلة الناس رسو الجبـال ذات الهضاب

إلى آخر ما سبق أن ذكرته فى هذه المطولة (١)

ويعود ابن الرومى إلى طبعه الطيب وقلبه الودود، إذا اختفت أسباب السخط وطاشت عنه بواعثه ولو قليلا :

وإنى لبر بالأقارب واصـل على حسد فى بعضهم وعلى بغض(٢)

وكذا حاله مع الأخفش الذى عبث بابن الرومى وآذاه، وتصدى له فلم يسلم من هجائه وسخطه، حتى تشفع له عند الشاعر أهل المودة والخير فنسى ماضى الأخفش وأهاجيه ومدحه وأحسن ذكره واصطفاه وآخاه يقول :

ذكر الأخفش القـديم فقلنـا إن للأخفش الحديث لفضـلا
هو بحر من البحور فرات ليس ملحا وليس حاشاه ضحلا
قل له يا مقومى وسمى وكنيتى ومن غـدا لى شكلا
قد أردت الإطناب فيك فقالت لى غاياتك البعيدة مهلا(٣)

يقول العقاد : « فكل ما كانت تطيقه طبيعة ابن الرومى من الشعور، هو ذلك الذى يحضرها أسبابه، وتلح عليها مؤثراته، فإذا غابت الأسباب، وفترة المؤثرات، نسى شعوره فى لمحة عين وانقلب الى نقيضه(٤).

والسخط ملازم لنفسية الشاعر، وممازج لطبيعته، لا ينسى ذلك الا لهدأة ولحظة يستريح فيها، ويطمئن اليها، بقدر ما يغيب عن ذاته وحسه فى نهمه وشرهه فى الطعام، فلا يلبث أن يفيق على الأوصاب والآلام وصمت المعدة وتصلب الشرايين، لذا عاد الى طبعه فى هجاء الأخفش وذمه . وامتلأ الرجل سخطا وتذمراً لأن الحياة لم تمنحه شيئا يحسد عليه، وهو أهل للفضل والنعمة والرفه وقد أصبح السخط علة من علله ومرضا من مرضه .

أيهـا الحاسدى على صحبة العسر وذمى الزمان والإخوانا
ليت شعرى ماذا حسدت عليه أيهـا الظالمى اخاك عيانا
أعلى أننى .... أم على .... أم على الخ(٥)

(١) المخطوط ٨٩ جـ ١ (٢) الديوان المصور جـ ٣
(٣) المخطوط ١٧٧ جـ ٣ (٤) ابن الرومى : العقاد ١٥٣ (٥) المخطوط ٣٧٠ جـ ٢

والحسد والحقد ، قريبان فى المعنى ويلتقيان فى جانب واحد ، وهو الإساءة لفرح الغير ، إلا أن طبيعة الحسد فى النفس لا تجعل صاحبها يحتمل - ولو كان من أغنى الناس وأسعدهم - الخير عند الغير ، فلا يفرح لفرحهم ، ولا يسر لنجاحهم ، أما الحاقد فيريد أن تكون حياته مفروشة بالورود والرياحين ، ولا تخطئه النعمة ولا تفارقه ، ولا مكان عنده لصروف الدهر وحدثاته ، ويكره أن يضام ولو لحظة واحدة فى حياته ، فهو يرى أنه من جنس غير جنس البشر ، ومن طينة غير طينتهم .

والحسد والحقد ليسا من طبيعة الشاعر ، ولا فى أصله ومزاجه ، فقد كان الرجل بريئاً منهما كل البرء ، وما أوهم ذلك من شعره يحتاج منا إلى كشف وتحليل وفهم لطبيعة الشاعر فى خلقه وخلقه .

فابن الرومى ليس حاسداً ولا حاقداً ، لأنه يحب الخير للناس ، كما يحب الخير لنفسه ويطلب العدالة فى التوزيع :

أمن العدل أن تعد كثيراً ... لى ما تستقـــل للأوقاب(١)

وليس هو دون معاصريه فهو يريد أن يكون مثلهم :

أترانى دون الألى بلغوا إلا ... مال من شرطة ومن كتاب(٢)

وإن أعظم متعة عنده ، هى التى يلتقى فيها مع أصحابه وخلانه ، ليأخذوا نصيبهم من متع الحياة ، ولذتها ، كما يأخذ هو نصيبه فى رحلة دعاهم إليها صديق يقول فيها :

أنشد بأيامنا لتشهرهـــا ... وقل بها معلنـــا لتظهرها

وابغ إزدياداً بنشر أنعمها ... لا تخف إحسانها فتكفرها

من جلب الصنع أن تبادر ... بالنعمة موليكها فتشكرها

باكرنا بالصبوح مدلجـــا ... لنشوة شاءها فبكرهـــا

ويأسى لبعض الخلان ، وقد حرم من هذه المتعة :

ياحسرتى كيف غاب وهب ولم يكن لها حاضراً فيحضرها(٣)

كيف يكون حاسداً وحاقداً من تمنى لابن عمار ؟ الذى حرم من الخير والنعم وهو جدير بها مثل قوله :

(١) المخطوط ٨٩ جـ ١

(٢) المخطوط ٨٩ جـ ١

(٣) المخطوط ٣٥٧ جـ ٢

كابن عمار الذى تركته حاقات الزمان كالمرتاب
من فتى لو رأيته لرأت عينـاك علما وحكمة فى ثياب[1]

الخ الأبيات . .

لم يكن الشاعر حاسداً ولا حاقداً ، لأنه يتفطر ألماً ، وينقطع حسرة على أخيه الإنسان المجدود المتعب الذى لم يقو على حمل ثقيل تعثر تحته :

رأيت إحمالا مبين العى يعثر فى الأكم وفى الوهد
محتملا ثقـلا على رأسه تضعف عنه قسوة الجلد
والبائس المسكين مستسلم أذل للمكروه من عبد
ما اشتهى ذاك ولـكنه فر من اللؤم إلى الجهد[2]

لو كان يشعر بأنه من عنصر فوق الناس لما تألم وأشفق على الرجل ، فهما معا من طينة واحدة وقد ساوى بينه وبين غيره فى الظلم والكرم والذم والمدح يقول :

أحب أن تشتمنى بوزن ما تشتمه
أو توقع الإكرام لى وللذى أكرمـه
فان ما تمعـله بحضرتى يجشمـه
وإننى يظلمـنى كل امرىء يظلمه[3]

ولا ينقض ما اتجهنا إليه أن الشاعر شهد على نفسه بالحقد واعتبره خصلة من خصال الخير ، يشكر عليه بل أصر على أن يكون الرجل على قدر منه ، ويستعمله فى تحفظ وتصون ، حسب المواقف والظروف يقول :

حقدت عليك ذنباً بعد ذنب ولو أحسنت كان الحقد شكراً
أديمى من أديم الارض فاعلم أسىء الربع حين تسىء بذراً
ولم تكن ـ بالك الخيرات ـ أرض لتزرع خريقـاً فتريع براً
أؤدى إن فعلت الخير خيراً إليك وإن فعلت الشر شرا
ولست مكافئاً بالنكر عرفا ولست مكافئاً بالعرف نكراً
يسمى الحقد عيباً وهو مدح كما يدعون حلو الحق مراً[4]

وقوله فى مزايا الحقد :

لئن كنت فى حفظى لما أنا مودع من الخير والشر انتحيت على عرضى

(١) المخطوط ورقة ٩٢ ج١
(٢) الديوان المصور ٣٠ ج ٣
(٣) المخطوط ورقة ٢٥٨ ج ٤
(٤) المخطوط ٢٨٢ ج ٢

لما عبتنى إلا بما ليس عائبى … وكم جاهل يزرى على خلق محض

وما الحقد إلا توأم الشكر فى الفتى … وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض

فحيث ترى حقداً على ذى إساءة … فثم ترى شكراً على حسن القرض

إذا الأرض أدت ريع ما أنت زارع … من البذر فيها فهى ناهيك من أرض(١)

فالحقد عند الشاعر الذى يرضاه ، ويحدد مزاياه ، كما رأيت من شعره ، ليس هو الحقد المعروف فى اللغة والعرف ، ولكنه هو الإنتقام لكل متربص به ، أو مدبر له الشر ، وما أكثر ظلم الناس له فقد تربصوا به ، وتحاملوا عليه ، حتى تطير وتشاءم ، واعتزل الناس ، وانطوى على نفسه ، لأنه لم ير منهم إلا الشر ، فهو يستخدم سلاح الحقد بمعنى الإنتقام ، إذا أحس بالشر من الناس على حد قوله تعالى : « ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين » فمكر الله هنا العقاب الشديد

هذا الانتقام هو الرادع القوى لكل شرير يفتك به ، فالحقد يساند الشكر . ويقويه ولولا خوف الناس من الإنتقام ، لما أسدوا الشكر لأصحاب الفضل والكرم ، وليس من المتصور أن يزرع الإنسان شراً ويحصده خيراً ، فالخير للخير والشر للشر .

ومن المغالطة أن نصف الحقد بالمعنى السابق على أنه عيب بل هو مدح فالحق مر ولولا مرارته لما طابت لنا حلاوته واستروحنا لذته .

والشاعر يفصل القول فى مساوىء الحقد ومزاياه ، لإظهار براعته فى الاستقصاء ، والجدل فى عصر الجدل ، وكأنه يثبت قدمه أمام من اهتزت أقدامهم فى هذا العلم يقول العقاد : « بأنه كان يتفلسف ويدرس الجدل ، ويتعاطى صناعة البرهان ، ويحب أن يمتحن قوته فى المنطق والفلسفة بتقبيح الحسن ، وتحسين القبيح ، حسبما يبدو له من وجهيه ، ومن تنازع الأقوال فيه (٢) » .

واتخذ الشاعر من إظهار حقده فى تصويره ، وإن كان ليس طبيعة فيه لقسر ممدوحه على العطية واضطراره إلى الإثابة فقد جمدت أيديهم عنه ، بينما امتدت وفاضت على غيره ، فكان الشاعر يطرهم بتصوير الحقد ، ليدفعهم دفعاً إلى أن يعاملوه كغيره مثل البحترى يقول :

واجعل طلابك بالأوتار ما عظمت … ولا تكن لصغير الأمر مكترثاً(٣)

ومما دفع ابن الرومى إلى تصوير الحقد أيضاً ، هو عصره الذى كان عصر التدبير والأحقاد والكيد والضغينة ، فالخليفة كان يحقد على أخيه أو أحد أبنائه ، وولى العهد من أبناء الخلافة

---

(١) المخطوط ٩ ج ٣ (٢) ابن الرومى العقاد ١٥٩ (٣) المخطوط ١٢٤ ج١

كان يحقد على أبيه ، ويدبر له مقتلا فقد قتل المتوكل على يد ابنه المنتصر ، وكذلك الامراء والوزراء كانوا موقعاً للكيد والحقد من بنى جنسهم ومن الخلفاء ، كما كانوا هم أنفسهم سبباً فى عزل وقتل بعض الخلفاء كالمستعين والمعتز والمهتدى ، لذلك كان الشاعر يصور عصره وزمنه فى أعلى طبقة فيه ، وهى الطبقة الحاكمة ، فكيف بالطبقة المحكومة وبخاصة إذا سرى الضعف فى الحكومة ، وشغلت عن الشعب بالخلاف والكيد والحقد والتدبير فيما بينها ، فيحق لابن الرومى وهو الشاعر والمصور أن يقوم بدور المؤرخ للعصر ، وليدفع هو عن نفسه بهذا السلاح الذى أصبح فى كل بيت :

شكرى عتيد وكذاك حقدى ... للخير والشر مكان عندى[1]

ويقول :

وإنى لذو حلم وجهل وراءه ... فمن كان مختلا رضيت له حمضى
ولولا عرام فى الفتى قل جده ... ولولا ذباح فى المهند لم يمض[2]

ومما يدل أيضاً على أن الحقد لم يكن فى طبيعة ابن الرومى ، أن الرجل كان يصور مساوئه وعيوبه فى قصيدة ، ولا يفتأ قليلا حتى يصور مزاياه وحسناته فى قصيدة أخرى وهكذا كان يفعل ذلك فى قصيدة واحدة حين يوازن ويبرهن على عادة أهل الجدل والكلام

وهذا يدل على إصابة الرجل فى جسمه ، واختلال أعصابه وعقله ، فيثبت حيناً فى وقت ما ينفيه فى وقت آخر ، فالاسقام فى جسمه أثر فى هذا التردد والتناوب والمراجعة ، يقول فى قصيدة يذم فيها الحقد منها :

وكفى الحقد مهانة وفضاضة ... أن لست تلقاه عدو جهار
لكنه يمشى الضراء بحقده ... ليلا ويلبد تحت كل نهار
فانظر بعين الرأى لاعين الهوى ... فالحق للعين الجلية عارى
النفس خيرك إنها علوية ... والجسم شرك ليس فيه تمارى
فانفذ لخيرك لا لشرك واتبع ... أولاهما بالقـــادر الغفار
كن مثل نفسك فى السمو إلى العلا ... لا مثل طينة جسمك الغدار[3]

وحينما يتكلم عن مزايا الحقد يقول :

وما الحقد إلا توأم الشكر فى الفتى ... وبعض السجايا ينتسبن إلى بعض

---

(١) المخطوط ٢٢٨ جـ ٢ (٢) المخطوط ٩ جـ ٣ (٣) المخطوط ٢٨١ ، ٢٨٢ جـ ٢

فحيث ترى حقداً على ذى اساءة   فثم ترى شكرا على حسن القرض
اذا الأرض أدت ريع ما أنت زارع   من البذر فيها فهى ناهيك من أرض
ولولا الحقود المستكنات لم يكن   لينقض وتراً آخر الدهر ذو نقض(١)

ويوازن بين عيوب الحقد ومزاياه فيقول :

أؤدى إن فعلت الخير خيراً   إليك وإن فعلت الشر شراً
ولست مكافئاً بالنكر عرفاً   ولست مكافئاً بالعرف نكراً
يسمى الحقد عيباً وهو مدح   كما يدعون حلو الحق مراً(٢)

وكأن الشاعر قد أحس فى حديثه عن الحقد ، وتصويره لعيوبه ومزاياه ، أن هذا لغو من القول ومزلق للعقاب عند ربه ، فتوجه إلى الله بالتوبة والندم يقول : —

لا تخلط الحب بالتقوى فتعطفنا   على المقاس عذاب الهجر والبين
ولم نبع قط دنيانا بآخرة   ومثلنا لا يبيع النقد بالدين(٣)

ويقول :

حتى متى نشترى دنيا بآخرة   سفاهة ونبيع الفوق بالدون
معللين بآمال تخادعنـــا   وزخرف من غرور العيش موضون(٤)

اخفاقه :

لو أن شاعراً غير ابن الرومى بلغ مبلغه ، من القدرة الساحرة فى شعره والعبقرية الفذة فى تصويره والإحاطة والشمول والإستقصاء فى كل ما يصوره ، لأصبح أشهر الشعراء فى عصره ، وأقربهم إلى الممدوحين والمطربين ، ولما أخفق فى حياته ، وكما أخفق ابن الرومى بشخصيته وسلوكه وتكوينه ، أخفق الشاعر وكابد مرارة الفشل ، ولوعة الهزيمة ، وهو يظن أن الناس ومن حوله هم وحدهم أسباب الهزيمة والإخفاق .

يقول لصاحبه :

لا يرانى أهلا لملك الظهارى   ولا موضع المطايا الرغاب

ويقول :

لا تصمم على عقابك إيا   ى إذا أحسن الزمان الحابى

ويندب حظه للزمان وأهله ويقول :

كلما أحسن الزمان أبى الإحسان   يا للعجاب كل العجـــاب

(١) المخطوط ورقه ٩ ج ٣ (٢) المخطوط ٢٨١ ج ٢ (٣) المخطوط ٣٨٠ ج ٤
(٤) المخطوط ٣٨٠ ج ٤

لم أكن دون مالكى هذه الأملاك لو أنصف الزمان المحابى
آتيا ما أتى الزمان من الظلم وهاتيك منك سوط عذاب(١)

ويقول :

نعم أنا ممنوع الذى لست كفوءه أتمنعنى قوتى من العرض الأدنى
أذو آلة فاستخدمونى لآلتى بقوتى أولا فارزقونى مع الزمنى
ألا يا عباد الله ما بال حاجة أعالجها تدرى بأودية المضنى
هبونى امرأ لاحظ فيه لمجتن أما فى اصطناع العرف مكرمة تبنى
عفاء على الدنيا إذا ساء رأيكم فما هى بالدار الدميثة للسكنى(٢)

وليس الأمر كما تصور الشاعر فالناس إنما هم سبب واحد من أسباب إخفاقه ، بل أضعف الأسباب ، لأن الرجل بسلوكه وشخصه ، يستطيع أن يكسب عطف الناس وحبهم إياه ، وقد حصل من هو مثله ، بل من هو أقل منه بقليل وهو أبو عبادة البحترى على كل ما يريد من آمال .

ويبدو أن معظم الأسباب ترجع إلى الشاعر نفسه ، وإن أخــذنا بالمجتمع من حوله باللوم على أنه لا يسوغ لنا أن نقول : إن المجتمع كله قد جفاه ، وحرمه من العطية وسخط عليه ، ولكن بعضه قد أعطاه الهبات ، ومنحه العطايا ، والبحترى يشهد على ذلك بإقراره أن ما صنعه معه ليس تقية ولا خوفا منه وإنما رحمة وشفقة عليه ، أدلى برأيه فى قصيدة لابن الرومى يمدح فيها والد أبى عيسى بن صاعدة ، وقدر ثوابها وما تستحق من عطاء فقال البحترى : يعطى لكل بيت ديناراً . هكذا ورد فى الأخبار عن المرزبانى(٣) ولو تطرق الشك إلى هذا الخبر ، فعندنا الدليل القاطع على أن الشاعر لم يحرم من العطايا الوافرة والهبات الغزيرة وذلك من شعره :

يقول ابن الرومى :

لا تصمم على عقابك إيا ى إذا أحسى الزمان ثوابى
كم نوال مبارك قد قا د نوالا إلى طوع الجناب
وأمور تيسرت وأمور بالمفاتيح منك والأسباب
كنت تأتى الجميل وتنكر ت فعاتبت مجملا فى العتاب
فأتنف توبة وراجع فعالا ترتضيه الأسلاف للأعقاب(٤)

---

(١) المخطوط ورقة ٨٩ ج ١ (٢) الموشح المرزبانى تحقيق البجاوى ١٩٦٥ ص ٥٧٣
(٣) الموشح : المرزبانى ص ٥٧ — تحقيق البجاوى ١٩٦٥ م . (٤) المخطوط ٨٩ ج ١

ولكن سوء تصرفه مع الممدوح منعه من مواصلة العطايا ومتابعة الهبات ، وكان على الممدوح ألا يقطع عنه المدد ، وبخاصة أن الشاعر قد لا يكون له ذنب ولا حيلة فى الجفاء ، وذلك لأسباب ترجع إلى تكوين إبن الرومى وطبيعته التى فرضت على ذاته طابعاً معيناً ، وسلوكا فريداً ، حدد علاقته بالمجتمع ودرجة التعامل معه ، ويمكن توضيح دواعى الإخفاق وأسباب الفشل التى جنت عليه فى حياته ومجتمعه فيما يلى :

١ — أن الشاعر كان يكره الأسفار ، ولا يحب التقلب فى الرحلات ، ويطمئن إلى إلى الراحة ، ويستريح إلى الاقامة ، وخير ما يمثل ذلك قصيدته فى عنت الدهر ، حيث دعاه أبو العباس ابن ثوابة أحد الأغنياء فى سامرا ، ليجزل له العطاء ، لكن الشاعر رد عليه بالإحجام لخوفه من الرحلات ، وخشيته من الأسفار ، وإنه يؤثر الإقامة والفقر على السفر والغنى ، والقصيدة مطلعها :

دع اللوم إن اللوم عون النوائب ... ولا تتجاوز فيه حد المعاتب

ومنها :

حضضت على حطي لنارى فلاتدع ... لك الخير تحذيرى شرار المحاطب
وأنكرت إشفاقى وليس بمانعى ... طلابى أن أبقى طلاب المكاسب
ومن يلق ما لاقيت فى كل مجتنى ... من الشوك يزهد فى الثمار الاطايب
أذاقتنى الأسفار ماكره الغنى ... إلى وأغرانى برفض المطالب(١)

وإن أرغم نفسه على السفر لبعلبك كره ذلك على الرغم من سهولة طريقها وذلك فى قوله :

لقد أنكرتنى بعلبك وأهلها ... بل الأرض بل بغداد صاحبة البتل(٢)

فالسفر إلى بلد واحد يجعله يكره البلاد كلها حتى مسقط رأسه بغداد ، لأنه سافر منها ، وكأن بغداد طردته إلى ما يكره .

ويرسل من بعلبك إلى أصحابه فى بغداد ، ويقسم لهم ألا يفارقهم بعد ذلك مدى الدهر فالعيش الهنىء فى ظل بغداد ومن ألفهم فيها ، وما الموت والهجر إلا فى البعد عن بغداد يقول :

وان يقض لى الله الرجوع فإنه ... على له ألا أفارقكم نذر
ولا ابتغى عنكم شخوصا ورحلة ... مدى الدهر الا أن يفرقنا الدهر

---

(١) المخطوط ٦٩ وما بعدها جـ ١
(٢) الديوان المصور الجزء الثالث .

فما العيش إلا قرب من أنت إلفه   وما الموت إلا نأيه عنك والهجر(١)

٢ — كان الشاعر مثالا فريداً فى عصره غريب السلوك وحيد الطبع ، فالمجتمع فى عالم ، وهو وحده فى عالم آخر ، لأنه غريب فى جشعه ونهمه ، غريب فى توفز حسه وحدة شعوره ، غريب فى ضعف جسمه واختلال أعصابه ، غريب فى شدة احجامه ومخاوفه ، وهو فى ذلك ليس فى غنى يكفيه مطالب الحياة ، ولا فى منعة وقوة ترد عنه كيد العابثين الماجنين ، ولا فى عصبة من أهله يحمون ظهره ، ويذبون عنه ، ولذا أصبح هدفاً لكل رام ولاه ، ونصبا لكل سفيه وماجن ، ومضربا لكل لئيم وساخر .

يقول العقاد : « كان غريب الأطوار ، ولا أضر على الضعيف الحيلة من غرابة الأطوار ، فيفرح لغير ما يوجب الفرح ، ويعجب والناس لا يعجبون ، ويثور والناس لا يثورون ويطرق وهم لا يعرفون فيم يطرق ، ويهلل وهم لا يشعرون فيم يهلل ؟ فهم اذن فى حل من السخط به وهضم حقه »(٢) .

هكذا كان ابن الرومى غريبا فى كل شىء وقد أحس بذلك فقال : —

ورجال تغلبوا بزمان   أنا فيه وفيهم ذو اغتراب(٣)

ويقول :

أخاف على نفسى وأرجو مفازها   وأستار غيب الله دون العواقب

ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى   ومن أين والغايات بعد المذاهب(٤)

٣ — كان الشاعر بسيط المعاملة طيب النية ، ساذج التصرف ، يأخذ بالظاهر لا يعرف الحيلة ، ولا يسبر الأعماق فى التعامل بينه وبين الناس ، فى عصر كانت السطوة والقوة والغنى لأصحاب الحيل والدهاء ، وأرباب المكر والدسيسة ، وأصحاب الكيد والختل ، لذا سار الناس وتوقف هو ، وطعموا وجاع ، وتنعموا وتردى فى البؤس . واقتنوا الضياع ، وترب ابن الرومى وافتقر ، وهو يشهد بذلك للناس ، وعلى نفسه يقول مخاطبا الشطرنجى :

واحتراس الدهاة منك واعصافـ   ـك بالأقوياء والضعفاء

على تدابيرك اللطاف اللواتى   هن أخفى من مستسر الهباء

---

(١) الديوان المصور ٢٢٢ ج ٢
(٢) ابن الرومى العقاد ١٩١
(٣) المخطوط ٩٥ ج ١
(٤) المخطوط ٩٠ ج ١

لك مكر يدب فى القوم أخفى　　　من دبيب الغذاء فى الأعضاء[1]

وحينما يجارى المجتمع فى اللؤم ، لا نصدق منه ذلك لأن اعترافه على نفسه ، مع فقره وغربته بين الناس ، يدل على أنه خال من صفة اللؤم ، ومجرد عنها ، ولو كان لئيما لعالج نفسه مع ممدوحيه ، ولاطفهم وكسب رضاهم ، ولما ساعد مجتمعه على أن يتعقبوه ويحرموه ويهينوه ، وسافر الى ابن ثوابه وغرق فى عطاياه ، ولكنه قليل الحيلة ، والناس من حوله لا يعرفون فى حياتهم الا الحيلة والمخاتلة .

لؤمت لعمر الله فيما أتيته　　　وان كنت من قوم كرام المناصب

ولا بد أن يلؤم المرء نازعا　　　الى الحمأ المسنون ضربة لازب[2]

ويقول فى القاسم بن عبدالله .

يرمى بدهياء من فلائقه　　　فى وجه دهياء من فلائقها[3]

ويقول فى الأتراك .

ترى شبه الآساد فيهم مبينا　　　ولكنهم أدهى دهاء وأنكر[4]

٤ — والسر فى كل الأسباب التى أدت إلى اخفاقه فى الحياة ، وحرمانه من مطايبها ، مع مع علو منزلته الشعرية ، وقدرته فى التصوير الأدبى ، وتوفر أسباب المجد له ، وقد تم لمن هو مثله أو أقل منه ، ومع كل هذا والناس ينفرون منه ، ويشكون فى أمره ويتشاءمون من لقائه ، والتعامل معه أو مع من يتصل به فكأن شؤم ابن الرومى قد سرى فيهم وأعداهم فخافوه وهابوه وابتعدوا عنه وعبثوا به .

وهذا السر يرجع الى البلاء الذى أصاب المجتمع كله ويعود الى ظروف العصر ومتطلبات الحضارة ، فأقبل الخاصة من الناس على علم الفلك والنجوم ، والعامة منهم يتأثرون بذلك ويثقفون أنفسهم بما جاء على دولة الإسلام ، والجميع يهتم بابراج السعد والنحس ، ومطالع الخير والسوء ، حتى أصبح من الضرورى فى النديم أن يكون منجما ليوجه رأى الخليفة وحركات الجيش ، حسب المطالع وظهور النجوم ، وليس ذلك بعجيب فهذا عصر الفرس الذين يصرون على اظهار حضارتهم ، وكشف أرومتهم ، لينالوا الحظوة فى المجتمع ، والمنزلة الأولى فى دولة أبناء بناتهم .

ويؤيد ذلك ما رويناه عن أخيه الأديب مسبقا وكان يكتب لرجل ، فعزل بعد مدة وعبث به آل أبى شيخ أصدقاؤه ، وقالوا عزله شؤمك ، وكان بين آل أبى شيخ وابن سعدان

---

(١) المخطوط ورقة ٦ ج ١　　(٢) المخطوط ٦١ ج ١

(٣) المخطوط ١٢٠ ج ٣　　(٤) الديوان المصور ٢٨٨ ج ٢

جوذب المؤيد مودة فخرجوا إليه فى أيام المؤيد فأقاموا مدة وكان من المؤيد ما كان وتشتت أصحابه فكتب إليهم أبو جعفر « أخو ابن الرومى » يولع بهم ويقول : أنا شؤمى عزال وشؤمكم قتال وسيأتيكم فى هذا نظم على بن العباس « أخوه » ومنه :

أنا شؤمى فيما تقولون عزا ل ولكن شؤمكم قتال

بالذى أدرك المؤيد منكم وابن سعدان تضرب الأمثال

إن شؤما حلت به عقدة الملك لشؤم تزول منه الجبال (١)

فشؤم ابن الرومى تعدى إلى أخيه وشؤم أخيه تعدى للرجل الذى كان يعمل عنده فعزل عن العمل ، ثم تعدى إلى آل أبى شيخ لمعرفتهم بأخى الشاعر وأعدى شؤمهم صديقهم ابن سعدان وأعدى بن سعدان المؤيد وكان ما كان للمؤيد فتفرقوا جميعاً وتحطمت آمالهم .

فانظر كيف تشاءم الناس من الشاعر ، وحذروا منه وخافوه ، فالإخفاق والفشل وباء يسرى فيمن يتصل بالشاعر .

وربما ضاعف من هذا الإخفاق ونفرة الناس عنه هجاؤه اللاذع وقبحه الفاحش إذا غضب أو ثار ، فقد كان ابن الرومى من أشد الشعراء هجاء ، لذا خافوه وتحاموا عنه حتى لا يعرفهم فيصليهم بناره .

ولاحساسه بشؤمه كان دائماً يلح كثيراً فى دفع تهمة الشؤم عنه وأنه ليس سبباً فى مجافاة الناس له .

يقول وهو يستجلب عطف بنى وهب ، وقد علم عنهم أن بعض الناس أوغروا صدورهم على الشاعر ، خشية أن يلحقهم شؤمه ويعديهم بإخفاقه فكتب إليهم أنه ليس مشؤماً ، بل هو ميمون ومسعود ، وكذب الوشاة عنى فيما قالوا :

ولقد خفت والبرىء ملقى كل ذنب برأسه معصوب

إن يقول الوشاة بى إن شؤمى قاد هذا الشخوص والإفك حوب

وجوابى إن لم يغيبوا وشاهد ت فزالت مخاوف ونكوب

أنا من لا يشك فى اليمن منه أو يمين ابن جرة ويحوب

جثث والدولة السعيدة خلفى رأسها فى مقادتى مجنوب (٢)

وقد ذكر العقاد أن عصر الشاعر كان عصر السعود والنحوس فقال : « نحسب الإنسان

(١) الدوان المصور الجزء الثالث .

(٢) المخطوط ٩٤ ج١

فى ذلك العصر أن تلوح عليه شبهة من السعد أو النحس فيقال : إنه مسعود أو منحوس ، ثم تلزمه التهمة وتلتصق به طول حياته ، وتشتد لصوقاً به ، فهو فى أحواله وأخلاقه ما يغرى الناس بالإلحاح فيها والإصرار عليها (١) .

٥ — طيرته التى جنت عليه كثيراً ، وقطعت عليه بعض أرزاقه فكان إذا تطير هلك هو ومن معه ، وكان سبب الأسباب فى الإحجام عن سامرا هو الخوف والتشاؤم كما هو واضح فى قصيدة عنت الدهر وقد ذكرنا منها أمثلة كثيرة لا داعى لتكرارها هنا ولما كان تطيره متصلا بأخلاقه وطبعه لذا سنعرضه فى بسط وسعة .

تشاؤمه :

لقد كاد العلماء والأدباء والنقاد قديما وحديثاً يجمعون على طيرة ابن الرومى وتشاؤمه، وفسروا أسباب ذلك ، فمعظمها ترجع إلى ضعف صحته وتعاور الأسقام على جسمه ، واختلال تركيبه وهذا هو الرائج والراجح . فىالنقد الحديث(٢)وبعد التقدم العلمى فى علوم الطب والتشريح والنفس بلغ الأمر ببعضهم أن ألف كتابا لهذا الغرض وأسماه « ثقافة الناقد الأدبى » ليتعرف الناقد على الأصول العلمية التى يكتشف بها شخصية أدبية كابن الرومى مثلا ، وأخيراً وصل إلى أن طيرة الشاعر ترجع طبياً إلى اختلال أعصابه ، وهذا ما عليه نقادنا جميعاً فى العصر الحديث .

ولا أختلف معهم كثيراً فى هذا إلا فى نوعية الأسباب وإن كنا نلتقى جميعاً من حيث النتيجة والحكم على الشاعر بالطيرة .

فهم جميعاً يرجعون الطيرة الى سبب واحد ، وهو اختلال الأعصاب فالعقاد يقول : « فأصل البواعث التى أصابت ابن الرومى بداء الطيرة هو اختلال الأعصاب قبل كل شيء(٣) »

ويقول محمد النويهى : « فضعف صحته وكثرة أمراضه واجتماع كل تلك الاختلافات الجسمانية التى فصلنا القول فيها ... وما نشأ عنها من حدة الإحساس ... وعظم الطيرة ، الى حد ملأ عقله بالوساوس والأوهام ، فجعله يتخيل الأخاييل وجعله شديد الاضطراب ، عظيم القلق كثير المخاوف (٤) » .

ويقول المازنى : « على أنه ليس أقطع فى الدلالة على اضطراب أعصابه من طيرته وكان مفرطاً فيها » ويقول : « ولكنه كان يكابد ما هو أدهى من ذلك ، انه كان مصاباً

---

(١) ابن الرومى العقاد ٢٠٣ (٢) العقاد والمازنى و د. طه حسين

(٣) ابن الرومى العقاد ٢٠٦ / (٤) ثقافة الناقد الأدبى ص ٢٨١

هذا هو سبب الأسباب عندهم إن لم يكن السبب الوحيد وليس غيره ذى أثر يذكر .

ولكن الأسباب وهى كثيرة هى فى ذاتها علل أخرى ينبغى أن نعدها ونعتمد عليها فى طيرة الرجل ، وهى لا ترجع إلى اختلال الجسم فحسب ، ولكنها ترجع فى الجملة إلى الشاعر نفسه واختياره ، والمجتمع من حوله ، وظروف عصره .

فأما الشاعر نفسه فقد أسهم فى طيرته بنصيب وافر ، ولقد علمنا من شعره أنه كان شابا يافعا ناضرا حتى العشرين ، فطواه بإسرافه ونهمه فى كل شىء .

وظلم الليالى أنهن أشبنى لعشرين يحدوهن حول مجرم[2]

وقوله :

سلبت سواد العارضين وقبله بياضهما المحمود إذ أنا أمرد[3]

وقوله :

لا تيأس أن يثوب ذو سرف يضحى ويمسى كثيرة حوبه[4]

ولو فرضنا أن الشاعر من يوم أن ولد ، كان ضعيف البنية على الرغم من أن أمه قد عمرت وماتت كبيرة السن كما يدل شعره على ذلك ، وعلى حسن صحتها ، وكمال تركيبها — ثم حافظ هو على صحته ولم يسرف فى فنائها ولم يجلب لها الضعف لتغير حاله ، وبلغ مابلغ ، ولكنه جنى على صحته بالهزال ، وعلى عقله بالوساوس والأوهام ، ولو أن إنسانا صحيح الجسم والعقل ، وأسرف فى المتع واللذائذ ، واستمر على ذلك وتابع فإنه يصل ولا ريب إلى الجنون لا التشاؤم فحسب .

وضعف الإيمان عند الشاعر وصلته الواهية بربه وخالقه كانت سبباً فى ترديه وتشاؤمه ، لأن الدين يعلم المؤمن أن يكون متفائلا فالله يحب الفأل الحسن ، أما الشاعر لضعف إيمانه فقد كان التشاؤم كان يلازم الرجل فى وقت الفرح والحزن والإقبال والإعراض والرغبة والنفور فينتحل الأسباب ويختلق الدواعى ، ويلائم بين الشوارد ويجمع بين الخواطر ويؤلف من ذلك كله ما يخافه ويخشاه ويحذره من الحياة ، فالحياة عنده حذر ورهبة ، لا إقبال وإحسان ، فاقبال عنده « لا بقاء » وحسن « نحس » وهكذا .

(١) حصاد الهشيم المازنى ٢٩١ ، ٢٩٥ (٢) المخطوط ٢٤٢ ج ٤

(٣) المخطوط ١٧٨ ج ١ (٤) المخطوط ١٠١ ج ١

وقوة الايمان تحض على التسليم لله وحسن النية ، والإنفتاح على الحياة ، وضعف الإيمان يجلب على صاحبه كل شر ، وينتهى فى كل شىء إلى السوء والشر .

يقول عن نفسه :

تضعضعه الأوقات وهى بقاؤه ... وتغتاله الأوقات وهى له طعم(١)

لذا أضحى شديد الحذر ، سريع الإلتفات ، متوجس النفس ، مذعور الحركات ، جاء فى الخبر أنه « كان شديد التغير ، سريع الإنقلاب ، ضيق الصدر قليل الصبر ، مفرط الطيرة ، غاليا فيها ، وكان عظيم التخوف كثير التجسس ، تراه من يلقاه كالمتوجس المذعور(٢)

والطيرة عند ابن الرومى أصبحت موضوعا هاما يشتغل به ويفكر فيه ، ويقيم الأدلة على تبريره وإن كانت خطأ ، ليصحح طريقته ، ويبرر موقفه ، كما يتورط الرجل فى أمر ، فأنه يستقصى ويبعد النظر ، وينتحل الأسباب لينفى الخطأ عن نفسه ، ويزين عمله بالصحة والصواب .

وكذلك كان ابن الرومى عندما ابتلى بتشاؤمه وطيرته ، جاء فى الخبر أن على بن العباس الرومى كان « مفرط الطيرة ، شديد الغلو فيهـا قال عبد الله بن المسيب : وكان يحتج لها ويقول : « ان النبى صلى الله عليه وسلم ، كان يحب الفأل ويكره الطيرة ، أفتراه كان يتفاءل بالشىء ولا يتطير من ضده ؟ ويقول : ان النبى صلى الله عليه وسلم ومر برجل وهو يرجل ناقته ويقول : يا ملعونة . فقال : صلى الله عليه وسلم لا يصحبنا ملعون ، وأن عليا رضى الله عنه كان لا يغزو غزاة والقمر فى العقرب ويزعم أن الطيرة موجودة فى الطباع قائمة فيهـا وأن بعض الناس هى فى طباعهم أظهر منها فى بعض وأن الأكثر فى الناس إذا لقى مايكرهه قال : على وجه من أصبحت اليوم(٣).

وواضح أن الشاعر يستمد من النصوص المحمدية ما يشفى غلته ، ويبرر موقفه فالرسول قال ذلك وطبق الفأل فى حياته ، ولم يطبق الطيرة فلا يتطير من الشىء ولـكنه كان يتفاءل منه ، ثم يمضى لحاجته ولا يصده صاد عنها ، ولـكن ابن الرومى بضعف إيمانه وعدم ثقته بالله ، طبق الطيرة فى كل حياته ، فيتطير ويتشاءم ويرجع عن قصده ويعطل عمله ، ولم يطبق

---

(١) المخطوط ٢٩٧ ج ٤ (٢) ذيل زهر الاداب طبع المطبعة الرحمانية ٢٤٢

(٣) زهر الأداب : الحصرى ج ٢ ص ٤٩٢

الفأل الحسن إلا نادراً . فمن شدة طيرته ، كان يحول الفأل الحسن الى تشاؤم ، لأنه غلب عليه فى كل شىء فمثلا « سكان السفينة » يتحول عنده الى ناكس ، وغير ذلك يقول :

لأن لفظه « السكان » اذا قلبت حروفها « ناكس » لا شك فى ذاكا

فالرسول قال : لا يصحبنا ملعون ومضى إلى عمله ولكن الشاعر يحول « إقبال » إلى « لابقاء » ويرجع عن قصده ، فشتان ما يهدف إليه الرسول وبين تبريرات العاجز الضعيف المنهوك المتطير أبدا .

وأما المجتمع الذى يعيش فيه ، وظروف العصر التى ألحت عليه ، فلم تقل أهمية وشأنا عما سبق ، سواء أكان ذلك من الناس ، أو من ظروف العصر .

وسبب إخفاقه فى الحياة بالمعنى السابق ، يرجع إلى ظلم الناس ، وظروف العصر التى كانت من دواعى كيانه وقوامه ، حتى تميز عن غيره ، فعزلته عن المجتمع ، جملته لا يفكر إلا فى الأسباب ، التى أبعدته عنه فى ضعف ، وأفردته عن مطالبه ورغباته فى فقر ، فتحير وتراجع ولم يقطع الأمر فى أسباب فشله حتى يسير مع السائرين ، ولكنه أخذ يفند أسباب الفشل ودواعيه ، فاستسلم للهزيمة وظل صريع أفكاره ووساوسه فما تحرك إلى مكان إلا تخيل له الفشل فناب ، لأن أسباب الفشل فى عصره اجتمعت عليه كلها ، فكان يحذر من كل خطوة يخطوها ، ويتجنب كل لقاء يجد ، وإذا تم له الأمر فى التحرك واللقاء ، عاود نفسه وكرر وتخيل وتوهم مآثر الجوع والوحدة ، والهلاك والظلمة .

كان لبعض الناس العابثين به أثر فى تمكن التشاؤم من نفسه . فعاوده المرة بعد المرة ، والفينة بعد الفينة ، حتى تأصلت هذه الصفة من نفسه وتمكنت من حسه ، وأصبحت كالظل لا تفارقه أينما حل .

فالأخفش الصغير(١) كان يتغشاه الفترة بعد الفترة ، ليشب نار الطيرة عنده وينميها ، يوما بعد يوم وتابعه فى ذلك حتى ضاق به الشاعر ، فهجاه وسبه ، ثم عادت مودتهما فترة ، ولكن الأخفش ، أبت عليه مشاكسته له ، فعاد إليه كما كان من قبل .

« كان على بن العباس الرومى لا يدع التطير والتفاؤل فى جميع حركاته وتصرفاته ، وكان

---

(١) صاحب طبقات النحويين توفى ٣٧٩ هـ
(٢) زهر الآداب : الحصرى ص ٤٩٦ جـ ٢

على بن سليمان الأخفش قد أولع باعتراضه فى مخارجه ، فيما يتطير به ، فربما صرفه بذلك عن وجهه ، وربما دق عليه الباب فإذا قال : من أنت ؟ قال الشؤم والبلاء ، فلا يبرح على ابن العباس يوم ذاك فلما شق عليه ذلك هجاه فأقذع فى هجائه ، فكان الأخفش يستعمل حفظ هجائه ثم يمليه فيما يملى من الأخبار والأشعار على أصحابه فلما رأى على بن العباس أن الأخفش لا يألم لهجائه أقصر عنه(١) » .

وجاء أيضاً : (وكان أبو الحسن على بن سليمان الأخفش غلام أبى العباس المبرد فى عصر ابن الرومى شابا مترفا ومليحا مستظرفا ، وكان يعبث فيأتيه بسحر ، فيقرع الباب فيقال له : من أنت ؟ فيقول : قولوا لأبى الحسن مرة بن حنظلة ، فيتطير لقوله ، ويقيم الأيام لا يخرج من داره ، وذلك سبب هجائه إياه . . . فاعتذر إليه وتشفع عنده بجماعة من أهل بغداد ، وكان الأخفش أكثر الناس إخوانا فقبل عذره ومدحه بقصيدته التى يقول فيها .

ذكر الأخفش القديم فقلنا   إن للأخفش الحديث لفضلا

ثم عاد على بن سليمان إلى أذاه ، واتصل به أن رجلا عرض عليه قصيدة من شعره فطعن عليها فقال قصيدته التى يقول فيها :

ما بلغت بى الخطوب رتبة   تفهم عنه الكلاب والقردة

ولا أنا بالمفهم البهائم والطير   سليمان قاهر المردة

ولعل سائلا يقول : لا يكفى واحد فقط من مجتمع لإثارة طيرة الشاعر ، ولكن مثل الأخفش جاره الذى كان يتعقبه ويتتبعه كفيل بإزهاق روحه ، وقد جرت العادة على أن أحدنا لو أوعز إلى طفل ليهزأ برجل ما ، المرة بعد المرة لأصابه فى عقله إن كان مثل ابن الرومى ، ولا ندرى لعل هناك أكثر من أخفش لأن أخبار الرجل نادرة .

ومن هذه الأخبار من كان يترصد لطيرته ، ذلك الرجل الأحدب الذى كان يتابع ويراقب حركات الشاعر وبخاصة فى الصباح فإذا رآه ابن الرومى أغلق بابه ، وظل فى بيته اياما وهكذا .

---

(١) زهر الآداب : الحصرى ج ٢ ٤٩٦ ، ٤٩٧

قال على بن إبراهيم كاتب مسروق البلخى ، كنت بدارى جالسا ، فإذا حجارة سقطت بالقرب منى ، فبادرت هاربا ، وأمرت الغلام بالصعود إلى السطح ، والنظر إلى كل ناحية من أين تأتينا الحجارة فقال: إمرأة من دار ابن الرومى الشاعر قد تشوفت وقالت اتقوا الله فينا واسقونا جرة ماء وإلا هلكنا ، فقد مات من عندنا عطشاً ، فتقدمت إلى إمرأة عندنا ذات عقل ومعرفة أن تصعد إليها وتخاطبها ففعلت ، وبادرت بالجرة وأتبعتها شيئاً من المأكولات ثم عادت إلى فقالت :ذكرت المرأة أن الباب مقفل عليها من ثلاث بسبب طيرة ابن الرومى ، وذلك أنه يلبس ثيابه كل يوم ويتعوذ ، ويصير إلى الباب والمفتاح معه ، فيضع عينه على ثقب فى خشب الباب فتقع عينه على جار له كان نازلا بإزائه وكان أحدب يقعد كل يوم على بابه فإذا نظر إليه رجع وخلع ثيابه وقال لا يفتح أحد الباب . فعجبت لحديثها ، وبعثت بخادم كان لى يعرفه وأمرته أن يجلس بإزائه ، وكأن العين تميل إليه ، وتقدمت إلى بعض أعوانى أن يدعو الجار الأحدب ، فلما حضر عندى أرسلت وراءه غلامى لينهض إلى ابن الرومى ويستدعيه الحضور فإنى لجالس ومعى الأحدب إذ وافى أبو حذيفة الطرسوسى ومعه برذعة الموسوس صاحب المعتمد ، ودخل ابن الرومى ، فلما تخطى عتبة باب الصحن عثر فانقطع شسع نعله فدخل مذعوراً ، وكان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظرا يدل على تغير حال ، فدخل وهو لا يرى جاره المتطير منه ، فقلت له ياأبا الحسن أيكون شىء فى خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ونظرك إلى وجهه الجميل ؟ فقال : قد لحقنى ما رأيت من العثرة لأنى فكرت أن به عاهة وهى قطع أنثييه: قال: برذعة ، وشيخنا يتطير، قلت: نعم ويفرط قال : من هو قلت : على بن العباس قال : الشاعر قلت : نعم فأقبل عليه وأنشده :

ولما رأيت الدهر يؤذن صرفه ... بتفريق ما بينى وبين الحبايب
رجعت إلى نفسى فوطنتها على ... ركوب جميل الصبر عند النوائب
ومن صحب الدنيا على جور حكمها ... فأيامه محفوفة بالمصائب
فخذ خلسة من كل يوم تعيشه ... وكن حذرا من كامنات العواقب
ودع عنك ذكر الفأل والزجر واطرح ... تطير جار أو تفاؤل صاحب

فبقى ابن الرومى باهتاً ينظر إليه ، ولم أدر أنه شغل نفسه بحفظ ما أنشده ، ثم قام

---

(١) زهر الآداب : الحصرى ج ٥ ص ٤٠٨

أبو حذيفة الطرسوسي وبرذعة معه ، فحلف ابن الرومي لا يتطير أبداً من هذا ، ولا من غيره وأومأ إلى جاره ، فقلت . وهذا الفكر أيضاً من التطير فأمسك وعجب من جودة الشعر ومعناه ، وحسن مأتاه ، فقلت له ليتنا كتبناه قال : أكتبه فقد حفظته وأملاه علي[١].

ويدل هذا — فوق التطير الشديد — أن الأحدب كان ينتابه كل صباح ويرده عن قصده، حتى قال فيه صورة ساخرة تصور حدبه ، كما يدل على أن غير الأخفش كان يعبث به ، ويتلاعب بطيرته ، وأنه على الرغم من عزمه على ترك التطير ، فقد أشار إليه جاره علي بن إبراهيم بأن التفكير في مثل الأحدب تطير ، مما جعل ابن الرومي يمسك عن الكلام .

وهذا رجل آخر من أهل عصره ، يتابع ابن الرومي في طيرته ، جاء في الخبر عن ابن الرومي أنه : (كان كثير التطير جدا وله فيه أخبار غريبة وكان أصحابه يعبثون به فأرسل اليه بعض أصحابه يوماً بغلام اسمه حسن فطرق الباب عليه ، فقال : من قال : حسن فيتفاءل ويخرج . وإذا على باب داره حانوت خياط قد صلب عليها درفتين كهيئة اللام ، ورأى تحتها نوى تمر فتطير ، وقال : هذا يشير بأن لا تمر ، ورجع ولم يذهب معه)[٢] .

وهكذا كان الكثير من الناس يلحون على معاكسته في إصرار وعناد ، ليتفكهوا بأمره، فقد أرسلوا إليه حسناً ليخرج فيرى الحانوت الذي رصدوه له على الباب ، فيرجع كما كان .

على أننا لا نظلم المجتمع كله ، فقد كان هناك من يعالج علته ، ويحسن مقابلته ويجهد نفسه في ذلك ، حتى لا يتطير الرجل ، ولكن الطيرة أخذت منه كل شيء ولم تبق للفأل شيئا ، ثم يحتج للطيرة ويبرر مذهبه فيها .

جاء في الخبر (كان كثير الطيرة ، ربما أقام المدة الطويلة لا يتصرف ، تطيرا بسوء ما يراه ويسمعه ، حتى أن بعض إخوانه من الأمراء افتقده ، فأعلم بحاله في الطيرة ، فبعث خادماً اسمه إقبال ليتفاءل به ، فلما أخذ أهبته للركوب قال للخادم انصرف إلى مولاك فأنت ناقص ومعكوس اسمك لابقا .... وابن الرومي القائل : (الفأل لسان الزمان ، والطيرة عنوان الحدثان[٣]) .

---

(١) زهر الآداب : الحصري ج ٢ ص ٤٩٨

(٢) معاهد التنصيص : علي بن الرحمن العباسي المتوفى ٠٦٣ ج ٢ ص ١١٨ .

(٣) العمدة : ابن رشيق ج١ ص ٦٩

ولقد فطن بعض القدماء الى سر تطيره فذكر المسعودى فى مروج الذهب أن ابن الرومى يغلب عليه مرض السوداء وهى مرض ناتج عن ضيق فى النفس ، مما يجعل صاحبها ينظر الى الحياة بمنظار أسود فيكون متشائما ومتطيرا ، وهذا قريب من تفسير المحدثين فى التطير الذى يرجع الى خلل فى الأعصاب .

يقول المسعودى : (وكان ابن الرومى الأغلب عليه من الأخلاط السوداء ، وكان شرها نهما[١]) .

وفطن عبيد الله بن سليمان بن وهب إلى خلل عقل ابن الرومى بعد أن أنشد شعره، فقال عبيد الله لابنه القاسم (إن لسان هذا أطول من عقله ، فأنشد ، وخاطبه فرآه مضطرب العقل جاهلا فقال لأبى الحسين بينه وبينه : إن لسان هذا أطول من عقله ومن هذه صورته؟ لا تؤمن عقاربه عند أول عتب ، ولا يفكر فى عاقبته فاخرجه عنك[٢] .

وقال عنه أبو العلا المعرى ما يشبه ذلك : (إن أدبه كان أكثر من عقله ... ومن أولع بالطيرة لم ير فيها من حيره)[٣]

واتجه العقاد إلى أن الشاعر لم يتطير إلا وهو فى الخمسين من عمره واستدل على ذلك حينما تشاءم الشاعر من الجوارى التى أهداها له القاسم بن عبيد الله يوم المهرجان سنة ثمان وسبعين ومائتين وفيهن حولاء وعوراً وعجوز فتطير وكتب إليه قائلا فى مطلعها :

أيها المتحفى بحول وعور أين كانت منك الوجوه الحسان

واستدل العقاد أيضاً على هذا بأن الأخفش لم يرو هجاء ابن الرومى إلا بعد الثلاثين من عمره وقد ولد غالباً سنة ست وثلاثين ومائتين ، فإذا أضفنا إليه سن الأستاذية ثلاثين عاماً ، كان إملاؤه الهجاء على الأقل سنة ست وستين ومائتين وابن الرومى وقتذاك يكون قد قارب الخمسين سنة وهو السن الذى كان قد تطير فيه[٤] .

---

(١) مروج الذهب . المسعودى ج ٤ ص ٣٨٤
(٢) آمال الشريف الرضى
(٣) رسالة الغفران : أبو العلاء المعرى : تحقيق كيلانى
(٤) ابن الرومى: العقاد ٢١٤

وما اعتمد عليه العقاد مما سبق دليل قوى يؤيد ما اتجهنا إليه وهو انطيرة ابن الرومى لاترجع إلى خلل فى أعصابه فقط ولكنها ترجع إلى ما قلت ووضحت إلى ظروف الشاعر وعصره ومجتمعه لأنها لو كانت ترجع إلى خلل فى الأعصاب — وقد ورث صفة الضعف عن أبيه الذى مات صغيراً، فأصبح الضعف سمة أسرته ، كما يتجه العقاد وغيره ، — لأصاب ابن الرومى التشاؤم فى سن العشرين أو قبلها، وهى السن التى حلت به الشيخوخة والكهولة عنده ، ولكن ابن الرومى عندنا إنما أصيب بالتطير والتشاؤم فى العشرين من عمره فهى بداية التطير ونهاية الإسراف فى شبابه فلما حل الشيب مع العشرين تنبه من غفلته وتحسر على شبابه وإسرافه ونعى ضعفه وسقمه وقسوة الدنيا عليه التى حرمته من أنضر مرحلة فى سرعة خاطفة ، فتردى فى الظلمة والشؤم .

هذا ما رويناه من الأخبار عن طيرته وتشاؤمه ، وهو يساند بقوة ما توحى به الصور الأدبية من التطير عنده ، بل هى عندى أقوى دليل على طيرة الشاعر ، وأصح برهان على تشاؤمه لأنها تعبر بصدق عن حسه وشعوره، وما أصدق التصوير الذى ينقل إلينا إحساس الشعراء وشعورهم ، وهذا هو جوهر بحثنا والغاية منه ولكنى وجدت أن الأخبار تعين فى الكشف عن الرجل وتوضح أسباب التطير عنده ، وما خفى من جوانبها المختلفة .

وأصدق صورة أدبية كلية على طيره الشاعر هى قصيدة « عنت الدهر » التى أرسلها إلى أبى العباس بن ثوابه يعتذر فيها عن السفر إليه لأنه يخاف الأسفار ، ويتطير منها ، وقد ذكرنا منها أمثلة وهذا مثل آخر فهو يخاف من الصحو ، ويتشاءم منه ، فقد لاقى العنت منه ، من ثلوج ، وسياط عذاب ، ورياح سافية ، وأخرى حاصبه يقول :

ولم أنس مالقيت أيام صحوه ... من الصر فيه والثلوج الأشاهب
ومازال ضاحى البر يضرب أهله ... بسوطى عذاب جامد بعد ذائب
فإن فاته قطر وثلج فأنه ... رهين بساف تارة أو بحاصب(١)

ويصور شؤمه فى الهدية التى اهداها اليه القاسم بن عبيد الله يوله المهرجان ، وهى جوار منهن عجوز وحولاء وعوراء ، وأنها كانت سبباً فى موت ابنه القاسم وجفاء بعض الإخوان فقال :

أيها المتحفى بحول وعور ... أين كانت عنك الوجوه الحسان

---

(١) المخطوط ورقة ٦١ ج١

فتحك المهرجان بالحول والعو | ر أرانا ما أعقب المرجان
كان من ذاك فقدك ابنتك الحر | ة مصبوغة بها الأكفان
وجفاني مؤمل لي خليل | لج منه الجفاء والهجران (١)

وهجاه مرة أحد الكتاب ويسمى : (طالب) فتشاءم منه ، وأخذ يصوره فى صورة منفرة يفزع منها الناس حتى يخافوه يقول منها :

وهل يتمارى الناس فى شؤم كاتب | لعينيه لون السيف والسيف قاضب
ويدعى أبوه (طالباً) وكفاكم | به طيرة أن المنية طالب
فاهربوا من طالب وابن طالب | فمن طالب مثليهما طار هارب(٢)

سخره :

طبع الشاعر المتمرد وحسه المرهف ، وغضبه السريع ، وحياته المريرة ، وطيرته وتشاؤمه ونقمة الحياة عليه ، ومجافاة الناس له ، كل هذا جعله يسخر من الحياة والناس ، حتى نفسه التى بين جنبيه .

والسخر عنده أقوى تأثيراً من الهجاء الذى اشتهر به ، ولن أطيل الحديث فى هذا لأن له موضعاً مستقلا ، سنتكلم فيه بالتفصيل عن الصورة الساخرة عند الشاعر(٣) ، وكلامنا هنا إنما هو من حيث طبعه ومزاجه ، فامتزج السخر بروح الشاعر وإحساسه ووجدانه ، وأصبحت الصورة الساخرة قطعة من حسه وشعوره ، وامتدادا لروحه وخواطره ، وتمثل لوحة فنية جميلة فى السخر ، لا تنقص من عناصر التصوير شيئا ، بل تشعرنا بالمرارة التى تعتصر الشاعر ، والإنتقام الذى يدفع به عن نفسه ، والسلاح الذى يسدده إلى من يضطهده ، يقول الشاعر مصوراً قصر أبى حفص الوراق الذميم :

وقصير تراه فوق يفاع | فتراه كأنه فى غيابه

---

(١) زهر الاداب : الحصرى ج ٢ ص ٤٩٢
(٢) المخطوط ٩٤ ج ١
(٣) الصورة الادبية فى شعر ابن الرومى : للمؤلف

لم تدع قفـــده يد الدهر حتى قمعت فيـــه طوله وشبابه(١)

وله فى قصير أعور أصلع :

أقصر وعـــور وصلع فى واحـــد
شواهـــد مقبـــولة ناهيك عن شواهـــد
تنبئنا عن رجـــل مستعمـــل المقافد
أقـأه القفـــد فأضحى قائما كقاعـــد(٢)

وسخر من نفسه مصوراً :

شغفت بالخود الحسان وما يصلح وجهى إلا لذى ورع
كى يعبد الله فى الفلاة ولا يشهد فيها مشاهد الجمع(٣)

(٥)

وفاته :

وابن الرومى على فراش الموت . يصور لنا خطأ الطبيب فى علاجه وأن خطأه هذا ، إنما هو صواب القدر وإصابة القضاء يقول :

غلط الطبيب على غلطة مورد عجزت محالتـــه عن الإصدار
والنـاس يلحون الطبيب وإنما خطأ البيب إصابة الاقدار(٤)

ثم يلتقى به أبو عثمان الناجم الشاعر ويقول : (دخلت عليه فى علته التى مات فيها ، وعند رأسه جام فيـه ماء مثلوج ، وخنجر مجرد لو ضرب صدر خرج من ظهر فقلت ماهذا ؟ قال : المـاء أبل به حلق فقلما يموت إنسان إلا وهو عطشان ، والخنجر ان زاد على الألم نحرت نفسى ، ثم قال : أقص عليك قصتى نستدل بها على حقيقة تلفى : أردت الانتقال من الكرخ إلى باب البصرة فشاورت صديقنا أبا الفضل ، وهو مشتق من الإفضال فقال : إذا جئت القنطرة فخذ عن يمينك وهو مشتق من اليمن ، واذهب الى سكة النعيمة وهو مشتق

---

(١) الديوان المخطوط ١١٧ ج ١
(٢) المخطوط ٢٦٠ ج ٢
(٣) المخطوط ٤٦ ج ٣
(٤) المخطوط ٣٦٠ ج ٣

من النعيم ، فاسكن دار ابن المعافى وهو مشتق من العافية ، فخالفته لتعسى وشاورت صديقنا جعفرا ، وهو مشتق من الجوع والفرار فقال : إذا جئت القنطرة فخذ عن شمالك وهو مشتق من الشؤم ، وأسكن دار ابن قلاية وهى هذه لا جرم ، قد انقلبت لى الدنيا ، وأضر ما على العصافير فى هذه الدرة ، تصبح : (سيق سيق) فها أنا فى السياق ثم أنشدنى

أبا عثمان أنت قريع قومك وجودك فى العشيرة دون لومك
تمتع من أخيك فما أراه يراك ولا تراه بعد يومك

وألح به البول فقلت له : البول ملح بك ، فقال :

غـداً ينقطع البـول ويأتى الويل والغول
ألا ان لقـاء الله هـول دونه الهـول

ومات من الغد)(١) .

وتوفى ابن الرومى بعد الستين من عمره فكان ميلاده سنة إحدى وعشرين ومائتين كما سبق أن بينا ذلك فى موضعه ، والذى يدل على وفاته بعد الستين قوله .

طربت ولم تطرب على حين مطرب وكيف التصابى بابن ستين أشيب

وعلى ذلك كانت وفاته بعد الثمانين فى القرن الثالث الهجرى وهنا تختلف الروايات وتتشعب الآراء .

فيذكر المرزبانى : (أنه توفى سنة ثلاث وثمانين ومائتين ودفن فى مقابر باب البستان (٢)

وذكر ابن خلكان أن الشاعر (توفى يوم الأربعاء للتلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وقيل أربع وثمانين وقيل ستة وسبعين ومائتين ودفن فى مقبرة البستان (٣)

وذكر المسعودى أن ابن الرومى حضر استقبال قطر الندى بنت خمارويه وزفافها ، وهنأ الخليفة بهذا العرس ، الذى احتفل به الخليفة سنة اثنين وثمانين ومائتين ، وقال حين استقبلها فى مدينة السلام مع أبى الحصاص .

يا سيد العرب الذى زفت له باليمن والبركات سيدة العجم (٤)

(١) رسالة الغفران أبو العلاء المعرى تحقيق كيلانى ، ابن خلكان فى وفياته ج ٣ ص ٤٩
(٢) معجم الشعراء ٢٨٩
(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٣ ص ٤٦
(٤) مروج الذهب . المسعودى فى تاريخ المعتضد

وقد أيد هذه السنة الطبرى فى تاريخه :

ونستنتج من ذلك كله أن ابن الرومى لم يمت سنة ست وسبعين ومائتين لسببين :

أولهما : البيت السابق الذى دل على أن الشاعر جاوز الستين ، لأنه لو مات سنة ست وسبعين كان دون الستين ، وهذا ما يتنافى مع البيت السابق .

ثانيهما : حضور الشاعر عرس قطر الندى ونظم الأشعار فيه وذلك فى سنة اثنين وثمانين فى القرن الثالث .

وعلى هذا فأمامنا تاريخان بعد أن انتفى الثالث وهو (سنة ست وسبعين) وهما معا سيفنهيان إلى التاريخ الصحيح ، من غير تعليل ولا مجادلة .

وأبسط الأمور فى الحكم ، أن هناك روايتين تؤيد تاريخا واحدا ، وهى رواية المرزبانى ، والرأى الأول لابن خلكان . والتاريخ هو سنة ثلاث وثمانين ومائتين ، وهو تاريخ الوفاة من غير تمحل ولا تعمل .

وقد ذهب العقاد إلى إثبات هذه السنة للوفاة وهى الصحيحة عندنا عن طريق الموازنة من كتاب (مضاهاة التواريخ(٤)) .

وأما سبب موته فالروايات كلها تشير إلى أنه مات بسبب السم الذى تناوله عن تدبير وتبييت .

والحق أنى التقى مع العقاد فى جانب وهو ما اتجه إليه من اضطراب فيما ورد إلينا من أخبار عن القاتل إلى حد نكاد نشك فى الأمر .

فابن خلكان يقول : (وكان سبب موته رحمه الله تعالى أن الوزير أبا الحسين القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الإمام المعتضد ، كان يخاف من هجوه وفلتات لسانه بالفحش ، فدس عليه ابن فراش ، فاطعمه خشكنانجه مسمومه ، وهو فى مجلسه فلما أكلها أحس بالسم فقام فقال له الوزير إلى أين تذهب ؟ قال : إلى الموضع الذى بعثتنى إليه فقال له سلم على والدى : فقال : ما طريقى على النار وخرج من مجلسه ، وأتى منزله وأقام أياماً ومات) (١) .

ويضعف من هذه الرواية أن والد القاسم لم يمت قبل ابن الرومى كما ذكره الفخرى فى

---

(١) ابن الرومى . العقاد ٢٦٩

(٢) وفيات الأعيان : ابن خلكان ج ٣ ص ٤٤

تاريخه : إن والده مات سنة ثمان وثمانين من القرن الثالث الهجرى .

ورواية أخرى تؤكد أن والد القاسم كان موجوداً ، وهو الذى أمر بقتل الشاعر ، يقول الباقطانى : (اتصل بعبيد الله بن سليمان بن وهب أمر على بن العباس الرومى ، وكثرت مجالسته لأبى الحسين القاسم ابنه وسمع شيئاً من أهاجيه فقال : لأبى الحسين قد أحببت أن أرى ابن روميك هذا ، فدخل يوماً عبيد الله إلى أبى الحسين وابن الرومى عنده فاستنشده من شعره ، فأنشده ، وخاطبه ، فرآه مضطرب العقل جاهلا ، فقال لأبى الحسين بينه وبينه إن لسان هذا أطول من عقله ، ومن هذا صورته لا تؤمن عقابه عند أول عتب ، ولا يفكر فى عاقبته فأخرجه عنك ، فقال أخاف حينئذ أن يعلن ما يكتبه فى دولتنا ويذيعه فى ملكنا ، فقال : يابنى أنى لم أرد بإخراجك له ، طرده فاستعمل فيه بيت أبى حيه النميرى

فقلت لها سراً فديناك لايرح سليما وإلا تقتليه فألممى

فحدث القاسم ابن فراش بما جرى ... فقال له أنا أكفيك ذلك ، فسمة فى الخشكنانج فمات ... قال الباقطانى ، والناس يقولون ما قتله ابن فراش وإنما قتله عبيد الله [٢]).

والرواية الأخيرة أقرب إلى الحقيقة وليس كما يقول العقاد من أنها ضعيفة لأن عبيد الله كان يعرف ابن الرومى ، والرواية لا تذكر ذلك . والرواية الأخيره تقرب من الصواب لأنها تلتقى مع رواية ابن خلكان فى خوف القاسم من الشاعر لفلتات لسانه وتلتقى كذلك فى أن من دس السم فيها واحد وهو ابن فراش .

ومحل الخلاف بين الروايتين موقف عبيد الله بن سليمان ، فالشريف الرضى فى الراوية الثانية أقرب إلى الصواب ، لأثبات حياة عبيد الله ، ولأن الناس أجمعوا كما يقول الباقطانى على أن القاتل هو عبيد الله .

ولكن كيف نعلل نكران عبيد الله لرؤية ابن الرومى ؟ والصحيح أن المراد بالرؤية هنا هى الكشف عن نفسية الشاعر ومعرفة عقله ولسانه ، فقد طلب من الشاعر — بعد أن بلغه شدة هجائه — أن ينشده شعراً فأنشده وطال الإنشاد ، بدليل أن عبيد الله حكم عليه بطول

---

(١) أمالى الشريف المرتضى

اللسان وقلة العقل واضطرابه، أما كون عبيد الله يعرف شعره قبل ذلك ولا داعى لاستنشاد الشاعر بشعره . فهذا خطأ لأن عبيـــد الله لم يكن يعرف إلا مدحه فقط الذى مدحه به ، والمدح لا يكشف عن سوء نية الرجل بل الهجاء ، وهذا ما دفعه إلى طلب الإستنشاد وهو يقصد بذلك الهجاء فهو الذى يكشف عن طبيعة الشاعر ، وطول لسانه ، لأن المواقف التى وقعت بين الشاعر وبين هذه العائلة ، مواقف صلح تدفع للمدح لا للذم وبخاصة والشاعر كان فى مطمع من عطاياهم ، وهم فى دولتهم الجديدة وأما نسبة القتل إلى عبيد الله سواء أكان عن طريق ابنه القاسم أو عن طريق أبى فراش ، فهذا صحيح ، ومبنى على التجوز باعتبار أن عبيد الله هو الفاعل الحقيقى ، وكلاهما منفذ فقط لأمر الحاكم أو الوالد .

والذى يدل على صدق ما اتجهنا إليه ، أو قربه من الصدق ، هو أن الشاعر مدح آل وهب كثيراً ، ولـكن المودة لم تستمر طويلا بينهما ، بسبب الحاقدين على الشاعر والعابثين به ، والشاعر يستعطفهم ويحذرهم من الوشاة . منها :

وهب السعاة أتوا بحق واضح ... اين الـكرام ابدلوا ام بادوا
عفو الملوك عن الهجاء مدائح ... مدحوا نفوسهم بها فأجادوا(١)

ولم يعف عنه القاسم بل هدده بالقتل ، وهو فى ذلك يسير فى اتجاه ممتد مستور وطريق طويل خفى ، لينفذ وصية أبيه بالقتل ، على طريقة أبى حية النميرى التى علمها لها ابوه ، وذلك كله من غير أن يشعر به الشاعر إلا بما يشبه المهاترات الشعرية ، او اللغو من القول، كل ذلك مع التمهيد والمطاولة ، حتى لا ينكشف الأمر والشاعر يسترضيه ويرجو عفوه ومودته ويقول :

أيقتلنى من ليس لى منه ناصر ... عليه واعوانى عليه مكارمه
أبى ذاك أن الحـكم بينى وبينه ... وأن علو القدر فى يخاصمه(٢)

ولـكن القاسم استمر فى تهديده ، فهجاه الشاعر هجاء مراً منه .

---

(١) المصور ج ٢ ص ١٢٤
(١) الديوان المصور الجزء الثالث

واحييتم دين الصليب وقمتم بتشييد « بيات » وهدم مساجد
وابطال ماكان الخليفة جعفر تخيره زيا لكل معاند(٢)

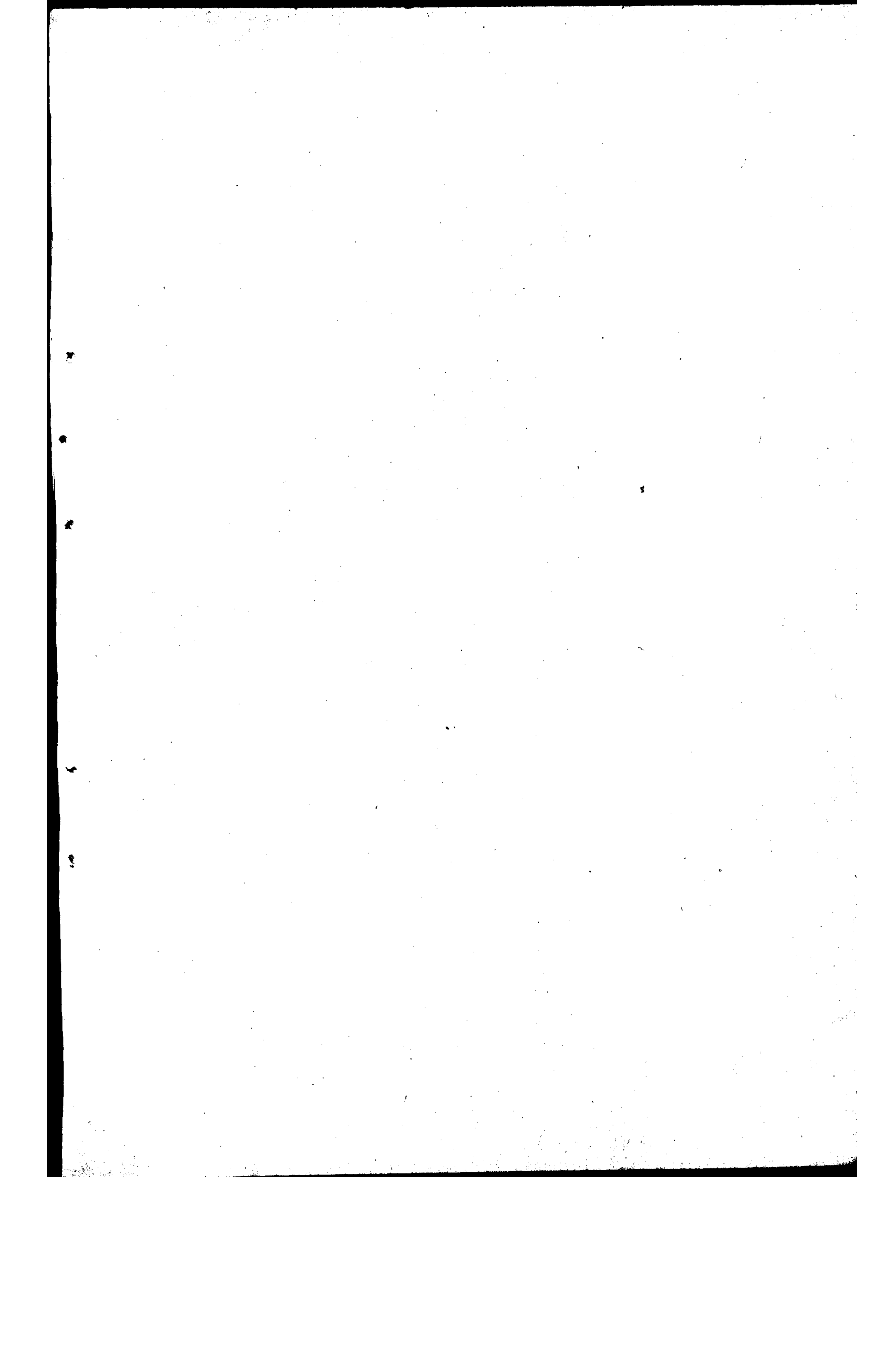
وهنا يهوى القاسم بالشاعر فى مزالق التهم ومواطن الإعتذار ، فظل يمهله ويمهله ، ثم يستدرجه ويمهد له ، حتى حكم الشاعر على نفسه بالقتل قبل أن يقتله القاسم الذى كان أمينا فى تنفيذ وصية أبيه ودقيقا فى التحايل ، فأحمى لسان ابن الرومى عليه وأذكى شفرته .

ومات ابن الرومى بعد ان دس له السم ، وعانى فترة على فراش الموت ، حتى دخل عليه صديقه أبو عثمان الناجم ، فظل يحدثه ويحكى له أمره ، وهو يعانى من آلام السم الذى سرى فى جسده فأوسعه هولا ، وأين ذلك الهول من لقاء الله ... ولقاؤه هو الهول ..... دونه كل هول ؟

ألا إن لقاء الله هول دونه الهول

. . .

(٢) المصور ج ٢ ص ٨٥



موازنات ادبية ونقدية :

الفصل الرابع

مكانة الصورة الأدبية عند ابن الرومى بين التأثر والتأثير

قبل البداية فى عرض بعض الصور الأدبية التى تأثر فيها ابن الرمى بغيره ومدى براعته فى تناولها ، ثم أثر صورته فى التصوير الأدبى فيمن بعده من الشعراء ، وبدرجة التفاوت فى التصوير بينهم جميعا ، التى تظهر فيها قيمة الصورة الأدبية عند شاعرنا ، وابتداعه فى التصوير ، ومكانته فيه فى الأدب العربى .

قبل هذا أريد أن أوضح فى إيجاز محددا المفاهيم لبعض المصطلحات ، التى تلاحقت فى نمو ، للمعنى الفياض وهو التأثر والتأثير ، فتشرق الأسس التى ينبنى عليها هذا الفصل ، وتتضح معالمه ، وتسير على قاعدة مقررة ، وأرض صلبة ، واتجاه واضح ، فقضية التأثر ، لازمت الفكر الإنسانى من زمن مبكر ، واختلفت نظرة النقاد لها مفهوما ودرجة وعمقا ، فى شتى العصور حسب المستوى الفكرى والثقافى لكل عصر .

ويرجع التأثر بمعناه الواسع إلى عوامل فرضت على المجتمع وهى فى إيجاز :

(ا) الرواية

(ب) الحفظ

(حـ) الإحياء

(ى) المعارضة

(هـ) عمود الشعر

(و) البيئة الثقافية التى تعاقبت عليها ثقافة الأجيال السابقة ، من التذكر التلقائى او المتعمد كما يدعى بعض الباحثين (١) ، وإن كان يرجع رأيى إلى العوامل السابقة على اتساعها .

وأخذت هذه المشكلة من اهتمام الباحثين قديما وحديثا ، قدرا لم يغفل فى أى عصر وأفردوها فى كتب مستقلة مثل سرقات أبى نواس لمهلهل بن يموت . والمنصف فى الدلالات

---

(١) السرقات فى النقد العربى : د محمد مصطفى هدارة ط أولى ١٩٥٨ ص ٢٥١

على سرقات المتنبى لابن وكيع التنيسى : والإبانة عن سرقات المتنبى لفظا ومعنى ، لأبى سعيد محمد ابن أحمد العميدى . والموازنة للامدى . والوساطة للقاضى الجرجانى وغيرها كثير . وأما البحوث الحديثة مثل السرقات الأدبية لبدوى طبانة . ومشكلة السرقات فى النقد الأدبى لمحمد مصطفى هدارة وغيرهما .

وأما الكتب المشتركة بين هذه المشكلة وبين قضايا أخرى ، فكثيرة أهمها طبقات الشعراء لابن سلام والشعر والشعراء لابن قتيبة ، واسرار البلاغة ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى . والصناعتين لأبى هلال العسكرى والعمدة لابن رشيق وغير ذلك .

واستطاع ابن رشيق أن يجمع أنواع السرقات المتفرقة فى كتب السابقين وهى كثيرة (١)

أولا : الإصطراف : أن يعجب الشاعر ببيت من الشعر ، فيصرفه إلى نفسه .

ثانيا : الاختلاب أو الاستلحاق : البيت من الشعر عند الشاعر إن صرفه إليه على جهة المثل فهو اختلاب واستلحاق .

ثالثا : الانتحال حين يدعى الشاعر جملة البيت ويكون لغيره

رابعا : الإدعاء هو أن يدعى البيت من الشعر من ليس شاعرا .

خامسا . الإغارة أن يصنع الشاعر بيتا ، ويخترع معنى مليحا ، فيتناوله من هو أعظم منه ذكرا وأبعد صوتا فيروى له دون قائله .

سادسا : الغصب . هو الاستيلاء على بيت من الشعر لآخر عنوة ، فيسلم له بعد التهديد ويسير فى الناس باسمه .

سابعا : المرادفة والاسترفاد : أن يأخذ الشاعر بيتا من غيره على سبيل الهبة .

ثامنا : الاهتدام . وهو السرقة فيما دون البيت ويسمى أيضا نسخا .

تاسعا : النظر والملاحظة : وهى التساوى فى المعنيين دون اللفظ مع خفاء الأخذ ، أو تضاد المعنيين ودلالة أحدهما على الآخر وقيل أن الأخير يسمى « إلماما » .

عاشراً : الاختلاس : وهو تحويل المعنى من نسيب إلى مديح أو من غرض إلى آخر عامة ويسمى النقل .

الحادى عشر : الموازنة : وهى أخذ بنية الكلام فقط .

الثانى عشر : العكس : هو جعل مكان كل لفظة ضدها .

الثالث عشر : المواردة : اتفاق الشاعرين فى المعنى ، وتواردهما فى اللفظ ، مع عدم لقاء أحدهما بالآخر وسماع شعره .

الرابع عشر : الالتقاط والتلفيق : تأليف البيت من أبيات ، قد ركب بعضها من بعض وبعضهم يسميه الاجتذاب والتركيب .

الخامس عشر : كشف المعنى من الشعر وتوضيحه بعد إبهامه .

السادس عشر : المجدود من الشعر : وهو ما رزق جداً واشتهاراً مع تأخر قائله .

السابع عشر : سوء الاتباع : أن يعمل الشاعر معنى رديا ولفظا رديا مستهجنا ، ثم يأتى من بعده فيتبعه على رداءته .

الثامن عشر : تقصير الآخذ عن المأخوذ ، فينزل الآخذ عن المأخوذ منه فى معناه ، درجة أو درجتين ، مع بقاء روح الاتصال بينهما .

وأما الأخذ الحسن فذكره ابن رشيق فى أمور : « المخترع معروف له فضله متروك له من درجته غير أن المتبع إذا تناول معنى فأجاده بأن :

(ا) يختصره إن كان طويلا .

(ب) أو يبسطه إن كان كزا

(ح) أو يبينه إن كان غامضا .

(ى) أو يختار له حسن الكلام إن كان سفسافا .

(هـ) أو رشيق الوزن إن كان جافيا ، فهو أولى به من مبتدعه ، وكذلك إن قلبه ، أو صرفه عن وجه إلى وجه آخر .

فأما إن ساوى المبتدع فله فضيلة حسن الاقتداء لا غيرها فإن قصر كان ذلك دليلا على سوء طبعه ، وسقوط همته ، وضعف قدرته[1] .

ويرى أنه لو التقى شاعران معاصران كابن الرومى وابن المعتز مثلا ، على معنى واحد ، التحق المعنى بأقدمهما سنا ، أو موتا ، أو أجودهما ، وإن تساوى المعنيان فى الجودة روى لهما على السواء[2] .

---

(١) المرجع السابق ابن رشيق ج ٢ ٢٩٠ (٢) المرجع السابق ج ٢ ٢٩٢

وأنواع التأثر البديعة عنده هي : ـ

(ا) البديع النادر فى العبارات .

(ب) الخارج عن المألوف فى الألفاظ .

يقول : « السرقة إنما تقع فى البديع النادر والخارج عن العادة ، وذلك فى العبارات التى هى الألفاظ [1] » ثم فى موطن آخر .

(حـ) الايغال .

(ى) التتبع .

(هـ) المبالغة .

(و) التتميم .

(س) الالتفات[2] .

واستطاع الإمام عبد القاهر أن يفرق بين أنواع التأثر ، ويحدد مصطلحاتها ويميز الجيد منها والردىء بصورة أوشكت على الكمال ، ولا نقول إنه ابتكرها ابتداء ، ولكنه اعتمد على ما وصل إليه المتقدمون وأخذ يلم الشتات بنظرته الشاملة ، وبعمق فى قدرة عجيبة على التطبيق ، وبإسلوب متنوع يدل على أصالته وشخصيته الفذة ، ولذلك جاء من بعده وسار على طريقه من غير تجديد ولا ابتكار .

ونراه يقسم المعنى إلى قسمين .

(ا) معنى عقلى : وهو المعنى الذى يقره العقلاء ، ويجرى فى كل أمة وعلى أى لسان ، وهو يقابل المعنى المشترك عند من سبقه من النقاد ، وهذا لا يصح الحكم فيه بالسرقة وإنما المفاضلة فيه بالتصوير والإجادة فى التعبير ، وإحكام الصناعة ، يقول الامام .

واعلم أن الحكم على الشاعر بأنه أخذ من غيره ، وسرق واقتدى بمن تقدم وسبق . لا يخلو أن يكون فى المعنى صريحا أو فى صيغة تتعلق بالعبارة . . . فقوله .

وما الحسب الموروث لادر دره ... بمحتسب إلا بآخر مكتسب

ونظائره كقوله .

(١) المرجع السابق ٢٩٢

(٢) قراضة الذهب فى نقد شعار العرب : الحسن ابن رشيق القيروانى : نشرة الخانجى عطبعة النهضة بمصر . ط عام ١٩٢٦

إنى وإن كنت ابن سيد عامر ... وفى السر منها والصريح المهذب
فما سودتنى عامر عن وراثة ... أبى الله إن أسمو بأم ولا أب

معنى صريح محض ، يشهد له العقل بالصحة ويعطيه من نفسه أكرم النسبة ، وتتفق العقلاء على الأخذ به ، والحكم بموجبه فى كل جيل وأمة ، ويوجد له أصل فى كل لسان ولغة)[١] :

ويوضح التفاضل فى المعنى المشترك فيرجعه الى اللفظ ، الذى يلبس المعنى ، والعبارة التى تكسوه وتوضحه أو تؤديه بطريق الاختصار أو التفصيل ، أو يكون المعنى على نقيضه » .

يقول الامام معقبا على قول الشاعر . (وكل امرىء يؤتى الجميل محبب) صريح معنى ليس للشعر فى جوهره وذاته نصيب ، وانما له ما يلبسه من اللفظ ، ويكسوه من العبارة وكيفية التأدية من الاختصار وخلافه ، والكشف أو ضده ، وأصله قول النبى صلى الله عليه وسلم « جبلت القلوب على حب من أحسن اليها » بل قول الله عز وجل . « إدفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » .

(ب) معنى تخييلى : وهو ما لا يمت الى العقل بسبب ، بل يرجع الى الاحساس والشعور وغالبا ما يختلف من شخص الى آخر ، وهو ما يسمى عند النقاد المتقدمين بالمعنى الخاص ، ويغلب فى هذا المعنى السرقة والأخذ الا من استطاع أن يولد منه معنى آخر ، أو يستوحى منه معنى تخييليا جديداً ، وذلك لا يدخل فى باب السرقة المحضة ، وهذا ما ذكره الامام :

« وأما القسم التخييلى فهو الذى لا يمكن أن يقال أنه صدق ، وأن ما أثبته ثابت ، وما نفاه منفى ، وهو مفتن المذاهب كثير المسالك ، لا يكاد يحصر الا تقريبا ، ولا يحاط به تقسيما وتبويبا ، ثم انه يجىء طبقات ، ويأتى على درجات ، فمنه ما يجىء مصنوعا قد تلطف فيه ، واستعين عليه بالرفق والحذق ، حتى أعطى شيئا من الحق ، وغشى رونقا من الصدق ، باحتجاج يخيل وقياس يصنع فيه ويعمل ، ومثاله قول أبى تمام :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالى

---

(١) أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجانى ص ٢١١ ، ٢١٢ تحقيق السيد محمد رشيد رضا ط السادسة القاهرة ١٩٥٩

(٢) المرجع السابق ص ٢١٣

فهذا قد خيل إلى السامع أن الكريم ، إذا كان موصوفا بالعلو والرفعة فى قدره ، وكان الغنى كالغيث فى حاجة الخلق إليه ، وعظم نفسه وجب بالقياس أن ينزل عن الكريم نزول ذلك السيل عن الطود العظيم ، ومعلوم أنه قياس تخييلى ، وإيهام لاتحصيل وإحكام فالعلة فى أن السيل لا يستقر على الأمكنة العالية ، وأن المال سيال ، لايثبت إلا إذا حصل فى موضع له جوانب تدفعه عن الإنصباب ، وتمنعه من الإنسياب ، وليس فى الكريم والمال شيء من هذه الخلال »(١) .

ويعقب بقوله : « مع أن الشعر يكفى فيه التخييل والذهاب بالنفس إلى ما ترتاح إلى من التعليل(٢) » . ويفسر الإمام المعنى المشترك والخاص بتفسير أوضح من التفسير السابق ويرى أن الشاعرين لا يعدو اتفاقهما فى أحد أمرين :

أولهما : أن يتفقا فى الغرض العام والمعنى المشترك كالشجاعة والسخاء ، وهذا لا يقع فيه الأخذ والسرقة والاستمداد والاستعانة يقول : « والاشتراك فى الغرض على العموم أن يقصد كل واحد منهما ، وصف ممدوحه بالشجاعة والسخاء أو حسن الوجه والبهاء ، أو وصف فرسه بالسرعة وما جرى هذا المجرى . . . فأما الإتفاق فى عموم الغرض فما لا يكون الاشتراك فيه داخلا فى الأخذ والسرقة والاستمداد والاستعانة ، لا ترى من به حس يدعى ذلك ، ويأبى الحكم بأنه لا يدخل فى باب الأخذ(٣) » .

وهذا ما يسميه الإمام بالمشترك العامى ، والظاهر الجلى ، ولا يدخله التفاضل ولا يقوم به التفاوت ، ما دام صريحاً ظاهراً ساذجاً ، لا حذق فيه ، ولا تعمل وإفراغ بحث .

أما إن تعمل فى المعنى العامى المشترك ، وأضاف إليه معنى آخر ، أو استولد لطيفة ، أو أدخله فى باب الكناية والتعريض ، أو عرضه فى صورة الرمز والتلويح فقد لبس طريقة جديدة وصورة لطيفة ، ومعرضاً حديثاً ، ودخل فى دائرة الخاص ، لأنه كثيراً ما تدبر فيه وتأمل يقول الإمام : واعلم أن ذلك الأول وهو المشترك العامى والظاهر ، والجلى ، والذى قلت أن التفاضل لا يدخله والتفاوت لا يصح فيه ، إنما يكون كذلك منه ما كان صريحاً ظاهراً ، لم تلحقه صنعه ، وساذجا لم يعمل فيه نقش فأما إذا ركب

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٤
(٢) المرجع السابق ٢١٧
(٣) المرجع السابق ٢٧٢ ، ٢٧١

عليه معنى ، ووصل به لطيفة ، ودخل إليه من باب الكناية والتعريض والرمز والتلويح ، فقد صار بما غير من طريقته . واستؤنف من صورته واستجد من المعرض[١] ، وكسى من ذلك التعرض داخلا فى قبيل الخاص الذى يملك الفكره ، والعمل ، ويتوصـــل إليه بالتدبير والتأمل ، وذلك كقولهم وهم يريدون التشبيه « سلبن الظباء العيون » كقول بعض العرب .

سلبن ظباء ذى قفر طلاها ونجل الأعين البقر الصوارا[٢]

فقد أوهم أن ثم سرقة وأن العيون منقولة إليها من الظباء ، وإن كنت تعلم إذا نظرت أنه يريد أن يقول : أن عيونا كعيون الظباء فى الحسن والهيئة ، وفترة النظر[٣] » .

ثانيهما : أن يتفق الشاعران فى الإتجاه الخاص وجهة الدلالة التى يهدف إليها كل منهما ، والانفراد بحسن التعليل ، كإثبات دلائل الشجاعة وعلامات السخاء ، وهذا الأمر على ضربين .

أحدهما إن كان الإتفاق فى هـــذا مما يشترط فيه الناس وتألفه العقول ، ومجارى العادات ، فيدخل فى القسم الأول وهو المشترك العامى .

وثانيهما : وهو ما ينتهى إليه الشاعر عن تدبر واجتهاد وبعد منال ومعاناه ، وغوص وعرق فيختص صاحبه به ، ويحوز فضل السبق والتقدم ويكون مجال المفاضلة والتفاوت وهذا ما يسميه الإمام بالمعنى الخاص .

يقول :

« وأما وجه الدلالة على الغرض ، فهو أن يذكر ما يستدل به على إثباته له بالشجاعه والسخاء مثلا . . . كالتشبيه بالأسد وبالبحر فى الناس والجود ، وبالبدر والشمس فى الحسن والبهاء والإنارة بالإشراق . . .

وأما الإتفاق فى وجه الدلالة على الغرض ، فيجب أن ينظر . فإن كان مما اشترك الناس فى معرفته وكان مستقراً فى العقول والعادات ، فإن حكم ذلك وإن كان خصوصاً

---

(١) المعرض هو ثوب العروس التى تتزين به .

(٢) الطلا بالضم جمع طلبة وهى الاعناق ، نجل الأعين العيون النجلاء ، أى الجيلة والصور بالضم وبالكسر القطيع من بقر الوحش :

(٣) أسرار البلاغة : الامام عبد القاهر الجرجانى ٢٧٣ — ٢٧٥

فى المعنى حكم العموم الذى تقدم ذكره من ذلك التشبيه بالأسد فى الشجاعة ، وبالبحر فى السخاء . .

وإن كان مما ينتهى إليه المتكلم بنظر وتدبر ، ويناله بطلب واجتهاد ، ولم يكن الأول فى حضوره إياه ، وكونه فى حكم ما يقابله ، الذى لا معاناة عليه فيه ، ولا حاجة به إلى المجادلة والمزاولة والقياس والمباحثة والاستنباط والإستثارة ، بل كان من دونه حجاب إلى خرقه بالنظر ، وعليه كم[1] يفتقر إلى شقة بالتفكر . . . نعم إذا كان هذا شأنه وهنا مكانه وبهذا الشرط يكون إمكانه ، فهو الذى يجوز أن يدعى فيه الاختصاص والسبق والتقدم والأولية ، وأن يجعل فيه سلف وخلف ، ومفيد ومستفيد ، وأن يقضى بين القائلين فيه بالتفاضل والتباين ، وأن أحدهما فيه أكمل من الآخر وأن الثانى زاد عن الأول أو نقص عنه وترقى إلى غاية أبعد من غايته ، أو انحط إلى منزلة هى دون منزلته[2] » .

ثم يبين هذا التدبر والإهمال والمعاناة فى قوله : « فالإحتفال والصنعة فى التصورات التى تروق السامعين وتروعهم ، والتخيلات التى تهز الممدوحين وتحركهم ، وتفعل فعلا شبيها بما يقع فى نفس الناظر ، إلى التصاوير التى يشكلها الحذاق والتخطيط والنقش ، أو بالنحت والنقر ، فكما أن تلك تعجب وتخلب وتروق وتونق . . كذلك حكم الشعر فيما يصنعه من الصور ، ويشكله من البدع ويوقعه فى النفوس من المعانى ، التى يتوهم بها الجامد الصامت ، فى صورة الحى الناطق . . . حتى يكسب الدنىء رفعة والغامض القدر نباهة[3] .

ونبه أبو هلال العسكرى قبل عبد القاهر إلى هذا الاتجاه فى التأثير ، وان العبرة عنده بكسوة المعنى من الصياغة والألفاظ وعنهما تكون السرقة والتأثر .

ويرد أبو هلال الأخذ الحسن الى أن يكسى التابع معنى المتبوع تعبيرات من عنده ، أو يصوغه صياغة جديدة أو يضفى عليه زيادة فى حسن تأليف وجودة تركيب وتمام حلية[1] ، إلا أن عبد القاهر جعل الصورة الأدبية هى عماد التأثر بأنواعه المختلفة ، ووطن

---

(١) الكم بكسر الكاف الغلاف الذى يحيط بالثمر والزهر

(٢) ، (٣) أسرار البلاغة الامام عبد القادر ٢٧٢ — ٢٧٦

(٤) الصناعيتين أبو هلال العسكرى ص١٩٦ تحقيق البيجاوى أبو الفضل بدار إحياء الكتب المصرية ١٩٥٢

الإبداع الفنى للشاعر ، الذى به يستحق المعنى وينفرد بالصورة ولو كان المعنى قد ملت منه الأسماع ، وتلاقت عنده العقول .

ولإطمئنان الإمام لما وصل اليه ، وهو غاية ما وصل اليه النقاد العرب ، أخذ يعرض قضية التأثر فى كتابه دلائل الإعجاز بصورة أوسع وأبعد عمقا ، وقد بناها على فكرة النظم وعلاقات الألفاظ التى اعتمد عليه الكتاب كل الاعتماد .

ويربط التأثر بمشكلة النظم ، وضحت أنواع التأثر وانكشفت معالمه وظهر الفرق بين السرقة والأخذ وبين الاحتذاء والتوليد والتأثر .

وأساس الاختلاف فى مفاهيم أنواع التأثر ، يرجع عند المتقدمين على الإمام الى قضية اللفظ والمعنى ، فمن نصر اللفظ منهم جعل السرقة فى التصوير والتعبير ، ما لم يولد الشاعر فى المعنى أو يستوحى أو يتأثر بالإتجاه العام فقط ، فإن فعل واحـــدة منها ، لا يتهم بالسرقة ، ويحكم على تصويره بقدر درجة جودته ، ومدى التباعد بين السابق واللاحق ، والمعنى عندهم يستوى فيه كل الناس فالمعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العربى والعجمى ، وانما الشأن فى اقامه الوزن وتخير اللفظ ، فالشعر صياغة وضرب من التصوير كما قال الجاحظ فى رده على أبى عمرو الشيبانى نصير المعنى[١] .

ومن نصر المعنى جعله مجال السرقة والتأثر فيه وان فرق أنصاره بين المعنى المشترك العام والمعنى الخاص الا أن المعنى عنده هو أساس الشاعرين أو اختلافهما فيه وانفراد أحدهما به عن الآخر وان اختلف التصوير ، وتباينت التراكيب وتغاير النظام ، ومن أنصار المعنى أبو عمرو الشيبانى وابن قتيبة[٢] .

وبانتصار عبد القاهر لفكرة النظم ، وصل الى الغاية فى تحديد أنواع التأثر والسرقات وقرب فيها الى الكمال ، ورد على أنصار المعنى وكشف عن أخطائهم فى انتصارهم للمعنى وحده ، الذى اختنق بسببه النقد لفترة طويلة وانحط شأن التصوير والنظام والجمال والتأليف ولهذا فهو يؤيد الجاحظ الذى انتصر للفظ والصياغة ، لأن المعانى فى الطريق تعرفها الناس جميعا ، لا فرق بين حضرى وبدوى ، وعربى وعجمى .

---

(١) الحيوان لابى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ج ١ ص ٤٠

(٢) الشعر والشعراء أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ص ٧ وما بعدها

ولكنه رد على أنصار اللفظ من حيث هو لفظ مفرد لا يشترك مع غيره فى النظم المتلاحم والتركيب المتسق ، وبين الإمام إن كلا من الفريقين : نصير المعنى وحده ، ونصير اللفظ وحده كان سببا فى اختناق النقد لفترة طويلة ، وإنهما أحطا من شأن التصوير والنظم وجمال التأليف .

وأنصار اللفظ مستقلا يرون أن الشاعر إذا تأثر بآخر فى ألفاظه — الألفاظ المفردة — يعد آخذا ومحتذيا لا مبتدئا ، ولو أتت ألفاظه المأخوذة من غيرة على نظم يختلف عما تأثر به ، لأن خيال الشيء عندهم هو الشيء نفسه وهم فى ذلك لا يفرقون بين السرقة والاحتذاء ، وإن كان كلاهما أخذ ، فهم كما يراهم الإمام : « مثل من يرى خيال الشيء فيحسبه الشيء » ، وذلك أنهم قد اعتمدوا فى كل أمرهم على النسق الذى يرونه فى الألفاظ ، وجعلوا ألا يحتفلون بغيره ، ولا يعولون فى الفصاحة على شيء سواه حتى انتهوا إلى أن زعموا أن من عمد إلى شعر فصيح فقرأه ونطق بألفاظه على النسق الذى وضعها الشاعر عليه ، كان قد أتى به الشاعر فى فصاحته وبلاغته ، إلا أنهم زعموا أنه يكون فى إتيانه به محتذيا لا مبتدئا(١) .

ويوضح لهم الإمام خطأهم فى اهتمامهم باللفظ كلفظ ، فيذكر الاعتبار الصحيح فى استعمال الألفاظ وهو النظم ، فمن تأثر بنظم آخر وعلى مثاله يعد آخذا ، ومن لم يتأثر بالنظم ، وإن تأثر بالألفاظ لا يعد آخذا بل محتذيا ، فالمتأثر بالألفاظ من غير ارتباطها بالنسق النفسى والمعنوى غلط وإخاش . يقول الإمام عبد القاهر :

« ونحن إذا تأملنا وجدنا الذى يكون فى الألفاظ من تقديم شيء فيها على شيء إنما يقع فى النفس ، أنه نسق إذا اعتبرنا ما توخى من معانى النحو فى معانيها ، فأما مع ترك ذلك فلا يقع ولا يتصور بحال(٢) » .

وعلى ذلك لا تصح المفاضلة بين العبارتين التى وقع فيها التأثر والتأثير فى الألفاظ مفردة ، ولكنها تقع المفاضلة بين نظم وآخر يختلف عنه وإن اتفق فى الألفاظ ، فلكل منهما صورة تخالف صورة الآخر ألبتة ، ويسمى ذلك عند الإمام عبد القاهر تأثرا

---

(١) دلائل الإعجاز : عبد القاهر ٤١٧ تحقيق : محمد عبد المنعم خفاجى طأولى ١٩٦٩
(٢) المرجع السابق ٤١٧

واحتذاء ، لا سرقة وإنما السرقة تقع فى التماثل التام بين النظم الأول والثانى يقول : ولقد غلطوا فأفحشوا ، لأنه لايتصور أن تكون صورة المعنى فى أحد الكلامين أو البيتين ، مثل صورته فى الآخر ، ألبتة ، اللهم إلا أن يعمد عامد إلى بيت ، فيضع مكان كل لفظة منه لفظة فى معناها ، ولا يعرض لنظمه وتأليفه ، كمثل أن يقول فى بيت الحطيئة .

دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى

ذر المفاخر لا تذهب لمطلبها   واجلس فأنك أنت الآكل اللابس

ذاك لأن بيت الحطيئة لم يكن كلاما وشعراً من أجل معانى الألفاظ المفردة التى تراها فيه مجردة معراة عن معانى النظم والتأليف ، بل منها متوخى فيها الخ[1] .

ثم يرجع الإمام باللائمة على أنصار المعنى ، الذين لا يحفلون إلا بالمعنى ، وأن الأخذ بالسرقة إنما تقع فيه ، فمن أخذ معنى من آخر من غير أن يولد منه معنى جديداً ، اويستوحى منه لطيفة طريفة ، يعد سارقا وآخذاً ، فإن من ولد فيه أو استوحى منه معنى آخر ، لم يكن سارقا ، ويقولون بأن من أخذ معنى عاريا كان أحق به ، ولذلك كتب المرزبانى « فصل فى هذا المعنى حسن » ويبين لهم الإمام أن ليس الاعتبار فى التأثر بالمعنى وحد ، لأنه لايتصور أن يكون هناك معنى عاريا من غير لفظ يدل عليه ، ولا يتصور ان يأتى واحد منا بمعنى يلفظ من عنده إبتداء به ، ولو صح له ذلك فهو أولى به من غيره وينسب إليه .

يقول الإمام : ومما اذا تفكر فيه العاقل اطال التعجب من امر الناس ، ومن شدة غفلتهم حيث ذكروا الأخذ والسرقة ان من اخذ معنى عاريا فكساه لفظا من عنده ، كان احق به ... وهو كلام مشهور متداول يقرؤه الصبيان فى اول كتاب عبد الرحمن[2] ثم لاترى احدا من هؤلاء الذين لهجوا بجعل الفضيلة فى اللفظ يفكر فى ذلك فيقول من اين يتصور ان يكون ههنا معنى عار ، من لفظ يدل عليه ، ثم من اين يعقل أن يجىء الواحد منا لمعنى من المعانى بلفظ من عنده ان كان المراد باللفظ نطق اللسان ثم هب انه يصح له ان يفعل ذلك فمن أين يجب اذا وضع لفظا على معنى ، ان يصير احق به من صاحبه الذى أخذ منه ان كان هو لا يصنع بالمعنى شيئا ، ولا يحدث فيه صفة ولا يكسبه فضيلة ..

وفى كتاب « الشعر والشعراء[3] » للمرزبانى فصل فى هذا المعنى حسن قال : وعن الأمثال

---

(١) المرجع السابق ٤٩٢ ، ٤٣٠

(٢) هو عبد الرحمن بن عيسى الهمذانى صاحب كتاب « الالفاظ الكتابية »

(٣) لعله كتاب « معجم الشعراء » المطبوع للمرزبانى أو كتاب آخر له مفقود

القديمة قولهم .. « حراً أخاف على جانبي كمأة لافراً[1] » يضرب مثلا للذى يخاف من شيء فيسلم منه ويصيبه غيره مما لم يخفه فأخذ هذا المعنى بعض الشعراء فقال[2] :

وحذرت من أمر فمر بجانبي   لم ينكنى[3] ولقيت ما لم أحذر[4]

وسر الخلط عند الفريقين كما يراه الإمام أنهم بنوا قاعدتهم على أساس اللفظ أو المعنى ولا ثالث عندهما ، وليس الأمر مجرد لفظ أو مجرد معنى ، إنما هو أمر ثالث جهلوه وهو الصياغة والتصوير والنظم والتأليف ، فمن شأن المعانى أن تختلف عليها الصورة ، ومن شأن الألفاظ أن تنتظم بمعانى النحو وأحكامه .

مثل ذلك مثل الحاذق فى الصناعة حينما يصنع خاتما أو سواراً من ذهب ، فالذهب فى ذاته وحجمه لا ميزة فيه ولا تفاضل بين قطعه ، وإنما الميزة والتفاضل يكون فى صناعتها وصقلها ، وتنسيق أجزائها ، ووضع كل جزء فى مكانه المناسب ، فتروق النظر وتستهوى اللب ، وتأخذ من النفس مأخذاً كبيراً . يقول الإمام :

وقد علمنا أن أصل الفساد وسبب الآفة هو ذهابهم من أن شأن المعانى أن تختلف عليها الصور ، وتحدث فيها خواص ومزايا من بعد ألا تكون ، فإنك ترى الشاعر قد عمد إلى معنى مبتذل ، فصنع فيه ما يصنع الصانع الحاذق ، إذا هو أغرب فى صنعة خاتم ، وعمل شنف وغيرهما من أصناف الحلى ؛ فإن جهلهم بذلك من حالها ، هو الذى أغواهم واستهواهم وورطهم فيما تورطوا فيه من الجهالات ، وأداهم إلى التعلق بالمحالات ، وذلك أنهم لما جهلوا شأن الصورة وضعوا لأنفسهم أساساً ، وبنوا على قاعدة ، فقالوا ليس إلا المعنى واللفظ ولا ثالث[5] » .

وجملة الأمر أنه كما لا تكون الفضة خاتما ، أو الذهب أسواراً أو غيرهما من أصناف الحلى بأنفسهما ، ولكن يحدث فيهما من الصورة ، وكذلك لا تكون الكلمة المفردة التى هى أسماء وأفعال وحروف كلاما وشعرا من غير أن يحدث فيها النظم الذى هو حقيقة توخى معانى النحو وأحكامه » [6] .

---

(١) كمأة : نبات يظهر فى فصل الربيع وهو ما يسميه العامة بعش الغراب .

(٢) يقول الدكتور خفاجى فى تحقيقه الدلائل هو عبد الله بن يزيد الهلالى .

(٣) نكى : بكسر الكاف ينكى : أضر يضر .

(٤) دلائل الإعجاز : عبد القاهر ٤٢٦ : ٤٢٨

(٥) المرجع السابق ٤٢٥

(٦) المرجع السابق ٤٣٠

ثم يقرر الإمام عبد القاهر المصطلح الدقيق فى التأثر ، للإحتذاء ويفرق بينه وبين السرقة والأخذ : فالاحتذاء عنده أن ينظم شاعر معنى فى أسلوب ، ثم يتناول شاعر آخر هذا النظم فى نظم من عنده ، لذلك أنكر ابن الرومى ادعاء البحترى بالسرقة والأخـذ فى بيت أبى نواس :

ولم أدر من هم غير ما شهدت لهم　　　بشرقى ساباط الديار البسابس

فقد أخذه الشاعر من قول أبى خراش الهذلى :

ولم أدر من ألقى عليه رداءه　　　سوى أنه قد سل من ماجد محصى

وقال ابن الرومى لأبى نواس ، فقد اختلف المعنى فيهما ، قال أبو هلال العسكرى الذى حكى الخبر ، فهذا من حلى الأخذ فى الحذو مع أن حذوا الكلام حذوا واحدا .

وأما الأخذ والسرقة عنده ، فهو ألا يكون فى المعنى جديدا ، حينما ينظم شاعرا على مثال آخر ، ويتفق معه فى النظم والمعنى ، ويكون الفضل للسابق .

يقول الإمام : واعلم أن الاحتذاء عند الشعراء وأهل العلم بالشعر وتقديره وتمييزه ، أن يبدأ الشاعر فى معنى له وغرض أسلوبا — والأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه — فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجيء به فى شعره فيشبه بمن يقطع من أديمه نعلا على مثال نعل قد قطعها صاحبها ، فيقال : قد احتذى على مثاله . . . وحكى العسكرى فى صنعه الشعر أن ابن الرومى قال : قال لى البحترى : قول أبى نواس « ثم ذكر البيتين السابقين . قال فقلت قد اختلف المعنى فقال أما ترى حذوا واحدا وهذا الذى كتبت من حلى الأخذ فى الحذو[1] » .

ثم يفصل الامام المعنى بين الآخذ والمأخوذ فيجعله قسمين :

(ا) قسم أنت ترى فيه أحد الشاعرين فيه قد أتى بالمعنى غفلا ساذجا ، وترى الآخر قد أخرجه فى صورة تروق وتعجب .

وهو القسم الأول الذى يكون المعنى فى أحد البيتين غفلا ، وفى الآخر مصورا مصنوعا، ويكون ذلك إما لأن متأخرا قصر عن متقدم ، وإما لأن هدى متأخر لشيء لم يهتد إليه المتقدم ومثال ذلك قول المتنبى :

إذا اعتل سيف الدولة اعتلت الأرض　　　ومن فوقها والبأس والكرم المحض

---

(١) المرجع السابق ٤١٨ ، ٤١٩

مع قول البحترى :

ظللنا نعود الجود من وعكك الذى وجدت وقلنا اعتل عضو من المجد(١)

(ب) وقسم أنت ترى كل واحد من الشاعرين قد صنع فى المعنى ، وصور ومن الأمثلة لهذا القسم قول لبيد :

وأكذب النفس إذا حدثتها إن صدق النفس يزرى بالأمل

مع قول نافع بن لقيط :

وإذا صدقت النفس لم تترك لها أملا، ويأمل ما اشتهى المكذوب(٢)

وبهذا كله يحسم الإمام القضية ، ويبين فى غير خفاء الأخذ القبيح والأخذ الحسن ويميز بين السرقة والأخذ وبين الاحتذاء .

والاحتذاء هو المحمود عنده ، وهو الذى ينبغى أن يرعاه الشعراء لا الأخذ والسرقة . وهما مذمومان عنده ، والاحتذاء وإن كان فيه أخذ إلا أن الشاعر قد جدد فى المأخوذ ، وابتكر فى بعض أجزائه ، بينما الأخذ فى السرقة لا تجديد فيه ولا ابتكار .

وفى الاحتذاء نوعان :ـ

أحدهما : التأثر وقد ذكره الآمدى حينما مدح البحترى فى معانيه التى أخـــذها من أستاذه أبى تمام وصاغها من طبعه ، ولم ينكر عليه ذلك فقال : « غير منكر لشاعرين متناسبين من أهل بلدين متقاربين ان يتفقا فى كثير من المعانى(٣) » .

والنوع الثانى : وهو التوليد : وضحه ابن رشيق بقوله « والتوليد أن يستخرج الشاعر معنى من معنى شاعر تقدمه ، أو يزيد فيه زيادة ، فلذلك يسمى التوليد ، وليس باختراع لما فيه من الاقتداء بغيره ، ولا يقال له أيضاً سرقة ، إذ كان ليس آخذا على وجه(٤) » .

إذن فالسرقة والأخذ هما أخس أنواع التأثر لمـــا فيهما من التقليد وانعدام شخصية الشاعر ، والتكرار الذى يبعث الملل فى النفس ، ويأخذها بالضيق والسأم .

وأما الاحتذاء فهو أشرف أنواع التأثر لأن فيه خلقاً وابتكارا فى جانب ، وتقليدا واتباعا فى جانب آخر ، وتبعا لذلك ربما يسمو متأخر فى تصويره عن متقدم حذا حذوه

---

(١) المرجع السابق ٤٣١ : ٤٣٢ (٢) المرجع السابق ٤٣٢ ، ٤٤٠

(٣) الموازنة للامدى ٤٥ نشره محمود توفيق الـكتبى ط حجازى بالقاهرة ١٩٤٤ م

(٤) العمدة : ابن رشيق التحقيق السابق ج ١ ص٢٦٣

مع اتحاد المعنى المطروق ، حتى يكاد أن ينسب الإبداع والإبتكار إلى المتأخر .

وفى ضوء ما تقدم من مفاهيم لأنواع التأثر يمكننى أن أتبينه فى الصورة عند ابن الرومى وأوضح درجة التأثر فيها والتأثير فى غيرها ، فتتحدد قيمة الصورة عنده وإبداعه الفنى فيها ، ومن الله نستمد العون والتوفيق .

(٢)

الصورة بين التأثر وقيمتها عند ابن الرومى

والآن نعرض الصور التى تأثر فيها ابن الرومى بصور الشعراء الذين سبقوه سواء أكانوا شعراء جاهليين أم اسلاميين أو بصور الشعراء المعاصرين له . سواء التقى بهم أو لم يلتق ، ثم تلك الصور الشعرية التى أثرت فيها صورة شاعرنا فى أدب من بعده من الشعراء فى مختلف العصور .

١ ـ تصوير البنان :

ورد فى كتاب العمدة لابن رشيق قول امرىء القيس فى تصوير البنان[١] :

وتعطو برخص غير شثن كأنه   أساريع ظبى أو مساويك اسحل[٢]

والأساريع : جمع أسروعة وهى دودة تكون فى الرمل وتسمى جماعتها بنات النقا .

صور الشاعر البنان فى طوله واستوائه ودقته ، ولينه وبياضه واحمرار طرفه ، بالدود الذى يقطن أرضاً رملية بيضاء نقية ، وهذا التصوير وإن كانت النفس تعافه ، إلا أنه كان مألوفاً فى بيئة امرىء القيس وما يقع تحت حسه ، ولذلك كان مصيبا فى تصويره واقعياً فى إصابته وقد أيد ابن رشيق حسن الإصابة فيها[٣] .

ومما يدل على دقة التصوير فيها تناسب الجمع فى قوله : (أساريع) وفى (مساويك) مع مجموع البنان فى اليدين ، ثم ذلك الإيحاء القوى الذى ينبع من موسيقى هاتين الكلمتين ، إذ أعانت حروف المد واللين على الامتداد والاسترخاء وهو ما يتلاءم مع جمال الاسترخاء فى البنان وامتداد الليونة فيه ، إلا أن الشاعر وقع فى حشو وهو : (غير شثن) فقد أغنت عنه كلمة : (رخص) مما أدى إلى اضطراب فى التصوير الأدبى .

---

(١) جـ ١ ص ٢٩٩

(٢) تعطو : تتناول ، الرخص : اللين من البنان ، الشثن . الخشن ، أساريع ، دود صغار ، ظبى ، اسم رملة بعينها ، اسحل ، شجر يتخذ من عروقه مساويك كالأراك ، مساويك ، جمع سواك ،

(٣) العمدة ابن رشيق ٣٠٠ جـ ١ تحقيق محمد محى الدين

ويتأثر ذو الرمة بهذه الصورة فيلبسها ثوباً جديداً يقول فيه :

خراعيب أمثال كأن بنانها بنات النقا تخفى مراراً وتظهر(١)

وأضفى الشاعر الإسلامى ذو الرمة على صورة امرىء القيس أضواء وظلالا جديدين فأعطى للبنان فوق ما تقدم رقة البنات وأنوثتها وطراوتها وعذوبتها ، وأن الجمال والسحر الذى يأخذ بالعقول ، ويستبد بالقلوب إنما هو فى حركاتها المتتابعة بين الإخفاء تارة ، فتزداد اللهفة والشوق ، والظهور أخرى فتستقر النفس وتطمئن ، وتشفى غليلها ثم لا تلبث أن تعود كما كانت فى الخفاء والظهور مراراً وتكراراً ، وهكذا أوحت الصورة بمعان جديدة لم تكن موجودة فى صورة امرىء القيس السابقة مما جعلها من التوفيق بمكان يضفى عليها نوعاً من الابتكار والتجديد وأهمها تلك الحركة والاستمرار الذى منح الصورة الحيوية والخلود ، وذلك فى قوله : (تخفى مراراً وتظهر) . مع أن أثر الشاعر الجاهلى باد وواضح فى أجزائها .

وصورة ذى الرمة تفوق بكثير أيضاً صورة حسان ابن ثابت حينما صور البنان كذلك .

وأمك سوداء نوبية كأن أناملها الحنظب(٢)

وهذه الصورة دون صورة امرىء القيس فهى أخذ ردىء لا روح ولا تجديد ، بل هبط فى مستواه ودرجته عن المأخوذ منه .

وسر الرداءة هنا أن الأنامل سوداء كالخنافس ثم أن حركة الدود وقوامه وامتداد قامته واستقامته أكثر شبهاً بالأنامل فى حركتها وقوامها وتعدد فقراتها من الخنافس فى بطئها وبطشها على الأرض ، حتى لتخيل للرائى أنها ساكنة لا تتحرك وليس فى سكون الأنامل مثار للشوق والعجب ، بل يكون فى الحركة التى تراها فى الدود لسرعته ونحافته وتتابع فقراته ، ثم ما يدل عليه لفظ (الحنظب) من عدم سلامة الذوق عنده فى تركيب الصورة الشعرية من أجزاء متلائمة ، وإن كان التصوير فى مقام الذم والهجاء إلا أن البنان لا يتناسب مع الحنظب ، وعدم التناسب بينهما يبعد الصورة عن التصوير الواقعى الدقيق .

والصور السابقة كلها ليست غريبة على أهل البادية وسكان الصحراء فقد التقطها الشعراء من واقعهم الذى يعيشون فيه ، فعبروا عنه بصدق ودقة فى صورهم ، التى طابقت ما امتزج فى أنفسهم من مشاهد الحياة وصور الطبيعة . أما أهل الحضر الذين تقلبوا فى أحضان

---

(١) الحنظب بضم الحاء والطاء ، دابة مثل الخنفساء ،

(٢) خراعيب ، الغصن الغض ، بنات النقا ، دويبة تسكن الرمل .

الحضارة العباسية ، وفى ترف المدنية ونعيمها . فيأبى شعراؤها مثل التصوير السابق ، وينتقلون به إلى ما يوافق مزاجهم ، وينبع من بيئتهم التى اطمأنوا إلى ظلالها واستراحوا اروحها ، وحين يصور أبو نواس البنان يقول عنها فى صفة الكأس .

تعاطيكها كف كأن بنانها إذا اعترضتها العين صف مدارى

ليست البنان عند أبى نواس دودا ، ولكنها غضة طويلة ناضجة حية تجرى فى عروقها الحركة والدم والحياة والنشاط ، كما يحدث ذلك فى خضره الريف ، واحتفائه بالربيع ، والنضارة والنضج والإثمار ، وهذا تصوير ما كان للسابقين أن يحفلوا به ، إنما هو لأبى نواس شاعر الحضارة فى العصر العباسى الأول .

ويتناول شاعرنا هذه الصورة فيقول ابن الرومى .

سقى الله قصراً بالرصافة شاقنى بأعلاه قصرى الدلال رصافى(١)

أشار بقضبان من الدر قمعت يواقيت حمراً فاستباح عفافى

صور ابن الرومى البنان فى شدة الصفاء ونقاء البياض واللمعان والأناقة التى تقمعت أطرافها بأقماع حمراء كاليواقيت ، صور ذلك بقضبان الدر التى تطرفت بحمرة اليواقيت ، وبعث فى التصوير الحركة واللون والحجم والشكل ، مما أثار انتباه الشاعر ، وحرك كوامن العشق فى نفسه ، فاستجاب لها ، وهو الشره وقضى لذته منها فاستباح عفافه ، وفعل المحظور ، وخرج من الحل ليرتكب المحرم فيها .

والصورة هنا بلغت حداً من الكمال واستوفت عناصرها كاملة ، وصورت واقع ابن الرومى فى نفسه وطبعه ، حيث الشراهة فى الاشتهاء والفوران الجنسى ، وصورت واقع العصر الذى يعيش فيه ، والحضارة العباسية التى خطفت عيون الناس ببريقها ، فتسابقوا فى اقتناء الدور واليواقيت وغيرها من المعادن الثمينة وهو بينهم الفقير المحروم واستخدموا فى الحصول عليها كل الوسائل ولكن الشاعر أضعف من قوة التصوير باختياره كلمتى (الدر ، يواقيت) لأنهما مع دلالتها على الحضارة لكنهما لا يتلاءمان مع غضاضة البنان . وجاءت كلمة (حمرا) حشوا لم تفد معنى زائداً ، لأن حمرة العقيق تغنى عن التصريح بها فى هذا المقام ويقول ابن الخلفاء الشاعر ابن المعتز معاصر ابن الرومى حين يصور البنان .

أشرن على خوف بأغصان فضة مقومة أثمارهن عقيق

---

(١) هذه الأبيات وما قبلها لغير ابن الرومى جاءت فى العمدة ابن رشيق ج ١ : ٢٩٩ وما بعدها تحقيق الأستاذ الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد

فابن المعتز حين صورها جعل البنان أغصانا غضة بضة من فضة ، جرى فيها الماء والحياة وتوجت أعلاها بأثمار ناضجة من عقيق أحمر ، فإنه إيحاء بتدفق الشباب فيها ، لكنه لم يذكر أثر الصورة فى نفسه كما ذكره ابن الرومى فى قوله : (فاستباح عفافى) ، وكاد ابن المعتز أن يجيد التصوير الأدبى حينما صور البنان بالأغصان، وصور أطرافه بالثمار الناضجة الحمراء وأساء إلى الصورة حيث جعل الأغصان من فضة والأثمار من عقيق والفضة والعقيق جامدان ، لا روح فيهما ولا طراوة ولا ليونة .

وبذلك يمتاز ابن الرومى بالإبداع فيها والابتكار فى تركيبها ، وتأخذ من الفضل والمزية بين هذه الصور كلها ، وتتفوق فى درجتها وقيمتها على غيرها من الصور وها هو ذا أبو تمام زعيم المجددين فى الشعر العباسى ، والذى عاش فى ظل الحضارة التى أظلت ابن الرومى ، يصور البنان بصورة هبطت به عن جميع ما تقدم من صور ، ولم يتحقق فيها الصدق الفنى ، الذى هو أساس الابتكار فى التصوير والتجديد فيه ، فقد تردى أبو تمام فى التقليد الساقط المبتذل ، وقلد الشاعر العباسى أمرأ القيس وحسانا وذا الرمة تقليداً سافراً من غير توليد ولا إيحاء ، فصور البنان بالأسروع وكأنه يعيش مع امرىء القيس ، وشتان بين العصرين ، ولذلك سقطت صورته ، وأصبحت لا وزن لها يقول أبو تمام فيها .

بسطت إليك بنانة أسروعا تصف الفراق ومقلة ينبوعا

٢ — الخمر :

أما الخمر وألوانها وزجاجاتها وكئوسها ومجالسها وندامها ، وأثرها فى النفس فحديثها يكاد يكون مع مولد الشعر ، وتأثر الشعراء بعضهم ببعض فى صورهم المختلفة لها فى شتى العصور .

يصور عنترة بن شداد الخمر فى معلقته المشهورة فيقول :

ولقد شربت من المدامة بعد ما ركد الهواجر بالمشوف المعلم

بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنت بأزهر فى الشمال مفدم[1]

فالزجاجة انتحلت لون الخمر الصفراء ، ولولا خطوطها لما ميز الشارب بينها وبين الخمر ، وبجوارها إبريق عليه فدام يصفيها ، وكأس عليه مصفاة ينقيها .

(١) ركدت الهواجر : وقفت الشمس وقام كل شىء على ظله والركود: السكون المشوف المعلم: الدينار المجلو المنقوش أسرة : خطوط ، بأزهر : الابريق من الفضة أو الرصاص مفدم : عليه مصفاة يصفى بها الديوان: عنترة بن شداد

ويلتقط أبو نواس هذه الصورة فيقول :

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها | لو مسها حجر مسته سراء
قامت بإبريقها والليل معتكر | فلاح من وجهها فى البيت لألاء
فأرسلت من فم الإبريق صافية | كأنما أخذها بالعين إغفاء[1]

فالخمر صفراء قامت بالزجاجة التى شفت عن لونها الصافى ، وكأنها لشدة صفائها وصفاء الزجاجة فى سواد الليل أصبحت قائمة بغير إناء ، وأشاعت فى الليل النور والضياء ، كالكوكب الدرى ، وزاد من نقاء الخمرة أنها صبت فى الكئوس من فم إبريق أصبح كالمصفاة لها وخمرة النواس يشربها فى سكون الليل خفية ، أما خمرة عنترة فيشربها فى وضح النهار علانية . وإن كان الشرب فى وقت الهجير والقيلولة ، لا يتناسب مع الشرب الذى يبعث فى الجسد الحرارة والفوران ، ولذا أصاب أبو نواس حين اختار الوقت المناسب ، فى نسيم الليل اللطيف .

ويتناول هذه الصورة الأدبية شاعرنا ابن الرومى فيقول :

صفراء تنتحل الزجاجة لونها | فتخال ذوب التبر حشو أديمها
لطفت فكادت أن تكون مشاعة | فى الجو مثل شعاعها ونسيمها[2]

وخمرة ابن الرومى أقوى أثراً وأصفى لوناً وأعذب مساغاً ، وهى شعاع الحياة ونسيمها الشعاع الذى يمتع النظر ، وينعم البصر ، وتتفتح النفس به للدنيا ، وتقبل عليها ، والنسيم الذى يبعث الروح فى النفس ، ويدب النشاط والحيوية فيها ، ولونها والزجاجة سواء لا يفرق أحد بين التابع منهما والمتبوع ، فكلاهما سواء ، الخمر زجاجة ، والزجاجة خمر ، وهى من أثمن وأرق وأغلى أصناف الخمر ، لأنها فى لونها وقيمتها كالذهب النفيس الغالى بين المعادن الأخرى ، بل هى قديمة معتقة ، لا تحتاج إلى مقدم عنترة ، ولا فم إبريق النواس ، فبلغت من اللطف والصفاء أن تمازجت بالشعاع ، واختلطت بالنسيم ، فلا تدرى ما سرى فى الطبيعة والحياة ، أهو صفاء الخمر أم شعاع الشمس أم نسيم الحياة ؟

فهى عند ابن الرومى صافية نقية ، كما صورها عنترة وأبو نواس ، ويلتقط ابن المعتز هذه الصورة ليلتقى مع شاعرنا فى جانب ، ويبدع فى جانب آخر وإن أبدع ابن الرومى فى جوانب كثيرة يقول ابن المعتز :

---

(١) ديوان أبى نواس

(٢) المخطوط ٢٦٧ جـ ٤

جرت حركات الدهر فوق سكونها   فذابت كذوب التبر أخلصه السبك
فقد خفيت من صفوها فكأنها   بقايا يقين كاد يدركه الشك(١)

فالخمر عنده كالتبر المذاب، وبلغت غاية النقاء والصفاء فى لونها الذهبى، حتى كاد يختفى اللون — وهذا ما جاء عند ابن الرومى — لولا خيط رفيع دقيق منه هو يدل على صفاء الخمرة مثل الشك الذى هو اول درجات اليقين الحقيقية، ولعل الشاعر فى المعنى الأخير قد تأثر بابن الرومى، حين وصف لطف الخمر وذلك عن طريق السماع فقال ابن الرومى:

ومدامة كحشاشة النفس   لطفت عن الإدراك باللمس
لنسيمها فى قلب شاربها   روح الرجاء وراحة البأس
وتمدُّ فى امل ان نشوتها   حتى يؤمل مرجع الأمس(٢)

فصفاء الخمرة ولطفها عند الشاعر، جعلها لا تدرك باللمس، وإنما يدركها العقل، ويخفق لها القلب، فيظل اثرها فى نفس الشارب كروح الرجاء، وراحة البأس، وامل الغد والمستقبل؛ والروح والراحة والأمل كلها لا تدرك باللمس كخمرته اللطيفة الصافية، وهذه الصورة تفوق صورة ابن المعتز بكثير كما ترى لأنها خلت من الأسلوب الفلسفى والمنطق المباشر صراحة، واستطاع ان يذيب روح الفلسفة فى التصوير الشعرى اما ابن المعتز فقد عجز عن ذلك، فعبر هنا على طريقة المناطقة فى قوله: بقايا يقين كاد يدركه الشك؛ وكذلك هى اقرب إلى الواقع، وادق من صورة أبى نواس التى يقول فيها:

خفت عن الماء حتى ما يلائمها   لطافة وجفا عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نوراً لمازجها   حتى تولد أنوار وأضواء(٣)

فلطف الخمرة هنا مبالغ فيه وبخاصة فى قوله (وجفا عن شكلها الماء)، لأنه مدرك عند ابن المعتز بخيط من الشك وموصول بالعقل، وعند ابن الرومى مدرك بالحس والقلب، ومرتهن بالوجدان، وعند أبى نواس لا وسيلة لادراكها إلا العقل لا القلب والوجدان فهى أصفى وأنقى من من الماء وأبيض وألطف منه، وهذا غير معقول فالخمر أساسها الماء ولكنها اختلفت عنه فى اللون. فالمستحيل لا يتصور إلا بالعقل، ولا سبيل له فى القلب والوجدان.

(١) ديوان ابن المعتز كرم بستانى ص ٣٥٣ ط بيروت ١٣٨١ هـ — ١٩٦١م
(٢) المخطوط ٣٧٤ جـ ٢
(٣) ديوان أبى نواس

وحقاً إن الخمر والماء يجرى عليهما وصف الصفاء لا البياض ، فالماء صاف فى بياضه ، وخمرة الشاعر صافية فى لونها الذهبى ، ومثل ماقيل فى الماء بجانب الخمر ، يقال فى النور معها ، بل لقد غالى أبو نواس فى ذلك ، فجعل الخمر مصدر الضياء والنور ، وهذا خروج عن الواقع المألوف فى التصوير الدقيق ، فهل بعد النور فى ذاته لطافة وبياضاً فى الوجود ؟ وإلا فأين الفرق بين النور المطلق وبين اللون الأصفر منه ، اللهم إلا إذا انبعث النور من زجاجة صفراء .

وواقعيه ابن الرومى فى صورته واضحة ظاهرة فى تصويره ، فالخمر فى لطفها كالنسيم ، فنسيم الصباح تستروحه النفس ، ويجدد النشاط والحياة فى الإنسان بعد سبات الليل ، وخمود الجسم فيه ، ونسيم الخمرة ورائحتها تبعث النشوة والحرارة فى الجسد ، وهى أيضاً فى لطفها كشعاع الجو ، لا كالنور ، لأن الشعاع مشوب بذرات التراب ، وضباب الأفق ، وقتام السماء ، واحمرار الشمس ، وظلال الأرض وما عليها ، فهو من أجل ذلك يقارب الصفرة ، كاختلاط صفرة الخمرة بصفاء الماء ويمثل امتزاج النسيم المعبق بالروائح العطرة ، وبالشعاع المختلط بغبار الحياة ، تتركب الخمرة الممزوجة بالماء وللصفرة معاً يقول :

لطفت فكادت أن تكون مشاعة ... فى الجو مثل شعاعها ونسيمها

يصور زهير بن سلمى أثر الخمر التى تدب فى أعضاء الجسم بقوله :

فظلت كأنى شارب من مدامة ... من الراح تسمو فى المفاصل والجسم [١]

فأعضاء الشاعر ومفاصله وجوارحه يسرى فيها أثر الخمر ، وينتشر فى خلاياها ، فتهتز نشوة ، وتتراخى هياماً ، وتعبيره بالسمو أليق بالصورة لأن الخمر تسمو بصاحبها إلى عالم آخر حتى يفيق ، وأخذه أبو نواس وصوره بقوله :

وتمشت فى مفاصلهم ... كتمشى البرء فى السقم [٢]

فأضفى عليها ألواناً جديدة حيث إن التضعيف فى « تمشت ، كتمشى » يزيد من قوة أثرها فى النفس ، ومن شدة بطئها فى التخدير لتتمكن فى النفس أكثر لجودتها وعتقها ، فالشىء الذى يسرى فى بطء ، يتمكن من النفس حتى يذهب عنها فى بطء أيضاً ، ثم لا يدرى الإنسان كيف سرت النشوة فى الجسد ، ودبت فى الأعضاء ، وكأن الشارب لا يعرف إلا اليقظة والنشوة فقط ، وليس بينهما وسط ، كما لا يعرف المريض سوى الصحة والمرض .

---

(١) ديوان زهير بن أبى سلمى (٢) ديوان أبى نواس

ويلتقط ابن الرومى من الصورتين السابقتين رائعته التى يقول فيها .

لنسيمها فى قلب شاربها   روح الرجاء وراحة اليأس
وتمد فى أمل أن نشوتها   حتى يؤمل مرجع الأمس(١)

والتأثير هنا أقوى وأشد ، لأنه ينصب على القلب عصب الجوارح ومركز الأعضاء فى الجسم والمحرك النابض ، فلو انتشى القلب ، ثملت كل الأعضاء خاضعة له ومن شدة الطرب للخمر وعشقه لها ، أصبح القلب مشدوداً إليها بروح الرجاء وراحة اليأس وظل ينشد صباح مساه على أمل اللقاء فى الأمس ، وكل أمس .

والبراعة فى صورته ترجع إلى أن الشاعر وجه أثر الخمر على مصدر الحيوية والحرارة فى الجسم ، وهو القلب الذى تستجيب له كل الأعضاء ، بينما توجه الأثر عند زهير وأبى نواس إلى الفروع وهى الأعضاء ، وقد تخليا عن الأصل وهو القلب ، والنواس خص المفاصل فقط وزهير ذكر المفاصل والجسم ولم ينص على القلب لأن فى الجسم إيهاما بالأعضاء والجوارح فيه ، ولا يتعين القلب ، فعدم التصريح به جعل القلب تابعاً لا متبوعاً ودون أعضائه ، بينما شمل التأثير عند ابن الرومى كل الأعضاء وهى جميعا ترتبط بالقلب والروح .

ويصور البحترى ذلك فيقول :

بت أسقيه صفوة الراح حتى   وضع الكأس مائلا يتكفا
قلت : عبد العزيز تفديك نفسى   قال : لبيك قلت : لبيك ألفا
هاكها قال : هاتها قلت : خذها   قال : لا أستطيعها ثم أغفى(٢)

ظل البحترى يسقى نديمه حتى لم يدر من أمره شيئاً ، واختلت المقاييس عنده ، وانعكست منابع الإدراك فيه ، فيضع الكأس مائلا ليتكفأ ، كحاله تماماً وهو يترنح هنا وهناك ، ولسان حاله يطلب المزيد ، ولكن جوارحه لا تستطيع حمل الكأس وفمه عجز عن رشفة منه ، وغاب عن الوجود وأغفى ساكن الجوارح والجسد ، مغمور القلب والعقل .

وصاحب البحترى هذا يبدو أنه لم يشرب الخمر قبل ذلك ، فغاب عن كل ما فى الوجود بما شرب ، ولم يشعر بعدها بشىء ، واختفى فى سبات عميق ، أما ربيب الخمر ونديمها ،

(١) المخطوط ٣٧٤ ج ٢ ب وهكذا ورد البيت فى الديوان المخطوط والمصور وبهذا لا يستقيم وزن الشطر الاول ولعل صحة هذا الشطر : وتمد فى الآمال نشوتها

(٢) ديوان البحترى : تحقيق حسن كامل الصيرفى ج ٣ ص ١٤٢٨ دار المعارف ١٩٦٣م

فهو الذى يحس وهو سكران بروح الرجاء وراحة اليأس ، ويأمن فى الغد القريب وكل غد .

ولكن ندامى ابن المعتز لا ينطقون بحرف ، ولا تصدر منهم حركة بعد السقى ، فهم كالسطور التى امتدت على الأرض وسقاتهم قيام كالفات بين الندامى . فالتعبير بالألفات والسطور جاف ومجرد من الشعور . يقول :

وكأن السقاة بين الندامى ألفات بين السطور قيام (١)

ويصور ذلك المتنبى فيقول(٢) :

مبيتى من دمشق على فراش حشاه لى بحر حشاى حاش

لقى ليـــل كعين الظبى لونا وهم كالحميـــا فى المشـــاش

فأثر الخمر عنده تسرى فى المفاصل ، هو والهم سواء ، كلاهما يشل التفكير السليم ويعطل الإدراك المستقيم ، فالثمل المنتشى كالمأخوذ بالهم والغم ، والتشابه هنا ضعيف يهلهل الصوره من حيث أثر الهم الذى يختلف عن أثر الخمر ، فالأول فى غم وحزن ، والثانى فى طرب ونشوة .

وعبقرية ابن الرومى فى التصوير هى التى جعلت صورته السابقة لا تدانيها صورة سابق ولا صورة لاحق ، كما هو واضح من تلك الموازنة فى مجال التأثر والتأثير .

(٣) الفم وهو يعانق كأس الخمر :

يصور أبو نواس الفم وهو يعانق كأس الخمر فيقول :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا(٣)

وكأس الخمر على فم الشارب يرتشف منه مع الخمر قبلات المرة بعد المرة ، وكأن الشارب صعد إلى السماء ، ليقبل كوكباً فى ليل مظلم داجن ، وذلك فى صورة بنيت على ألفاظ فخمة قوية جزلة ، لا يتكافأ فى رقته ولطفه مع ضخامة الألفاظ من حيث المعنى والحروف وشدة لا الإيقاع الصوتى منها ، وهى : (عب ويقبل بالتشديد فيهما ، داجى الليل) ، وقد نظم الشاعر هذه الصورة تحديا للخليع الحسين بن الضحاك الذى سبقه بقوله :

---

(١) ديوان ابن المعتز كرم البستانى ص ٤٠٨

(٢) من قصيدة يمدح فيها أبا العشائر الحمدانى والبيغان من المطلع الحميا سورة الخمر ، المشاش رأس العظم الرخو

(٣) العمدة ابن رشيق جـ ٢ ص ١٨١

وكأنما نصب كأسه قمر يكرع فى بعض أنجم الفلك[1]

وزاد الخليع على أبى نواس حين صور الشارب بصورة القمر وهو يقبل بعض الكواكب فى خمر معتق قائم كليل بهيم وهو محتاج إلى ضوء القمر والأفلاك معاً مع فضل السبق فى التصوير .

ثم صور ابن الرومى هذا المعنى فأبدع ولم يترك لأحد من بعده بقية يقول :

أبصرته والكأس بين فم منه وبين أنامل خمس
وكأنها وكأن شاربها قمر يقبل عارض الشمس[2]

صور الشاعر هذا المعنى فى ألفاظ سهلة عذبة رقيقة ، فالكأس بين أنامل خمس رقيقة، وقد قبضت هى جميعها على الكأس شوقاً وغراماً حتى لا يفلت منها ، ورقة الأنامل زادت الكأس جمالا على جماله فأضاء الكأس ليكون شوق الشارب إليها أقوى وأشد فهو بين ثلاثة نضارة الأنامل ، التى تحتضن الكأس ، الذى يفيض عن صفاء الخمر ، وهو كالقمر يقبل عارض الشمس ، ومصدر كل هذا هو نشوة الشارب من الخمر فالشمس مصدر النور والحياة ، والخمر مصدر النشوة والطرب .

ولست مع ابن رشيق الذى يرى أن صورة أبى نواس أملا للفم وأعظم هيبة فى النفس فالصورة هنا تحتاج إلى الرقة واللين ، والوداعة واللطف لأن ذلك يتناسب مع مجالس الطرب واللهو والشراب والغناء ، وهى فى صورة الشاعر متنافرة مع معناها ، متناقضة مع غرضها ويتلاءم مغزاها ومضمونها مع ملء الفم ، وبث الرعب والخوف من جلبة الألفاظ وفخامتها يقول ابن رشيق مفضلا صورة الخليع : ولست معه فى هذا ثم مفضلا صورة ابن الرومى عليهما ولا اعتراض عليه فى ذلك يقول :

قال الحسن بن الضحاك الخليع أنشدت أبا نواس قولى :

وشاطرى اللسان مختلق التكريه شاب المجون بالنسك

إلى أن بلغت إلى قولى :

كأنما نصب كأسه قمر يكرع فى بعض أنجم الفلك

---

(١) المقصود من الأنجم فى الخمر هو تلك الفقاعات التى تعلو سطح الكأس ، وهى تشبه فى بريقها واستدارتها النجوم ، وتدل على جودة الخمر وعتقها

(٢) المخطوط ٣٧٤ج٢

فنفر نفرة منكرة فقلت مالك فقد أفزعتني ؟ فقال هذا مليح وأنا أحق به وستری لمن يروى ثم أنشدني بعد أيام :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا

فقلت هذه مصالته يا أبا علي فقال أتظن أنه يروى لك معنى مليح وأنا في الحياة؟ يقول ابن رشيق وأنت ترى سيرورة بيت أبي نواس كيف نسى معها بيت الخليع على أن له فضل السبق وفيه زيادة ذكر القمر وقد أربى ابن الرومى عليهما جميعاً بقوله :

أبصرته والكأس بين فم منه وبين أنامل خمس
وكأنها وكأن شاربها قمر يقبل عارض الشمس

ولكن بيت أبي نواس أملأ للفم والسمع ، وأعظم هيبة في النفس والصدر ، ولذلك كان أسير (١)

وأرجح أن السيرورة لبيت أبي نواس لا ترجع لذات الصورة ، وإنما ترجع لشهرة الشاعر بالخمريات وهيامه بها ، فأصبح كل ما يقوله عن الخمر مشهوراً متداولا يسير بين الناس ولذلك سمى (شاعر الخمريات) .

وأما صورة ابن الرومى فقد فاقت الصورتين السابقتين ، مع أنها قد تأثرت بهما ، فنقلت إلينا واقع الشراب في عمق ودقة ، واستيفاء لكل عناصر التصوير الأدبى ، من غير مبالغة ولا تضخيم وجلبة كما في صورة أبي نواس ومن غير إيجاز مخل ، كما في صورة الخليع وإن كانت كلمة « يكرع » عنده مثل كلمة « عب » في صورة أبي نواس . في عدم التلاؤم بين الشرب في الخمر ، وبين معنى الكلمتين وموسيقاها الصوتية الغليظة الصادرة من حروفهما وبخاصة من حروف (الكاف والعين والتشديد في الباء) .

ثم صور ابن المعتز هذا المعنى بقوله :

وكأنه وكأن الكأس في فمه هلال أول شهر غاب في شفق

« وهو أحسن ما وصف به كأس على فم (٢) »

ووجه الحسن إنما يرجع لصورة الكأس والفم أثناء غياب أحدهما في الآخر فأصبح

---

(١) العمدة ابن رشيق جـ٢ ص ١٨١ ، ١٨٢ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ط ثانية ١٩٥٥

(٢) التشبيه بين ابن المعتز وابن الرومى د. محمد عبد المنعم خفاجى ص ٤٩ ، وديوان ابن المعتز ص ٣٤٣ .

كل منهما جزءاً غائباً فى الآخر كالهلال والشفق الأحمر بعد الغروب مباشرة ، وقد غاب أحدهما فى الآخر .

وتدل الصورة على أن مجلس الشرب لم يبلغ الغاية فى البهجة والصفاء ، لأنه عبر بالهلال الذى يغرب أثناء وجود الشفق الأحمر قبل العشاء مباشرة مما يدل على أنه فى أول ميلاده فى غرة الشهر ، وعادة أن ضوءه يكون خافتا ضعيفا ، يزول بسرعة لا يشعر بها أحد، وهذا سر الضعف فى صورة ابن المعتز التى هى دون صورة ابن الرومى ، التى وضحت الواقع فى مجالس الشراب حيث الصفاء والضياء ، والنشوة والبهجة كل ذلك شئ لا من هلال وشفق بل من شمس وقمر . إن ثورة الضياء هنا تشبه نشوة الخمر فى النفس وهيجانها ساعة الغمرة والانسجام .

٤ — تصوير مجالس الخمر :

ومجالس الخمر تناولها كثير من الشعراء فإذا صور أبو نواس مجلساً يقول فيه :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء	وداونى بالتى كانت هى الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها	لو مسها حجر مسته سراء
قامت بإبريقها والليل معتكر	فلاح وجهها فى البيت لألاء
فأرسلت من فم الإبريق صافية	كأنما أخذها بالعين إغفاء
جفت عن الماء حتى ما يلائمها	لطافة وجفاء عن شكلها الماء
فلو مزجت بها نوراً لمازجها	حتى تولد أنوار وأضواء(١)

فالشاعر هنا لغرامه بالخمر ولهوه بها ملكت عليه نفسه وأصبح لا يرى سواها ، فهو يأبى التحدث إلا معها ، ويطرح لوم الندامى وعتاب السمار فى المجالس فلا يشفيه العتاب ولا يبرئه اللوم ، وإنما الخمر هى دواؤه وشفاؤه ، ثم يأخذ فى تصوير الراح .

وإذا صوره ابن عنين يقول (٢) :

ومدامة لم يبق من طول ثوائها	فى خدرها إلا وميض شعاع
من كف مصقول العوارض آنس	يرنو بمقلة جؤذر مرتاع
وقفت عوارض صدغه فى خده	حيرى وباتت فى القلوب سواع

(١) ديوان أبى نواس

(٢) هو محمد بن نصر بن عنين من اشهر شعراء عصره وكان هجاء توفى فى دمشق ٦٣٠ هـ

راضت خلائقه العقار وبدلت نزق الصبا بموقر مطواع

ولطول مكث الخمر فى إنائها صارت معتقة صافية ، لم يبق منها إلا الشعاع ، يقلبها بين الندامى كف مصقول لساق جميل ، يأنس إليه الحاضرون يرمقهم بين الحين والحين بلحظة الساحر ، وعينيه الجذابتين ، وهو مكتمل الشباب ، ناضج الجسد ، وقد وقفت عوارض صدغه عن النمو والانتشار مذهولة متحيرة بينما أثر جماله وحسنه سكن فى القلوب لأن الخمر قد صاغت خلقته ، وهذبت أخلاقه ، فأضحى رزينا موقراً بعد طيش الصبا ، وطبعا لينا بعد نفار الشباب وإبائه ووفى الشاعر صورة مجلس الراح ، فأعطى له حقه وللراح حقها ، بينما أبو نواس شغله الخمر عن كل شيء .

أما شاعرنا ابن الرومى البارع المصور فلم يترك لغيره صبابة فى تصوير المجلس وجاوز النهاية فى الإحاطة والشمول بكل ملابساته ، فهو الموتور فى الخمر ، المنهوك الشره فى الشراب يقول :

ومهفهف كملت محاسنه حتى تجاوز منية النفس
تصبو الكؤوس إلى مراشفه وتضج فى يده من الحبس
أبصرته والكأس بين فم منه وبين أنامل خمس
فكأنها وكأن شاربها قمر يقبل عارض الشمس [1]

هذا الفتى الجميل على حال يخالف كل أحوال الفتيان فتجمعت فيه المفاتن ، والتقت عنده كل الفضائل فى الحسن . حتى صار هو المثال للجمال ، فهو مهفهف ناعم ، غض مكتمل المحاسن بديع التنسيق يحقق منية النفس من سحره ، ويرد أمل القلب من جلاله ، فعشقته الخمر لجماله وحسنه ، وهامت به لفرط بهائه ، وصبت إليه وهى فى الكأس رهينة له ، تبادله القبلات وهو يرتشف رحيقها ، الرشفة بعد الرشفة فتشتد حرارتها ويزداد عشقها ، ويتضاعف شوقها ، وهما معا فى عناق دائم ، يأبى أحدهما مفارقة الآخر إلا بمقدار مابين الرشفات ، على أن البقية الباقية تضج فى الكأس لتواصل اللحاق والعناق ، ليفنى ماعندهما من زاد ، والصورة فى البيتين الثالث والرابع قد مضت فى مكانها .

وتديم البحترى انهكت الخمر قواه ، وخر صريعاً من سحرها وأثرها يقول :

ونديم حلو الشمائل كالدينار محض النجار عـذب المصفى

(١) المخطوط ٢٧٤ جـ ٢

بت أسقيه صفوة الراح حتى — وضع الكأس مائلا يتكفا
قلت : عبد العزيز تفديك نفسي — قال : لبيك قلت : ألفا
ها كها قال : هاتها قلت : خذها — قال : لا أستطيعها ثم أغفى(١)

لو لم يبق لهذه الصورة إلا الموسيقى العذبة الراقصة النشوى ، والحوار الحى القوى لكفاها فى الإتقان والروعة .

ويقول ابن المعتز :

أعاذل قد أبحت اللهو مالى — وهان على مأثور المقال
دعينى هكذا خلقى دعينى — فمالك حيلة فيه ولا لى
وساق يجعــــل المنديل منه — مكان حمائل السيف الطوال
غلالة خده صبغت بورد — ونون الصدغ معجمة بخال
بكأس من زجاج فيه أسد — فرائسهن ألباب الرجال(٢)

يترك الشاعر حبيبه إذا جد وقت اللهو والشرب ، وينسى حديثها الساحر ، إذا تذكر نداماه لأن هذا هو خلقه ، ولا حيلة له فى الكف عنه ، وساقيه هنا ليس فى مجلس صفاء وشراب ، ولا فى منتدى رقة وطرب بل فى معركة يضع المنديل مكان السيف ، متورد الخد ، جميل الصدغ زاد من سحره خال استقر أسفل العذار ، وهو يدور بكأس عليه أسد ، والندامى من حوله صرعى ، قد افترستهم الخمر والأسد معا .

أبدع الشعراء جميعاً فى تصوير مجالس الراح ، ومنتدى الخمر ، وقد أبدع كل منهم فى إيحاء ينفرد به ، كما يتفق مع الآخر فى اتجاه وهو جمال الساقى وفتنته وقد سرى فيه سحر الخمر .

وانفرد أبو نواس بأن كف أصحابه وندامه عن اللوم فالوقت عنده للشرب والطرب لا للعقاب والمؤاخذة ، ويستقل ابن عنين بوصف عوارض الساقى وخضوعها لسحر الخمر حتى توقفت عن النمو حيرى وأن العقار جعل منه خلقة سوية ، وخلقاً رزيناً طيعاً .

وينفرد ابن الرومى بساقيه الذى بلغ الغاية فى السحر وأربى على الجمال ، حتى عشقته الكأس وهامت به وضجت بالشكوى من الهجر والبعد .

---

(١) ديوان البحترى تحقيق حسن كامل الصيرفى ج ٣ ص ١٤٢٨ دار المعارف ١٩٦٣ م

(٢) ديوان ابن المعتز : كرم بستانى ص ٣٨٠ ط بيروت ١٣٨١ هـ – ١٩٦١ م

والبحترى مع براعته فى الإيقاع والنغم والحوار والحركة وكان نديمه حديث العهد بالخمر ، فانقلبت المقاييس عنده وخر صريعاً وغاب عن مجالس الندامى .

وابن المعتز إذا تذكر الخمر نزل بساحتها وتخلى عن حبيبه متنكراً لا يعرف أحداً ، ليلتقى هناك مع ساقيه فى ساحة الحرب يشهر منديله ويطلق أسوده فتقع الندامى فرائس لهن فى صورة لا تتناسب مع لطف المجلس ورقة المنتدى .

ويكاد يلتقى الجميع فى استيفاء عناصر التصوير فى صورهم من الحركة والألوان ، والأصباغ والطعوم والروائح والإيقاع والأصوات والأشكال والحجوم .

إلا أن ابن الرومى برع فى صورته وتفرد بقوة الإنفعال ، وصدق العاطفة ، لذا لم تكن الأوصاف عنده مجردة من الإحساس ، ولا المحسوسات جامدة ولا خالية من الشعور ، ولكنها امتزجت بوجدانه ، وتجاوبت مع مشاعره ، وكانت صدى لأحاسيسه ، وأطلقت المشاعر والعاطفة لجمع الخيال فى عنانه بين المحسوسات والظواهر فى مجالس الندامى وبين وجدانه وأحاسيسه ، وأصبحت الكأس عاشقة لا معشوقة ، تقبل وترتشف الخمر ، والخمر يضج فيه ويصرخ بين جوانبه وتشتد الحركة وتزداد شوقاً وحرارة ، لأن الكأس والخمر شعر بأنوثة الساقى الرقيقة فهو بض الأنامل ، طرى الأصابع وحسن الوجه ممتلىء العارضين فامتزجوا جميعاً وتلاقت الأرواح فلا ندرى أين مصدر الجمال والنور أفى الكأس والخمر معاً أم فى الساقى والنديم أم فيهما جميعاً ؟ إنه انعتاق من عالم المادة ، واتحاد بأسرار الحياة والوجود .

ويؤكد ما سبق ذلك الخبر الذى حكى عن ابن الرومى قال ابن رشيق :

يحكى عن ابن الرومى أن لائماً لامه فقال : لم لا تشبه تشبيه ابن المعتز وأنت أشعر منه قال أنشدنى شيئاً من قوله الذى استعجزتنى فى مثله فأنشده فى صفة الهلال :

فانظر إليه كزورق من فضة   قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال زدنى فأنشده :

كأن آذريونها   والشمس فيه كالية
مداهن من ذهب   فيها بقايا غالية

فصاح واغوثاه يالله لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ذلك ، إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن الخلفاء وأنا أى شىء أصف ؟ ولكن انظروا إذا وصفت ما أعرف أين يقع الناس كلهم منى هل قال أحد قط أملح من قولى فى قوس الغمام :

وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا   على الأرض دكنا وهى خضر على الأرض
يطرزها قوس الغمام بأصفر   على أحمر فى أخضر وسط مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل   مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقال فى صفة الرقاقة :

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به   يدحو الرقاقة وشك اللمح بالبصر

الخ الصورة(١)

فصور ابن الرومى حافلة بالظلال والإيحاءات والإشارات ، وتصور موقفه الشعورى وانفعاله القوى لخلق الخيال عنده وبعث فيها صور التجسيم والتشخيص ، وتمازجت الألوان وتحددت الأشكال ، وسرت الحيوية والحركة بين عناصر الصورة ، وقد لونها الشاعر بوجدانه وأضفى عليها من شعوره ، وأصبحت أيدى السحائب تنشر مطارفا على الأرض ، وقوس الغمام يطرزها بأبهى الألوان وأجملها فى تنسيق بديع وترتيب وتخير للمواقع والأصباغ ، فأقبلت الطبيعة الفاتنة تتبختر فى أثواب زاهية الأصباغ وقد تراكم بعضها فوق بعض ، وقصر البعض عن البعض .

وكتب ابن الرومى للخباز الخلود فى صورته الرائعة ، فهى تتصل بعاطفته وشعوره قبل أن تتصل بالأشكال والاحجام ، وتلتقى مع قلبه وأحاسيسه قبل أن تفصح عن الألوان والحركات ، فابن الرومى كما أحب الطبيعة وهام بها فى قوس الغمام ، فان معدته مع صانع الرقاق ، لا تعرف إلا هو فهو النهم الشره لأن فى الرقاق قوامه وبقاء حياته .

خباز ماهر سريع الحركات لا تستقر العجينة الكروية فى كفه على حال ، حتى تراها كالقمر فى اللمعان والنقاء ، والدقة والصفاء والرقة والاستواء ، تنمو وتكبر تحت يديه النشيطة الدقيقة كدوائر المياه التى تتعاقب واحدة بعد الأخرى عند ما يرمى فيه بالحجر ، ليتم لها معاً الرقاق ودوائر الماء الحركة والاتساع والليونة والصفاء .

وصور ابن المعتز مع أنها موفورة العناصر ، غنية بفخامة اللفظ وجزالة الكلم إلا أن العاطفة فيها ضعيفة فاترة لا تنبض بوجدان الشاعر ، ولا تفيض عن مشاعره وأحاسيسه ، فهى أشتات جمعها خياله الجديب لأدنى ملابسه ليلفق منها تشبيهات فاترة الصورة مهلهلة التلاحم ، ولا رابط بين أجزائها إلا ما تراه العين من مجرد الألوان والأشكال والأحجام

---

(١) العمدة ابن رشيق ج ٢ ص ٢٣٦

والروائح ، فالهلال فى لجة السماء كالزورق على الأرض فى لجة البحر ولكى يحكم التلفيق فى الصورة شحن الزورق الفضى الأبيض بحمولة من العنبر الأسود ، لتلتقى الأضداد ، وتتلاقى المتناقضات من غير أن يظهر الشاعر أثر ذلك فى نفسه وعلاقته بحسه وشعوره ، وكذلك الأمر فى الآذريون وما بينها وبين المداهن الذهبية : (فيها بقايا غالية) فى التشابه والتلاقى من النبق البعيد .

يقول ابن رشيق معقباً عما حكى عن ابن الرومى فيما سبق :

« وهذا كلام إن صح عن ابن الرومى فلا أظن ذلك أمراً لزمه فيه الدرك ، لأن جميع ما أراه ابن المعتز أبوه وجده فى ديارهم — كما ذكر أن ذلك علة للإجادة وعذر — فقد رآه ابن الرومى هنالك أيضاً ، اللهم إلا أن يزيد أن ابن المعتز ملك قد شغل نفسه بالتشبيه، فهو ينظر ماعون بيته وأثاثه ، فيشبه به ما أراد وأنا مشغول فى التصرف فى الشعر طالباً به الرزق ، أمدح هذا مرة ، واهجو هذا كرة ، وأعاتب هذا تارة ،واستعطف هذا طوراً، ولا يمكن أن يقع أيضاً عندى تحت هذا وفى شعره أيضاً من مليح التشبيه، مادونه النهايات التى لا تبلغ ، وإن لم يكن التشبيه غالباً عليه كابن المعتز (١).

ويرد ابن رشيق سر انبهار ابن الرومى وتعجبه من تشبيهات وصور ابن المعتز إلى مادة الصور ذاتها ، حيث لا تقع تحت سمعه وبصره كما تقع لابن المعتز فى بيت الخلافة ، ولكنه يستدرك الأمر بتعليق آخر هو غاية فى الأهمية للتصوير بصفة عامة كفن أدبى حيث يقرر ابن رشيق الناقد العظيم أساس التصوير الرائع وهو انفعال الشاعر بالمظاهر التى يعيشها وامتزاجها بمشاعره وأحاسيسه وأن يخوض التجارب الشعرية خوضاً عن واقع يعيش فيه الشاعر وعن أعمال وانصهار مع ما يألفه ويتصل بوجدانه ، عند ذلك يتحقق الصدق فى التصوير ومطابقته للواقع الذى يعيشه ، فابن المعتز لا يعرف إلا بيت الخلافة والثراء ، وابن الرومى وإن كان يرى نفائس ابن المعتز لكنها لا تتجاوب مع مشاعره — فهو مشغول بالتصرف والتقلب بين عامة الناس ، وفى هذا اللقاء ينبض شعوره وتتجاوب أحاسيسه مع أصداء الحياة والناس .

هذا هو ما يشير إليه الناقد ابن رشيق بإشارة خفيفة ، ويلمح إليه . لمحة خاطفة ، وابن رشيق هنا يتحدث عن روح الصدق الفنى الذى لابد منه فى كل عمل أدبى رائع .

وابن الرومى نزل إلى الحياة وتجرع مرارتها ، ولقى الكثير من شرور المجتمع الذى

---

(١) العمدة : ابن رشيق ج ٢ ص ٢٣٧ .

أنكره وتعقبه ، فهرب إلى الطبيعة وأحبها عوضا عما فقده فى الحياة من محبة الناس ، لذلك انفعل وأحس وشعر ، فكانت صورته هى الواقع المملوء بالمشاعر والأحاسيس المفعم بالحيوية والحركة .

أما ابن المعتز فقد عاش فى برج عاجى ، يلتقى بالناس على قدر وفى فئة خاصة محدودة ، فلا يرى إلا ما يقع تحت حواسه فى قصر أبيه من تحف وجواهر وأحجام وأشكال ، بعيداً عن حياة الناس وصراعهم الذى يولد الحيوية ويهيج الإنفعال لذلك كان ابن الرومى سيد عصره فى الصورة الأدبية .

ويتأثر بالصورة من هام بابن الرومى مثل بعض شعرائنا المحدثين كالعقاد فى تصويره لمجلس الخمر حيث يقول :

ويسعى إليها الشاربون بمجلس	يحف به عشب أثيث وأمواه
كليلتها والدهر وسنان غافل	وقد أيقظ العود الصفاء فلباه
يدور بها الساقى علينا كأنها	مباسم ثغر والحباب ثناياه
جرت فى صفاء الدمع وهى دواؤه	فمن ذاقها لم تجر بالدمع عيناه
تنبو فلولا أن يسيل رحيقها	لقلت لظى أذكى النسيم شظاياه
يكاد إذا طاف النديم بجامها	يرفرف حوليه الفراش ويغشاه
لها فى يمين الشاربين توهج	إذا ماخبا قلب من الحزن أذكاه(١)

هذه صورة أدبية لمجلس خمر على طريقة ابن الفارض كما سماها العقاد ، وتأثر فيها بصور السابقين بعامة ، وصورة ابن الرومى بخاصة أمر ظاهر ، ولكنها تنفرد بطابعها الخاص الذى منحه العقاد ظلالا بديعة من روحه وطبعه وشاعريته ، فمجلس الخمر فى خيلة تجمعت فيها مظاهر الجمال وعناصر الطبيعة الفاتنة ، فى أعشاب خضراء ومياه صافية ، والعود الناغى يترنح ، حتى أيقظ الزمن من غفلته ، وعاد هذا كله على مجلس الشراب بالصفاء والهدوء والحياة ، فالساقى يتنقل بالخمر هنا وهناك ، تلك الفاتنة التى تقبل الندامى بثغرها الباسم ويمتزج الرحيقان : رحيق الخمر ورحيق الفم ، فيخيل للرائى أنه لا فرق بين أسنانه وبين حباب الخمر ، وهذا قريب الشبه بصورة ابن الرومى السابقة فى قوله : (تصبو الكئوس إلى مراشفه) ، وقوله : (أبصرته والكأس بين فم) .

---

(١) ديوان العقاد (المجموعة من ديوانه « أسوان ») ص ٧٧ ، ٧٨ ط ١٩٦٧ م

والخمر عصارة قد انصهرت فى صفاء الدمع ، لكنها دواء للدمع فهى تشفى الغليل ، والذى يضج هنا من الحبس ليس الخمر كما فى صورة شاعرنا :

وتضج فى يده من الحبس

ولكن الضجيج وقع من مألوف ، والبكاء صدر من معهود يأتى منه ذلك ، وهو الشارب لا الخمر فإنه يضج ويبكى حتى إذا رشفها كانت دواءا لبكائه ، واستقراراً لنفسه ، وهدأة لثورته ، فالدواء هو نفس الداء ، (وبعض السم ترياق لبعض) فصفاء الخمر من صفاء الدمع ، وبالدمع الذى جمدت عنه العين ، وبالخمر التى سرت فى جسده ، بهما معاً ، انتشى وطرب . بهذا التصوير الفريد فى البيت الرابع يبتكر العقاد ، لكنه فى الصورة الثانية فى آخر الأبيات يلتقى مع ابن الرومى مباشرة فى ثورة الكأس ، فهى تضج عند شاعرنا ، وتتوهج عند العقاد ، وتختلف البقية فى الكأسين ، فهى فى الأولى محبوسة ، لأن الشارب ثمل ، وفى الثانية تنتظر الشارب لأنه مازال يشرب ولا يخفى التأثر بين صورتى الشاعرين فى هذا المعنى ، وإن كان العقاد أبدع فى تناوله هو أيضا .

وظهر التأثير فى قول العقاد : تنير فلولا أن يسيل رحيقها إلى آخر البيت ، بهذه الصورة :

فكأنها وكأن شاربها قمر يقبل عارض الشمس

ولولا رحيقها السائل لقلت إنها نار ونور كالشمس والقمر ، أذكى النسيم لهيبها ، وداعب شعاعها فهى شمس وقمر ابن الرومى ، وإن كانت جملة (فلولا أن يسيل رحيقها ..) منحت صورة العقاد إيقاعا أجمل وظلالا فريدة . وطرافة فى تركيب الصورة ، وابتكاراً فى معناها .

وفى الصورة الأخيرة نرى الخمر فى يد الشاربين متوهجة كالشمس كما هو عند شاعرنا ولكن توهجها عند العقاد يبعث فى القلوب حرارة ونشاطا وحياة بعد أن طال على شاربها الأمد ، وأعياه الهجران فهو شروب دائما ، حتى للبقية الباقية فى الكأس ، لأنه أشد نهما وشراهة ولكن خمرة ابن الرومى عشيقة وفية لشاربها فى عناق تام ولقاء متواصل ، فهى تبقى عليه ، فلا يشرب ما بقى فى الكأس منها لئلا ينهك قواه ، حتى يحيا لها ، وينعما معا بطول البقاء .

وصورة العقاد وإن تأثرت بصورة ابن الرومى السابقة فهى تعد من بديع صوره ،

وتأخذ مكانها من روائع التصوير الأدبى لأنه أحسن التصرف فى التناول ، وأبدع فيما تأثر به إبداعا طريفا .

ويصور العقاد عناق الخمر متأثراً بشاعرنا فى الصورة السابقة، وتوضيحا لمعناه وصورته فى البيت السابع وذلك فى موطن آخر حيث يقول :

ولو شفانا الغرام   لما سبتنا المدام
وهل تلذك جام   بعد الثغور اللدان(١)

وتأثر المازنى بابن الرومى فيقول فى صورة « الخمر والحب » :

طاف بالراح علينا   واضح سبط القوام
فسقانا من سلاف   وسقانا من غرام
وتمشى الحب قبل الخمر   مشيا فى العظام
فشفى منا سقاما   ورمانا بسقام(٢)

أليست هذه صورة ابن الرومى للساقى الغض ، والطائف الجميل ، وكأن سحره فى نفسه أقوى من سحر الخمر فى نفس شاربها ، أقوى إصابة وأعظم فتنة ؟ نعم هى نفس الصورة لأن الندامى فى كليهما قد هاموا بالساقى الطائف ، أكثر من هيامهم بالخمر، لأنها أضفت عليه من السحر والفتنة ما جعله أقوى منها أثراً فى أنفسهم . يقول ابن الرومى :

ومهفهف كملت محاسنه   حتى تجاوز منية النفس

إلخ الأبيات :

• — تصوير الصفاء :

يقول على بن جبلة :

كأن يد النديم تدير منها   شعاعا لا يحيط عليه كأس(٣)

فشدة الصفاء للكأس ، واعتاق الخمر وجودتها ، صاغ منهما الشاعر كأساً من النور والشعاع يقوم بغير إناء ، فكأنه كوكب نورانى معلق فى الهواء، فإذا صور ابن الرومى ذلك تبرجت صورته فى غاية السحر والإبداع يقول :

---

(١) ديوان العقاد ص ١٩٣ ط ١٩٦٧

(٢) ديوان ابراهيم عبد القادر المازنى ج ١ ص ١١٨

(٣) الموازنة : للآمدى ج ١ ص ٢٩٢ تحقيق : الأستاذ السيد أحمد صقر

ورازقى مخطف الخصور
كأنه مخازن البلور
لم يبق منه وهج الحرور
إلا ضياء فى ظروف من نور
لو أنه يبقى على الدهور
قرط آذان الحسان الحور (١)

والعنب الرازقى لشدة صفائه كأنه مخازن من البلور ، إزدادت صفاء بالحر الشديد الذى أحاط به من كل جانب ، فصار العنب ضياء معلقاً فى ضوء الحياة ، تمسكه ظروف من نور ، فلولا هذه الظروف النورانية ، لما ميز العقل والإحساس معاً بين ضوء العنب وصفائه وأضواء الحياة ونورها ، إنها قدرة عجيبة فى فن التصوير والإختراع .

ويقول البحترى :

يخفى الزجاجة لونها فكأنها فى الكف قائمة بغير إناء (١)

وهى مثل صورة شاعرنا فى البناء والتركيب ، وإن اختلفت عنها من حيث المضمون ، فهو يصور صفاء الخمر الشديد ولكن صورة ابن الرومى تصور صفاء العنب وقد تفردت بالدقة والاستقصاء وتمام الاجزاء ، فلم يدع شيئاً يتصل بالصورة إلا جاء به على أحسن حال فيها ، فالعنب مخازن من البلور ، أعمل فيها وهج الحرور فلم يبق منها إلا ضياء فى ظروف من نور ، وفى النهاية يصير العنب تحفة تفتن الناظرين ، وحلى تتزين بها الحسناوات الفاتنات ، حيث يتحول إلى حبات من الجواهر ، تقرط النساء بها آذانهن ليكونن من الحور العين ، فى معابد الجمال والخلود .

وهذا البيت السابق لابن المعتز ، ونسب إلى البحترى فى ديوانه وفى الموازنة للآمدى ، كما نسب أيضاً إلى أبى تمام (٢) .

وتبدو فى الصورة شخصية ابن المعتز ، لأنها لا تتفق وموسيقى البحترى الشاخصة فى

---

(١) المخطوط ٣٠٧ ج ٢

(١) ديوان البحترى تحقيق حسن كامل الصيرفى ج ١ ص ٧ دار المعارف ١٠٦٣

(٢) ابن المعتز د . محمد عبد المنعم خفاجى ص ٢٠٦

صوره، التي يعرف بها شعره، وتتفق مع كلف ابن المعتز بالتشبيهات وما يتسم شعره بمسحة من التعمل والتصنع، كما لا ينبغي أن ينسب إلى أبي تمام المغرق في الصنعـــة والتفكير والحكمة.

ويصور المتنبي هذا المعنى فيقول :-

لها ثمر تشير إليك منه بأشربة وقفن بلا أوان(١)

فالمتنبي يركب صورته من الصورتين السابقتين، فقد أخذ ضياء الثمر ونضجه ونوره من صورة ابن الرومي، وأخذ وقف الثمار من غير آنية تحفظها من صورة ابن المعتز فقد جمع بينهما من غير أن تشعر بوجدان الشاعر، على خلاف ابن الرومي الذي يبدو لفرط حبه، وشدة حرصه على العنب الرازقي، أنه سما به إلى درجة الخلود، حيث تطل إلينا مشاعره شاخصة في كل عنصر من عناصر صورته الشعرية البديعة، فالإحساس العميق، أطلق خياله، فأحال العنب إلى صورة عجيبة، فهو دقيق الغلاف، رقيق القشرة، زاد من صفائه، حرارة الشمس، ونقاء معدنه فهو كالبللور، لولا نهم ابن الرومي، لكان على مر العصور، من حلى الحور، في جنان الخالدين.

٦ — تصوير الدموع :

ذكر ابن رشيق قول مرقش :(٢)

النشر مسك والوجوه دنا نير وأطراف الأكف عنم(٣)

فالوجه كالدينار في اللون الأحمر والصفاء والاستدارة، وأطراف الأصابع مخضبة بالحمرة كالعنم، وصور أبو نواس هذا المعنى قائلا :

يا قمرا أبصرت في مأتم ينــدب شجوا بين أتراب

يبكي فيذري الدر من نرجس ويلطم الورد بعنــاب

والدموع تتساقط من عيونها، كالدر على خدها المورد، التي تلطمه بأنامل حمراء كالعناب. ويصور ابن الرومي هذا المعنى بقوله :

كأن تلك الدموع قطر ندى يقطر من نرجس على ورد(٤)

فالدموع ندى تقطر من عيون النرجس على خد كالورد، فكل أجزائها من الطبيعة ندى ونرجس وورد، في تلاؤم وانسجام بينما أخل أبو نواس بهما بقوله « يلطم » التي

(١) ديوان المتنبي ج ٢ ص ٤٨٣

(٢) العمدة ابن رشيق ص ٢٩٢

(٣) العنم نبت أحمر ينبت في الرمل

(٤) المخطوط ٢٠٩ ج ٢

لا تلائم سحر الطبيعة ولا تتسق مع أجزاء الصورة المأخوذة من الطبيعة، وإن كانت الكلمة تتلاءم مع المعنى فقط وهو الدموع ، لكنها تمزق شكل الصورة وإطارها ، وبراعة التصوير تقتضى لفظا آخر يتناسب مع المعنى والشكل جميعا مثل كلمة « تقطر » عند ابن الرومى ، فهى تصلح للأمرين معاً للبكاء وللطبيعة الساحرة فى إبداع واتساق وأخل الصورة بقوله : « الدر » فليس من مظاهر الطبيعة الحية كالورد مثلا وأخذه أبو الطيب المتنبى فى صورة يقول فيها :

ترنو إلى بعين الظبى مجهشة   وتمسح الطل فوق الورد بالعنم(١)

تلاؤم بين عناصر الصورة وأجزائها بين الظبى والطل والورد والعنم وكلها من الطبيعة فى مظاهرها الحية ولكن الإيقاع الموسيقى فى كلمة « مجهشة » ونغمها لا يتناسب مع رقة الصورة فى لفظها وسحرها .

كأن ثناياه أقاح وخده   شقيق وعينيه بقية نرجس(٢)

غير أنه جعل عين الموصوف بقية من نرجس وليست هى عيون النرجس أو كعيونها .

٧ — فى الوداع ويصوره أبو تمام فى قوله :

أما وقد كتمتهن الخدور ضحى   فأبعد الله دمعا بعد ما اكتتما

لما استحر الوداع المحض وانصرمت   أواخر الصبر بالاكاظما وجما

رأيت أحسن مرأى وأقبحه   مستجمعين لى التوديع والعنما

فكاد شوقى يتلو الدمع منسجما   إن كان فى الأرض شوق فاض فانسجما(٣)

وداع أبى تمام كان بالدموع التى فاضت بعد مجاهدة النفس ، ولم يقو الصبر على كتمانها ورأى أثنائه منظرين : أحدهما حسن يسره وهو التلويح بيدها المورّدة . وثانيهما منظر مثير ، وهو الفراق ذاته الذى يؤجج نار الشوق ، ويثير لوعة الوجد ، حينـــذاك تمتزج دموع العين ، التى انهمرت بدموع الأرض بعد أن فاضت لتشارك الجميع فى موقف الوداع المرير .

---

(١) الوساطة للقاضى الجرجانى ص ٣٢٠ تحقيق الاستاذ ن أبو الفضل ، والبيجاوى ط ثانية ١٣٧٠ هـ ١٩٥١ م

(٢) العمدة ابن رشيق جـ ١ ص ٢٩٢ ، دلائل الاعجاز للامام عبد القاهر الجرجانى ص ٤٠٤ تحقيق د. خفاجى .

(٣) ديوان أبى تمام : تحقيق محمد عبده عزام جـ ٣ ص ١٦٥ دار المعارف ١٩٥١ م

ويبدع ابن الرومى فى تصوير الوداع بما لا يتطاول إليه سابق ولا لاحق فيقول :

أعانقه والنفس بعد مشوقة ... إليه وهل بعد العناق تدان

وألثم فاه كى تزول حرارتى ... فيشتد ما ألقى من الهيجان

ولم يك مقدار الذى بى من الجوى ... ليرويه ما تلثم الشفتـــان

كأن فؤادى ليس يروى غليله ... سوى أن يرى الروحين يمتزجان(١)

فالصورة هنا تامة الأجزاء تتدرج من حال إلى حال ، تدرجا طبيعيا ، فى تلاؤم واتساق، لتنقل الواقع فى توديع المحبين ، إنه موقف صعب يعز على الاحباب أن يفارق فيه كل صاحبه فلن تشفى الدموع غليل البين ، ولا يطفىء التلويح نار الشوق ، كما عند أبى تمام بل عناق فى عناق ، وليس بعدهما وصال ، وفى القرب يلثم فاها ليطفى نار الشوق ، وتزول حرارة الوجد ، لكنه لذلك يشتد هيمانا ، ويزداد جوى من رحيق الشفاه ، وإذا لم يشفه العناق ، وترويه القبلات ، فلم يبق بعد إلا امتزاج الروحين وتعانق النفسين ، وفى ذلك الشفاء كل الشفاء .

وما أشبه صورة البحترى بصورة أبى تمام ، وما أدناهما معا عن صورة ابن الرومى المصور البارع ، يقول البحترى فى تصوير الوداع :

ما أرى البين مخليا من وداع ... أنفسى العاشقين حتى تبينا

وبود القلوب يوم استقلت ... ظعن الحى أن تكون عيونا

منزل هاج بى الصبابة والشو ... ق قرينى فيـــه ساء قرينا

يوم كان المقام فى الدار شكا ... يبعث الحزن والرحيل يقينا(٢)

فهو فراق ودموع وصبابة وشوق وذكريات وليس انعتاق وامتزاج ، ولا اقتران وسمو بالحب ، وتكاد أن تقترب صورة ابن المعتز من رائعة شاعرنا يقول الشاعر الخليفة:

يارب إخـــوان صحبتهموا ... لا يملكون لسلوة قلبـــا

لو تستطيع قلوبهم فقدت ... أجسادها وتعانقت حبا(٣)

اهتم ابن المعتز بالأجزاء الأخيرة فى الصورة فترك العنـــاق والتقبيل والرواء كما عند

---

(١) المخطوط ٣٧٣ ج ٤

(٢) ديوان البحترى : تحقيق حسن كامل الصيرفى ج ٤

(٣) ديوان ، ابن المعتز ص ٦٣ كرم البستانى ـ دار بيروت ١٣٨١ ـ ١٩٦١ م

شاعرنا ثم صور الجزء الأخير ، من طغيان الشوق ، ونفاد السلوان حتى تجردت القلوب من مادياتها ليتعانق الحب وتمتزج الروح بالروح .

ويصور الوداع شاعر أندلسى فيقول(٢) :

أخاف عليك من عينى رقيبى ... ومن عينى وعينك والزمان
ولولا أنى وضعتك فى عيونى ... إلى يوم القيامة ماكفانى

إنه يخاف عليها من كل العيون ، حتى من عينه وعينها ، ويخاف عليها من حوادث الزمان، فلو قدر له أن يحفظها من أجفانه لما شفى ذلك غليله ، وأطفأ الجوى الذى يعتصر فؤاده ، وهى دون الصور السابقة لأن المودع انصرف عن حبيبه ليطارد عيون الرقباء فى كل مكان فيشغل نفسه بهم عن وداعها ، ثم يعبر عن شوقه بما لا يتأتى إمكانه فى أنه لا يكفيه وضع حبيبه بين جفنيه ، وهذه مبالغة تجرد الشاعر من قوة الشعور وحيوية التصوير ، اللذين يقومان على التلويح والتقبيل والعناق وامتزاج الأرواح وهذا هو ما يحدث فعلا فى فراق المحبين إن صدقوا فى حبهم وتعاطفهم .

ويصور العقاد (ليلة الوداع) متبعا ابن الرومى فى صورته السابقة ، وإننى أعد العقاد آخذا لصورة شاعرنا من غير تصرف فنى ولا ابتكار جديد فى ظلالها ، بل نقلها منه نقلا ، إلا القليل من اللمسات التى لا تنهض بوضع العقـــاد فى مكان ما ، لزوال روحه وتجرد شخصيته فيها يقول العقاد :

وألثمه كيما أبرد غلتى ... وهيهات لا تلقى مع النار راويا
فقبلت كفيه وقبلت ثغره ... وقبلت خديه ومازلت صاديا
كأنا نذود البين بالقرب بيننا ... فنشتد من خوف الفراق تدانيا
كأن فؤادى طائر عاد إلفه ... إليه فأمسى آخر الليل شاديا
إذا ما تضامنا ليسكن خفقة ... تنزى فيزداد الخفوق تدانيا(١)

أليست هذه صورة العناق فى وداع ابن الرومى تزيده اللثمة شوقا ، ويشعل الوجد ناراً لا تنطفىء بالأمواه ، وكلما قبل وقبل ، ازداد عطشاً لا ينتهى ، وطغى مدداً لا يحد ، وهو بذلك يريد الوصل والقرب بينما هو يدنو من الفراق والبعد ، اللذين يخشاهما على الرغم من

---

(١) الموازنة بين الشعراء د . زكى مبارك ص ٦٧
(٢) ديوان العقاد ص ٦٥

العناق بعد العناق ، والضمة تلو الضمة ، والقلب لا يسكن له وقع ، ولا يهدأ له نبض ، بل يزداد القلب خفوقا والنبض تتابعا وعنفا .

والعقاد هنا ملتزم بصورة ابن الرومى التزاماً ، ويهبط بعد ذلك فى عشقه للماديات ، وهيامه بالمحسوسات ، فيأخذ من الحبيب ويعطى بين جذب وابتعاد ، ودنو وافتراق ، وضم وانفراج ، وارتشاف وجفاف ، هو بعينه ما يعنى به شباب العصر المنحرف ، من العشق المزيف ، يعانق تلك فإذا مضى عانق الأخرى ، وهكذا وأما صاحبنا فعناقه ووداعه، قد تجرد من عوالم الماديات والمحسوسات ولم ير فى شفاء غليله إلا الإنعتاق وراء المادة وامتزاج الأرواح فى عالم سام وراء هذه العوالم ، وما أروعك أبا الحسن حين صوت فأحكمت :

كأن فؤادى ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين يمتزجان

ويصور إبراهيم عبد القادر المازنى الوداع بقوله :

ودعته والليل يخفرنا والبدر يرمقنى ويرمقه
والماء يجرى فى تدفقه ويكاد ماء العين يسبقه
والدل ينهاه تمنعه والحب يأمره ترفقه
ولرب خد بت ألثمه والدمع يطفىء ما أحرقه
والورد أقطفه لوجنته والشوق فى قلبي مفوقه
لما رأيت الليل زايلنا وأذاع سر الصبح مشرقه
طأطأت لا أرنو لرونقه فالحسن يطغى الصب رونقه(١)

وصورة المازنى وإن تأثرت بصورة ابن الرومى ، فهى صورة قد فاضت عن مزاجه ، وأشاع فى جوانبها من ظله وخفة روحه ، فوداعه الحبيبة كان فى الليل الذى يحرسهما بظلامه، ولكن البدر كالرقيب يرمقهما من حين لآخر ، وهما فى دموع تجرى فى سباق من شدة الوجد وحرارة الفراق ، وتتدفق كمياه الأنهار ، فالدنيا من حوله تشاركه الوداع وهو يتردد بين عناق الحب فى رفق ، وبين افتراق الدل فى إباء وتمنع ، وتلك من صورة لشاعرنا « أعانقه والنفس بعد مشوقة » إلا أن المازنى أبدع نظمها فانفرد بها فى موازنة خلابة بين الدل ومعناه ، والحب ومغزاه .

---

(١) ديوان المازنى ج ١ ص ٣٥ ، ٣٦

وينهال فى وداعه على خد الحبيب ملحا فى قبلات متتابعة ، حتى تجمر خده ناراً ، فاسرعت الدموع تطفىء الحريق المشبوب فيه ، ولا يزال الخد متوهج والدمع جار ومع ذلك لم يشف غليله ، وهذا من قول شاعرنا فى البيتين الثانى والثالث غير أن فى صورة ابن الرومى شفاه ورضاب ، وفى صورة المازنى خدود ودموع وكلاهما لا يشفى .

وزاد المازنى فى جانب ، وهو أن الورد يقطفه لحبيبه ، لأنه من خده ، والشوك يجنيه لنفسه لأنه يحكى الفراق عنده ، وكذلك تصويره الليل الذى انقشعت ظلمته ، وطارت دجنته ، فيكشف سرهما الصباح ، الذى يشرق وجه الحبيب ، ويزيده حسنا وفتنه ليغرى المحب بجماله ، ولكنه يكف عن العناق ، ويعرض عنه لئلا يفتضح أمرهما .

وقصر فى جانب آخر وهو أن وداعه وإن كان حاراً وصادقاً واشترك فيه الليل والبدر والماء والصباح المشرق ، إلا أنه لم يصل إلى درجة امتزاج الروح بالروح والصفاء الوجدانى المطلق كما فى صورة ابن الرومى .

٨ — تصوير سحر الأنوثة :

يصور الأخطل سحر الأنوثة وسر المرأة الذى يأخذ بعقول الرجال مع ضعف النساء فيقول :

يبرقن بالقوم حتى يختبلنهم ورأيهن ضعيف حين يختبر

ويبدع ابن الرومى فى تصوير ذلك فيقول :

ومن عجائب ما يمنى الرجال به مستضعفات لنا منهن أقران[1]

وصورة شاعرنا أغنى فى العبارة ، وأوفى فى تناول الأجزاء ، وأشد ارتباطا بالنفس ، فقول الأخطل (يبرقن) أقل إثارة للإنتباه من قول شاعرنا (ومن عجائب) وقول شاعرنا (يمنى) أقرب إلى تصوير واقع الرجال فى أحلامهم وخيالاتهم ، فغالبا ما يكون لهم ميل ورغبة حسب ما يعشقون لمواقعة ، إحدى بنات حواء ، بينما كلمة (يختبلنهم) أبعد عن الواقع قليلا فى التصوير ، لأن اللفظ يحكى صورة من لا عقل لهم من الرجال ، الذين يقعون فى حبائل النساء بشهواتهم لا بعقولهم ، وهذا الصنف قليل بالنسبة للأول أو على الأقل لا يعتد به فى مجال العرف والعادة ، ثم أتم ابن الرومى صورته بقوله (لنا منهن أقران) وهو لبيان طبيعة ميل الرجال إلى النساء ودرجته ، فهو يتبع التكوين الإنسانى ولا يستطيع الشخص أن يعيش بدون قرين غالباً ، كما لا يستطيع الجسد أن يعيش بلا روح ، وهذا

(١) المخطوط ورقة ٣٨٤ ج ٤

ما ينفرد به ابن الرومى فى صورته ، استقصاء لجوانب التصوير لسر المرأة ، وروعة واختراعا فى بناء الصورة ونسجها .

٩ — جمال المرأة العربية :

ويصور عمرو بن كلثوم فى معلقته جمال المرأة العربية ، والفتنه فى جسدها فيقول :

وثديا مثل حق العاج رخصاً ... حصانا من أكف اللامسينا
ومتنى لدنة طالت ولانت ... روادفها تنوء بما يلينا(١)

ويصورها الأعشى فى معلقته المشهورة فيقول :

يكاد يصرعها لولا تشددها ... إذا تقوم إلى جاراتها الكسل
صفر الوشاح وملء الدرع بهكنة ... إذا تأتى يكاد الخصر ينخزل
هركولة فنق درم مرافقها ... كأن أخمصها بالشوك منتعل(٢)

ويستوفى ابن الرومى مفاتن الجسد للمرأة العربية فى بيت واحد فيقول :

حوراء فى وطف قنواء فى ذلف ... لفاء فى هيف عجزاء فى قبب(٣)

ويصورها فى بيت آخر :

إن أقبلت فالبدر لاح وإن مشت ... فالغصن مال وإن رنت فالريم

وصورها المتنبى بقوله :

نفور عرتها نفرة فتجاذبت ... سوالفها والحلى والخصروالردف
وخيل منها مرطها فكأنما ... تثنى لنا خوط ولاحظا خشف(٤)

وما أروع موسيقى ابن الرومى الداخلية فى صورته ، وقد تفجرت من المزاوجة

---

(١) الرخص : اللينة ، حصانا : عفيفة ، اللامسون : أهل الريب ، المتن : جانب الصلب ، روادفها: أعجازها لدنة : لينة ، تنوء بما يلينا : تنهض بما يقرب من اعجازهن .

(٢) صفر الوشاح : دقيقة الخصر ، ملء الدرع : ضخمة ، البهكنة : كبيرة الخلق ، تأتى : ترفق ينخزل : يتثنى وينقطع ، هركولة : ضخمة الوركين ، فنق : فتية حسنة ، درم : غير بارزة المرفقين من اللحم ، اخمصها باطن القدم ، ديوان الاعشى : د . م محمد حسين ص ٦ المطبعة النموذجية ١٩٥٠ م

(٣) الحور : شدة بياض العينين فى سوادها ، الوطف : غزارة شعر الأجفان والحاجبين ، قنا الأنف : ارتفاع فى قصبة الأنف ، الذلف صغر الأنف ودقته ، اللفاء ضخمة الفخذين ، الهيف : دقيقة البطن رقيقة الخاصرة ، عجزاء عظيمة العجيزة ، القبب دقة الخصر المخطوط ٤٧ جـ ١

(٤) السوالف : جمع سالفة وهى العنق ، المرط : الثوب ، الخوط : الغصن ، الخشف ولد الظبية: ديوان المتنبى : تحقيق عبد الرحمن البرقوقى جـ ٣ ص ٢٥ ، ٢٦ مطبعة الاستقامة.

على إمتداد البيت كله، مع الدقة والإحكام فى تشابه الكلمات والحركات والسكنات ووفائه بأجزاء الصورة فى بيت واحد، موضحاً حضارة الذوق فى وصف المرأة وتصويرها، فقد انتقى من حقل اللغة الألفاظ الرقيقة من حيث المعنى، الخفيفة من حيث الموسيقى، العذبة من حيث الإيقاع الذى ابرز مقاييس الجمال فى المرأة العربية، تأمل معنى الإيقاع فى هذه الأوصاف (حوراء — قنواء فى ذلف — لفاء فى هيف — عجزاء فى قبب — فالبدر لاح — والغصن مال) فالإيقاع فى كل لقطة من هذه، يجسم لنا عضوا من مفاتن المرأة، وقد بلغ الغاية فى الجمال، انظر معنى سحر العين، الذى اشتد بياضها وسوادها، ولولا انطباق الأجفان وظلال الرموش، لأصبح البياض والسواد مصدراً للرعب والفزع، ولو عبر بلفظ «حور» لما وقع هذا المعنى فى التصوير من لفظ «حوراء» بحرف اللين الممتد لتوقف كلمة «وطف» إمتداده وانطلاقه، ليتحقق للعين مقياس السحر والجمال، وذلك لخلو لفظ (وطف) من اللين السابق فى (حوراء) وهذا الخلو يقوم مقام الوقف والسكون لينتهى الانطلاق عند حد معين هو مقياس الجمال فى العين؛ وكذلك الأمر فى تصويره الأنف (قنواء فى ذلف) فقد أوقف ارتفاع الأنف حتى لا يتضخم بالصغر فى (ذلف) وبحكاية الإيقاع فيها على النحو السابق فى العين وهكذا فى بقية الصور الباقية لأعضاء المرأة، أما صورة عمرو والأعشى فقد خلت من الخفة والعذوبة مما لا يتلاءم مع تصوير المرأة سواء كان ذلك من حيث اشتقاق اللفظ أو من حيث ثقل الموسيقى وانعدام الإيقاع وهذا واضح فى (ثديا — حق — أكف — متن — بهكنة — هركولة — فنق — درم — الخ) أما المتنبى فى صورته فقد توسط بين ابن الرومى وبين الشاعرين السابقين لجمع فى وصفه أشتات من هنا ومن هناك بل كانت الصنعة عنده أقرب إلى ابن كلثوم والأعشى، إن التصوير الأدبى إحساس وذوق وإبداع، كل ذلك فى تصوير ابن الرومى.

— ٣ —

تصوير رحلة الشمس

يقول شاعر من بنى الحارث يصور رحلة الشمس:

مخبأة أما إذا الليل جنها	فتخفى وأما بالنهار فتظهر
إذا انشق عنها ساطع الفجر انجلى	دجى الليل وانجاب الحجاب المستر
وألبس عرض الأرض لونا كأنه	على الأفق الشرقى ثوب معصفر

تجلت وفيها حين يبدو شعاعها ولم يحل للعين البصيرة منظر
عليها كدرع الزعفران يشبه شعاع تلالا فهو أبيض أصفر
فلما علت وابيض منها اصفرارها وحالت كما حال البهيج الميسر
وجللت الآفاق ضوءاً بنورها تخر لها وجه الضحى يتسعر
ترى الظل يطوى حين تبدو وتارة تراه إذا زالت عن الأرض ينشر
كما بدأت إذا أشرقت فى مغيبها يعود كما عاد الكبير المعمر
وقد شف حتى يكاد شعاعها يبين إذا ولت لمن يتبصر
فأتت قرونا وهى ذاك ولم تزل تموت وتحيا كل يوم وتنشر[1]

تختفى الشمس إن جن عليها الليل ، وينفض الفجر الخيوط السوداء فى دجنة الليل ونسج الظلام ويشيع فى الأفق لونه القرمزى ، وتبرز الشمس متشحة بوشاحها الذهبى ، ثم تأخذ لونها الفضى شيئاً فشيئاً ، كلما قربت من كبد السماء ، وتطوى الظلال حتى تتوهج الظهيرة ، فإن زالت نحو الغروب أخذ الظل يمتد شيئاً فشيئاً على الأرض ، والشمس تسير وقد شف شعاعها ، حتى يختفى عن البصر ، لتعود كما كانت فى رحلتها الخالدة كل يوم ، تموت وتحيا ، وتختفى وتظهر .

ويصور ابن الرومى لقطة من دورة الشمس فى رحلتها ، وهى المرحلة الأخيرة فى شمس المغيب وقت الأصيل فيقول :

وقد رنقت شمس الأصيل ونفضت على الأفق الغربى ورسا مزعزعا
وودعت الدنيا لتقضى نحبها وشول باقى عمرها متشعشعا
ولاحظت عواده عين مدنف توجع من أوصابه ما توجعا
وظلت عيون النور تخضل بالندى كما اغرورقت عين الشجى لتدمعا
يراعينها صوراً اليها روانيا ويلحظن ألحاظاً من الشجو خشعا
وبين إعضاء الفراق عليهما كأنهما خلا صفاء تودعا
وقد ضربت فى خضرة الروض صفرة من الشمس فاخضر اخضراراً مشعشعا
وأذكى نسيم الروض ريعان ظله وغنى مغنى الطير فيه وسجعا
وغرد ربعى الذباب خلاله كما حثحث النشوان صنجا مشرعا

---

(١) زهر الآداب : الحصرى جـ ٣ ص ٢٩١ تحقيق د. زكى مبارك

وفاضت أحاديث الفكاهات بيننا كأحسن ما فاض الحديث وأمتعا(٢)

شاعر بنى الحارث استعرض رحلة الشمس ، ما بين المشرق والمغرب ، ولم يأت على كل أجزاء الرحلة فى صورته الادبية ، وإن منحها بعض عناصرها من الحركة واللون ، ولكن الشاعر عذره هنا حيث أن الثقافة مازالت ضحلة ، ومصادر الفكر محدودة ، وإن كنت أحمد له ، صدقه الفنى فيها ، وفيض إحساسه وحرارة وجدانه .

أما صورة ابن الرومى فقد تناول فيها جزئية صغيرة ، وأدار آلته المبدعة فى التصوير ليلتقط شمس الأصيل ، والناس مطمئنون إلى الهدوء بعد نصب العيش ، مستريحون إلى سكون الغروب بعد جهد النهار ، مثل الشمس تماما تريد أن تطمئن الى الأرض ، بعد رحلتها الشاقة المضنية ، وما أشبه صفرة وجوههم وشحوب ألوانهم ، من شدة الإرهاق ومشقة الحياة ، بصفرة الشمس وقد دنت من حافة اللحد لتودع الدنيا ، وتعلقت بخيوطها الصفراء فى الأفق الغربى طمعا فى الحياة ، وتبدد ما بقى من أشعة عمرها فى الفضاء شيئا فشيئا ، فيحزن لها الخلق بل الطبيعة والروض الأخضر كله ، هذا وذاك فى خشوع وخضوع يرمقن الشمس حين تضع خدها على الأرض ، فتلاحظ الغزالة النوار بعين المريض الذى يرى فى الزهور امتدادا للحياة ، وتفتحا للأمل ، كما يلاحظ المريض أيضا التى أثقلته الأوصاب والأوجاع عواده ، لأنه يرى فيهم امتدادا لحياته وأملا فى شفائه .

وكما شيعها الناس بشحوبهم وصفرتهم فبعيون النور والأزهار تشيعها بدموع الندى مثلما تغرق عينى الشجى فيها عند فراق الحبيب ، وكل العيون تلحظها وراء وابل من الدموع فى خشوع وشفقة ، وحزن وألم ، من وقت لآخر ، لأنهم خلان أصفياء لشمس الأصيل .

ويعلمون أيضاً أن الشمس حينما تغيب عندهم تطلع فى العالم الآخر ، وإذا اختفت فى لحد الأرض تحيا على وجها الآخر ، كالمؤمن المجاهد فإنه لا يلق من الإزهاق والألم إلا ساعة الحشرجة وبعد أن يغيب عن الدنيا ، لا يغيب إلا فى النعيم والحياة الحقة ، كذلك الشمس بعد غيابها ، ولذلك فالكون كله بما فيه الذى ساده الظلام يهتز طرباً لإشاعة الشمس فى العالم الآخر الحياة فتعان الدنيا عن بهجتها وفرحتها بذلك .

فنسيم الروض يعبق ظل الحياة وسكون الغروب ، بالعطور الذاكية الفواحة ، والطير

---

(٢) الديوان المصور الجزء الثالث والمخطوط ٤٨ جـ ٣

يضرب بأوتاره أعذب ألحانه ليتجاوب مع صدى سجع الحمائم ، وتغريد الذباب المكتمل القوى الناضج ، ومع المنتشى الذى يضرب بصنجة ، والناس فى هذا النغم العذب . يرتلون أعذب الأحاديث ، وأنشط الفكاهات ، وأمتع الأسمار ، كأحسن ما تكون الحياة .

تصوير بارع قوى ، ولمسات عبقرى ، ورسم إنسان خلاق ، فى لوحة فنية رائعة ، ولقطة حية من لقطات الطبيعة صورة مكتملة الأجزاء ماترك الشاعر فيها صغيرة ولا كبيرة إلا هيأ لها مكانها من الصورة ، واستوفى عناصر التصوير ، بما تراه العين أو تسمعه الأذن ، أو يشمه الأنف ، أو تحس به الحواس كلها ، ثم الاندماج فى المشهد والمشاركة الوجدانية فيه لا من الشاعر وحده بل منه ومن الناس والحياة والطبيعة ، وشاركوا الشمس فى حزنها وشحوبها . واهتزوا لطرفها وحياتها بعد الغروب فى العالم الآخر ، أنه هو الانسان الشاعر ، والمصور العبقرى ، ولذلك بقيت صورته إنسانية خالدة ، وستبقى ما بقيت الحياة والشمس والناس .

وقد توهم الصورة أن طرب الناس والكون ، واهتزاز الحياة وبهجتها بعد الغروب قد يفسد التلاؤم فيها ، ويضعف الانسجام ، بما يتنافى مع المشهد الحزين فى غروب الشمس وهذا غير صحيح بل الصورة فى غاية التلاحم والتلاؤم ، لأن الشمس إنما غابت لتحيا حزن وشحوب وقت الغروب ثم فرج وابتهاج وحياة بعد الغروب .

فإذا صور ابن المعتز الشمس ساعة الاصيل ، التقط الصورة من لوحة ابن الرومى السابقة فيقول : ـ

كأن الشمس يوم الغيم لحظ ... مريض مدنف من خلف ستر[1]

وتأثر ابن الرومى فى قوله السابق :

وغرد ربعى الذباب خلاله ... كما حثحث النشوان صنجا مشرعا

يقول عنترة بن شداد حيث يقول :

وخلا الذباب بها فليس ببارح ... غردا كفعل الشارب المترنم

هزجا يحك ذراعه بذراعه ... قدح المكب على الزناد الأجذم[2]

---

(١) ديوان ابن المعتز

(٢) ديوان عنترة بن شداد العبسى . ضبطه محمد محمود ص ٩٩ ، ١٠٠ المطبعة العربية

أخذ شاعرنا تغريد الذباب ، الذى هو كفعل الشارب المترنم ، وصور تغريده كعزف النشوان بالصنج المشرع .

ويصور العقاد شمس الأصيل فى « سوانح الغروب » فيقول فيها متأثراً بصورة ابن الرومى السابقة :

أنظر إلى جنب السماء الدامى	لهب على الأمواج ذات ضرام
شفقان هذا فى السماء منثر	قان وذاك على العباب الطامى
الشمس والبحر المريج تلاقيا	أم الضياء ومعـــدن الأنعام
يا حاسرات والغزالة كاسف	فى الغرب حاجبها وراء لثام
ملكت نفوس القوم حول سريرها	ورقابهم باللحظ والصمصام
وتجرعت سم الأساود بعد ما	ساغت من اللذات كأس سمام
وذوت فأين اليوم سمر محاجر	منهـا ولدن معاطف وقوام
الليـــل أرخى فى السماء سدوله	ورمى بأستار على الآطام
والطير تزقو والغصون تناوحت	نشوى تميـــل تمايل النوام
يمشى رسول السلم بين فروعها	بعد التحام دائم وخصام(١)

فاللهب الدامى المضطرم على الأمواج عند العقاد ، هو ما نفضته شمس الأصيل الحمراء ، على الأفق الغربى ورسا مزعزعاً ، والشفق القانى فى السماء وعلى العباب الطامى ، يتعانقان خلا يعرف أهو غياب الشمس فى البحر المريج ، أم تلاقى الضياء بمعادن البحر والأرض ذات البريق الخاطف ، هو ما عند شاعرنا من شعشعة الدنيا ، وهى تفرغ باقى عمرها أو شعشعة الروض فى دكنته الخضراء عند ما غمرته الشمس بشفقها الأصفر القانى .

وغزالة العقاد تحتجب بلثام الأفق ، وهى تختفى قليلا قليلا فى ظلام الليل ، وقد أرخى سدوله ، ورمى بأستاره عليها تلفه فوق سرير الإحتضار ، وقد ملكت النفوس وأشرأبت القلوب ، وشدت الأبصار إليها مذهولة شاخصة ، وهم يشهرون سيوفهم فى وجه الطبيعة ونواميس القضاء وحتمية القدر ، وما هى لحظات حتى سرى السم فى بدنها وأصاب الحز ، ذلك سم الأساود التى صاغته أثناء النهار ، من لذات الكئوس المسمومة ، واختفت فاختفى

(١) ديوان العقاد ص ٣١ ، ٣٢

السمر فى المحاجر ، تحت ستار الليل واختفت حسناوات القوام لدنات المعاطف ، فى لفائف الظلام ، بعضهما فوق بعض وتركت الطبيعة فى بهجة والحياة فى فرحة ، فالطير تزقو وتتجاوب مع حفيف الأوراق ورقصة الأغصان . ونسيم السلام ينقل حديث الود والوئام بين فروع الأشجار بعد ما تناوب عليه الوصال والخصام .

ألم يكن هذا هو العصب والتركيب لصورة ابن الرومى ؟ فقد رأينا الشمس عند شاعرنا مريضة وضعت خداً على الارض وأمسكت بعين الشجى الدامعة ، وهو يرمقها بألحاظه المرة بعد المرة فى لوعة وشفقة ، والقوم حول سرير الموت يشيعونها إلى مقرها الأخير .

والبيتان الأخيران عند العقاد بكل جزئياتهما لا يخرجان عن بيتى ابن الرومى التاسع والعاشر فالطير تغرد بعد الغروب ، والأغصان تترنح نشوى فى نغم منساب ، وتدلله العشاق ، ونسيم الروض رسول السلام يمشى بين فروع الأشجار فيذكى بينه الالتحام حينا بعد طول الخصام .

إنها بعينها صورة ابن الرومى بحيث لو وضعت الصورتين نصب أعيننا ، لما ندت إحداهما عن الأخرى ، ولا نسجما معاً فى مغزاهما وأهدافهما وبكل عناصرهما وأجزائهما ولكن الفضل للأسبق ولذا أحب العقاد ابن الرومى ، وجعله وليد عصره الحديث لا العصر العباسى .

وصورة العقاد لا تخلو من الهفوات فوق تأثره واتباعه لشاعرنا ومنها لفظ «الصمصام» فلا محل له فى الصورة ، فقد هتك التئامها ، ومزق تماسكها ، وليس من المألوف ، أن يقف الناس بسيوفهن ليرهبوا الطبيعة والكون ليمسكا بالشمس فى كبد السماء ولا يزجان بها فى العدم وراء الظلام ، وكيف تحارب الدنيا من أجل الشمس بالعتاد والسلاح ؟ إنه خروج عن طبيعة الصورة الأدبية فى شمس الأصيل والمألوف فى تناولها .

١١ — فى العناق : قال الآمدى : « قال البحترى :

وجدت نفسى من نفسى بمنزلة ... هى المصافاة بين الماء والراح

وهذا حسن جداً أخذه من قول بشار :

وإذ نلتقى خلف العيون كأننا ... سلاف عقار بالنقاح مشوب

وأخذه أيضاً من قول أبى عيينة فقال :

ذاك إذ روحها روحى مزاجا ... ن كأصفى خمر بأعذب ماء

وقول البحترى أجود من البيتين وأخذه على بن الجهم وجعله فى العناق فقال :

وبتنا على رغم الحسود كأننا خليطان من ماء الغمامة والخمر

وأجود من هذا كله ، وأحلى وألطف معنى قول بشار :

لقد كان ما بينى زمانا وبينها كما بين ريح المسك والعنبر الورد

وقال عبد الصمد بن المعذل فى العناق والاختلاط :

كأننى عانقت ريحانة تنفست فى ليلها البارد

فلو ترانا فى قميص الدجى حسبتنا فى جسد واحد

وقال البحترى :

ولم أنس ليلتنا فى العنا ق لف الصبا بقضيب قضيبا

وما زلت أسمع أهل العلم بالشعر يقولون : إن هذا البيت أجود ما قيل فى العناق ، لأنه أصاب حقيقة التشبيه بأجود لفظ وأحسن نظم .

ومثله قول الآخر ، ووجدته فى الأناشيد ولست أدرى أيهما أخذ من صاحبه :

وضم لا يهنهه واعتناق كما التف القضيب على القضيب

وبيت البحترى أجود سبكا ، وأحلى لفظا لقوله « لف الصبا » لأن القضيب إنما يلتف بالقضيب بواسطة الريح . .

وقد قال بشار فى نحو هذا ، وأظن هذين منه أخذا .

إننى اشتهى لقاءك والله فماذا عليك من لقيانى

قد تلف الريح غصنا من البا ن إلى مثله فيلتقيان

وقال على بن الجهم فى وكيد الالتزام :

سقى الله ليلا ضمنا بعد هجعه وأدنى فؤادا من فؤاد معذب

فبتنا جميعاً لو تراق زجاجة من الراح فيما بيننا لم تسرب

وهذا أيضاً أحسن لفظاً ومعنى :

وأحسن ما قيل فى المضاجعة قول امرىء القيس :

تقول وقد جردتها من ثيابها كما رسمت مكحولا من العين أتلعا

وجدك لو شىء أتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعا

فبتنا نذود الوحش عنا كأننا قتيلان لم يعلم لنا الناس مصرعا

تجافى عن المأثور بيني وبينها ‏ ‏ وتدني على السابرى المضلعا

إذا أخذتها هزة الروع أمسكت ‏ ‏ بمنكب مقدام على الهول أروعا

وهذا لا شيء أجود منه ولا أحلى ، وقد أخبر بالأمر على ما كان وقد أحسن أيضا عبد الحسحاس في قوله :

وبتنا وسادانا إلى علجانة ‏ ‏ وحقف تهاداه الرياح تهاديا

فما زال بردى طيبا من ثيابها ‏ ‏ إلى الحول حتى أنهج البرد باليا (١)

ويتأثر ابن الرومي بما سبق من الصور في العناق ، ولكنه يبدع في تصويره ، فيأتي على أجزاء الصورة كلها ، ويستوفي عناصرها جميعا كلما أمكن ذلك ، ويجمع في إطارها كل ما يتصل بها ، ويشترك في تكوينها كل الحواس ، حتى تنعم باللذة ، ويغيب معها الشاعر في عناق ، وتتجاوب مشاعره في امتزاج ، بينما الصور السابقة وإن فاق بعضها ، وأخذ مكانة من التصوير الأدبي إلا أن الحواس كلها لم تشترك في تركيب الصورة ، مع الايجاز الشديد المخل بأجزائها ، وتمام تركيبها . يقول ابن الرومي في العناق :

ولقد يؤلفنا اللقاء بليلة ‏ ‏ جمعت لنا حتى الصباح نظاما

تجزى العيون جزاءهن عن البكا ‏ ‏ وعن السهاد ولا نصيب أثاما

فنبيحهن مرادهن يردنه ‏ ‏ فيما أدعين ملاحة ووساما

ونكافىء الآذان وهي حقيقة ‏ ‏ ألا تزال تكابد اللواما

فنثيبهن من الحديث مثوبة ‏ ‏ تشفي الغليل وتكشف الأسقاما

وتكافىء الأفواه من كتمانها ‏ ‏ إذ لا يزال لها الصمات لجاما

فنبيحهن ملاثما ومراشفا ‏ ‏ ماضرها أن تكون مداما

انتظم المتعانقان في لقاء ليلا ، لم يفيقا منه إلا بنور الصباح ، وأخذت العين حظها من الامتاع والمؤانة ، لتستعيض عن سهادها ودموع الفراق ، وفي صمت الليل ينساب الحديث العذب ، ينزع الأسقام ويسكر الأرواح ، ويجزى الأفواه عما كتمته من أسرار الوجد ولوعة الحب ، والأفواه لاتزال غائبة في الصمت ، ولكن حديثها يكون بالقبلات وبامتزاج الريق العذب ، واتصال الرضاب بعد انقطاع ، حتى يكاد يكون الريق والرضاب خمرا يسكر ، ومداما يغيب فيه الندامى ، في نشوة ولذة وحياة .

---

(١) الموازنة الأمدي ج٢ ص ١٣٨ : ١٤٠ تحقيق الاستاذ السيد أحمد صقر
(٢) المخطوط ١٦٢ ج ٤

عناق وعيون وآذان ، وحديث وأفواه وأيد وقلوب ، كل يأخذ حقه ، وما ينبغي له من العناق في صمت الليل حتى الصباح ، لينسى فيه البكاء والسهاد ، وكيدالاوام ، ويشفي الغليل ويجلى الأسقام ولا يبقى هناك إلا حديث الملاحة والوسامة ، والملائم والمراشف والمدامة. خطوط وألوان وسحر وأنغام ، في لوحة فنية جامعة ، تنبض بالحيوية وتفيض بالأنس ، وتعبر عن الواقع في العناق كما هو وبمشاعره وأحلامه وانفعاله ووجدانه .

ومثل هذا العناق لا يترك منزلا في القلب لعاشق آخر ، فهو الحبيب الذي لم يعرف غيره لا قبله ولا بعده يقول ابن الرومي : —

جعلت لها صدري مراداً ترو ده وبوأتها من حبة القلب منزلا

فما علقت من قبلها النفس معلقاً ولا اتخذت من بعدها متعللا[1]

وليس عنده من مستزاد في العناق والحب والغناء :

ليس فيما كسيت من حال الحسن ولا في هواي من مستزاد

بل انعتاق وراء المادة وامتزاج الروحين فيما وراء المحسوس :

كأن فؤادي ليس يشفي غليله سوى أن يرى الروحين يمتزجان

١٢ — ويصور المجنون خيبة الرجاء واليأس فيقول :

وأصبحت من ليلى الغداة كقابض على الماء خانته فروج الأصابع

ويصور ابن الرومي هذا المعنى ، وهو يلوم على قومه الذين لم يفرقوا بين الجيد والردىء ولكن الصورة تفيض بروح المنطق ، وطبيعة الفلسفة ، لتكون أشد اتصالا بالشاعر ، وأقدر على كشف شخصيته ، مما يباعد بينها وبين صورة المجنون السابقة فيقوله ابن الرومي:

بلى قد فرقتم فرق خطة عاكس وما المغزل المعكوس بالمحكم الغزل[2]

١٣ — في العطاء : —

جاء في الوساطة : « قال أبو تمام — وقد روى هذا البيت لبكر بن النطاح — وقد دخل في شعر أبي تمام : —

ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها فليتق الله سائله

قال أبو الطيب :

يا أيها المجدى عليه روحه إذ ليس يأتيه لها استجداء

---

(١) المخطوط ٢٦٢ ج ٤ (٢) الديوان المصور الجزء الثالث .

أحمد عفاتك لا لجمت بفقدهم فلترك ما لم يأخذوا إعطاء

قال القاضى الجرجانى فى بيت أبى تمام أو بكر بن النطاح هو أملح لفظا ، وأصح سبكا ، وزاد أبو الطيب بقوله : « إنه يجدى عليك من روحه » ، ولكن فى اللفظ قصور ، والأول فى نهاية الحسن ثم نقل المعنى عن الروح إلى الجسد فقال :

لو اشتهت لحم قاربها لبادرها خراذل منه فى الشيزى وأوصال(١)

وهذا هو الأولى ومن جاد بأوصاله فقد جاد بروحه وكأنه من قول ابن الرومى :

لو حز من جسمه لسائله أنفس أعضائه لما ألما

ثم كرره « أى المتنبى » وغيره بعض التغيير فقال :

ملت إلى من يكاد بينكما لو كنتما السائلين ينقسم(٢)

ثم لاحظ هذا فأخفاه وأحسن ما شاء فقال :

إنك من معشر إذا وهبوا ما دون أعمارهم فقد بخلوا

فجاء به معنى مفرداً ، وهو من باب السماحة بالروح ، والغرض واحد » ومن هذا المعنى قول بكر بن النطاح .

ولو خذلت أمواله فيض كفه لقاسم من يرجوه شطر حياته(٣)

كثيراً ما صور الشعراء كرم الممدوح وجوده بأعز ما يملك حتى بالروح والنفس ، فالمعنى متداول معروف قديم قدم الشعر ، حبرته آلات التصوير ، فتتابعت فيه الصور تقسم بطبيعة قائلها ومزاج صاحبها ، وعلى ذلك فالمجال ليس مجال ابتكار فيها وإنما هو الدقة فى التصوير وكمال الاداة وتلاؤم الأجزاء .

أولا . كادت صورة أبى تمام المشكوك فيها ، أن تقترب من الكمال ، فهو يرى أن الممدوح

---

(١) خرادل : قطع ، اوصال : كل عظم لا يكسر ولا يخلط بغيره ، الشيزى : جفاف تصنع من خشب أسود

(٢) يخاطب صاحبيه على عادة الشعراء قبله

(٣) الوساطة بين المتنبى وخصومه : للقاضى الجرجانى ٢١٦ ، ٢١٧ تحقيق الاستاذ محمد أبو الفضل ابراهيم ، وعلى محمد البجاوى ط ثانية ١٣٧٠ هـ ١٩٥١ م دار أحياء الكتب العربية .

حين تنفد أمواله . يبذل روحه لترد حاجة العفاة ، ولكن الصورة اهتزت فى اللقطة الأخيرة بقوله . (فليتق الله سائله) فقد وضع الشاعر الممدوح فى موضع الشفقة والعطف من العفاة ، فهو يتألم لذهاب أمواله ، ويحزن لنفادها ويحذرهم ويحضهم على التقوى والرحمة ، وكان عليه أن يصور ممدوحه باشا فرحا ، حين يأتى على أمواله كلها فى البذل والعطاء . وذلك نهاية المدح ، وغاية الجود فى الكرم والسخاء .

وكان الأولى فى تمام الصورة إلا يأتى بالعبارة السابقة ، التى محت ظلالها الجميلة وأوهت رباطها وحلت عرى التماسك فيها .

ثانياً . وكذلك الأمر فى صورة بكر بن النطاح الأخيرة ، فقد قربت من الكمال ، لولا قوله « خذلت » التى كشفت عن عدم تحكم الممدوح فى الأموال فهى حينا تغيض عنه ، ولا يستطيع الحصول عليها ، ولذلك تخذله أمام الطلاب ، وإن كان التعبير بقوله . « شطر حياته » نزل بالصورة درجة عن صورة أبى تمام ، لأن الشطر دون النفس بكثير ، إذ النفس هى كل الجسد ، والحياة فيه ، أما الشطر قد لا يضر بالنفس وحياة الجسد ، كأن يكون يدا أو رجلا ، مما لا يذهب النفس والروح فيما بقى من الجسد فى الشطر الآخر ، ولا شك أن الذى يبذل روحه ونفسه أكرم بكثير ممن يبذل جارحة من جوارحه ، ولذلك كان التعبير بقوله « شطر حياته » مضعفا لجلال الصورة .

ثالثاً . أما صورة ابن الرومى فقد بلغت على إيجازها الكمال ، بحيث لو أضيفت اليها كلمة أو حذفت ، أو اختلفت كلماتها عن مواضعها لاختلت الصورة ، واختلفت أجزاؤها ، وصارت باهتة فاترة لا تنقل المعنى كاملا ، فالممدوح فى صورته هو المتحكم فى أمواله وفى نفسه وفى كل شىء ، كل يأتى إليه طوعا منقادا ، فهو السيد الآمر المطاع ، ذو الإرادة القوية ، وإن أنفق مهما انفق ، فلا يحتاج إلى تقوى أبى تمام فى صورته ، ولا تنهض الأموال على خذلانه كما فى صورة ابن البطاح ، وإنما الممدوح فرح باش مستبشر ، وإن كان لفظ « ألما » أحدث خدشة فى الصورة ، ولكنها مستساغة لوقوعها فى سياق النفى فكأن الشاعر عبر بالراحة عن طريق المفهوم لا المنطوق ، ومع ذلك كان الأولى أن يأتى بغيرها دفعا لهذا اللبس ، لكى تتلاءم مع أجزاء الصورة ، وأظنه ما عدل عن هذا لقلة وفقر عنده فى اللغة ، ولكن لضرورة القافية ، التى ما برىء منها شاعر مبدع .

وقد يوهم لفظ « حز » فى الصورة ، التشويه فيها أو الإختلال فى نسقها ونسجها ، ولكنى أرى أنها أشد عونا على اكتمالها فى نقل المعنى القوى ، وأقوى ارتباطا للتئام أجزائها ، فهى تدل — وخاصة بالتضعيف وبحسن إيقاعه — على سرعة المضاء فى العطاء ، من غير تردد أو تفكير ، وهذا أليق بالمعنى الكامل للكرم والجود .

رابعاً : وأما المتنبى فلم يأت بجديد فى صوره المتعددة ، وهو فى كل مرة يريد الكمال ، فلا يرى نفسه إلا هابطاً ، ويلح عليه فى التكرار ليبلغه ، (وما هو ببالغه) إذ جعل العفاة لتقواهم (كما عند أبى تمام) يتركون له روحه فليست هى محل استجداء ، ويصنيعهم هذا يكونون أهلا للعطاء لا للأخذ ، والمتنبى بهذا يذم ممدوحة ويمدح العفاة الذين أجادوا عليه بروحه .

وتطل شخصية المتنبى الآنفة المتكبرة من خلال الصورة على حساب ممدوحة ، فيأمره الشاعر بالحمد للعفاة الذين تصدقوا عليه (أحمد عفاتك) ويصور عدم تألمهم بهذا فى قوله (لافجعت بفقدهم فاترك مالم يأخذوا إعطاء) وهو نفسه ما عند شاعرنا لكنه بالنسبة للممدوح لا للعفاة ، وهذا كله لا يناسب مقام المدح مما أدى إلى اضطراب فى صورة أبى الطيب واهتزازها فى الظلال والألوان واختلالها فى الوئام والانسجام . وتناول المعنى فى صورة أخرى ، حيث جعل ممدوحة قسمة بين نفسه وبين صاحبيه فهو قسمة بين الثلاث . ولكن كبر الشاعر وترفعه أخفى إرادة الممدوح فى العطاء والبذل فهو « ينقسم » بفعل آخر خارج عن اختياره ، وهذا لا يتناسب مع مقام المدح إلا إن أراد المتنبى أن يمدح نفسه وصاحبيه بقوة التأثير والإرادة على الممدوح الذى لا حيلة له فى العطاء .

وبروز شخصيته فى غرور وصلف ، هى التى مزقت أستار الصورة الأخيرة ، حيث يقول لممدوحه ، « إنك من معشر » والمتنبى منهم فالتعظيم فى تنوين « معشر » والتعبير بكاف المخاطب وهو الممدوح كلاهما يوحى بترفع المتنبى ودنو ممدوحه ، والشطر الأخير « مادون أعمارهم بخلو » يوحى بأن الشاعر يأمر الممدوح ، ويحدد له العطية ونوعها ودرجتها ، وهذا كله مجاف لما يتطلبه التصوير الصادق فى المدح بالسخاء والكرم .

١٤ — المبالغة فى العطاء :

قال الفرزدق :

أعطانى المال حتى قلت يودعنى ... أو قلت أعطى مالا قد رآه لنا

فأخذ البحترى :

أعطيتنى حتى حسبت جزيل ما   أعطيته وديعة لم توهب

قال الآمدى وهو أجود من قول الفرزدق[1] .

وتأثر ابن الرومى بهذا المعنى فأبدع فيه ، حتى ليوهم أنه من ابتكاره يقول مفتخراً بمواليه من بنى العباس :

يهبون — دون دمى — دماءهم   وأرى قليلا دونهم قتلى[2]

إن بنى العباس يبذلون كل نفس ونفيس فى سبيل الشاعر، فهم يبذلون دماءهم وأرواحهم وهذا يدل على عطاياهم الجمة الموفورة، التى خرجت عن المألوف فى باب البذل والعطاء ، ولذلك نرى الشاعر يضحى بنفسه ودمه فى سبيلهم ، فهم أهل « للدفاع عنهم والذود عن حياضهم .

وابن الرومى من كثرة العطايا وتفرد الممدوح بالكرم بذل روحه فى سبيله ، بينما كان الفرزدق والبحترى ضنينين بالشكر والوفاء للممدوح ، فقد اكتفيا بجعل العطايا ملكا لهما ولكنها مال مودوع عنده وهذا هو سر براعة شاعرنا فى التصوير وابتكاره فى صورته .

١٥ — سيرورة الشعر والقوافى :

يقول عنتر بن الأخرس فى سيرورة الشعر والقوافى :

ألم تر أن شعرى سارعنى   وشعرك حول بيتك ما يسير

وقال على بن الجهم :

فسارت مسير الشمس فى كل بلدة   وهبت هبوب الريح فى البر والبحر

فقال أبو الطيب المتنبى :

قواف إذا سرن عن مقـولى   وثبن الجبال وخضن البحـار

وله مثله :

إذا قلته لم يمتنع من وصوله   جدار معلى أو خباء مطنب[3]

ويصور ابن الرومى هذا المعنى بقوله . يهجو فيه ابن عروس ويحذره من شهرة شعره .

أنا الذى لا يذل صاحبه   ولا يرى فى وليه ضرع

---

(١) الموازنة : للآمدى ج ١ ص ٢٩٣

(٢) المخطوط ورقة ج ٤

(١) الوساطة القاضى الجرجانى ص ٣٣٩

أنا الذى تحشد الرواة له فكل أيام دهره جمع (١)

وقال المتنبى فوق ما ذكره القاضى فى وساطته .

ودع كل شعر غير شعرى فإننى بشعرى أتاك الماد حون مرددا (٢)

وقوله .

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى واسمعت كلماتى من به صمم (٣)

وصورتا ، ابن الأخرس وابن الجهم السابقتين ، نسجاها من محض واتعهما فشعر عنترة سار عنه فى البلاد ، وشعر على سار مسير الشمس ، وهب مع الريح فى البر والبحر ، أما صورة المتنبى الأولى فقد جارى فيها ابن الجهم والثانية جارى فيها ابن الأخرس وكان فيهما دون الشاعرين فى صورتيهما .

وأما صورة ابن الرومى فقد فاقت ما تقدم من الصور فى دقتها وتمام أجزائها ، ويرجع السر إلى حاسته الفنية التى لا تند عنها شاردة ، فربما يسير الشعر فى الناس ، للتندر بعيوبه ونقائصه ، ولكن شعره مع سيرورته ، فصاحبه عزيز ، ولبس ذليلا ، وهو لا يملأ البلدان والجبال فحسب ، بل يملأ الدنيا ، على إتساع الدهر والزمن ، ونحن نعلم أن الزمن والدهر أقوى فى السيرورة من الجبال والبلدان ، والرواة يحتشدون فى الزمان المطلق لا فى المكان المحدد بالجبال والبحار ، فيروون شعره ، ويجمعون قصائده ، لذا فاقت صورته كل الصور السابقة لملاءمتها لشعره الذى سار بنفسه من غير احتفال منه ولا من مؤرخ ولا من كاتب .

وفاقت أيضا على صورة المتنبى ، التى يعبر فيها عن سمو المكانة لشعره بين الشعر ، وأنه هو الجدير بالمدح وبالممدوح ، والشعراء عالة عليه يرددون قوله ، ولكنه طوى أجزاء الصورة طيا لكى تأتى المبالغة على سحر الواقع فى التصوير القريب من النفس ، وكذلك الأمر فى صورته الثانية أنا الذى نظر الأعمى الخ ....

فجرد من شعره معجزة باهرة نزلت من السماء لترد البصر إلى الأعمى ، وتعيد السمع إلى الأصم ، لكن إعجاز الصورة ينبغى أن يعتمد على وسائل مألوفة فى عرف المجتمع ، ثم البراعة فى بناء الصورة من اختيار الأجزاء وحسن الترتيب . والتنسيق والوحدة والترابط وغيرها من عناصر الإبداع فيها ، أما إن كان الإعجاز فوق الطاقة البشرية

---

(٢) المخطوط ورقة ٥٢ ج ٣

(٣) ديوان المتنبى ١٩٣ ج ١

(٤) ديوان المتنبى ٢٦١ ج ١

كالإغراق فى المبالغة فلا ينبغى أن تكون الصورة معجزة بل تعد من الخوارق التى ترد عناد الكفر وأهله ، وهكذا كان المتنبى فى صورتيه السابقتين قامتا على المبالغة الشديدة والمفرطة حتى قضى على قوة الروح فى التصوير ، وقربه من الواقع .

(١٦) إتيان الشر من مأمنه : ـ

جاء فى الموازنة « قال البحترى :

ينال ما لم يؤمل وربما أتاحت له الأقدر ما لم يحاذر

أخذه من قول الآخر وأنشد ثعلب :

وحذرت من أمر فر بجانبى لم يلقنى ولقيت ما لم أحذر[١]

ويصور ابن الرومى هذا المعنى فيقول :

ومن فرجات النفس ما فيه حتفها[٢]

صورة موجزة مع الثراء فى المعنى ، وتمام جوانبه ، وكمال الإيحاء ، وإصابة الإشارات فقد أدخل من التبعيضيه على جمع المؤنث السالم « ومن فرجات » لتوحى بكثرة حوادث الدهر المتجددة من حين لآخر ، وهى فى ثوب الإغراء والخداع كالشأن فى الأنثى التى تصيد بحبائلها الرجال وهذا ما يوحى به جمع المؤنث ، ثم التعبير بلفظ « ما » وما يفيده من الإبهام والخفاء بما يتناسب مع نزل القضاء ، وما أجمل التعبير بالظرفية « فيه » لإفادة حتمية القضاء وتمكنه من النفس أيما تمكن ، وإضافة ضمير النفس إلى الحتف يفيد أن حوادث الزمن مقدرة ومكتوبة ولابد من نفاذها فهى تدور معه حتى تدق عقاربها ، وتوحى الصورة فى مجموعها بجهل الإنسان لما يخفيه القدر له ، وغروره لما يرى فى كل خطواته ومشروعاته من الفوز والنجاح ، فيأتى القدر على خلاف ما يأمل ، كل هذه المعانى وغيرها جاءت فى صورته الموجزة وإن التقى فى بعضها مع الصورتين السابقتين إلا أنه تفرد بإيحاءات وإشارات جاءت عن طريق نسق الصورة ونظمها البديع .

ويصور المتنبى هذا المعنى مطيلا من غير داع فيقول :

فلا تنكرن لها صراعة فمن فرج النفس ما يقتل[٣]

فالشطر الأول يفيد التعجب والنكران بالتنصيص عليهما من خلاله وأجمل منه أن يجعل الصورة توحى بهما من غير نص ولا تصريح كما فعل ابن الرومى حيث أوحت صورته

(١) الموازنة : للآمدى ج ١ ص ٢٩٥ (٢) المخطوط ٧٩ ج ٣

(٣) ديوان المتنبى التحقيق السابق الجزء الرابع

بذلك ، فالشطرة الأولى عند المتنبي حشو زائد ونغم ناشز عن الصورة ، والشطرة الثانية هي نفس الصورة عند شاعرنا وقد ظهر فيها العجز والتقصير في التعبير بكلمة (فرج) فإن أفادت الكثرة فلن تفيد الخداع والاغراء كما أفاد الجمع عند ابن الرومي . أما الفعـــل (ما يقتل) فإنه يدل على جهل الإنسان بحوادث الدهر ، وهذا أمر ليس جديداً بل هو معلوم لكل الناس ، ولذلك كان التعبير بكلمة (حتف) عند شاعرنا أقوى منه من حيث المعنى وهو أشد من القتل ، ومن حيث الموسيقى فالسكون بعد الحركة فيه يوحي بالمفاجأة والشدة والقطع على خلاف الإيقاع في (يقتل) حيث أضعفت كثرة الحركات في الفعل من الشدة في نوازل الدهر ، والحركات هي ضمتين وفتحة مع سكون واحد .

(١٧) قال أبو نواس يصور ديك الصباح :

ذكر الصباح بسحرة فارتاحا   وأمله ديك الصباح صباحا
أوفى على شرف الجدار بسدفة   غرداً يصفق بالجناح جناحا

ويصور ابن الرومي في قوله .

قوام أسحار مؤذن حارة   وصال زوجات كمى مآقط
ينفى مناعسه بنفس شهمة   ويشاهد الهيجا بجأش رابط(١)

فديك النواس إنما هيأه لنفسه وتحقيق ملذاته في الصبوح ، ومن أجل ذلك قد مل منه وهو يوقظ النيام بصوته المتعدد الأوتار مما يصدر عن حلقه ، وضرب جناحيه ، وخفق أرجله ، أما صورة ابن الرومي ، تشف عن إيحاءات كثيرة في استقصاء وتتبع وتدرج ونمو ، فيلتقط الشاعر الصورة لقطات متنوعة ، لتكتمل لوحتها ، ويصور آذانه الأول في السحر ، ثم الآذان الثاني في وقت الفجر ، وأنه وصال زوجات قناص يغير على النوم ، ولا يستسلم له ، بل لا يمكن النعاس من نفسه ، فهو يقظ حذر شهم ، إذا نزل ساحة الشجار كان هو الفارس المنتصر في رباطة جأش ، إنه يوفى على الشرفات في تنقله وحركاته المتتابعة بين الحارة والحارة ، وعلى مشارف بيوتها حينما يؤذن وفي الوصل والقنص والهيجاء أثناء المبارزة كل ذلك في صورة دقيقة ، موفورة المعاني ، غنية العناصر ، قوية التأثير .

(١٨) قال أبو نواس يحيي الصبح .

قد هتك الصبح ستور الدجى   فانحسرت أثوابه الجون

---

(١) الديوان المصور جـ ٣ والمخطوط ٣٦ جـ ١

فأصبح نداماك سخامية أنى لهـا فى دنهـا حين

ويقول .

يا أخوتى ذا الصباح فاصطبحوا فقد تغنت أطياره الفصح(١)

وصور ابن الرومى هذا بقوله .

وحيتك عنا شمال طاف طائفها بجنة فجرت روحا وريحانا
هبت سحيراً فناجى الغصن صاحبه موسوساً وتنادى الطير إعلانا
ورق تغنى على خضر مهدلة تسمو بها وتمس الأرض أحيانا
تخال طائرها نشوان من طرب والغصن من هزه عطفيه نشوانا

فالصورة الأولى — وإن صحا فيها قلب النواسى ووجدانه — لكنها تستقل بلاذة إلى الصبوح ، وهيامه بالخمر التى غلبت على صورته ، فهو لا يحيي الصبح إلا من أجل شرابه وملاهيه لا لجماله وسحره لذلك أتى بكلمة (هتك) التى لا تتلاءم مع نور الصباح ، وسيره الحثيث فى الظلام ، فالصبح لا يفتك ولا يسرع ، وإنما يسرى فى الظلام شيئا فشيئا فى لون قرمزى ، حتى يشمل نوره الدنيا وتتمد أشعة الشمس فيه ، والصورة الثانية أوفى بالغرض من الأولى حيث ضم مع الندامى نور الصباح وتغريد الطيور فى ألفاظ مناسبة يقتضيها المقام .

أما ابن الرومى فانه يتسلل إلى الطبيعة وقت الصباح من خلال شعوره بسحرها ، واهتزاز وجدانه لريح الشمال التى ترسل تحيات الصباح إلى الحياة بالروح والريحان ، وتسرى فى مظاهر الطبيعة ، فتبث الحياة فيها ، لنسمع وسوسة الأغصان فى نجوى الواهين ، والطير التى تفصح عن الحب الدفين ، فالورق والأغصان والطيور والأوراق ، فى حفل راقص ، يغمره النغم والحب والحياة .

ما ترك المصور هنا هامسة ولا لامسة ، إلا أخذت مكانها من إطارها الكبير ، فالصبح إذا أسفر انسحبت أمواج النور ، لتبدد ستور الظلام الخفيفة واحدة بعد الاخرى ، ثم تتحرك الطبيعة أمام النظاره فى بريق يخطف النظر ، ونغم يشد أوتار النفس ، ويشجى أعصاب السمع فى تناسق عجيب بين الالفاظ ، وبينها وبين الانغام ، وبينهما وبين الوجدان والشعور ، فالرباط وثيق بين النفس والحياة .

---

(١) ديوان أبى نواس

تجسيم وتشخيص لكل جامد ومالا يعقل ، فيتحول إلى تعاطف وحب ومناجاة فى (شمال طاف طائفها — هبت سحيرا — ناجى الغصن صاحبه — موسوسا — وتنادى الطير فى عان وجهر — ورق تغنى — يسمو بها — تمس الأرض — طائرها إنشوان من طرب — الغصن نشوان من هزة عطفية) .

لن أستطيع أن أفصح عن كل السحر لأن فى السحر غموض ، وفى الغموض جمال على نحو ما ، وأخشى أن أمزق رائع الجمال بكثرة التعليل والتحليل .

وإذا تناول ابن المعتز الصبح فإنه يرص أجزاء الصور رصاً ، ويسوى الرؤوس والأطراف لتبدو فى مرأى العين فى استواء محكمة الرص ، إلى مقاييسه (سنتيمترية دقيقة) كأنه تخرج من كلية الهندسة ، فالصورة مجردة عن العواطف فاترة المشاعر والأحاسيس قد جمع فيها بين الأشتات فى غير رباط ، مما لا يتلاءم مع الصورة ، جمع بين نور الصبح والفرس الأدهم أو بينه وبين الإنسان الذى يحمل مصباحا ، أو بينه وبين المهر الأشقر فيقول .

والليل قد رق وأصغى نجمه	واستوفز الصبح لما ينتصب
معترضا فى فجره بليــله	كفرس دهماء بيضاء اللبب

ويقول .

والصبح يتلو المشترى فكأنه	عريان يمشى فى الدجى بسراج

ويقول .

والصبح قد أسفر أو لم يسفر	حتى بدا فى ثوبه المعصفر
ونجمة مثل السراج الأزهر	كأنه غرة مهر أشقر(١)

١٩ — ويصور ابن الرومى قسوة الدنيا فيقول :

إذا طاب لى عيش تنغصت طيبه	بصدق يقينى أن سيذهب كالحلم
ومن كان فى عيش يراعى زواله	فذلك فى بؤس وإن كان فى نعم(٢)

فصوره أبو العلاء المعرى فى قوله .

وهــل تظفر الدنيا على بمنة	وما ساء فيها النفس أضعاف ما سرا

---

(١) ديوان المعتز: كرم البستانى صفحات ٤٤ ، ١٣٣

(٢) المخطوط ٢٦٠ جـ ٤

وابن الرومى يبرز أجزاء الصورة كلها ، ولا يطوى بعضها طيا ، فهو ينعم بعض الوقت بطايب الحياة ولكنها تبقى معه لحين ثم تذهب ذهاب الحلم اللذيذ ومهما كان الإنسان فى نعيم مقيم ، فإنه يخشى ويلات الدهر وغدره الذى يكدر هذا النعيم ، فتصير الدنيا فى نظر العقلاء بؤسا وشقاءا ، وهذا هو الشأن فيها ، تعطى لتسلب وتحلى لتمر ، بؤس ونعيم ، وعذاب وراحة ، وأذى ولذة ، إنها الحياة . وما أروع التلاثم بين لذة النعيم وحلاوة الحلم ، وزوالهما قسراً فالمرء لا حيلة له فى استمرار النعيم كالشأن فى الحلم الذى يتلاشى منه فى غفلة النوم .

وصورة أبى العلاء المعرى تقطر بؤسا وأسى ، وخوفا وحذرا ، ونكرانا وظلما ، فالحياة عنده ليس فيها نعيم ولذة ، ولا منة ونعمة ، مادام الشر فيها أضعاف السرور ، فصورته تلتقط المنظر من جانب وتهمل الجانب الحى فيها ، وما الشوكة فى الغصن إلا وردة ضامرة صلبة ، تدفع الأذى عن الوردة المتفتحة الطرية فيه .

٢٠ — ويصور ابن الرومى صاحب اللحية فى صورة ساخرة فيقول .

ولحيـــة يحملهــا مائق   شبه الشراعين إذا أشرعا(١)

لو قابل الريح بها مرة   لم ينبعث من خطوه أصبعا

أو غاص فى البحر بها غرصة   صاد بها حيتانه أجمعا(٢)

ويصور المتنبى لحى الناس فيقول .

لها لحى سود بلا شباك   يصلحن للإضحاك لا الإجلال

لو سرحت فى عارضى محتال   لعدها من شبكات المال(٣)

بين قضاة السوء والأطفال

فصورة ابن الرومى ، هى التى تنطق بالسخرية ، فلحيته كالشبكة ، إذا طرحت فى البحر لاصطادت كل الحيتان ، فتوحى بالضحك ، ولا ينص الشاعر عليه كما نص عليه المتنبى فى صورته حيث يقول « يصلحن للإضحاك » وما أشبه المتنبى فى رسم صورته بهؤلاء الرسامين الذين يعلقون على صورهم بكلمات تكشف عن مغزاها ، لعدم قدرتهم الفنية التى تنطق الصورة بما تحمل من معان وأهداف كما فى صورة ابن الرومى السابقة وغيرها من الصور وقد خلت من ضرورة القافية والوزن التى تورط فيها المتنبى فى قوله . والأطفال .

---

(١) مائق : أحمق

(٢) المخطوط ٤٧ ج ٣ والديوان المصور ج ٣

(٣) ديوان المتنبى تحقيق عبد الرحمن البرقوقى ص ٣٤ ، ٣٥ مطبعة السعادة ١٣٤٩هـ ١٩٣٠م

٢١ — صفة النفاق . —

ذكر الإمام عبد القاهر فى تعليل بلاغة الكلام قول ابن لنكك .

فى شجر السرور منهم مثل   له رواء وماله ثمر

وقول ابن الرومى .

فغدا كالخلاف يورق للعين   ويأبى الإثمار كلا الإباء[١]

وقوله .

وإن طرة راقتك فانظر فربما   أمر مذاق العود والعود أخضر[٢]

والتأثر ظاهر بين الصور الثلاث ، إلا أن التشخيص فى صورة ابن الرومى هو عمادها الذى يبعث الحيويه والحركة فيها ، وهما يؤكدان صفة النفاق التى تأصلت فى المشبه ولازمته فلا يستطيع المنافق أن يتخلى عنها كشجر الخلاف الذى يعجب منظره ويسوء مخبره ، ويختلف طبعه ، أو كالغصن الأخضر منظره معجب ، ومذاقه مر ، فالتعبير بالفعل المضارع عند ابن الرومى هو الذى أفاد الحركة والحيوية والتجدد والاستمرار وغير ذلك مما يدل عليه المضارع فى (يورق ويأبى) ، ثم ما يفيده القصر بالإستثناء من التأكيد والتقرير الذى يكشف عن أصالة صفة النفاق فى النفس ، وهو نفسه ما يفيده القصر بتقديم الخبر فى سياق النفى عند ابن لنكك (ماله ثمر) لكن صورته خلت من المضارع ومعانيه وما يوحى به من أسرار البلاغة ، ومكنون الجمال .

٢٢ — تمنع الحبيب . —

وذكر الإمام أيضاً . قول البحترى .

من غادة منعت وتمنع وصلها   فلو أنها بذلت لنا لم تبذل

مع قول ابن الرومى :

ومن البلية أننى علقت ممنوعا منوعا[٣]

---

(١) المخطوط ورقة ٦ جـ ١

(٢) أسرار البلاغة : الأمام عبد القاهرة ص ٩١

(٣) دلائل الإعجاز : الإمام عبد القاهر ٤٣٤ ، ٤٣٥ تحقيق : د . خفاجى

ونسب بيت ابن الرومى مع بيت آخر ، إلى عبد الصمد بن المعذل ، كما جاء فى الصناعتين ورواهما هكذا :

ظبى كأن بخصره　　من دقة ظمأ وجوعا
إنى علقت لشقوتى　　يا قوم ممنوعا ممنوعا[1]

وصورة ابن الرومى واضحة التأثر بصورة ابن المعذل ، فهى أقوى الصور الثلاث لعبارة (يا قوم) التى تفيد الاسترحام والاستعطاف ، وهما يتناسبان مع المقام ، فأعطت الصورة ظلالا رفعت من قيمتها عنده ، ويكاد أن يقرب شاعرنا فى صورته منها بإيثاره كلمة (علقت) التى تزيد الصورة كما لا ، فهو مأخوذ مستهام فى حبه ، لا حيلة لنفسه فى رده عنها حتى صار (ممنوعا منوعا) ثم كلمة (البلية) التى ضاعفت الكارثة على نفسه فهى أقوى فى التصوير من كلمة (شقوتى) من حيث المعنى والموسيقى .

أما صورة البحترى فلم توحى بمعنى زائد مع طولها بل نقصت عما توحيه (البلية) عند شاعرنا وما تفيده (يا قوم)عند ابن المعذل وجمعت بين تصوير الجمال فى المرأة وبين تصوير أثره فى النفس وكان الأولى أن يقتصر على الجانب الثانى لأن التصوير القوى هو الذى يقتصر على تصوير إحساس الشاعر فقط لكى يرتبط الشعر بالشعور مثل صورتى الشاعرين الآخرين .

٢٣ — ويقول الامام عبد القاهر أيضا (وقول أبى تمام) فى الفخر .

يشتـاقة من كماله غــده　　ويكثر الوجد نحوه الأمس

مع قول ابن الرومى .

أما يظل الأمس يعمل نحوه　　تلفت ملهوف ويشتاقه الغد

لا تنظر إلى أنه قال . يشتاقه الغـد ، فأعاد لفظ أبى تمام ولكن أنظر إلى قوله . (يعمل نحوه تلفت ملهوف)[2]

ويرى الإمام عبد القاهر — كالصورة السابقة — أن كلا الصورتين جيد التصوير ، مع إتحاد المعنى ، وتبعية ابن الرومى ، ولكن الصورة عند شاعرنا أقوى بكثير من صورة أبى تمام لأنه مغرم بالتشخيص، فالزيادة فى قوله (يعمل نحوه تلفت ملهوف) ليست محل التفوق فحسب .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٠٨ تحقيق : محمد مصطفى المراغى
(٢) المرجع السابق ٤٤٢ تحقيق : د . خفاجى

لكن ابن الرومى حين التقط الصورة أذاب فيها شعوره بقسوة الدهر عليه ، حين يتطلع إلى الممدوح فى حرارة ويشتاق إليه فى لهفة، فهى توحى بشراهته وإلحاحه فى العطاء .

أما صورة أبى تمام فالصنعة والكلفة تغلب عليها ، حيث أخر الفاعل فى الشطرتين (غده — الأمس) ، فأبطأ المعنى إلى العقل من غير داع للتأخير ، اللهم إلا القافية والوزن التى حملته إلى ذلك حملا ، وهذا الفصل بين الفعل والفاعل أضعف من تجدد الفعل المضارع واستمراره (يشتاق ويكثر) الذى يبعث فى الصورة الحيوية والحركة والخلود ، هذا كله سرى فى صورة شاعرنا ، ونبضت به عناصرها لاتصال المضارع بالفاعل مباشرة والإكثار منه ليقوى المعنى ويشتد أثره الساحر ، وذلك فى قوله (يظل - يعمل - يشتاق)، وما أروع التعجب من كمال الممدوح ، الذى جاء فى سياق الإستفهام، مما يثير الغرابة والانتباه ، إنه ابن الرومى الشاعر المصور .

٢٤ — تصوير المصلوب : —

يصور ابن الأنبارى المصلوب بقوله :

علو فى الحياة وفى الممات ... لحق أنت إحدى المعجزات
وكأن الناس حولك حين قاموا ... وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبا ... وكلهم قيام للصلاة
ولما ضاق بطن الأرض عن أن ... يضم علاك من بعد الوفاة
أصاروا الجو قبرك واستعاضوا ... عن الأكفان ثوب السافيات

ويذكر الإمام عبد القاهر فى فصل « مآخذ التشبيه من هيئات الحركة والسكون » «ومن لطيف هذا الجنس قوله : «أى المتنبى » فى صفة المصلوب :

كأنه عاشق قد مد صفحته ... يوم الوداع إلى توديع مرتحل
أو قائم من نعاس فيه لوثته ... مواصل لتمطيه من الكسل

ولم يلطف إلا لكثرة ما فيه من التفصيل ... الخ

ويشبه التشبيه فى البيت (أى السابق) قول الآخر[1] وهو مذكور معه فى الكتب :

لم أر صفا مثل صف الزط ... تسعين منهم صلبوا فى خط

---

(١) قيل هو الاخطل

من كل عال جذعه بالشط ... كأنه فى جذعه المشتط
أخو نعاس جد فى التمطى ... قد خامر النوم ولم يغط(١)

فقوله (جد فى التمطى) شرط يتم التشبيه ، كما أن قوله مواصل كذلك ، إلا أن فى اشتراط المواصلة من الفائدة ما ليس فى هذا ... الخ .

وشبيه بالأول (وهو قول المتنبى) فى الاستقصاء قول ابن الرومى :

كأن له فى الجو حبلا يبوعه ... إذا ما انقضى حبل أتيح له حبل
يعانق أنفاس الرياح مودعا ... وداع رحيل لايحط له رحل(٢)

فاشتراطه أن يكون له بعد الحبل الذى ينتهى ذرعه آخر ، يخرج من بوع الأول إليه كقوله (مواصل لتمطية) من الكسل (فى استيفاء الشبه والتنبيه على استدامته ، لأنه إذا كان لا يزل يبوع حبلا لم يقبض باعة ولم يرسل يده ، وفى ذلك بقاء شبه المصلوب على الاتصال فأعرفه)(٣) .

انفعل ابن الانبارى بالمصلوب الذى كان يعرفه مهيبا عزيزاً ، فهو ما يزال يراه كذلك ، ولكنه فى سلطان العراء والفضاء ، متحفزاً واقفاً ومنتصباً جليلا ، لا يختلف الآن عن ما ضيه فى الرفعة والمجد ، ولم يستطع الموت أن يهيل عليه تراب القبر ، فعفاته الذين اعتادوا نداه ما زالوا يتناوبون على بابه وفدا بعد وفد ، وهو كذلك ما زال فيهم خطيباً مصقعا بليغاً ، يقتادونه فى الصلاة .

وقد صلبوه فى الفضاء لأن الأرض لم تتسع لجدثه ، فوجدوا فى الفضاء قبراً له ، وفى

---

(١) الزط : طائفة من أهل الهند تنسب إليهم الثياب الزطية ، من كل عال : أى أن ذلك الخط مؤلف من أشجار عالية الجذوع ، كل واحد من التسعين على جذع شجرة ، والضمير فى كأنه ، يعـود على كل واحد من المصلوبين فى الجذوع ، المشتط:الخارج عن الحد فى طوله، المخامرة : المخالطة والنوم فاعل خامر والمفعول ضمير محذوف يعود على المصلوب ، وغط النائم . نخر وتردد نفسه صاعدا إلى حلقه حتى يسمعه ن حوله . لم يذكر الإمام عبد القاهر قائل هذه الأبيات : رهو دعبل الخزاعى قالها بزيادة بيت فى صفة مصلوب فى محاربة الزط سنة ٢١٩ هـ وذلك فى ديوان دعبل ص ١٠٠ تحقيق د ٠ محمد يوسف نجم دار الثقافة بيروت ١٩٦٢ م

(٢) المخطوط ورقة ١٦٦ جـ ٣

(٣) أسرار البلاغة الامام عبد القاهر ص ١٥١ ، ١٥٣ : تحقيق السيد محمد رشيد رضا

العلاء مأوى ، وصارت أكفانه أدراج الرياح وسحب الأمطار ، وكان فى حياته يساميهما فى الجودوالكرم .

تصوير قوى بارع ، منح الحياة للبيت ، وأبقته الصورة كما هو مجدا وجلالا وهيبة ، ولكن الشاعر أفقدها عناصر حيوية فى فن التصوير منها عنصر الحركة وعنصر الألوان وتجردت منهما حتى جاءت الصورة باهتة خافتة ، وإن كانت صادقة العاطفة قوية الانفعال

وترتفع صورة المتنبى عن السابقة كثيراً ، وإن كانت دونها فى الحكم ، إلا أن الشاعر أودعها كل ما يتصل بها ، فوزع الألوان فى جنباتها ، وبث الحركة الدائمة ، وغيرها من عناصر التصوير الحى الخالد ، فالمصلوب يودع معشوقه بقلب يخفق ، وجسم يضطرب ولون مصفر ووجه يمتقع ونظر دائم ، حتى يغيب محبوبه عن العين ، ليستمر بعد غيابه يذهب نظوه فى الخيال والأحلام ، وأنه مثل القائم من نعاس ، ثقيل لايبرح مكانه.

والصورة هنا كما قال الإمام عبد القاهر معقباً عليها بأنها قريبة التناول (ولو قال كأنه يتمطى من نعاس ، واقتصر عليه كان قريباً من المتناول لأن الشبه إلى هذا القدر يقع فى نفس الرائى المصلوب لكونه من حد الجلة » ولكن الشطرة الأخيرة زادت الصورة عمقا، فأضافت إلى اللون الحركة المتجددة الدائمة ، فالمصلوب مواصل فى تمطية المرة بعد المرة ، وهكذا حتى كتب لصورته الخلود , لأن الحياة سرت فى هيئة التركيب ، وأضفى عليها الاستمرار والتجدد ، لذا يقول الإمام « وكأن مجموع تلك الجهات فى حكم أشكال مختلفة تؤلف فتجىء منها صورة خاصة .. ولم يلطف إلا لكثرة ما فيه من التفصيل ... فأما بهذا القيد ، وعلى هذا القيد التى يفيد به أستدامة تلك الهيئة ، فلا يحضر إلا مع سفر من الخاطر ، وقوة من التأمل ، وذلك لحاجته أن ينظر إلى غير أمر زائد على المعلوم المتعارف ثم يطلب له علة وسبب [1]

أما صورة الشاعر الآخر التى ذكرها عبد القاهر، والتى تمثل فى رأيه الهيئة الأولى عند المتنبى بألوانها وظلالها وأضوائها، بحركتها التىلم تكتمل باستمرارها ، وتجددالحيوية، لأن قوله « قد خامر النوم ولم يغط » لم يفد جديداً فى التصوير عما يفيده ما قبله ولفظ « مواصل» عند المتنبى أقوى حيوية منه يقول عبد القاهر :

هذا كله مستفاد من الأول ، ثم فيه زيادة أخرى وهى أخص ما يقصد من صفة

---

(١) أسرار البلاغة : الإمام عبد القاهر ص ١٥١

المصلوب ، وهى الإستمرار على الهيئة والإستدامة لها ، فأما قوله بعد « قد خامر النوم ولم يغط » فهو وإن كان يحاول أن يرينا هذه الزيادة من حيث يقال : إنه إذا أخذه النعاس فتمطى ثم خامر النوم ، فإن الهيئة الحاصلة له من جده واحتياطه قبل قوله « فيه لوثته » (٢)

والذى أراه أن الصورة بلغت من الاستدامة والإستمرار فى الحركة والتجدد ما بلغته صورة المتنبى من غير نقصان ولا زيادة ، وذلك لما توجيه الكلمات الآتية :

أولا : إضافة « جد » بالتضعيف « للتمطى » لأن الفعل فى مدلوله من الجد والإهتمام والمتابعة ، وفى صورته ووقعه الصادر من التضعيف ، كل ذلك ، أعطى لونا من الحركة والإستمرار فيها .

ثانيا : فى التعبير بصيغة « فاعل » وهى تفيد الصراع الدائم والحركة المتجددة بين الطرفين .

ثالثاً : المعنى فى قوله « لم يغط » أى لم ينخر فى نومه ، ومبنى التركيب يدل على الاستمرار والتجدد فى نفى الفعل وحدثه فقط دون الزمن الذى لم ينتف بحرف « لم » بل ظل مستمراً متجدداً فى المضارع المنفى ، كل ذلك جعل الصورة لا تقل عن سابقتها فى هذا الجانب الحيوى فيها .

وأما صورة شاعرنا ابن الرومى ، فهى لا تقاس بغيرها فى الرفعة والتفرد ، وإن عدها الإمام مثل صورة المتنبى فقال : وشبيه بالأول فى الاستقصاء قول ابن الرومى أ لخ(١) والواقع أن صورة ابن الرومى بلغت من الدقة والروعة حداً لا تتطاول إليه الصور السابقة كلها مما جعلها اللوحة الفريدة فى تصوير المصلوب .

فالمصلوب عنده ليس كالناعس ، أو الذى خامره النوم ، وإنما هو فى غاية اليقظة والتنبه ، وأن حركاته إنما تأتى عن فكر ونظر ، وحذر ذوى الألباب والعقول النابهة ، لذا فهو يتحرك فى الجو فى تصاعد دائم وكأن له حبل يمتد بين السماء والأرض ، وقبل أن يرسل يسراه من إمساكها للحبل تقبضه يمناه وهو يبوع باعا باعا ، وهكذا فى تجدد واستمرار دائمين وقد أستمد أجزاء الصورة من المحسات فى واقع الحياة .

وتوحى « إذا » بالاستدامة والامتداد والتحقيق والتأكيد كما توحى « ما » بأن الحبل لا نهاية له ، لإغراقها فى الإبهام واللانهائية .

---

(١) المرجع السابق ١٥٢

(٢) المرجع السابق ١٥٢

أو أنه يعانق أنفاس الرياح ، التي امتزجت بأنفاس محبوبه يوم وداعه في رحلة لاتستقر في مكان ، وذلك المزيج من الأنفاس لاينقطع ، لأن الحياة لا تستغنى عنه ، فيظل المودع مشدوداً إلى الريح الدائب الحركة ، والدائم الباقي ببقاء الحياة ، ولكن الحبيب في صورة المتنبي تعلق بالخيال والأحلام بعد أن غاب عن نظره ، لا بالواقع المحس الدائم كأنفاس الرياح في صورة ابن الرومي العبقري في التصوير .

٢٥ — الغريب بين أهله :

يقول أبو تمام .

غربته العلى على كثرة الأهل فأضحى في الأقربين جنيبا[1]

صور ابن الرومي هذا المعنى بقوله :

رب أكرومة له لم تخلها قبله في الطباع والتركيب

غربته الخلائق الزهر في النا س وما أوحشته بالتغريب[2]

فصورة أبي تمام ليس فيها من الحياة والتشخيص ما في صورة ابن الرومي ، فالمعاني جعلته غريباً بين أهله .

أما صورة شاعرنا فقد أعطى اللقطة التصويرية حقها ، وأضاف إليها ما يتصل بها ، فرأى المكارم ربما توجد في غير الممدوح ولكنها لم تخلق إلا لأجله ، وإن وجدت في غيره فهي تبع له أو مجرد قشور ومظاهر غير متصلة بالطبع والمزاج ، كما هي طبيعة في نفسه لذا استحق القول بأن يكون غريباً بين الناس مطلقاً ، وهو الغاية في الكرم وحسن الخلق، (لا كما يقول أبو تمام : كثرة الأهل) وما شعر الممدوح بوحشة في هذه الغربة ، لأن شمائله وجوده ملأ عليه الدنيا إيناساً وفضلا ، ولأن كل خليقة ومكرمة عنده ، تقوم مقام ألفه الأهل والأحبة .

ويدير ابن الرومي عدسته المصورة ، ليطبع بطبعه صوراً أخرى للمعنى ذاته فيقول عن نفسه :

ورجال تغلبوا بزمان أنا فيه وفيهم ذو اغتراب[3]

---

(١) ديوان أبي تمام ج ١ ص ١٦٩

(٢) المخطوط المجلد الاول ، الزهر : البياض والحسن

(٣) المخطوط المجلد الاول

ويقول :

الله يكلؤه والله يؤنسه ... فإنه بمعاليه قد اغتربا[1]

ويقول

أعاذك أنس المجد من كل وحشة ... فإنك فى هذا الأنام غريب[2]

٢٦ — البخيلى :

ذكر أبو هلال العسكرى صاحب الصناعتين عندما عرض صورة ابن الرومى الذى يقول فيها :

يقتر عيسى على نفسه ... وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره ... تنفس من منخر واحد[3]

يعقب أبو هلال عليها بقوله : « والناس يظنون أن ابن الرومى ابتكر هذا المعنى وإنما أخذه بما حكاه أبو عثمان . . . أن بعضهم قبر إحدى عينيه وقال إن النظر بهما فى زمان واحد إسراف » .

ولكن أين هذا المعنى المجرد من تلك الروعة فى صورة ابن الرومى وفى تنسيق العبارة واختياره لمواقع الألفاظ ، وإشاعة النغم والإيقاع فى جنبات الصورة والتعبير بلفظة « لو » التى قربت الصورة من الواقع ومن النفس معاً .

٢٣ — تصوير الغيث والدمن :

صور الشعراء — فى مختلف العصور والبيئات — الغيث ، وغالباً ما يتصل به الدمن والطلل والروض والحيوان فنرى عنترة بن شداد يصور الغيث فى روضة فيقول فى معلقته المشهورة :

أو روضة أنفا تضمن نبتها ... غيث قليل الدمن ليس بمعلم
جادت عليه كل بكر حرة ... فتركن كل قرارة كالدرهم
سحا وتسكاباً فكل عشية ... يجرى عليها الماء لم يتصرم

---

(١) ، (٢) المخطوط المجلد الأول .

(٣) المخطوط ٢٠١ ، ٢٠٢ جـ ٣

هزجاً يحك ذراعه بذراعه	قدح المكب على الزناد الأجذم(١)

هذه الروضة الفواحة الندية ، اكتظت بالنبت الغزير ، وقد ألح عليها المطر المتدفق المتلاحق ، لا يفتأ عنها سحا وتسكابا ، فيتخذ المطر على سطحها عيوناً كالدنانير ، وتهتز الحياة طرباً ، وتغرد ابتهاجاً ، صورة مكتملة الجوانب لأنها تمثل واقع الحياة ، التي يعيشها الشاعر ، فهذا ما يراه ، ويحس به ، من مظاهر البادية حوله ، حين ينقله الشاعر بدقة وعمق. وفيها بعض الصور الجزئية التي بقيت خالدة ، في سمع الزمان والمكان ، وأتى من بعده يضرب على أوتارها ، فبعضهم يقصر ، والآخر يصيب كصورة الذباب التي مرت والصورة في كل من البيت الأول والثاني .

ويلتقط لبيد هذه الصورة من خلال مشاعره حيث يقول في معلقته المشهورة :

دمن تجرم بعد عهد أنيسها	حجج خلون حلالها وحرامها
رزقت مرابيع النجوم وصابها	ودق الرواعد جودها فرهامها
من كل سارية وغاد مدجن	وعشية متجاوب أرزامها
فعلا فروع الأيهقان وأطفلت	في الجلهتين ظباؤها ونعامها
والعين ساكنة على أطلائها	عوذا تأجل بالفضاء بهامها
وجلا السيول عن الطلول كأنها	زبر تجد متونها أقلامها
أو رجع واشمة أسف نؤورها	كففا تعرض فوقهن وشامها(٢)

---

(١) ديوان عنترة تحقيق محمد محمود ص ٩٩ المطبعة العربية .

المفردات : روضة أنفا : هي ما استقبلت الشمس ، الدمن : جمعها دمن ، وهو ما بقي من آثار القوم بعد رحيلهم على الأرض والمراد أن أرض الروضة خصبة ، بعلم : لا تغض الدمن من خصوبة الأرض بكر حرة : هي كل مطر غزير ومتدفق ، قرارة ، الموضع الذى استقر عليه الغيث وتجمع فيه ، وأسبح كالدرهم تسكابا : الصب ، سحا : الصب من أعلى ، يتصرم : ينقطع ، الهزج : الترنم ، قدح:من من أقداح النار ، المكب : الكثير النظر إلى الأرض والمراد قدح المجرب الدقيق ، الزناد : العود الذى يقدح به النار ، الاجذم : السرعة في القطع .

(٢) الدمن : الآثار ، تجزم تقطع ، مرابيع: المطر في أول الربيع ، ودق الرواعد : الداني من السحب. الرهام: المطر اللينة ،سارية : سحابة تأتي ليلا غاد : سحابة داكنة تجيء نهاراً ، الأرزم : ←

لبيد ابن البادية حين يصور لايعرف غيرها ، الدمن ومرابيع النجوم ، والمطر والسحب الغادية والسارية ، وفروع الأيهقان ، والجلهتين ، والظباء والنعام ، والعوذ والآجال والبهائم والسيول والطلول ، والمتون والرجع ، والوشى والنؤور . فكأنه هو لا يعرف غير ذلك مما هو من أجزاء الصورة التى معنا .

وإذا أردنا أن نقف على سحر هذه الصورة التى بعث الشاعر فيها حياة البادية ، فلنرجع إلى عصره ، وننتقل هنا وهناك معه ، حتى نوفى الرجل حقه فيها ، وتأخذ لوحته مكانها . تلك اللوحة التى تصور لنا حياة قبيلة فى جفاف البادية وفقرها . فإذا نزل المطر . ماجت الحياة بالحركة والنشاط والغناء والطرب . والنور والخضرة . فالكل سواء فى هذه المشاركة الناس والحيوان . والنبات والأطلال . فى مشاركة وجدانية حية . وهل الصورة الادبية إلا طبع الواقع الذى يعيشه الشاعر فى أنغام اللفظ . وإيقاع العبارة وجمال النسق وظلال التركيب وشعراء العصر الجاهلى هم أقدر معرفة بسحر اللفظ ووقعه .

ويصور الغيث شاعر البادية الأموى ذو الرمة . فيقول فى قصيدته البائية المشهورة التى مطلعها :

ما بال عينك منها الماء ينسكب ... كأنه فى كلى مفرية سرب

ويصور الغيث الذى يعف على الدمن الخوالى فيقول :

من دمنة نسفت عنها الصبا سفعا ... كما تنشر بعد الطية الكتب

سيلا من الدعص أغشت معارفها ... نكباء تسحب أعلاه فينسحب

لا بلْ هو الشوق من دار تخونها ... مرا سحاب ومرا بارح ترب

← الصوت الشديد ، العين : البقر. أطلاؤها : ولد البقر ، العوذ : حديثات النتاج ، أجل : تصير آجالا واحدها أجل وهو القطيع من الظباء والبقر وغيرها ، البهائم جمع بهمة وهى أولاد الحيوان، زبر : جمع زبور وهو الكتاب ؛ النؤور حصاة مثل الاثمد تسف فتسود اليد. كففا : جمع كفة وهى كل دارة وحلقة

ديوان البيد : تحقيق إحسان عباس ص ٢٠٧ : ٣٠٠ بيروت ١٠٦٢ م

يبدو لعينيك منها وهى مزمنة ... نؤى ومستوقد بال ومحتطب

إلى لوائح من أطلال أحوية ... كأنها خلل موشــية قشب

بجانب الرزق لم تطمس معالمها ... دوارج المور والأمطار والحقب(١)

أجزاء الصورة هى كما عند السابقين ، دمن وأمطار ، ورياح مسفة ، وحواجز المطر ، والمستوقد والحطب ، والسحائب والنؤى ، وبطائن السيوف المنقوشة ، لكنه استطاع أن يضفى عليها مشاعراً من نفسه ، وإحساساً من فيض وجدانه وقلبه فى نظم فخم ، وأسلوب جزل وبراعة وتنسيق وإحكام ، ونمو واطراد فى الانتقال من حال إلى حال ، فى حالة نفسية متوفزة ، وانفعال جارف ، وتيار عنيف لجر الدموع من عينيه ، فأخذ يسائل نفسه ليعرف السبب فضل وتاه ، وهو يتنقل من سبب إلى آخر ، وفى الانتقال تهدئة للنفس وإمساك بزمامها المشط ، حتى انتهى إلى الحقيقة ، فوجدها فى آثار الحبيب ، التى ألح عليه الغيث ، وعبثت بها الرياح المتربة ، فشخصت الدمن ، والمستوقد والمحتطب ومنازل الأحبة ولم تستطع الأمطار أن تمحو الآثار ، بل زادت بريقا وجلاء ، ووشيا كالسيوف المنقوشة والكتب المنشورة .

ولا ينبغى بحال أن نحمل شعراء البوادى فى صورهم السابقة ما لا يطيقون ، مما يتنافى مع الدقة فى تصوير الواقع الذى يعيشه الشاعر فى البادية وقد بلغوا الغاية فى الدقة ، فالغيث حينما ينزل فى الصحراء مع ندرته ، لا يهتز له الكون اهتزازا كاملا ، كما أحسسنا فى الصور السابقة ، مثل اهتزاز الحياة للغيث فى الحضر والمدن فى الشام والعراق ومصر ، كما سنرى فى الصور التالية لشعراء الحضارة والربيع ، وإن قصر بعضهم فى بعض جوانب الصورة ،

---

(١) ديوان ذى الرمة : صححه كارليل هنرى هيس ص ١ ، ٢ طبعة كمبردج ١٩١٩

المفردات : كلى : المزادة وهو المراد هنا ، مفرية الواسعة العظيمة ، سرب شديدة الانصباب ، سفعا : من السفعة وهو ماقى دمنة الدار من زبل ورماد وقمام ، الدعص : حر الرمضاء ، نكباء : رياح تنكبت عن مهب ريح الصبا ، تخونها : المراد حاد عنها ، بارح : رياح حارة متربة ، النؤى : الحفير حول الخيمة يمنع السيل ، خلل موشية : ماحوالى الدار من الارض المنقوشه ، قشب : مجلوة ، أحوية : وهو ما قرب من الاطلال والآثار ، دوارج : جمع دورج وهى الريح السريعة ، المور : الشديدة الحركه والحقب جمع حقبة وهى مدة غير محددة

وبهذا التفسير ترتفع الصور السابقة لشعراء البوادى ، لدقة التصوير وسحر التلاؤم بين ألفاظها الخشنة ومعانيها القوية وقرب الخيال وبين جفاف الصحراء وخشونة الوهاد ، وبخل السماء ، وصفير الخلاء .

ويصور الغيث أبو تمام شاعر الحضر فى العصر العباسى عصر الحضارة والنضوج ، وهنا يتأتى حساب الصور وتقدير القيم واستقامة الميزان لتمييز الجيد من الردىء ، والشاعر ما زال متأثرا بالأنواء والتعريس والوشى من صنعاء ، يقول أبو تمام يمدح الغيث الذى أهدى إلى الرياض .

ومعرس للغيث تخفق فوقه	رايات كل دجنة وطفاء
نشرت حدائقه فصرن مآلفا	لطرائف الأنواء والأنداد
فسقاه مسك الطل كافور الندى	وانحل فيه خيط كل سماء
غنى الربيع بروضه فكأنما	أهدى إليه الوشى من صنعاء[1]

عناق وامتزاج بين الغيث والروض ، وما الروض إلا امتداد لخيوط الغيث التى ذابت فى الرياض ليفوح بعطره ويتراقص فى وشى صنعاء على تغريد الطيور ، إنه يصور لحظة تعانق الغيث — الملح بين حين وآخر — بالرياض ، ولكن صورته تفقد أهم عنصر فى حيويتها ، وهو تجاوب الشاعر مع بهجة المطر والروض . إنها تحتاج إلى إحساس شاعر . ووجدان متعاطف . يبادلها شعوره تبادل كل من الغيث والرياض شعورها معاً .

إن الصنعة الشعرية أفسدت عليه هذا الشعور . بل ملكت عليه كل مشاعره .

وأما صورة ابن الرومى فى الغيث والسحاب حين يجارى القدماء فى وصفهم لها يقول فيها :

متهلل زجل تحن رواعد	فى حجزتيه وتستطير بروق
سدت أوائله سبل أواخر	لم يدر سائقهن كيف يسوق

---

(١) ديوان أبى تمام جـ ١ ص ٢٦ : ٢٨

المفردات : معرس : مكان تدفق الغيث ، الداجنة : الغيم الكثيف المطبق ، وطفاء : انهمار المطر أنواء : جمع نوء وهو غياب نجم فى الفجر غربا مع طلوع نجم آخر فى الشرق ، الانداد : النظائر وكلاهما مقصود به غزارة الغيث .

فسجا وأسعد حالبيه بدرة ... منه سواعد ثرة وعروق
وتنفست فيه الصبا فتبجست ... منه الكلى فأديمه معقوق
حتى إذا قضيت لقيمان الملا ... عنه حقوق بعدهن حقوق
طفقت زواياه تجر مزادها ... فوق الربى ومزاده مشقوق
وتضاحك الروض الكثيب لصوبه ... حتى تفتق نوره المرتوق
وتنسمت نفحاته فكأنه ... مسك تضوع فأره معتوق
وتغرد المكاء فيه كأنه ... طرب تعلل بالغناء مشوق[4]

فأجزاء الصورة من منابع القدماء أيضاً كالسحاب المتهطل الزجل ، وحنين الرعد ، وتنفس الصبا وتضاحك الروض وتغريد المكاء ، لكنها تقوم على التلاؤم بين الاسلوب ، والاستقصاء فى تتبع جوانب الصورة مع الترابط القوى بين أجزائها والانتقال من حال بعد حال ، فى نمو وتصاعد ، ولكنه مازال كأبى تمام يستأثر بعواطف نفسه ومشاعره على الطبيعة فلا تجاوب ولامناجاة كما ينبغى، وإن كانت له فرائد فى الطبيعة ليس هنا محلها ، لأن حديثنا فى الغيث ، لكنك إذا تأملت ، فستجد مسحة لجمال هذه الصورة، أكثر من غيرها فى الموازنة الشعرية ، ألا ترى معى عذوبة الألفاظ غالباً ، وحلاوة معانيها ، مما يتلاءم مع الموقف الشعرى ؛ من محيا الغيث وجمال الطبيعة،إلا النادر من الألفاظ مثل: [تهلل — الكلى - فأديمه معقوق - الكثيب] فقد عكرت صفاء الحياة فى الصورة ، وأبعدت التلاؤم فيها ، ونثرت الشحوب فى بعض جوانبها ، أما حين تطير البروق فرحا، وتذوب السحب ترحا وتتنفس الصبا لتحيا ، كما يحيا الإنسان ، ويتضاحك الروض ، ويبتسم الورد والنور ، ويتعطر الجو ، ويتضوع المسك ، وينبعث النغم من كل جانب ، والرقص من كل بيت ، لتنسجم الأغاريد فى معزوفة الحياة ، إن لمسات المصور الشاعر ، تطل بين حين وآخر ، إذا ضل ابن الرومى الطريق فى التصوير الأدبى .

وأما البحترى فيصور السحاب الذى يحمل الغيث ويقول :

---

(١) المخطوط ورقة ١١٠ ج ٢ والديوان المصور ج٣ المفردات: متهلل: انصباب المطر ، زجل: صوت فيه رياح ، حجزتيه : هى السحب الممتلئة التى احتجزت المياه فيها ، سجا : دام ، حالبيه : استمرار المطر فى الغداة والعشى ، درة : المطر الغزير ، المرتوق : الملتئم ، فأرة : نافحة المسك ، المكاء : طائر

ذات ارتجاز بحنين الرعد　　مجرورة الذيل صدوق الوعد
مسفوحة الدمع بغير وجد　　لها نسيم كنسيم الورد
جاءت بها ريح الصبا من نجد　　فانتشرت مثل انتشار العقد
فراحت الأرض بعيش رغد　　من وشى أنوار الربا فى برد(١)

ولولا موسيقى الشاعر التى تفرد بها بين شعراء العربية لما كان لهذه الصورة وزن فكل تصرف فيها يكشف عن تقليد الرجل وتعمله، ولولا رقة طبعه لقلت إن هذا الشعر من أدب الظلام التركى قبل النهضة الحديثة . ولا أدل على ذلك مما وقع فيه من عدم التلاؤم بين المشبه والمشبه به، وهل نسيم السحابة كنسيم الورد؟ وهل ماؤها مثل ماء الدمع ؟ فماء الغيث حياة وبهجة، وماء الدمع حزن وألم، وهل قصف الرعد هو حنين إلى الأرض ؟ بون شاسع، وبعد عن الواقع فى التصوير الحى الرائع، وتأمل معنى المشبه به فى قوله : [انتشار العقد، وشى البرد] إنه دون المشبه فى صفته وهو ما ينكره علماء البلاغة ورواد الذوق الأدبى فى التصوير الشعرى الدقيق، وغير ذلك مما يدل على أن البحترى مقلد، مغرق فى الصنعة، والتقليد والإغراق فى الصنعة كلاهما يقضى على روح الشعر، ويسكت الإنفعال، ويخمد الإحساس والشعور، وبالتالى يموت الخيال الشعرى، فتبدو الصور الجزئية باهتة، والأشكال جامدة، فقدت الروح والحياة والحرارة والتأثير .

ويقول البحترى كذلك فى وصف الغيث :

ديمة سمحة القياد سكوب　　مستغيث بها الثرى المكروب
لو سعت بقعة لإعظام أخرى　　لسعى نحوها المكان الجديب

وفى هذه الصورة : « نجد للبحترى أسلوبه الجميل، وصياغته الفنية، ولكنك لا تحس بأثر لشخصيته فيما وراء الأسلوب من معنى وتصوير وخيال، بل هو فى ذلك مقلد كسواه من الشعراء(٢) » .

ويقول فى أخرى :

من ذا رأى مزنا تآزر برقه　　فى عارض عريان لم يتأزر

(١) ديوان البحترى : ج ١ ص ٥٦٧
(٢) ابن المعتز د. خفاجى ٣٣٤

غيث أذاب البرق شحمة مزنه ... والريح تنظم منه حب الجوهر
وكأنما طارت به ريح الصبا ... من بعد ما انغمست به فى العنبر
ويضىء تحسب إن ماء غمامة ... عقد تناثر فى إناء أخضر (٢)

يا أبا عبادة ما حديث العرى والشحم ، والجوهر والعنبر ، والعقد فى إناء أخضر؟ إنه حديث الجماد أما المطر ، فحديثه الحياة والرونق ، والمروج والرياض ، إنها الصنعة والتعمل فى التقليد الباهت .

وقال ابن المعتز :

وسارية لا تمل البكا ... جرى دمعها فى خدود الثرى
سرت تقدح الصبح فى ليلها ... ببرق كهندية تنتضى
فلما دنت جلجلت فى السما ... ء رعد أجس كجر الرحا
ضمان عليها ارتداء اليفاع ... بأنوارهـا واحتجاز الربا
فما زال مدمعها باكيا ... على الترب حتى اكتسى ما اكتسى
فأضحت رواء وجوه البلاد ... وجن النبات بها والتقى (١)

وابن المعتز و رسم الصور ، يعنى بإبرازها فى شكل خلاب، ويوزع أجزاءها فى دقة، ولكنه يختال فى الألوان ، ويتأنق فى الأشكال ، ويتألق فى الأنوار والأضواء وينثر الظلال ، كل ذلك والخيط فيها مشدود بشتى الحيل ، والأشتات مقرونة بعقد فى عرفه فقط ، ولا أنكر التشخيص هنا فى صوره ، ولكنه تشخيص باهت معتل ، يحتاج إلى وجدان شاعر ، وإحساس مرهف ، ما أشبه التشخيص فيها بأشخاص مسرح العرائس ، التى تخدع بشكلها فإذا ما انتهى الحفل جمعت وتراصت كما ترص العيدان وكتل الأخشاب

إنها صورة البحترى السابقة ، التى تصدعت أجزائها بعدم التلاءم وتشوه وجهها فى بعض ألفاظها ومعانيها وضحالة الخيال فيها ، فبدل ذلك من وجه الحياة المشرق ، وجفف من شريان السماء المحيي إنها صور بعيدة كل البعد عن جمال الربيع وزفة الغيث ، وتراقص الشجر ، وتغريد الطير ، فى شعر الحضارة ، وجمال الطبيعة فى الشام والعراق .

---

(١) ديوان البحترى ج ٢ ص ٩٥٠
(٢) ديوان ابن المعتز كرم البستانى ص ٢١

٢٨ — تصوير الربيع :

وأما روضة الشعر وجنات التصوير فهى الربيع وغناء الرياض فيه يقول الأعشى مصوراً روضة من معلقته المشهورة :

ما روضة من رياض الحزن معشبة   خضراء جاد عليها مسبل هطل

يضاحك الشمس منها كوكب شرق   مؤزر بعميم النبت مكتهل

يوما بأطيب منها نشر رائحة   ولا بأحسن منها إذ دنا الأطل(١)

إنها روضة على ارتفاع معشوشب ، خضراء جاد عليها المطر ، فتفتح الزهر الناضج المتفتق ليضاحك الشمس ، ويرقبها حيثما تسير ، ويشيعها من حوله نبت ناضج ، وهم جميعاً يعبقون الدنيا بالنشر الطيب الرائحة .

صورة أدبية دائعة فى ألفاظ فخمة ، وعبارات جزلة ، ونسج محكم ، واتساق مترابط، وعرض سريع للروض فى الربيع ، والصورة تموج بالظلال والأضواء والحركة واللون ، والرائحة والطعم ، فى تجاوب تام بين مجالى الطبيعة ، من المطر والزهر والشمس والنبت الأخضر ، والنشر الطيب وساعة الأصيل ، صورة تمثل واقع البادية أصدق تمثيل ، فى أرق تعبير وأبرع تصوير .

أما ذو الرمة فيقول فى تصوير الروضة :

لها سنة كالشمش فى يوم طلـة   بدت من سحاب وهى جانحة العصر

فما روضة من جرنجد تهللت   عليها سماء ليلة والصبا يسرى

بها ذرق غض النبات وحنوة   تعاورها الأمطار كفرا على كفر

---

(١) شرق : ريان ، مؤزر : من الإزار محاط ؛ عميم : تام السن ؛ مكتمل: انتهى شبابه ؛ النشر : الرائحة الطيبة مسبل : موضع السيل للماء ؛ هطل : المطر الضعيف الدائم نبت مكتهل : معصوب بالبياض أعلاه ؛ الاطل الخاصرة والمراد إرتفاع المطر على سطح الارض وكثرته . ديوان الاعشى تحقيق د. م محمد حسين ص ٦ المطبعة النموذجية ١٩٥٠ م

بأطيب منها نكهة بعد هجعة ونشر ولا وعثاء طيبة النشر[١]

الربيع يسرى فى الروض ليداعب الشمس والشمس ، تداعبه . باحتجاب فى السحب حينا . وبأسفار فى ضحك حينا آخر . والسماء تفيض عليها ليلا . والصبا يسرى فى ربوعها. فوق المنحنيات فى الكفور التى تختزن المياه . ثم يغتسل النسيم المعطر فيها . فيملأ الدنيا بنشره الفواح .

وهى مثل صورة الأعشى لولا رقة الألفاظ وعذوبة العبارة . والمحاورة بين الشمس والزهر التى كانت هناك فى صمت . بينما فاض الصمت هنا عن حديث الحياة وأحاطت بشمس تميل نحو الغروب وتتقنع بسحب جانحة تحنو بالمطر . وتتحدث به . فتغنى الرياض والكفور . وهو سر الحياة فى صورة ذى الرمة .

وأما عن حديث الوحى عند ذى الرمة شاعر البادية الذى يفهم أسرار اللغة . ودلالات الألفاظ . فقد أذاب الشاعر السحر كله فى جوانب الصورة . تأمل وحى الكلمات مفردة مثل (سنة) التى تصور الشمس كالوسنان . يثقله النوم وهو يعانى عمله المقدس . هى الشمس كذلك تتكاثف حولها السحب وتأبى إلا أن تطل بعينها فى لحظة ، وتختفى فى أخرى كالذى ينعس . لكى تذيب صخور الثلج وهى تئن بها السحب . فتذهب فى الدنيا حياة وبعثا ؛ أما وحى الكلمات مجتمعة . فتأمل معى السحر الحلال فى قول: (سنة الشمس) وليست سنة فى الانسان . فالسنة عند الشمس . تتمثل فى الطاقات الحرارية والضوئية المحتجزة خلف انطباق السحب . لتقوى على إذابة ما فيها من صخور الثلج . كما يحتجز الوسنان طاقته فترة النعاس لكى يقوى على العمل . روعة وسحر فى كلمتين . فما بالك لو تأملت على النحو السابق هذه الكلمات الموحية وهى : [بدت من — جانحة العصر — روضة — من حر نجد — تهللت — سماء ليلة — الصبا يسرى — ذرق — غصن النبات — حنوة — بعد هجعة ونشر] الخ .

---

(١) جانحة : تميل نحو الغروب ، العصر : الوقت من العشى إلى احمرار الأفق ؛ الصبا : ريح تميل إلى الشمال تهب من مطلع الثريا ، ذرق : من أذرقت الأرض إذ أنبتت وعم فيها النبات والمراد نبات مكتهل ؛ حنوة : نبات سهلى يقال له أذريون أو ريحان ، هجعة : الطائفة من الليل والمراد انتشار الطيب بعد انقطاع ، وعثاء : الطريق العسر والمراد لا مانع يمنع. ديوان ذى الرمة : ص ٢٦٦ التحقيق السابق .

وأما أبو تمام فيقول فى الربيع :

رقت حواشى الدهر فهى تمرمر ... وغدا الثرى فى حليه يتكسر
مطر يذوب الصحو منه وبعده ... صحو يكاد من النضارة يقطر
يا صاحبى تقصيا نظريكما ... تريا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهاراً مشمساً قد شابه ... زهر الربا فكأنه هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى إذا ... حل الربيع فإنما هى منظر
أضحت تصوغ بطونها لظهورها ... نورا تكاد له القلوب تنور
من كل زاهرة ترقرق بالندى ... فكأنها عين إليك تحدر
تبدو ويحجبها الجميم كأنها ... غدر تبدو تارة وتخفر
حتى غدت وهداتها ونجادها ... فئتين فى حلل الربيع تبختر
مصفرة محمرة فكأنها ... عصب تيمن فى الوغى وتمضر(١)
من فاقع غض النبات كأنه ... دور تشقق قبل ثم تزعفر
أو ساطع فى حمرة فكأنما ... يدنو إليه مع الهواء معصفر
صنع الذى لولا بدائع لطفه ... ما عاد أصفر بعد إذ هو أخضر
خلق أطل من الربيع كأنه ... خلق الإمام وهدية المتنشر(٢)

صورة أدبية رائعه ، مكتملة الاجزاء مفعمة بمشاعر أبى تمام النابضة ، المأخوذة بجمال الطبيعة وسحر الربيع فى أسلوب رقيق ، ونفاذ فى التصوير ، وأشرفت لوحته الفنية لاستقصائها الموفور على الكمال ، لولا أن الشاعر نطق بالشكر عن الربيع ، وكان على الربيع أن يعبر بمظاهره وجماله عن شكره للسماء التى غمرته بالفضل والحياة ، وكان الأولى ألا يعكر صفو الصورة الضاحكة المزدانة بكلمة « الوغى » فأنها نفذت اليها بخيط داكن أسود ، ثم هذا التمحل ، الذى يبغى من ورائه نوال الأمام ، فشبه خلق الربيع بخلق الامام ، ما أبعد

(١) حواشى الدهر : جوانبه والمراد ازدهار الدنيا بالربيع ، تمرمر : تهتز وترجرج ، تتكسر : تتثنى ، حلية : زينة، الزاهرة : زهرة تتبختر وتزهو بجمالها الجميم : النبت الكثير الناهض غدر : صيغة مبالغة من غدر والمراد أنها تختلس النظرات بين وقت وآخر عصب برودينانية أوغيم أحمر تمضر من مضر إذا أبيض تيمن : شهد والمراد تلطخ باللون الاحمر والابيض

(٢) ديوان أبى تمام ج ٢ ص ١٩١ ١٩٧

التلاؤم بين الطرفين ؟ ولو كان العكس لجاز ذلك فى وجه الشبه اصطلاحا ، وإن كان ذلك غير سائغ فى التصوير الدقيق ، لأن الشاعر خلط بين تجربتين تجربة وصف الربيع وتجربة المدح من أجل العطاء ، ولكل منهما اتجاه فى التصوير الأدبى ، من حيث اللفظ والمعنى والشكل والموسيقى يختلف عن الآخر تمام الاختلاف ، ما زال الشاعر على سنن الجاهليين فى حسن التخلص من غرض إلى آخر .

وأما صورة ابن الرومى الآتية فهى فى روعتها وجمال التشخيص فيها كصورة أبى تمام إلا أنه لم يقع فيما تورط فيه حبيب الطائى ، فتصدى الربيع بالثناء على المطر عند ابن الرومى من غير تدخل منه ، بل كان انفعاله بجمال الربيع أوفى وأعظم ، حيث سرى الثناء والشكر مسرى الأرواح فى الأجسام ، مع التلاحم التام بين أجزاء الصورة فصار لوحة فى الربيع والروض ، وما أكثر لوحاته الباقية الخالدة حيث يقول :

ورياض تخايل الأرض فيها خيلاء الفتاة فى الأبراد
ذات وشى تناسجته سوار لبقات بحوكه وغواد
شكرت نعمة الولى على الوسمى ثم العهاد بعد العهاد
فهى تثنى على السماء ثناء طيب النشر شائعاً فى البلاد
من نسيم كأن مسراه فى الأر واح مسرى الأرواح فى الأجساد
حملت شكرها الرياح فأدت ما تؤديه السن العواد[1]

وكذلك الأمر فى قوله :

أصبحت الدنيا تروق من نظر ... الخ الابيات[2]

وأرجوزته :

وروضة عذراء غير عانسة جادت عليها كل سماء راجسة
رائحة بالغيث أو مغالسة

وأما البحترى فيقول :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما

---

(١) المخطوط ٢٢٠ ج ٢

(٢) المخطوط ٣٠٩ ج ٢

وقد نبه النيروز فى غسق الدجى أوائل ورد كن بالأمس نوما
يفتقها برد الندى فكأنه يبث حديثا كان قبل مكتما
فمن شجر رد الربيع لباسه عليه كما نشرت وشيا منمنما
أحل فأبدى للعيون بشاشة وكان قذى للعين إذ كان محرما
ورق نسيم الريح حتى حسبته يجىء بأنفاس الأحبة نعما(١)

ربيع البحترى صامت لا يعرف الحديث والثناء كما أثنى ربيع ابن الرومى على السماء ، وناب عن الربيع فى الثناء أبو تمام وحقا أن الربيع هنا تنساب فيه الحياة فى شتى مظاهر الطبيعة: فى عروق الورود ، وفى النيروز ، وفى طفولة الورد التى تنبهت ، وفى الرياض والندى والأشجار والنسيم والريح وقد صاغه الشاعر فى ألفاظ رقيقة مختارة تنم عن جو الربيع الساحر الناعس الذى يكاد أن ينطق من فرط إعجابه بنفسه ، ولكن الشاعر عكر هذا الصفو البهيج ، بألفاظ فكت عرى التلاؤم فى صورته النابضة ، فسرى فيها خطا قاتما وذلك فى (قذى للعين — ومحرما) .

وأما ابن المعتز فيقول :

أنظر إلى دنيا ربيع أقبلت مثل النساء تبرجت لزناة
وإذا تعرى الصبح من كافورة نطقت صنوف طيورها بلغات
والورد يضحك من نواظر نرجس قذيت وآذن حبها بممات(٢)

وأجزاء الصورة هنا كإشارات البرق الخاطفة ، حشد فيها الشاعر الألوان والأشكال والأصوات حشداً ورصها رصاً ، وهتك الملائمة بين أجزائها لصورة الربيع الجميل ، الذى يتأبى فى طهره وبراءته على الزناة ، ولا يرضخ لأهل السوء ، لأن جمال الربيع هو فى ذاته نكران للقبح والفسق ، منظر تشمئز منه النفس ، وتضج منه الروح ، وبخاصة بما نألف منه العفاف والطهر ، وما معنى قذى عيون النرجس الجميلة ؟ليس إلا مناقضة ابن الرومى فى مدحه النرجس وتفضيله إياه على الورد ، وليس لكلمة « بممات » موقع من الصورة الجميلة اللهم إلا القافية المضطرة ، وكذلك الأمر فى قافية البيت الثانى « بلغات » وفوق ذلك فقد اتهم بالسرقة : (وأول أبياته مسروقة من ابن الرومى) .(٣)

(١) ديوان البحترى الجزء الثالث
(٢) ديوان ابن المعتز ص ١١٣
(٣) ابن المعتز د. خفاجى ٣٤٠

وموضع السرقة من ابن الرومى فى قوله عن الربيع :

تبرجت بعد حيـــاء وخفر
تبرج الأنثى تصدت للذكر

يا لله فرق شاسع بين الصورتين ، صورة شاعرنا جمـــال وملاءمة وانفعال وصدق مشاعر وحياء زاد الربيع جلالا وسحراً إنه الشاعر المصور المبدع :

وأما أبو فراس الحمدانى فيقول :

أنظر إلى زهر الربيـــع والمـــاء فى برك البديع
وإذا الرياح جرت عليه فى الذهاب وفى الرجوع
نثرت على بيض الصفائح بيننا حـــلق الدروع(١)

آلة الشاعر المصور أخذت منظراً من الربيع وهو زهر حول مجارى المياه أو عيونها ، والرياح المعطرة تتراقص على سطح المياه ذهابا وإيابا ، فتتابع دوائر المياه حلقة بعد أخرى فكأنما وقعت فيها حجر ابن الرومى فى صورة الرقاق ، وعلى ذلك فالبيت الأخير مأخوذ من شاعرنا فى قوله :

إلا بمقدار ما تنداح دائرة فى صفحة المـاء ترمى فيه بالحجر

صورة الحمدانى جميلة متلاحمة المواقع ، متلائمة الأجزاء غنية بعناصرها ، لكنها لقطة لمنظر من مناظر الربيع الجميلة .

وأما أبو بكر محمد بن أحمد الصنوبرى الخازن فى مكتبة سيف الدولة الحمدانى فيقول يصور منظراً صغيراً من مناظر الربيع ، تدور فيه محاورة تزيد من فتنته ، ومعركة بين الزهور تعبر عن قوة مشاعره ، وهو مأخوذ بزهور الشام ، بنرجسها الجميل ، حيث يصور حواراً وقع بين النرجس والورد يقول الصنوبرى :

زعم الورد أنه هو أزهى من جميع الأزهار والريحان
فأجابته أعين النرجس الغض بذل من قولهـا وهوان
أيما أحسن التورد أم مقلة ريم مريضـــة الأجفان
أم فماذا يرجو بحمرته الور د إذا لم تـكن له عينـان

(١) ابن المعتز : د خفاجى ٣٤٠ .
(٢) ديوان أبى فراس الحمدانى : شرحه نخلة قلفاط ص ١٢٥ المطبعة الأدبيه بيروت ١٩١٠ م .

فزها الورد ثم قال مجيباً بقياس مستحسن وبيان
أن ورد الخدود أحسن من عين بها صفرة اليرقان

صورة جميلة من مناظر الربيع الفاتنة ، تقوم على التشخيص الحى النابض ، وتكاد تفوق صور ابن الرومى فى الطبيعة ، وزاد من روعتها تلك الحركة السريعة النشيطة ، التى يخفق لها القلب متجاوباً مع أصدائها ليعرف فى سرعة الغالب والمغلوب فى المعركة الحامية الحارة ، وآلته المصورة من نوع جيد ، تمط فى اللمحات تفصيلا وتوضيحاً فى مهارة وبصيرة نافذة فى تعليل متقنع ، وتحليل بارع ، ولا يظن أحد أن مرض الأجفان قد أفسد التلاؤم فى الصورة بل زادها جمالا ، فهى أجفان ناعسة لمقلة ظبى كعين النرجس فى الصورة وكذلك الأمر فى صفرة اليرقان ، حيث يجمع بين ألوان الزهور على إختلافها مابين أبيض وأحمر وأصفر وغير ذلك ، لولا كلمة « بذل » فى الصورة لفاقت كل الصور فى الأدب العربى ، وهو محسن فى تأثره بصورة ابن الرومى فى تفضيل النرجس على الورد بخاصة من حيث عرضه وتناوله لا من حيث النتيجة ، فقد فضل الورد على النرجس كما توحى بذلك الابيات الأخيرة .

وأما السرى بن أحمد الرفاء فيقول :

كأن حمائم الروض نشوان كلما ترنم فى أغصانه وترجحا
ولاذ نسيم الروض من طول سيره حسيراً بأطراف الغصون مطلحا

وهى لقطة أخرى لشعراء الشام وربيعه الفاتن ، مقصورة على معزوفة الربيع ، والعزف عند السرى فى الربيع غنى بآلاته الموسيقية ، حمائم نشوى ، وأغصان تهتز ، ونسيم ينساب ، وتصافح الأغصان مع الأغصان ، وحفيف الاوراق بالأوراق ، وينسجم مع هذه الأوتار ، نغم منسق وإيقاع رتيب فلا ندرى من المنتشى ، النسيم أم الحمائم أم الأغصان أم الروض فى الربيع ، ولولا التعبير بلفظ « حسيراً » لكانت آية خالدة فى فن الموسيقى الناطقة للرياض .

وأما ابن « هانى » الأندلسى فيصور منظراً من مناظر الربيع فى مجلس ممدوحه فيقول :

وثلاثة لم تجتمع فى مجلس إلا لمثلك والأديب أريب
الورد فى رامشة من نرجس والياسمين وكلهن غريب

فاصفر ذا واحمر ذا وأبيض ذا ... ك معشق وكأن ذاك رقيب(١)

صورة أدبية غنية بأجزائها وعناصرها وهى لقطة عشق بين الورد والياسمين ، أخجلتها نظرة النرجس فكشفن ألوانهن ، وهن يعبرن عن عشقهن ، فاحمر الورد خجلا ، واختفى الدم من عروق الياسمين حياء وهكذا ، حتى أصبحت الروضة من أبدع المناظر الحية فى الوجود قد ضمت أحياء وعشاقا وألوانا وحواراً وحركات ، فى تنسيق مبدع وتصوير قوى .

وأما أبو اسحاق بن خفاجة الأندلسى فيقول فى تصوير الربيع والرياض :

أذن الغمام بديمه وعقار ... فامزج لجينا منهما بنضار

وأربع على حكم الربيع بأجزع ... هزج الندامى مفصح الأطيار

متقسم الألحاظ بين محاسن ... من ردف رابية وخصر قرار

نثرت بحجر الروض فيه يد الصبا ... درر الندى ودراهم الأنوار

وهفت بتغريد هنالك أيكة ... خفاقة بمهب ريح عرار

هزت له أعطافها ولربما ... خلعت عليه ملاءة النوار(١)

وقال :

حث الندامة والنسيم عليل ... والظل خفاق الرواق ظليل

والروض مهتز المعاطف نعمة ... نشوان تعطفه الصبا فيميل

ريان فضضه الندى ثم انجلى ... عنه فذهب صفحتيه أصيل(٢)

هذه الصورة جزئية وكلية ، قد تأثر فيها الشاعر بالصور السابقة عند شاعرنا ، وعند غيره ، ولكنها ليست فى انسياب الربيع ورقة الروض ، بل ينحت فيها من صخر ، ويعيدها بالصقل والتهذيب والتعمل والإدمان فى الترصيع ، حتى كادت أن تخلو من مشاعره وتتجرد من طبيعة الأندلس ، وجمال الربيع فيه ، وسحر الرياض وروعته .

ويصور العقاد الربيع فى قصيدة « ربيع الشتاء » متأثرا بابن الرومى فيقول :

نعم البديل من الأزاهر طلعة ... غراء تومض فى صباح شاث

---

(١) تبين المعانى فى شرح ديوان ابن هانى : د زاهد على ٤٠ مطبعة المعارف ١٣٥٢ هـ

(٢) ديوان ابن خفاجة الاندلسى تحقيق كرم البستانى ص ١١٦ : ١١٧ دار صادر بيروت

(٣) الموازنة بين الشعراء د . زكى مبارك ص ٢٦٢ ط وزارة الثقافة

تسرى نوافحــه فيزدهر الصبا ويفتح الأكمــام فى الوجنات

ويريك حيث نظرت موقع قبــلة نضجت وحرمتها على اللمسات

وإذا الغمائم باكرت صفحاتهــا فالورد مطلول على الصفحات

متبرج الألوان ثم حياؤه للعين عن ذنبى صبا وحياة

ذنبات تتبع العيون ذويهما وتعود تسأل عن سبيل نجاة

هذا الربيع فإن نبا بك روضه فالروض موطن وحشة وموات

فتن تقــول لــكل مستمع لها ما للجمال على من ميقات [1]

وربيع العقاد ربيع فاتن ثرى بالجمال ، كثراء فكر العقاد وعقله ، فالأزهار لها طلعة غراء فى الصباح الشاتى كطلعة العروس التى تشد النواظر إليها فى صبيحة الزواج المثمر الحياة ، وتسرى رائحتها فى الصبا فيزدهر هو الآخر ، وتتفتح الأكمام فى الأزهار ، ويتجلى بخدوده الناضجة ، بسبب القبلة ، ولكنها قبلات حرمت على بنى البشر ، وأحلت للأمطار ، التى افتضت بكارة الرياض ، واستقرت المياه فى جذوعها ، وأصبح الورد وقد علاها الماء مزدهيا بصفحاته اللامعة ، متبرج الألوان ، متلبسا بالحياء من لمسات الصبا ، ومن افتضاض المياه لأنوثة الورد ومن شعوره بالذنب ، ترى العيون ترمقه من حين لآخر ، لهذا يفر منها طالباً للنجاة ، أليست هذه صورة ابن الرومى فى قوله :

ورياض تخايل الأرض فيها خيلاء الفتاة فى الأبراد الخ

وقوله :

نيرة النــوار زهراء الزهر

تبرجت بعد حيــاء وخفر

تبرج الأنثى تصدت للذكر

وفى قوله :

لبست فيه حفل زينتها الدنيا وزافت فى منظر فتان

---

(١) ديوان العقاد ص ٢٥٦

فهى في زينة البغى ولكن هى فى عفة الحصان الرزان(١)

فالعقاد جمع بين هذه الصور لابن الرومى ، وسلكها فى صورته بفكره العميق ، وقدرته العجيبة فى عرض مترابط ، تنبع فيه الصورة من الصورة نبعاً طبيعياً . فى نمو وتدرج وكأن الرجل جعل هذه المقطوعة ، مثالا فريداً لما ينادى من الوحدة فى الشعر الحديث ، ولولا كلمة « الذنب » التى كررها مرتين فى الصورة ، لاستقامت له الوحدة كاملة فيها ، ولن يؤثر هذا فى جمال الصورة ومنزلتها ، كما لا ينزل من روعتها تأثره بشاعرنا فإن طابعها الجديد كما تقدم يمنحها نظاماً فريداً يزيد من أصالتها ، وتكشف عن شخصية العقاد ، واتجاهه فى التصوير الأدبى ، وتحقيق مبادىء مدرسته الحديثة ، وهى « مدرسة الديوان » التى تهتم بالفكرة فى الشعر وعمقها أكثر من شىء آخر ، ونلمح هذا فى صورته السابقة فنرى جفاف الفكرة من حرارة المشاعر المتدفقة ، وطغيان المعنى والاحتجاج فيه على ما تحيا به الصورة من إيقاع موسيقى ، وبالموسيقى التصويرية يتفوق ابن الرومى فى صوره على شاعر الفكرة فى العصر الحديث ولقد اهتم المازنى بالفكرة كالعقاد ، لكن المازنى فاق صاحبه بالموسيقى التصويرية التى جسمت أعماق الفكرة ، وشخصت أبعادها ، فيتشكل الموقع فى الصورة منسابا فى النغم والإيقاع ،(٢) ونرى ذلك حين يصور المازنى الورد فى الربيع فيقول :

خده أحسن أم ثغره بل كلا الحسنين فتان
كل جزء من بدائعه لفنون الحسن بستان
لى كئوس من مراشفه ومن الأطيار ندمان
كلما قبلت وجنته خلت أن الورد خجلان
ظمئ ترويه قبلته كيف ربى وهو ظمآن
رب طل بات يكلؤه فكأن الطل غيران
وكأن الورد إذ سطعت منه ريح الطيب نشوان
أنا أخشى أن أراعيه ما لهذا الورد جثمان

---

(١) المخطوط ورقة ٣٨٣ جـ ٤
(٢) الصوره الادبية للمؤلف

كيف لا تذوى غلالته   وهى للأعين ميدان(١)

وهذه الصورة ما تركت ملابسه تتصل بها من بعيد أو قريب إلا وجدت المكان فيها وقد اشتهر قائلها بالإطناب والتفصيل ، وهو يتبع طريقة الجاحظ فى الإسهاب وخفة الروح، وعذوبة الأسلوب ورقته ، والترابط التام بين أجزاء الصورة ، والوحدة المتماسكة بين الصور الجزئية ، ثم سريان وجدانه وشعوره فى جوانبها فنرى الإنسجام التام بين شعور المازنى وبين الصورة التى قامت على التجسيم والتشخيص وتعدهذه الصورة من الصور الرائعة ، ولم يتأثر فيها الشاعر إلا فى البيت الثالث الذى تأثر فيه بقول ابن الرومى .

هبت سحيرا فناجى الغصن صاحبه   موسوسا وتنادى الطير إعلانا

تخال طائرها نشوان من طرب   والغصن من هزة عطفيه نشوانا

وفى البيت السادس يقول ابن الرومى :

ونرجس بات سارى الطل يضربه   وأقحوان منير النور ريان

وفى البيت السابع يقول ابن الرومى :

حتيك عنا شمال طاف طائفها   بجنة فجرت روحا وريحانا

وواضح أن الموسيقى فى صورة المازنى ، نشعر بتدفقها ، ونحس بوقعها ويتجلى ذلك فى إيقاع الصورة ، حيث كثرت حروف اللين فيه ، كى تنساب مع النغم وتمتد مع النفس ليتلاءم الانسياب مع غموض الجمال فى الربيع ، ويتوائم الامتداد مع الإبهام فى جلال الحياة ، إنه التناسب بين عمق الفكرة وانسياب النغم ، والتوافق بين تشعب المعنى وتشخيص الإيقاع له ، كل ذلك فى موسيقى قوية تزف ربيع الحياة .

(٤)

٢٩ — المعارضة بين دعبل الخزاعى وابن الرومى :

عارض ابن الرومى دعبل الخزاعى فى مقطوعتين إحداهما طائية والأخرى ثائية . جاء فى الديوان(٢) « حدث أحمد بن خالد قال : كنا يوما بدار صالح ، رجل من عبدالقيس

---

(١) ديوان المازنى طبعة أولى ص ١

(٢) ديوان دعبل الخزاعى جمعه وحققه د. محمد يوسف نجم دار الثقافة بيروت لبنان ١٩٦٢م

ببغداد ، ومعنا جماعة من أصحابنا ، فسقط على كنيسة فى سطحه ديك طار من دار دعبل ، فلما رأيناه قلنا : هذا صيد حرمناه فأخذناه ، فقال صالح . ما نصنع به ؟ قلنا نذبحه ، فذبحناه وشويناه ، فخرج دعبل ، فسأل عن الديك ، فعرف أنه سقط فى دار صالح . فطلبه منا فجحدناه ، وشربنا يومنا ، فلما كان من الغد خرج دعبل فصلى الغداة ثم جلس على باب المسجد ، وكان ذلك المسجد مجمعاً للناس يجتمع فيه جماعة من العلماء وينتابهم الناس ، فجلس دعبل على المسجد ثم أنشدهم :

أسر المؤذن صالح وضيوفه ... أسر الكمى هفا خلال الماقط(١)

بعثوا عليه بناتهم وبنيهم ... ما بين ناتفة وآخر سامط

يتنازعون كأنهم قد أوثقوا ... خاقان أوهزموا كتائب ناعط(٢)

نهشوه فانتزعت له أسنانهم ... وتهشمت أقفاؤهم بالحائط(٣)

وعارضها ابن الرومى وزاد فيها يقول :

طبخوه ثم أتوا به قد أبرمت ... أوتاره لمنادف ومرابط(٤)

متجملا لدجاجة متجلدا ... كتجلد المجلود بين ربائط

ولقد رمته يوم ذاك قدرهم ... بغطائط من غلية وغطامط(٥)

حملوا عليه كل ماء عندهم ... وفرات كوفتهم ودجلة واسط

واها لذاك الديك بين مساقط ... منه عهدناه وبين ملاقط

قوام أسحار مؤذن حارة ... «وصال» زرجات كمى ماقط

ينفى مناعسه بنفس شهمة ... ويشاهد الهيجا بجأش رابط(٦)

(١) الماقط : المضيق فى الحرب

(٢) ناعط : قبيلة من همدان ، وأصله جبل نزلوا به فنسبوا إليه سامط : من سمط إذا نتف ريشه بالماء الحار

(٣) ديوان دعبل تحقيق د محمد يوسف نجم نص ١٢٨ ص ٩٩ ، الاغانى ج ٢٠ ص ٧٨ ، ومعاهد التنصيص ج ١ ص ١٩٢ ، ١٩٣

(٤) منادف : جمع مندف وهو ما يضرب به القطن فتنفش

(٥) غطامط : الصوت والمقصود به صوت القدر ، غطائط : صوت المذبوح .

(٦) المخطوط ٣٦ : ٣٨ ج ٣ ومعارضته ابن الرومى فى أربعة وستين بيتاً بالاضافة إلى أبيات دعبل الخزاعى وقد غير فى الفاظها وقدم وأخر ، المفردات : مآقط : من مقط عنقه أى كسرها ، كمى : الشجاع أو لابس السلاح ، ينفى مناعسه : يقاوم النوم ليظل فى يقظة ، شهمة : شجاعة ، الهيجا: الحرب، جاش: عزيمة ، رابط : من الرباط وهو الصبر وتحمل المشقة

والديك فى صورة دعبل لم يأخذ حقه فى التصوير، مع أن الشاعر يملكه ويعرف قدره ولذلك لم يخلد ذكراه كما كان فى بيته ، ولم يسجل من حياته فى الصورة سوى الآذان ، ولعل المسجد ذكره بذلك ، وأما تصويره بعد الذبح فقد وفاه حقه ، حيث نصب العدو له كمينا وأسره بعد أن وقع فريسة ، وشمر البنون والبنات سواعد الجد والاجتهاد ، وكأنهم كانوا على ميعاد ، فهذه يد ذابحة ، وثانية ناتفة ، وثالثة مقطعة الأوصال ، ورابعة سامطة، وهكذا فالجميع يتجاوبون فيما بينهم سلطان الدجاج ، وخاقان الحيوانات والطيور الذى أسروه ، وجرى اللعاب فى الأفواه ، ونهشته الأسنان بقوة ، وقد تحفز الآكل إلى الأمام زيادة فى التمكن ، ولكن الديك ، سلطان معتق ، لم تستطع النار أن تنضجه ، لذلك انخلعت الأسنان من النهش ، ليرتد مندفعاً إلى الخلف مصطدماً بالحائط ، وبذلك يكون دعبل قد أتم الصورة للديك المذبوح كما ينبغى ، بينما قصر فى تصويره وهو حى ، ويبدو أنه كان أحوج إلى أكلة منهم ، ولذلك كان تصويره قويا فى هذا الجانب وهو أصدق وأدق .

وأما شاعرنا فقد أعطى الصورة حقها فى الحياة وفى الممات ، وقاربت الكمال مع أن الديك ليس ملكا له ، ولكن ابن الرومى يملكه كله بقلبه ومعدته وجوارحه ، وما أشد لوعته عليه ، تأمل قوله : « واها لذاك الديك ، فبينما طبخوه كبر فى عينيه ، وانتفخت أعضاؤه وجوارحه عن امتلاء ، ونضج حتى ظهر فى أبهى حلة ، كحال ما يزف لدجاجة ، وسكن الديك متجلدا بين أيدى الناتفين والسامطين ، كما يتجلد المجلود الموثوق بالحبال والأوتاد وأخذ يتحرك فى جوانب القدر، وهو يغلى، فيتصاعد عنه فى تتابع وتلاحق أصوات تترجم عن آذان الديك المكبوت . إنه لديك معتق كما صوره دعبل ، حمل القوم عليه فى القدر مياه الفرات ودجلة ، كلما جفت أتبعوها بأخرى ، ومع ذلك فهو مصر على أن يحتفظ بقوته وسلطانه حتى بعد مماته وأثناء نضجه ، إنه ديك عنيد جبار قد ألفه الناس وهو حى ، ينتقل هنا وهناك ، يعلو ويسقط ، ويرتفع ويهبط ، ويقوم فى الأسحار لينبه الغارقين فى نومهم والغافلين عن ذكر الله ، ويؤذن فى الحارات وقت الفجر ليصل الناس بربهم ، ويصل هو زوجاته مبكراً ، وينصب — متربصاً — الكمائن لهن ، فى مضايق لا يفلتن منها ، وسلطانه لا يفرضه على غيره فى مملكته فحسب ، بل يفرضه على نفسه فيستيقظ نشيطا شهما ، ويحضر المعارك وهو أشجع الشجعان بعزيمة قائد ، وثبات منتصر .

بهذا استطاع ابن الرومى أن يسد الثغرات التى تركها دعبل فى صورته ، فصارت صورة شاعرنا خالدة ، تامة الجوانب قوية نابضة لأنه أفاض عليها من شعوره وإحساسه وربط ذلك بشوقه ولذته ونهمه ومعدته ، فديك ابن الرومى هو الديك فى كل زمان ومكان ، ليس غريباً على أحد ، فمن جسم هذه الصورة وشخصها ، فسيرى الديك أمامه ، بكل خصائصه وصفاته الحقيقية ، كما هو فى الواقع والحياة .

٣٠ — وأما المقطوعة الثانية للشاعر دعبل الخزاعى ، والتى عارضها ابن الرومى فهى التى يقول فيها دعبل :

أتيت ابن عمران حاجة(١)	هوينة الخطب فالتاثها
تظل جياد على بابه	تروث وتأكل أرواثها
غوارث تشكو إلى الخلا	أطال ابن عمران(٢) أغراثها(٣)

وعارضها ابن الرومى بمعارضة بما فيها أبيات دعبل وهى الأولى يقول شاعرنا :

أتيت ابن عمرو فصادفته	مريض الخلائق ملتاثها
فظلت جيادى على بابه	تروث وتأكل أرواثها
غوارث تشكو إلى ربها	أطال السبيعى إغراثها(٤)
فاقبلت أدعو على نفسه	بأن يقسم الموت ميراثها
وقد قيل ما قولة قالها	فقلت لهم روثة راثها
لقد مات جمسه عثرة	فمطرته التى ماثها
وأما القوافى فقلبتها	وأخرجت للعبد أرفاثها
قواف أبى الوغد إبريزها	فأخرجت للوغد أخباثها
أوابد قد أخنست قبله	كهول الرجال وأحداثها

---

(١) هكذا فى ديوان دعبل أما فى ديوان ابن الرومى : ابن عمر فصادفته : مريض الخلائق ملتاثها

(٢) فى الرواية الثانية « أطال السبيعى أغراثها » ، وزاد بيتا آخر وهو البيت الرابع فى معارضة ابن الرومى

(٣) ديوان دعبل نص ٥ ص ٤٩ التحقيق السابق

(٤) ديوان ابن الرومى تحقيق الشيخ محمد شريف سليم ج ٢ ص ٢١ ، ٢٢ وهكذا وردت كما حققها وكذلك فى الديوان المخطوط ١٢٧ ج ١

إذا أنزلت فى ديار العتـــا ة كانت من الضيق أحداثها
فـكم حطمة حطم الشعر فيـــ ـه ثم وكم عيثة عاثها
ولا جرم لى أن أساءت جنا ة مزرعة كان حراثها
ولا ذنب للنـــار فى سفعه إذا هو أصبح محراثها
وليس القوافى جنت بل جنيـ ـت أنت تعسفت أوعاثها
نكثت مرائر هذا المديـ ـح جهلا فقلدت أنكاثها(١)

والغالب أن البيت الرابع من كلام دعبل ، كما فطن لذلك شارح(٢) ديوان ابن الرومى وأرجحه كذلك لأن البيت به تمام المقطوعة ، فهو دعاء على ابن عمرو ، وقدقابله ابن الرومى فى معارضته بدعاء مثله فهو يدعو عليه فى البيت العاشر ، بأنه إذا نزل بأرض ضاقت ، وأن الأرض التى يحرثها تجدب وتقفر ، والنار تسعفه لأنه الجانى على القوافى وغير ذلك الخ القصيدة .

وسواء أكان البيت الرابع من كلام دعبل أم من شعر ابن الرومى ، فلن يؤثر كثيرا فى المعارضة ، لأن معارضة شاعرنا فوق الضعف للمقطوعة الأولى .

وصورة دعبل الخزاعى ، وان تلاءمت فى ألفاظها مع معارضة شاعرنا إلا أن هناك فرقا كبيراً فى الصورتين ، فهى عند دعبل تصور مدى بخل ابن عمرو ، التى طال الوقوف

---

(١) الديوان المخطوط ١٢٧ جـ ١ ، المفردات : إلتاثها : استصعب الأمر وشق عليه ، أرواثها :جمع روث للفرس ، غوارث وأغراس : شدة الجوع ، راثها : أى أصيب بروثها ، جعسه : رجيعة ، عثرة : كبوة ، عطرته : أى إذا تعطرت الزوجة إذا أقامت عند أبويها والمراد أنها أصبحت أرملة بعد موت زوجها ، ماتها : من مات أى خاط والمراد من الحاط هنا الزواج ، وهذا المعنى أقرب فى الهجاء وأنسب إليه مما لو فسرنا كلمة عطرت : بمعنى نشرت الطيب فى جسده وهذا مدح لايتلاءم مع قصيدة الشاعر من الهجاء ، قلبتها : أى لانت له القوافى ، أرفاث جمع رفث وهو الفحش من الكلام والمراد به الهجاء الوغد: الأحمق الضعيف إبريزها : حوكها ، أخباثها ضد الطيب وهو الردىء أوابد : قوية أخنس هلك ،العتاة : الجبابرة ، العبث : الفساد سعفه : إذا لفحته النار حتى اسود وجهه ، عسف : مال عن الطريق وخبطفيه ، وعت : الطريق الشاق العسر ، نكس : نقض والمراد أنه بدل المديح هجاء ومرائر : جمع مرة وهو الفعل مرة واحدة ، قلد الشعر غيره إذا خلده فى الدهر سواء أكان على وجه المدح أو الذم .

(٢) وهو الشيخ محمد شريف سليم جـ ٢ ص ٢١ ، ٢٢ وهكذا كما حققها عن المخطوط .

عنده حتى ملت الجياد وجاعت ، وورائت وأكلت أرواثها من شدة البخل والجوع ، ولذلك دعا الشاعر عليه بالموت حتى تتحول عطاياه إلى ميراث لمن يستحق .

صورة معبرة متماسكة متلائمة الأجزاء ولكنه لم يوفها حقها فى التركيب ، والبناء ، ولم يأت على جزئياتها حتى تتضح صورة البخيل أكثر فيكشف حركاته وتصرفاته وتنقلاته ، فيبدو للناس سافرا كما هو قائم فى الحياة ، وعملت الظلال الباهتة على نفى التميز بين الألوان فى الصورة بحيث لم تكن متألقة براقة فى جوانب ، وخفيفة منسجمة فى جوانب أخرى حسب المواقف والمغازى . لذا جاءت الصورة فقيرة المعانى ، خالية من الإشارات ، ضعيفة الإيحاءات ، وغيرها مما يدل على واقع البخيل .

أما صورة ابن الرومى وهو منهوك العطايا والمطاعم ، منهوم المشارب والمناعم ، المغرم بالألوان والطعوم والروائح فقد جاءت رائعة موفورة النواحى والعناصر ، تشف عن حياة البخيل لامعة ظاهرة محددة ، وتوضح ما يخفيه من غرائز الشح ، ومساوىء البخل ، مما يعود عليه بسوء العاقبة وشر المآل ، كما قيل « وبنياتكم ترزقون » فالشح قسم البخلاء كما أن الجود حظ الكرماء .

سمع ابن الرومى البخل والشح الشديدين عن ابن عمرو ، فهو حريص فى كل شىء ، ضنين حتى بالكلمة الطيبة وإذا بالشاعر يصور فى دقة حقيقة البخيل ، التى تحوله من إنسان إلى حيوان ، يتكلم بروثة لا يعرف إلا الأكل ، وتغريه مظاهر الدنيا وزينتها ، فصار خامل الذكر ، بذىء اللسان كريه الترجيع سمج الحديث ، يستحق من الناس الذم والإفحاش ، وهذا ما أعان الشاعر على قوافيه ، فقد فاحت على البخيل برائحتها ، الخبيثة وبفحشها القاتل ، لأن قوافى المدح لم تثمر معه ، فهو ليس أهل لها وكثيرا ما امتدت قوافى الهجاء إلى غيره ، فأحالته رمادا ، وتركته حطاما ، فاختفى ذكرهم ، وذهب صيتهم وشأن ابن عمرو مثل هؤلاء ومصيره كمصيرهم فهو لسوء نيته ، وعطن شحه ، وقذارة بخله كالوباء يصيب الدنيا بشحه ، ويصليها من شره فإذا نزل بأرض قوم محصنة قوية حل بها الضيق ، وأصابها بالهزيمة ، حينئذ تستحق الهجاء والإقذاع كما هو جدير به ، وإذا أنزل بأرض خصبة ، ومزرعة طيبة مثمرة وقلب أياديه فيها ، خاست بالزرع وغارت بالثمر وحرمت الجناة من ريعها ونعيمها ، ومن كان حاله هكذا ، فلا يلوم إلا نفسه ، ولا يلقى التبعة على القوافى المفحشة الهجاءة ، لأنه هو الذى أشعل نارها بشره ، وأطار أوراها بحرصه ، وليست هى جانية ،

بل عمرو هو الجانى عليها ، لأنه اتخذ طريقها الوعر الخبيث ، وتخلى عن مجاريها السهلة ، وينابيعها الطيبة العذبة فقد بدل المديح له هجاء الذى صوره ، بالصلف المغرور ، والجاهل المبتور ، لذلك استحق أنكاثها وأنجاسها وأرجاسها .

وبهذا يتضح الفرق بين الصورتين ، ويتمايز المحتوى فى الإطارين فالمعانى التى صرحت بها صورة الخزاعى لا تعدو أكثر من تصوير البخل بصورة المرض فى الخلق ، وتصوير شدة الجوع الذى جعل الجياد تأكل أرواثها ، ثم ما يستحقه البخيل من الفناء لا البقاء : أما صورة ابن الرومى فقد تفجرت عن معان ثرة ، وفاضت عن أفكار زاخرة ، منها ما نطقت به صورة الشاعر ، ومنها ما هو تراسل عن طريق الوحى والإشعاع الشعرى فأما ما صرحت به الصورة من معان فهى :

١ — أن البخل كان سبباً فى أن زوجته أصبحت أرملة وتيتم أطفالهما .

٢ — أن ميراث الرجل لبخله لم يكن مالا بل صار نجساً وروثاً ، فأصبح المال حراماً لا حلالا .

٣ — ولهذا البخل استحق من القوافى الهجاء ، لا المدح ، بل أخبث الهجاء .

٤ — ليس هجاء ابن الرومى كأى هجاء فقد أهلك به البخلاء قديماً وحديثا .

٥ — إذا نزل ابن عمرو ديار الظالمين الجبابرة ضاق به شرارهم .

٦ — وكثيراً ما حطم هجاءه أهل الحرص وأفسد على البخلاء حياتهم .

٧ — ولا ذنب له فى هذا الهجاء ، لأن البخيل هو الذى نقض عشيره ، فمن زرع حصد فقد زرع البخيل إساءة وجبنا ، وحرث شحا وحرصا ، فاستحق قسوة الهجاء ، وتبريح الجناة ، ونفح النيران ، وسواد الختام ، وتنكب فى الطريق فركب أعسره وأشده .

٨ — لذلك كله حبر ابن الرومى بمداده الهجاء صفحات ابن عمرو ، التى اسودت فى طى التاريخ ليبقى نموذجا للبخل فى الخالدين .

وأما وحى الصورة فترى فيه ما وراءها من جلال اللفظ وسحر التصوير ، وتأمل الوحى فى هذه الكلمات :

روثة — جمسة — عثرة — عطرته — مائها — أخنست — أوابز — جناة — مزرعة سفهه — محرائها — تعسفت — نكثت — فقلدت فترى فى قوله : روثة وحيا يشير إلى أن مال البخيل نجس لا نفع فيه لصاحبه ولا لورثته من بعده ولا لغيرهما . ثم ما توحى به

جمسة من الترجيع ساعة النزع على الحياة مثله حرصه على المال وهكذا بقية الكلمات.

ومن هذا العرض للصورة، نقف على قدرة شاعرنا فى إحاطته بكل أجزائها، ماترك فيها بقية لأحد، فلا تجد كلمة فى الصورة إلا وهى تلعن البخل، وتصب عليه وابلا من السباب والاقذاع، لأن حاسته الفنية القادرة هى التى تعرف عناصر الصورة من حركة ولون وشكل وصوت ومقاديرها ودرجتها ومواقعها، لتبدو الصورة هى الشىء المصور نفسه من خلال التعبير الفراح، والتركيب الحى، والتصوير الغنى بالأجزاء والعناصر والوحى.

٣١ — المعارضة بين الرومى والمازنى والعقاد:

حظى ابن الرومى فى عصرنا الحديث من الاهتمام والعناية، بما لم يحظ به من قبل لافى حياته ولا بعد مماته، وقد كشف عن هذا المعدن النفيس. ونقب عن قدرته الشاعرية وأماط اللثام عنها. وعبق عالمنا العربى بأذكى نسيم له. وأطيب شذى. وأنضر روضة فى عالم الشعر. وملكوت التصوير الأدبى. قد كشف ذلك وقام بعبئه الثقيل رائدان من رواد الشعر والأدب والنقد فى نهضتنا الحديثة، وهما المازنى والعقاد، وهاما به هياما منقطع النظير، فقد حكى عن المازنى أنه بذل مكتبة كاملة مقابل ديوان ابن الرومى، وذكر أنه لو لم يكن عنده غير هذا الديوان لكفى وقال العقاد: إن ابن الرومى ليس ابن عصره بل هو سابق أوانه، والجدير به أن يعيش فى عصرنا الحديث، لذلك كتب المازنى عنه مقالات فى «حصاد الهشيم» وألف العقاد كتابا عن «ابن الرومى حياته من شعره»، وكان لها اتجاه خاص؛ فى الكشف عن ابن الرومى؛ وهو فى معظمه تاريخ للشاعر. وتحليل نفسى لشخصيته. بعد أن حرمه حقه رجالات الأدب والتاريخ[1].

وكان لإعجابهما بالشاعر، وهيامهما بشعره أثر قوى فى قريحتهما الفنية، واصطبغت صورهما بأصباغ من صوره، وتلون شعرهما بألوان من شعره، كما سبق بعض الصور ليدل على التأثير ودرجته، لا على وجه التحديد والإحاطة.

وسأعرض هنا صورتين رائعتين، من روائع شعرهما، قد تأثرا فيهما بصورة شعرية لابن الرومى وسنذكرها أولا، وعارضاها فى رائعتين لهما، وأطالا فيهما، وكان طابعهما

---

(١) راجع الصورة الأدبية فى شعر ابن الرومى: للمؤلف

الشخصي ظاهر فيهما ، من الإطالة المغرقة ، والعمق البعيد ، والاستقصاء النادر ، في سعة ثقافة وذوق شعري ، مما يدل على الفرق بين العصرين حتى يخيل لمن يوازن بين الروائع الثلاث ، أنها لا تدخل في باب المعارضات ، لولا الوزن الواحد ، وبعض الصور التي ما زالت مشدودة بصور ابن الرومي نتعرف عليها من خلال صورهما ، ثم الدليل التاريخي كما سيأتي — الذي يثبت أنهما ومعهما ثالث مغمور في دولة الشعر ، عارضوا جميعاً قصيدة ابن الرومي .

ولأجل الفارق الكبير بين رائعتيهما وبين رائعة شاعرنا لا من حيث التصوير ، فابن الرومي عون لهما في ذلك ، ولكن من حيث الكم والفكر الجم ، والإطالة التي هي من طبع المازني ، والعمق والغوص اللذان هما من مزاج العقاد .

والناحية الأخرى أنني في مقام التأثر والتأثير ، وهذا لا يحتاج إلى الإطالة القصوى والتعمق في بحث المعارضات بل اكتفي هنا بذكر بعض الصور ، التي تتماوج فيها ظلال فن ابن الرومي ، لتكون شاهداً على التأثر بشاعرنا ، ومدى أثر صورته الأدبية في شعر وصور الرائدين . وإلا كانت هذه الروائع الثلاث لابن الرومي والمازني والعقاد كفيلة ببحث مستقل ، ولذا ولغيره اقتصرت على بعض الصور التي وقع فيها التأثير عندهما ، ولذلك سأقتصر على صورة جزئية واحدة لا الصورة الكلية عند كل شاعر .

أما الدليل التاريخي على المعارضة فقد جاء من ديوان العقاد الذي يقول فيه :

« كنا نقرأ ذات يوم أنا وصديقاي الشاعران النابغان : المازني وعلى شوقي قصيدة ابن الرومي النونية التي يمدح فيها أبا الصقر ، ويقول في أولها :

أجنينك(١) الورد أغصان وكثبان ... فيهن نوعان تفاح ورمان

وفوق ذينك أعناب مهدلة ... سود لهن من الظلماء ألوان

(١) في رواية أخرى أجنت لك الوجد أغصان وكثبان وعندي أنها أصح لتناسبها مع معزى القصيدة ولتكون إشارة تعين على فهم المعاني اللاحقة من الصور المحسة .

فلما فرغنا من تلاوتها . وقضينا حق إطرائها ونقدناها . خطر لنا أن يعارضها كل منا بقصيدة من بحرها [١] وقافيتها فنظم المازنى قصيدة فى « مناجاة الهاجر » ونظم على شوقى فى هذا المعنى ، ونظمت أنا هذه القصيدة فأهديتها روح ابن الرومى »[٢]

يقول ابن الرومى فى روضة العشاق وجنة الأحباب ، فلا أدرى أن يكون العشاق هم أساتذة الروضة ليعلموها الحب والغدر ، أم هى التى تلقمهم درسا فيهما ، وتهذب هواهم ؟ امتزاج وتعانق بينهما لا يعرف أحدهما من الآخر يقول :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان	فيهن نوعان تفاح ورمان
وفوق ذينك أعناب مهدلة	سود لهن من الظلماء ألوان
وتحت هاتيك عناب تلوح به	أطرافهن قلوب القوم قنوان
غصون بان عليها الدهر فاكهة	وما الفواكه مما يحمل البان
ونرجس بات سارى الطل يضربه	وأقحوان منير النور ريان
ألفن من كل شىء طيب حسن	فهن فاكهة شتى وريحان
ثمار صدق إذا عاينت ظاهرها	لكنها حين تبلو الطعم خطبان
بل حلوة مرة طورا يقال لها	شهد وطورا يقول الناس ذيفان[٣]

هذه صورة كلية ، تلاحمت من صور جزئية قوية متماسكة نقلت إلينا صورة العشاق وما تتركه فتنه المحبوب من الوجد القاتل فى قلب المحب ، ثم يفصل فى حبيبه مفاتن الجسد فلا تدرى أهى المحبوبة أم هى أوصاف الروضة الغناء ، فهى كالغصن قدا ، وكالكثبان ردفا ، وكالتفاح خدا ، والرمان ثديا ، وهو يعلوه (حلمة) كحبات العنب السوداء ، وتحتها عناب أحمر قانى يحيط بها امتداداً واتساعا ، فتنه فوق فتنه ، موصولة بقلوب العشاق ، هائمين بذلك القد الذى يحمل جنة من الفواكه ، وعيونا ندية كعيون النرجس

---

(١) من بحر « الهزج »
(٢) ديوان العقاد ص ٤١
(٣) المخطوط ٣٣٧ : ٣٣٩ جـ ٤

وثغرا أحمر مشرقا ، عذب الرضاب ، طيب النشر كالأقحوان ، ما ترك المحبوب شيئا من جمال الرياض إلا هو فيه .

ثم صور طبع المحبوب وما جبل عليه ، فظاهره جمال وإغراء يخلب اللب ، وباطنه متقلب لا قرار فيه ، فأحيانا تجد منه وصلا وحلاوة ووفاء ، وأحيانا يصيب المحب مرارة وإباء وصدا وهجرانا ، وزيفا ومخاتلة ، يشعل الشوق إليهن أكثر ، ويؤجج حرارته أعنف وأشد . استقصاء وتتبع لكل جزئية فى الصورة مع الترابط والتلاؤم بينها ، وما يموج فيها من ألوان وأصوات ، وظلال وأضواء ، وحركة وتشخيص فى قول رائع ، وفهم دقيق لطبائع العشاق ، وما أودع فيهن من السحر الذى يقهر الرجال .

وعارض المازنى هذه الصورة مستطرداً كعادته فيقول فيها :

يا ليت لى والأمانى إن تكن خدعا	لكنهن على الأشجان أعوان
غارا على جبل تجرى الرياح به	حيرى يزافرها حيران لهفان
والبحر مصطفق الأمواج تحسبه	بهيجة طرب « مثل » وأشجان
إذا تلفت فى خضرائه اعتلجت	آذيه فيسرى منه إعلان
خل القصور لخالى الذرع يسكنها	وخير ما سكن المعمود غيران
حسبى إذا استوحشت نفسى لبعدكم	بالبحر أنس وبالأرواح جيران
لا كالرياح سمير حين ثورتها	إذا ما لأسرارها فى الصدر أجنان
تفضى إليك بنجواها زمازمها	ثم الصباح بما يطويه أدجان
إذا الفتى كان ذا شجو يميد به	معذبا بالمنى من معشر خانوا
فنعم مسكنه غار له أبدا	من السحاب قلادات وتيجان
ونعم أقرانه بحر له زجل	وساجيات لها سجع وأرنان
وما أبالى وقد أصبحت مطرحاً	إذا خلت لى من الإنسان أوطان
ما بى إلى الناس إطراب فأفقدهم	إذا اعتزلت وهل للداء فقدان
بينى وبين الورى بون فأحج بأن	يكون بينى وبين الناس وديان

إنى شغلت بمراض أخى ملل ... فلست أدرى أفوق الأرض سكان
سيان عندى إذا ما ازور عن نظرى ... وأظلم الجو إنسان وعيران
وما على وليس الناس من أربى ... إن قطعت بيننا بيد وغدران
هيهات آنس بالانسان ثانية ... من يألف الكأس يألم وهو صديان
خل الرياح تناجينى وتعرف لى ... فللرياح كما للناس ألحان
إن يستخف بما ألقى أخو عنف ... لا رفق فيه فان البحر حنان
تسليك منه وإن أشجتك روعته ... وقد تسرى من الأشجان أشجان
والبحر للنفس مرآة ترى صورا ... منها بها ولعجم الموج تبيان
يا حبذا الغار والأرواح نائحة ... والبحر مصطخب والليل طخيان
ومرحبا بهموم لا ارتحال لها ... وجون ليل له كالهم إيطان
وأنت بين أبابيل مغردة ... كأنهن على الأغصان قنوان
حمائم فى نواحى الروض هادلة ... وأقحوان على الحافات نعسان
ونرجس كاسف والعين ضاحكة ... يا حبذا نرجس لهفان جذلان
والماء كالفضة البيضاء سائلة ... طوراً وطوراً تراه وهو عقبان
بمعزل عن هموم أنت موقدها ... أرعى وأنت على الأيام غفلان
لك الرياض عليها الدهر أوشية ... خضر يضاحك فيها الورد ريحان
إن شئت حياك فيها النور مبتسما ... أو شئت ألهاك مسجاع ومرنان
أو شئت فى ظل أغصان موسومة ... تنأى وتدنو كما يختال نشوان
جريت فى حلبة السراء منتصفا ... من الزمان كمن ضرته أزمان
ولى الجبال عرايا غير كاسية ... والبحر والريح سمار وندمان
إن فاتنى من ذكى الورد نفحته ... فلى بذكرك ريحان وسوسان
وإنما حبب الأجبال أنكم ... كنتم تحبونها والوصل فينان (١)

---

(١) ديوان المازنى جـ ١ ص ١٣٧ : ١٤٣

وقصدت هنا بالذات أن أعرض هذه الصورة كاملة ، ليتضح الفرق بين الشاعرين كالفرق بين العصرين ، ولتبرز شخصية المازنى من خلالها .

فالصورة يحملها الشاعر ما لا تطيق ، ويسترسل ليصور جزئية الجزئيات ، حتى يكاد ينسى القارىء ، أنه يعارض ابن الرومى ، ولن أعنى هنا بالتفصيل لكل أجزاء صورته لوضوح شعره فهذا أمر يحتاج إلى فصل مستقل تتحدد فيه معالم المعارضة ، وإنما اعرض - فى هذه الصورة وما بعدها من الصور — مواضع الاتفاق — وهو الأهم عندنا — والاختلاف وبخاصة بعد أن عرفنا صورة ابن الرومى .

أولا : تأثر المازنى بالصورة الأولى عند شاعرنا وهى التى توحى بأثر فتنة المعشوق وجماله على قلب العاشق وما يصيبه من الجوى والوجد ، تأثر بذلك واستطرد وأطال وأطال من أول قوله :

« يا ليت لى والأمانى تكن خدها » إلى نهاية قوله : « إن قطعت بيننا بيد وغدران »
وسخر المازنى مظاهر الطبيعة ، التى توحى بالجوى والألم ونار الشوق ، فقلب العاشق المكلوم كالغار المقفر ، الذى تلعب به الرياح ، وكالبحر الثائر الصاخب التى تعكر صفوه العواصف ، وكل ما فى الطبيعة يكشف عن وجده المكتوم ، البحر فى هياجه ، والغار فى قفره وتلاعب الريح به والرياح فى ثورتها والصباح المبكر بما يحويه من ظلام ، والسحب القاتمة والساجيات الرخيمة ، والأوطان الخربة . وابتعاد الناس ، وهجرانهم إياه ، وقفر الأرض ، وظلام الجو ، والحواجز بين البيد والغدران ، وهكذا . فالكل ينطق بآلام الحب ، ومرارة الوجد ، وما جناه عليه فتنة المعشوق .

ثانيا : ثم يصور فتنة المحبوب ، ولعبه بالنفوس ، من خلال جمال الطبيعة والرياض كما عند شاعرنا ، واستطرد نوعا ما ، وذلك فى الأبيات الباقية :

فصور معشوقته الفاتنة القوام الخلابة اللعوب ، تطل من مغانى الطبيعة ، ومفاتن الرياض فيراها فى ألحان الرياح ، وحنان البحر ، ورقة الخلان ، وتعانق الأمواج ، وفى الأبابيل المغردة والأغصان المثمرة ، والحمائم الهادئة ، وفى الأقحوان الناعسة ، والنرجس

الساحر الجذلان بعينه الضاحكة ، وفى الماء الصافى ، والرياض الموشى بالخضرة ، والورد الضاحك الفواح ، والروضة النيرة المغردة .

ثالثاً : يصور لعب المحبوب بالنفوس ، فى صده ووصله فهو كالأغصان فى التلاقى والتباعد ، فتأتى وتدنو ، وكالزمان فى وفائه وغدره ، والجبال فى عريها ، والبحر والريح فى سجوهما وعصفهما وهما سمار وندمان . ومع الهجر والصد ، فلا تزال الذكرى الحية فى نفسه والأيام الخالدة التى نعم فيها بالوصل واللقاء .

رابعاً : وصورة المازنى مع استقصائها العجيب ، وروعة نظمها ، بها هنوات ، يسيرة مزقت ملاءمة الصورة والتحام النظم ، مما عكر صفو النسق الفنى الجميل .

فأثناء تصويره جمال المحبوب ، ذكر هذين البيتين ولا محل لهما فى الصورة .

يا حبذا الغار والأرواح نائحة	والبحر مصطخب والليل طخيان
ومرحباً بهموم لا ارتحال لها	وجون ليل له كالهم ايطان

وكذلك قوله بعد ذلك :

والماء كالفضة البيضاء سائلة	طوراً وطوراً تراه وهو عقيان
بمعزل عن هموم أنت موقدها	أرعى وأنت على الأيام غفلان

وهل لحديث النوح والاصطخاب والليل والهم ، والرحيل والجون ، والماء العقيان والغفلان مكان فى مواطن الجمال ؟ إن الصورة بما سبق تمزقت عراها ، وتهلهل تلاؤمها .

وأما صورة العقاد التى عارض بها صورة ابن الرومى السابقة ، فيقول فيها :

يهنيك يا زهر أطيار وأفنان	الطير ينشد والأفنان عيدان
طوباك لست بإنسان فتشبهنى	أنى ظمئت وأنت اليوم ريان
هذا الربيع تجلى فى مواكبه	وهكذا الدهر آن بعد آن
تفتحت عنه أكمام السماء رضى	ورفه من نسيم الخلد رضوان

وشائع النور فى البستان باسمة ... والأرض حالية والماء جذلان
وللنسيم خفوق فى جوانبه ... وللطيور ترانيم وألحان
وفى كل روض قرى للزهر يعمرها ... يا حبذا هى أبيات وسكان
مستأنسات سرى ما بينها عبق ... كما تراسل بالأشواق حبان
الورد يحمر عجباً فى كمائمه ... والياسمين على الأغصان ميسان
وللقرنفل أثواب ينوعها ... عن البلور صناع الكف رقان(١)
وللبنفسج أمساح ممسكة ... كأنه راهب فى الدير محزان
وحبذا زهر الليمون يسكرنا ... نهى جام خلا من مثله ألحان
والليل يحييه والأطيار هاجعة ... بلابل وشحارير وكروان
مؤذن الطير يدعو فيه محتسبا ... فيستجيب له بر وغيان
والصبح فى حلل الأنوار طرزه ... فى الشرق والغرب أسحار وأصلان(٢)
كأنما الأرض فى الفردوس سابحة ... يحدو خطاها من الأملاك ربان
ضاق الفضاء بما يحويه من فرح ... فكل ما فى فضاء الله فرحان
إلا المحب الذى لاحبه دنس ... ولا مودته خب وأدهان
نفاه عن عرس الدنيا شواغله ... إن الحداد عن الأعراس شغلان
ما للطبيعة تجلو حفل زينتها ... حتى تكاثر منها اللمح ألوان
كأنما مرنت ما طول ما صنعت ... فليس يخطئها فى الصنع إتقان
رحماك يارب أن الناس قد غلبوا ... على الوقار وللأهواء شيطان
لقد علمت بأنا لا قرار لنا ... مع الجمال وأن الصبر وهنان
فما لنا كلما دارت نواظرنا ... مدت إليهن أوهاق وأشطان(٣)

---

(١) رقان . مزركش
(٢) أصلان : جمع أصيل
(٣) الأوهاق والأشطان : الحبال والحبل

من كل ألاقة بالحسن طلعته ... مستملح التيه يعطو وهو خجلان
إذا النهار تجلى من أسرته ... صحت قلوب تحييه وأجفان
ترنح اللين فى عطفيه واتسقت ... فيه الحلى فهو للأبصار ميدان
ويستهل بروض من ملاحته ... كما استهل بروض الزهر نيسان
بالغصن شبهه من ليس يعرفه ... وإنما هو للرائين بستان
وهل نما قط فى غصن على شجر ... آس وورد ونسرين وسوسان[٢]

أولا : غلب على الفكرة الأولى عند العقاد هنا ، ما كان يتسم به من العمق والغموض، مع وضوح المازنى الزائد واعتدال ابن الرومى فيها ، فصور العقاد الوجد الذى ألم به من المعشوق ، فى حديثه إلى الزهر الذى أمضه ثقل الأثمار عليه ، وتناوب الطير فوقه ولا عليه أن يحزن مثل المحب ، لأنه ليس بإنسان ظامىء معذب ، ولكنه ريان ناعم الملمس ، غض البدن ، طرى القوام .

ثانياً : أما الصورة الثانية ، وهى التعرف على جمال المحبوب فى مفاتن الرياض، وجمال الطبيعة ، فقد رآه فى مواكب الربيع ، بين حين وآخر ، وأكمام السماء المتفتحة ، ونعيم الخلد ورضوانه والبستان النير الباسم ، والأرض المزينة ، والماء الراقص العذب، والشمس الضاحكة ، والآفاق الصافية الجلية ، والروض المثمر المتفتح ، ويتعرف على الحبيب كذلك فى حيام النسيم وألحان الطيور ، وفى القرى العامرة بالزروع والبيوت والسكان ، وفى احمرار الورد فى كمائمه ، ونعاس الياسمين على أغصانه وأثواب القرنفل البلورية ، ورهبانية البنفسج ، وخمر الليمون . ونور الليل الذى يراسل تحياته وفى انسياب صوت البلابل والشحارير ، وجمال صوت الكروان وآذان الديكة ، ويتعرف عليه أيضاً فى أنوار الصبح وأشعة الشمس فى الغرب والشرق ، وفردوس الأرض ، وفى الفضاء الذى فاض من الفرح، وفى الحب الخالص والمتيم الصادق .

---

(٢) ديوان العقاد ص ٤١ : ٤٣

ثالثا : ويصور الفكرة الثالثة وهى غدر الحبيب ، ووصله وصده ، فيرى أن الحبيب فى صفاته ووصله كالطبيعة فى أبهى زينتها وجمالها الفتان ، وأنه فى صده وغدره عنيف وقاس فيالله منه ، وغوثا برحمة من عنده ، تلطف ألم الهجران ، ومرارة الحرمان ، فلا راحة فى وصل العشاق ، ولا استقرار ، ولا صبر على صدهن ، فالجميلات المتألقات فى نواظر المحبين ينصبن لهم الحبائل والأحابيل ، والمصايد والمقانص ، فى قسوة وبلا رحمة ، وإذا عطف الحبيب فهو كالصبح الذى يكشف عن جماله ، وكالنهار الذى تتجلى فيه العيون ، وتتيقظ له القلوب ، وهو يختال فى حلة بهية ، ومنظر فتان ، ويستهل الروض المليح المنير كما يستهل الربيع الزهور ، فيتجلى النهار كالبستان للرائين ، يترعرع فيه آس وورود على فروعها ، وتميس فيه نسرين وسوسان على أغصانها .

رابعاً : وصورة العقاد الدقيقة العميقة تلاءمت أجزاؤها وعناصرها بصفة عامة ، فأوشكت على الكمال ، لولا ما تورط فيه من زلل أعان على تمزيق النسيج المتلائم وعلى تهتك النظم المتلاحم ، فى القليل من الصور الجزئية فى قوله :

ضاق الفضاء بما يحويه من فرح   فكل ما فى فضاء الله فرحان

إلا المحب الذى لا حبه دنس   ولا مودته حب وادهان

نفاه عن عرس الدنيا شواغله   إن الحداد عن الأعراس شغلان

فلا محل لكلمة « ضاق » ، وكان الأولى بالمقام « فاض » ، وكذلك قوله . (دنس ، خب ، أدهان ، نفاه ، شواغله ، الحداد ، شغلان) مما شوه التلاحم فى الصورة ومزق الوحدة التى ينزعها فى النقد ، وليته حذفها ، فلو حذفت لما أضرت الصورة ، ولم تضعف من شأنها ، ولفاقت بذلك الصورتين السابقتين ، مع الإحتفاظ لابن الرومى بحق السبق وفضل الابتكار .

وكذلك التعبير بلفظ « محزان » فى قوله :

وللبنفسج أمساح مسكة كأنه راهب فى الدير محزان

فإنه يخرق ثوب الجمال الذى أضفاه على حبيبه الفتان ، وإذا كان لا بد من وصف البنفسج بالحزن ، فغيره كثير من أزاهير الربيع ، أو على الأقل يأتى بلفظ آخر على وزنه يفيد معنى التأمل والاستغراق ، مما يتناسب وجمال المحبوب ، وغيبوبة الراهب وخشوعه . وبذلك يتجنب الخلل والاضطراب ، اللذين هتكا حجاب الصورة الجميلة .

ويصور ابن الرومى ذكريات الماضى للمحبين ، وطيفها الخالد ، الذى تجد فيه العزاء والسلوان ، فتشفى غلته ، وتطفىء حرارة صدره ، ثم يدعو له بالسقيا وطول البقاء ، لأن بقاءه فى الذكرى ، وسأكتفى بذكر ما يقابلها عند المازنى والعقاد ، مع الإشارة إلى بقية الصور ومعارضاتها لمن يريد أن يستزيد من مواقع التأثر عند الشعراء الثلاثة وفى تفصيل صوره فى المعارضات الثلاث كالصورة السابقة غناء وكفاية عن أخواتها :

يقول ابن الرومى فى ذلك :

ما كان أصفى نعيم العيش إذ عنيت نعم تجاورنا والدار نعمان

إذ لا المنازل أطلال نسائلها ولا القواطن آجال وصيران

ظللنا نقول وأشباه الحسان بها « سقيا لعهدك » والأشباه أعيان

بانوا فبان جميل الصبر بعدهم فللدموع من العينين غنيان

لهم على العيش إمعان يشط بهم وللدموع على خدى إمعان

لى — إذ نأوا — وجنة ريا بمشربها من عبرتى وفم ماعشت ظمآن

كأنما كل شىء بعد ظعنهم فيما يرى قلبك المبتول أظعان

أصبحت ملك من أوطانه ملل وخانك الود من مغناه ودان

فاجمع همومك فى هم تؤيده بالعزم إن هموم الغل شذان

وأقصد بردك خلا ليس من ضلع ... عوجاء فيها يوشك الزيغ إيذان(١)

ويعارض هذه الصورة المازنى فيقول :

حاشا لمثلى أن ينسى وإن بعدت ... مسافة الذكر إن الذكر ديدان
هيهات ما تطفىء الأيام حر جوى ... وقد يسعر نار الذكر هجران
كالنهر عمق مجـــراه تحدر ، ... والنار ألعجها ريح وعيدان
لنا بما قد مضى عن غيره شغل ... كأنما عطل الأفلاك خطبان
وصرت لا أنا من ضراء مبتئس ... يوما ولا أنا بالسراء فرحان
أعطيتك العهد إن أحيا لكم أبداً ... فهل ترى أننى للعهد خوان
مالى سوى طيف أيامى التى غبرت ... خدن إذا شئت واف وهو مذعان
كأننى حين أدعوه وأنشره ... عيسى بن مريم يحيى معشرا حانوا
هذا نديمى أناجيه ويترع لى ... كؤوس ذكر لمن لى منه نسيان
كم ليلة بات يحييها معى سهراً ... ياحبذا هو سمير وملسان
يطوف بى بين أطلالى ويطرفنى ... فيها بأيامنا والعيش زهران(٢)

وأما صورة العقاد فيقول فيها :

بقية لك أتلوها وأنشدها ... هذى القصائد لى فيهن سلوان
بقية من متاع الذكر قد صفحت ... عنها السنون غلى بالذكر قنعان
كأنى تاجر فى الشط مرتقب ... موج الخضم وفلكى فيه غرقان
هذى بقاياك لو تستطيع تذهبها ... كما ذهبت فيطويهن نسيان
لا يأمن الحب صب لا يكون له ... بالحب عن صلة المحبوب غنيان

(١) المخطوط ٣٣٨ ج ٤

(٢) ديوان المازنى ج ١ ص ١٤٤ : ١٤٦

ما كنت أجهل لما أن كلفت به ... أنى سألقاه يوما وهو غضبان
من لى به مثل ما أرضاه فى ملأ ... هاموا وهانوا فهم للوهم عبدان
تفرق الناس أوطانا وما افترقت ... لهم على حسب الأفهام أوطان
بتنا نساكنهم داراً ونحسبهم ... منا وشتان إنسان وإنسان
نشقى بأنفسنا فيهم فيسعدهم ... هذا الشقاء، ولا يجزيه شكران(١)

وبعد ذلك نشير إلى بقية الصور الأخرى ومعارضاتها فى مصادرها الأولى، للتمييز بينها والوقوف عليها.

منها: صورة عن الشعر، فهو روضة العشاق، وسجل الذكريات، وتبدأ من قول ابن الرومى:

ياليت شعرى وليت غير مجدية ... إلا استراحة قلب وهو أسوان

إلى قوله:

لكن ليثبت فى الأعناق حجته ... ويحسن العفو فالرحمن رحمان(٢)

وعارضها المازنى مبتدأ بقوله:

لو أنه فى وسعى ومقدرتى ... أن ترسم اللحظ ألفاظ لها شان
وأن أصور فى القرطاس فتنته ... لقالت الناس هذا منك بهتان

إلى قوله:

كالورد أما ذوت يوما غلائله ... ذكى فصار به عنهن غنيان(٣)

---

(١) ديوان العقاد ص ٤٨.
(٢) المخطوط ٣٣٨ جـ ٤.
(٣) ديوان المازنى جـ ١ ص ٢٧ : ١٣٢

وعارضها العقاد مبتدأ بقوله :

إنى ألوذ بشعرى حين يطرقنى من الطوارق نزال وضيفان
والشعر من نفس الرحمن مقتبس والشاعر الفذ بين الناس رحمان

إلى قوله :

إنما المرء يحيا فى خوالجه وليس يحييه فى الألباب رجحان(١)

ومنها : صورة تكشف عن طبع النساء من الدلال والإغراء فهن حبائل الرجال ومصايد الذكران ، وتبدأ من قول ابن الرومى :

ومن عجائب ما يمنى الرجال به مستضعفات له منهن أقران
مناضلات بنبل لا تقوم له كتائب الترك تزجيهن خاقان

إلى قوله :

يغدرن والغدر مقبوح بزينة للغاويات والغاوين شيطان(٢)

وعارضها المازنى مبتدأ بقوله :

ياليت شعرى وهل فى ليت من فرج من أزم ما أنا عان منه أسوان
ماذا أراد بنا حتى نأى ودنى طيف يخادع طرف وهو وسنان

إلى قوله :

قليل ذكريه فى شعرى بزينة كأنما ذكره در ومرجان(٢)

وعارضها العقاد مبتدأ بقوله :

يا من يرانى غريقاً فى محبته وجدا ويسألنى هل أنت غضبان

---

(١) ديوان العقاد ص ٤٦ : ٤٨
(٢) المخطوط ٣٣٧ ، ج ٤
(٣) ديوان المازنى ج ١ص ١٣٣ ، ١٣٤

إلى قوله :

ولا تعلم وزن القول شاعرهم   إلا وكان له بالنبض ميزان(١)

ومنها : صورة تصور غدر النساء ، وتنكر أيامهن ، يقول ابن الرومى فى أولها :

تغدو الفتاة لها خل وإن غدرت   راحت ينافس فيها الخل خلان

إلى قوله :

إذا تمايل فى ريح تلاعبه   ظلت طرابا لها سجع وأرنان(٢)

وعارضها المازنى من أول قوله :

أرى بظنى وأخلاق أن يطيش وفى   عينى ضباب وفى الآفاق أدجان

إلى نهاية المعارضة(٣) .

وعارضها العقاد من أول قوله :

يا أملح الناس هلا كنت أكبرهم   روحاً فيتفقا روح وجثمان
صدقت باطل ما قالوا كأنهموا   لا يكذبون أو أن العذل قرآن

إلى نهاية المعارضة(٤) .

---

(١) ديوان العقاد ٤٣ : ٤٦
(٢) المخطوط ورقة ٢٣٩ جـ ٤
(٣) ديوان المازنى جـ ١ ص ١٤٧ : ١٥٥
(٤) ديوان العقاد ص ٤٨ : ٥٠

(٥)

٣٢ — رثاء الممالك والحضارات :

اتسم الرثاء قبل عصر ابن الرومى غالباً بالنزعة الفردية فقد كان الشاعر ينظم قصيدة كاملة فى رثاء حاكم أو أمير ، أو خليفة أو سلطان ، أو قائد أو عالم ، ولكن بعض الرثاء فى العصر العباسى أخذ صبغة إنسانية جديدة ، ونزعة اجتماعية عامة ، لا يعير فيها الشاعر التفاتاً لخليفة أو سلطان إلا باشارة سريعة ، مهما طالت المرثية ، أو يتناوله بقدر مساهمته فى المشاركة والبناء .

وضجت الكتب منذ القديم ، بقصيدة البحترى ، فى رثاء الممالك ، والتى عارضها شوقى بقصيدة أخرى فى رثاء الأندلس .

وغاب التاريخ والمؤرخون عن رائعة ابن الرومى فى رثاء البصرة مدينة العلم والعرفان والحضارة والعمران .

لذا أردت أن أختم هذا الفصل ، بموازنة بين صورة أدبية لأكثر من شاعر — على الأقل — فى باب رثاء الحضارات والأمم المتقدمة ، حتى نؤدى لشاعرنا حقه فيه ، وننفض التراب عن رائعته فى رثاء البصرة ، وتكون منطلقا لنا فى محاولة جادة ، نتدارك فيها — مستقبلا — هذا الفن الإنسانى الرفيع فى بحث متكامل ، تجلى فيه قيمته التاريخية والفنية بالتحليل والموازنة للقصائد كاملة والصورة الكلية العامة عن المرثيات كلها ، كل مرثية على حدة .

ولسنا هنا أيضاً فى مجال عرض المراثى ، ولكن الغرض هو الموازنة بين صور مختلفة لشعراء مختلفين من بينهم شاعرنا حتى يأخذ حقه فى باب رثاء الحضارات .

كان هذا الفن قبل ابن الرومى والبحترى ، يكاد لا يوجد إلا فى مقطوعات قصيرة تصور ما يتصل بحياة العرب فى الدمن الخوالى وملاعب الصبا ، وترى النزعة الإنسانية

العامة فيها غير مكتملة كرثية الأسود بن يعفر النهشلي « الدالية »[1] ، ومرثية متمم بن نويرة « العينية[2] » .

ولكن هذا الفن الأدبي تم على يد ابن الرومي والبحتري حيث أنشدا فيه قصيدة مطولة وكامله مستقلة ، وجاء من بعدهما يحذو حذوهما ، وسنعرض صور لأكثر من شاعر أجاد رثاء الممالك والحضارات وبرع فى تصوير المواقف الإنسانية العامة النبيلة .

أولا : رثاء البصرة :

فى سنة سبع وخمسين ومائتين هجرية ، ثار الزنج على حاضرة البصرة ، واكتسحوا أهلها وارتكبوا الجرائم بشناعة وهمجية ، ودمروا عمرانها وحضارتها[3] ، فثار ابن الرومى من هول هذه الكارثة التى أذهبت بعلماء البصرة وحضارتها وعمرانها ، ونظم رائعته فى رثاء حضارة البصرة لإثارة النزعات النفسية فى العالم كله من غير فرق بين الحاكم والمحكوم للقضاء على الظلم وأهله وبناء حضارة البصرة من جديد كما كانت من قبل ، وأخذ يدور حول هذا المغزى ، فى قصيدته التى سأختار منها صورة كلية واحدة وهى صورة المعركة .

التقطت مصورة ابن الرومى ، صورة المعركة الحقيقية ، التى وقعت غدراً ، بين الزنج القساة وأهل البصرة الوادعة فلو انتقلنا إلى مشاعر ابن الرومى المصور ، وفى قلب البصرة آنذاك لنخر صرعى ، أو نستشهد بين هؤلاء الشهداء ، أو نفر من الصورة الأدبية ذاتها فزعا ورعباً من فداحة القسوة وظلم البربرية . يقول ابن الرومى فى صورة المعركة .

بينما أهلها بأحسن حال ... إذ رماهم عبيد باصطلام

دخلوها كأنهم قطع اللبـ ... ـل إذ راح مدلهم الظلام

أى هول رأوا بهم أى هول ... حق منه يشيب رأس الغلام

إذ رموهم بنارهم من يمين ... وشمال وخلفهم وأمام

---

(١) الموازنة بين الشعراء : د . زكى مبارك ص ١٣٦ .

(٢) المرجع السابق ١٣٧ .

(٣) يحسن مراجعة هذه الأخبار فى المراجع : مقدمة ابن خلدون ، وتاريخ الطبرى وابن الأثير ، والفخرى .

كم أغصوا من شارب بشراب | كما أغصوا من طاعم بطعام
كم ضنين بنفسه رام منجى | فتلقوا جبينه بالحسام
كم أخ قد رأى أخا صريعاً | ترب الخد بين صرعى كرام
كم أب قد رأى عزيز بنيه | وهو يعلى بصارم صمصام
كم مفدى فى أهله أسلموه | حين لم يحمه هنالك حام
كم رضيع — هناك — قد فطموه | بشبا السيف قبل حين الفطام
كم فتاة بخاتم الله بكر | فضحوها جهراً بغير اكتتام
كم فتاة مصونة قد سبوها | بارزا وجهها بغير لثام
صبحوهم فكابد القوم منهم | طول يوم كأنه ألف عام
من رآهن فى المساق سبايا | داميات الوجوه للأقدام
من رآهن فى المقاسم وسط الز | نج يقسمن بينهم بالسهام
من رآهم يتخذ أماء | بعد ملك الإماء والخدام
ما تذكرت ما أتى الزنج إلا | أضرم القلب أيما إضرام
ما تذكرت ما أتى الزنج إلا | أوجعتنى مرارة الارغام[1]

صورة حية نابضة واقعة الآن ، بل هى فعلا تقع فى كل زمان ومكان ، ألم يكن المستعمر المعاصر اليوم هو الزنج بالامس ، ألم تعيث إسرائيل العاهرة فى الأرض فساداً مثل ما ارتكبه الزنج بالبصرة ، إنها صورة كل يوم ، وكل معركة ، على اتساع المكان والزمان وهذا هو الفارق الذى يرفع قدر الصورة وقيمتها ، فتصير إنسانية خالدة كصورة شاعرنا هذه والصورة الآنية لكل من البحترى والشاعر الاندلسى وشوقى والعقاد ، وإن كانوا جميعا قد حددوا مواقعها فى البصرة والفرس والأندلس ومصر الفراعنة ، إلا أنها تصلح لكل بلد وأمة ، وما المواقع هذه فى نظرنا إلا رموز وإشارات توحى بكل موقع أو بلد أو أمة على وجه الأرض ما دام الانسان هو الإنسان فى كل زمان ، والقيم هى القيم فى كل مكان

(١) المخطوط ورقة ٣٢٩ : ٣٣١ جـ ٤

وابن الرمى أوفى على الغاية فى تمام أجزاء الصورة ، وعملت عبقريته فى توزيع عناصرها من حركة ولون وصوت ، وطعم رائحة ، وحجم وشكل[1] ودب فيها من روحه ومشاعره ونبضت بحرارة عاطفته وقوة وجدانه ، وتحركت بدقة احساسه وشدة انفعاله .

فبينما البصرة تموج بالحياة وتسعد بالأمن والرخاء ، فى ظلال النور والعلم والحضارة إذا انصب عليهم العبيد الزنج فى ســــواد الليل الذى تحول بهم إلى جيش كله كتل من الظلام ، لا يميز الإنسان فيه بين دجنة الليلين ، دجنة ظلام الليل ، ودجنة زحام الجيش ، كما يميز بين دكنة الجيشين ، جيش الظلام وجيش الزنج من شدة سوادهما معا ومن هذا الهول تزاحم أهل البصرة فزعا وهربا ، فى ضوء خافت ، وهو لمعان الشيب الذى حل بالشباب من شدة الخوف ، ولم يجدوا منفذا للنجاة فقد أحاط الزنج بالحاضرة من كل جهة وضموا اليهم أطرافها فلم يفلت من قبضة أيديهم طاعم ولا شارب ، ولا جبان ولا شجاع ولا أخ ولا أب ، ولا وليد ولا رضيع ، ولا بكر ولا ثيب ، إلا مزقوا ستره وهتكوا عرضه ، فأصبحت المدينة خرابا ، والعمران قفرا يبابا ، وحل السكوت العميق بعد الحركة والنشاط ، وخيم الصمت الرهيب بعد الجد والحياة ، وأصبحت البصرة موت وفناء وظلام أن قلب الشاعر ليتأجج نارا ، ويضطرم أوارا ويذوب مرارة ويتوجع ألما وعذابا .

ما أقوى هذا الشد بين أجزاء الصورة ؟ وما أحكم الرباط الوثيق بين النظم فيها ملاءمة بين الألفاظ وانسجام فى العناصر واعتصام فى التركيب والبناء ؛ وقوة فى المشاعر والعواطف والانفعالات .

ثانيا : وأما البحترى فقد التقط صورته الأدبية فى هذا الفن ، من صورة خطية منقوشة فى إيوان كسرى ، فبعث بشاعريته فيها الحركة بعد الصمت ، ودبت فيها الحياة بعد الجمود ، وخلدها إلى الأبد ، كما خلدت صورته الرائعة وبقى من بعده صورتان رائعتان الصورة الأصل وهى المرسومة المنقوشة ، والصورة المنقولة وهى الصورة الواقعية الناطقة

---

(١) راجع الصورة الأدبية فى شعر ابن الرومى : للمؤلف

المعبرة ، صورة أبى عبدة فى رثائه لمجد الفرس ، وقد نحا فيه منحى ابن الروى يقول فى صورة المعركة « معركة أنطاكية » :

فاذا ما رأيت صورة أنطا ... كية ارتعت بين روم وفرس
والمنايا موائل وأنو شروان ... يزجى الصفوف تحت الدرفس
فى اخضرار من اللباس على ... أصفر يختال فى صبيغة ورس
وعراك الرجال بين يديه ... فى خفوت منهم واغماض جرس
من مشيح يهوى بعامل رمح ... ومليح من السنان بترس
تصف العين أنهم جد أحيا ... ء لهم بينهم إشارة خرس
يغتلى فيهم ارتيابى حتى ... تتقراهموا يداى بلمس(١)

رسم ، ولكن فيه سحر الفن الجميل ، يخر الرائى منه مغشيا عليه من هول الموقف ، كسرى يحاصر أنطاكية فى حلة شنها الفرس على الروم ، وقد خيم على المدينة الموت . وأنو شروان فى حلة القتال ، تحت اللواء ، يحث الجنود على النصر وهم يستجيبون له فى صمت ، وثبات الأبطال ، قد استخدموا لغة البرق والإشارة ، فهم بين رام برمح ، أو متق من السنان بترس ، فأطبق على ميدان العراك صمت رهيب فى حركة وقتال وضرب ، كل يتحرك ويتق ، ويحذر ويضرب ، وهم جميعا يتكلمون بأيديهم ، ويتفاهمون بأعينهم ، ويتراسلون بأعضائهم ، مما يحمل العين أن تجزم بحيوتهم وحركاتهم لولا الصراع النفسى المشحون بالشك والارتياب ، الذى نتج من الموازنة بين الرسم المنقوش والصور الحية فيه ؛ لذلك أراد الشاعر أن يقطع الشك باليقين لتنطق الحواس بالحقيقة ، ويفيض الواقع عن اللوحة ، وتعرف سحر الخيال الذى أنطق هذا الجماد ، وحركة فى صورة فنية رائعة ، يخيل إلى أنها ما تركت من معالم التصوير وقوامه إلا نطقت به وافيا ، لذا جعل النقاد هذه القصيدة أروع ماقيل فى هذا الباب .

(١) ديوان البحترى : ج ٢ ص ١١٥٦ ، ١١٥٧ .

صورة إنسانية ، تصور الحروب فى كل دولة وأمة ، لا يضر فيها ذكر الفرس والروم فهما يمثلان الطرفين فى ميدان القتال ولكن كلا منهما نموذج صادق للجيش الغالب ، والجيش المغلوب .

ثالثا : وتلك مرثية لشاعر أندلسى مجهول يحذو فيها حذو شاعرنا ، وينتقل فيها من معنى إلى معنى ، ومن صورة إلى صورة كأنه قد وضعها بين عينيه حينما أنشد أندلسيته الرائعة ، ولست فى مقام الموازنة الكلية ، بين مراثى الحضارات كما قلت ولكننى أعرض صورا منها لبيان روعة التصوير ومدى التأثر فيه ، فى هذا الفن الإنسانى المجيد يقول الشاعر فى تصوير معركة « رندة » بين العرب والفرنجة .

سأبكى وما يجدى على الفائت البكا — بعبرة ليس يرق عبورها
شآبيب دمع بالدماء مشوبة — يساجل قطر الغاديات درورها
عويلا يوافى المشرقين بريحه — ونكلا بأقمار وقد أطفىء نورها
وكم من فتى ثبت الجنان مهذب — يود المنايا وهو كان يديرها
[illegible] — فيرهبه شبل الشرى وهصورها
فى سبيل الله [illegible] — تزان لها عين الجنان وحورها
وكم أنفس كانت [illegible] — فأضحى لعمر الله وهو أسيرها
[illegible] — [illegible] سفورها
[illegible] — [illegible] وغيورها
وقد حيل ما بين الشقيق وبينها [illegible] — [illegible] وعشيرها
وكم من عجوز يحرم الماء ظمؤها — على الذل يطوى ابنها ومسيرها
وكم فيهم من مهجة ذات ضجة [illegible] — [illegible] (١)

وكم من صغير حيز من حجر أمه   فأكبادها حراء لفح هجيرها
كروب وأحزان يلين لها الصفا   عواقبها محذورة وشرورها
فياليت أمى لم تلدنى وليتنى   بليت ولم يلفح فؤادى حرورها(١)

هذه الصورة ينقل إليها الشاعر ألوان البشع والغدر والقسوة ، التى صبت ويلاته الفرنجة على العرب فى « رندة » بلا رحمة ولا شفقة . مما يقطع نياط القلوب ، ويفتت الأكباد وتسح منه العيون سحا لا يهدأ ، فقد اختلطت دماؤهم بأعذب المياه وأصفاها وتردد صدى العويل فى جنبات المشرقين ، وثكلت الحسان فانطفأت أنوارها ، وثبت الجنان من الفتيان يستشهد الواحد بعد الآخر للدفاع عن الحسان ، ويصول هنا ويجول هناك كالأسد الهصور ، وعلى الرغم من تحذير القادة له ، فإنه يخر صريعا فى جنان عدن أعدت للشهداء عند ربهم لم يمسسهم سوء ، ليستقبل الحور العين بدلا من الحسان ، وقد استشهد دونهن ، وكم حاز هذا الفتى من أسير لديهم ؟ ولكنه أصبح أسيرا عندهم وكم طفلة حسناء غضة القد ، وهى فى أبهى زينتها وقعت فيهم أسيرة وقد أحال العدو بينها وبين شقيقها ، وتخلى عنها آباؤها وعشيرتها ، وكم عجوز حرمت من المياه زلالها حتى ماتت ؟ وكم جثة ممزقة فى العراء مكشوفة العورات تتمنى لو أهيل عليها التراب ؟ وكم من صغير اغتصبوه من حجر أمه التى تقطعت أكبادها عليه ؟ إنها أحداث مروعة يفيض عنها الكرب والحزن ، وتلين لها الجبال ، فليته لم تلده أمه ، حتى لا يرى هول الفاجعة ، فيعيش ممزقا مكروبا مشدوه العقل والجنان .

والصورة حقاً تسترعى الإنتباه لا لروعتها الفنية فقط ولا للبراعة التصويرية فحسب ، ولكن للبركان الثائر ، التى توحى به مادة التصوير للمعنى الذى يكشف عنه الشاعر فى وضوح؛ وأما الأسلوب والنظم فيها يكتفى الشاعر فيه أن يبين الحالة فقط من غير إيحاء ، ولا تنسيق

(١) مجلة الرسالة ص ٢٢ السنة الرابعة ، وقصة الأدب فى الأندلس : د . محمد عبد المنعم خفاجى .

بين الألفاظ ، ومن غير اهتمام بانسجام الصورة ، ولا الملاءمة بين أنواعها ، ومن غير وحدة فنية بين أجزائها ، هذا كله يؤكد أن الشاعر كان فاتر الشعور ، خامل العاطفة ، فليس هو عندى هنا فى صورته هذه إلا وصاف ماهر فى التقليد ، وخير ما يمدح فيه ، هى القدرة الفائقة لمشاعره القوية فى التقليد ، حتى يخيل للقارىء أن هذه الصورة من أروع الصور ، وليس الأمر كذلك فلو فطن إلى ما ذكرته ، لعلم أن التقليد هو روحها ، التى أذهبت بروعتها ، وعجبا فقد تكون الروح أحيانا حياة ، وقد تكون حينا فتورا وخمولا.

وسأضع إشارات سريعة لتأييد ما أقول ، فالعاطفة فى الصورة جزع ، ولون الشعور فيها حزن وألم ، ولابد من مراعاة ذلك فى الصورة ، حتى تتحقق فيها الوحدة الفنية والتلاؤم بين الأجزاء ، وقد مزق الشاعر هذا الوشاح الفنى البديع ، فى مواضع مختلفة ، بما لا يتناسب مع المقام مثل : « قطر الغانيات — درورها — أقمار — نورها — طفلة حسناء — أسفرت — تميل كغصن البان — مالت به الصبا — وقد زانها ديباجها وحريرها » . إنه غزل وتشبيب ورب العزة ، ولا مدخل لها فى مرثيته ، ثم ما محل « الصفا » هنا ، ألم يكن فى الأندلس جبلا أسود ؟ وإذا لم يكن هذا ، فلا يوجد ضباب وقتام للمطر يعمم جبالها البيضاء بالعمم السوداء ، نعم كان يوجد هناك المطر والغيم والسحب القاتمة ، والزرع ودكنة الأشجار والنبات ، ولكن الأندلسى مفتون بالجمال ، حتى فى مقام الرثاء ، ولو لدولة انهارت وقضت نحبها إلى الأبد .

رابعاً : وشوقى أمير الشعراء يعجب بقصيدة البحترى فيعارضها بمثلها فى الأندلس ، ويصور خروج العرب منها فى معركة هازلة ، حيث باعها أهلها بثمن بخس يقول :

آخر العهد بالجزيرة كانت	بعد عرك من الزمان وضرس
فتراها تقول راية جيش	باد بالأمس بين أسر وحبس
ومفاتيحها مقـاليد ملك	باعها الوارث المضيع ببخس
خرج القوم فى كتائب صم	عن حفاظ كموكب الدفن خرس

ركبوا بالبحار نعشا وكانت تحت آبائهم هى العرس أمس
رب بان لهـــادم وجموع لمشت ومحسن لمخـــس
امرة الناس همه لا تتأتى لجبان ولا تسنى لجبس
إذا ما أصاب بنيان قوم وهى خلق فأنه وهى أس[1]

هذه الصورة تصور حال الأمة الضعيفة المنهارة ، بسبب حكامها وضعفهم ، وتفلت الزمام من أيديهم ، حتى وقعوا فى أيدى العدو ، ما بين مأسور ومحبوس ومقتول ورجعوا فى صمت وسكون ، ولكنه ليس كصمت الجند فى صورة انطاكية ، أنه صمت من يودع حضارة ذاهبة فى وجوم ، أو من يودع ميتا عزيزا لا رجعة له بعد ذلك .

صورة قوية متماسكة ، غنية بعناصرها إلا أنها خالية من الشعور الفياض ، والانفعال الثائر ، لذا بدا بعض التصنع فيها ، وقهر بعض الألفاظ . على اتخاذ مكان لها فى الصورة ، وذلك مما يقلل من شأنها ، ويضعف من وزنها بين الصور السابقة ، مثل التكرار فى قوله: « أمر وجبس » وكلمة « بخس » بعد قوله « باعها الوارث المضيع » فكلاهما سواء يغنى أحدهما عن الآخر ، وكذلك لا داعى لكلمة « حفاظ » بعد « صم » فإنها أشد إعمالا فى الصنعة ، ثم ما نحسه فيها من هلهلة بعض العبارات مثل « فتراها تقول : راية جيش » وقوله : ومفاتيحها مقاليد ملك ، وقوله : « وهى خلق فانه وهى أس » .

خامسا : وأما مرثية العقاد للحضارة الفرعونية فهى « تمثال رمسيس » يصور بطولته وأمبراطوريته الواسعة ، التى أرسى دعائمها بجحافله الجرارة فيقول :

لك فى الشام جحافل جرارة وعلى الفرات كتائب شهواء
وعلى متون اليم طود سابح يرسو بأمر الملك حيث تشاء
توليك « بابل » ماتروم « ونينوى » ويمدك الأنصار والأعداء
فخر الملوك رجاء عفوك عنهم ورضاك أكبر ما ابتغى الأمراء

(١) الشوقيات : أحمد شوقى ج ٢ ص ٥٠ — م الاستقامة القاهرة

والنيل يجرى حيث سار عليه من أجناد مصرك عصبة زهراء[1]

يخلد العقاد الحضارات القديمة ويرثيها ، مقلدا فى ذلك من سبقه من الشعراء ، فالقصيدة كاملة تصور لنا حضارة الفراعنة ، واتساع أمبراطورية رمسيس ملك الملوك ، وفرعون الفراعنة ، وها هى صورة جزئية منها يسجل العقاد فيها بطولة هذا الامبراطور ، الذى تقدم بجيوشه الجرارة ، فاستولى على العراق والشام ، وهابه الأنصار والأعداء ، وهم يرجون عفوه ، ويبتغون رضاه ، رهبة منه وخوفا لأن أمره نافذ ، وحكمه واقع ، وغيره لاحول له ولا قوة ، حتى أن النيل يفيض خوفا منه ، ورهبة من جنده .

صورة غنية بالظلال ، مائجة بالحياة ، متلائمة الاجزاء ، موفورة الأركان ، حافلة بالمشاعر والأحاسيس ، ولكنها لاتقوى ، أن تصل إلى مواقع صورة ابن الرومى وأبى عبادة البحترى[2] .

(٣)

وبعد فقد بقى لنا فى هذا الفصل ، أن نشير إشارة عابرة إلى بعض الصور التى تفرد بها ابن الرومى من بين الشعراء ، وابتكرها فى فن التصوير بحيث هو أول من قالها ، تاركين القول فى تفصيلها وتحليلها وبيان الروعة فيها لمكانها من الدراسة الفنية إن شاء الله[3] .

وقد تقدم بعضها : منها صورة الخباز والرقاق والكتان ، وصورة قالى الزلابية والطفل ساعة ولادته ، وصورة الأخدع أن صحت له ، وهذا ما أراه . لان روحه الساخرة ولمساته الفنية تظهر واضحة فيها

قصرت أخادعه وطال قذاله فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مسرة وأحس ثانية لها فتجمعا

---

(١) ديوان العقاد ص ١٩٦

(٢) صورة المازنى حضارة بابل فى قصيدته «بابل من نجد» ج ١ ص ١٠٣ الديوان .

(٣) الصورة الأدبية فى شعر ابن الرومى : للمؤلف

وقوله فى رثاء ابنه الأوسط :

وأولادنا مثل الجوارح أيها فقدناه كان الفاجع البين الفقد
هل العين بعد السمع تكفى مكانه أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى

وصورة الموز :

الموز أحسان بلا ذنوب ليس بمعدود ولا محسوب
يكاد من موقعه المحبوب يدفعه البلغ إلى القلوب

وصورته التى يصف بها نفسه :

من كان يبكى الشباب من جزع فلست أبكى عليه من جزع
لأن وجهى بقبح صورته مازال بى كالمشيب والصلع
إذا أخذت المرآة سلفنى وجهى وما مت هول مطلعى
شغفت بالخرد الحسان وما يصلح وجهى إلا لذى ورع
كى يعبد الله فى الفلاة ولا يشهد فيه مساجد الجمع

بسم الله الرحمن الرحيم

خاتمـــة

حمداً لله كثيراً ، وصلاة وسلاماً على خاتم المرسلين : وبعد

فهذه نهاية البحث والدراسة عن « عبقرية ابن الرومى شاعر العصر العباسى » فهو من ألمع شعراء العصر العباسى ، على الرغم من أن شعراءه نهلوا جميعاً من بحر الحضارة الإسلامية ، ومن أدقهم شاعرية فى التصوير الأدبى لأنه تجمعت فى وجدانه الشعرى روافد سمت به وحده بدراً فى سماء فنه ، وتدفقت فى مشاعره ينابيع ثره ، صقلت عبقريته الشعرية ، فتجاوبت أصداؤها بالاقاويل فى تفسيرها ، فانحنى الطريق بالباحثين لحسن ظنهم إنصافاً للشاعر وكادت هذه الدراسة تشرف على نهاية الطريق فى جلاء العبقرية .

وهذا الكتاب حلقة من سلسلة الدراسات الادبية والنقدية حول الشاعر ، وتليه دراسات حول : « البناء الفنى للصوره الادبية عند ابن الرومى » وكذلك « الصوره الادبية فى النقد العربى القديم والحديث » وأسأل الله المزيد من السداد والتوفيق ، وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

على على صبح

تصويب الخطأ

ورد بعض الاخطاء التى لايخلو منها الطبع وهى متروكة لذكاء القارىء وهذا ثبت بأهمها :

الصفحة	السطر	الكلمة	صحتها
٤	١	يومانيته	يونانيته
٣٥	١٩	طالما	طالما
٣٧	٦	القلىره	القدرة
٥١	٩	الاختلاف	الاختلال
١١٥	٣	يخذو	يحذر
١١٥	٨	يضيها	يقضيها
١٤٤	٢٥	يعنى به الخ	يعنى به الشاعر ابن الرومى أخاه
١٢٨	٢٠	انطوانه	انطواؤه
٢٥٨	١٨	بسيوفهن	بسيوفهم
٢٦٠	٢١	والمؤانة	والانس
٢٧٢	٥	كلا	كل
٢٧٢	١٣	القصر بالاستثناء	النائب عن المصدر
٢٧٥	١٢	سولة	سدوله
٢٨٢	١	نؤدى	نؤى
٣٠٦	٢٢	+	ديوان على شوقى تحقيق محمود عماد تحت رقم ١٨٢٩- م د. عبدالعزيز السيد
٣٥٥	٢٠	وجها	وجوها

ثبت بموضوعات الكتاب

الموضـــوع | الصفحة

الفصل الثالث

ابن الرومى من خلال الصورة الادبية

الموضـــوع	الصفحة

الفصل الرابع

مكانة الصورة الادبية عند ابن الرومى بين التاثير والتاثر

تم بحمد الله

رقم الايداع بدار الكتب ٢٨٤٠/١٩٧٥

مطبعة الأمانة ٣ جزيرة بدران — القاهرة

